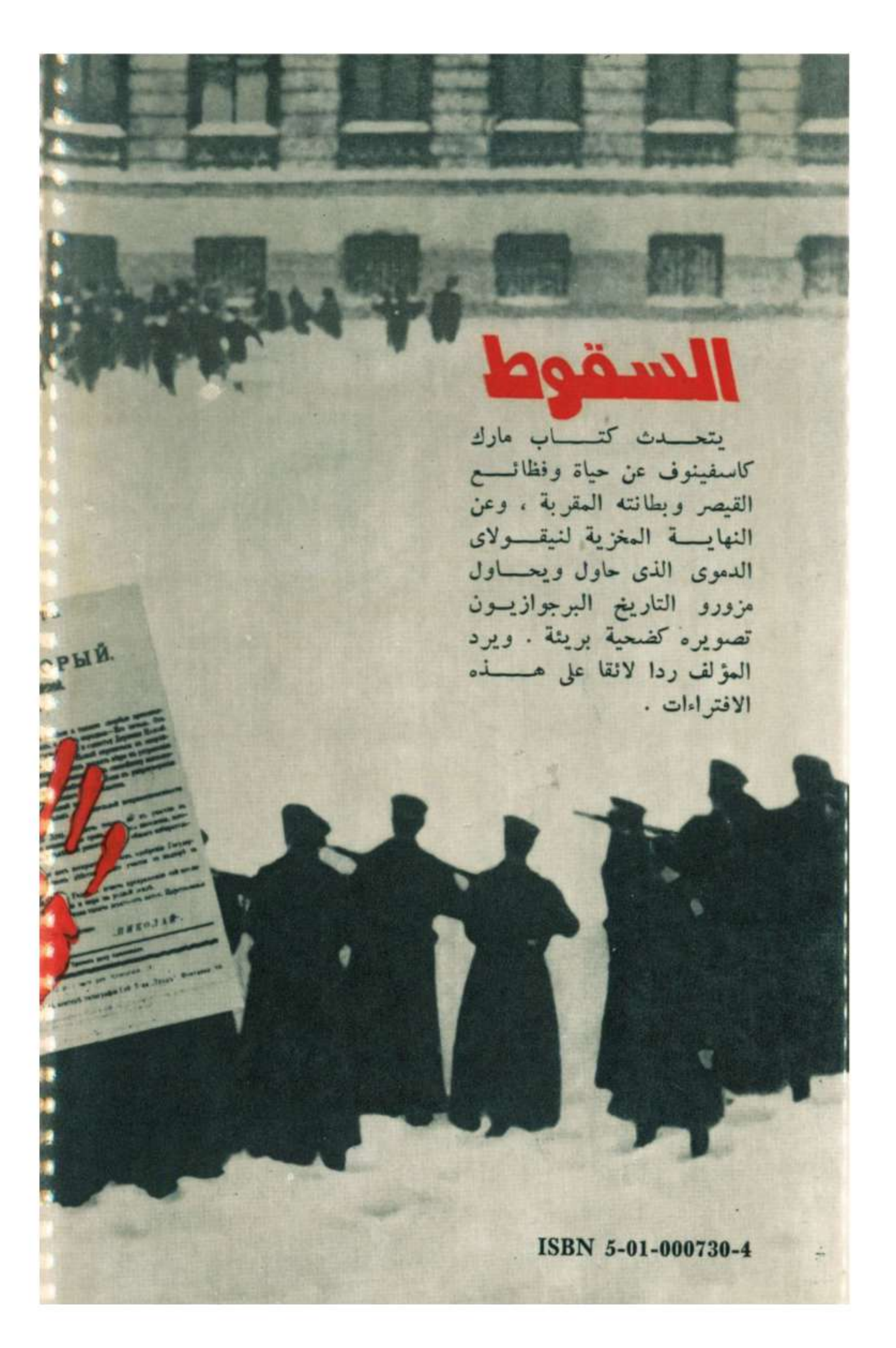
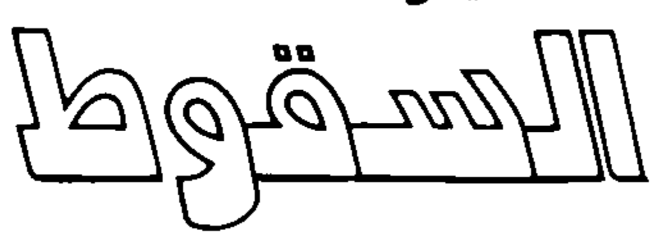

السقوط


السقوط
يتحدث كتاب مارك
كاسفينوف عن حياة وفظائع
القيصر وبطانته المقربة ، وعن
النهاية المخزية لنيقولاى
الدموى الذى حاول ويحاول
مزورو التاريخ البرجوازيون
تصويره كضحية بريئة . ويرد
المؤلف ردا لائقا على هذه
الافتراءات .
ISBN 5-01-000730-4


mohamed khatab

كاسفينوف



السقوط

السنوات الاخيرة للحكم القيصرى فى روسيا

دار التقدم

موسكو

М. Касвинов

ДВАДЦАТЬ ТРИ СТУПЕНИ ВНИЗ

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

К $\frac{0505000000-444}{014(01)-88}226-88$

ISBN 5-01-000730-4

مقدمة

بوفاة القيصر نيقولاى الثانى حلت نهاية اسرة رومانوف التى لم يقدم احد من ابنائها شيئا للتاريخ ، باستثناء بطرس الاكبر . وقد اجمع المعاصرون ومن ثم المؤرخون على أنه لا يمكن وبأى حال من الاحوال ادراج نيقولاى الثانى فى سجل العظماء . ورغما عن ذلك فقد كتب عنه الكثير .

ظهرت الموجة الاولى من المؤلفات والكتيبات والمقالات فى عامى ١٩١٧–١٩١٨ باقلام ممثلى الانتلجينسيا الليبراليين اساسا . وكانت كل تلك الادبيات التى تستند الى وقائع محددة تتسم بطابع الكشف عن الخبايا ، اذ تتضمن عددا كبيرا من الامثلة على نفاق وغدر وقسوة وخشونة الامبراطور ، وتخاذله وعدم ثباته على الرأى وضحالة تعلمه وانخفاض مستوى ثقافته وسذاجته فى تسيير أمور الدولة .

وفى عشرينات هذا القرن ظهرت اعمال اكثر جدية مكرسة لتحليل ابعاد شخصية نيقولاى الثانى وحاشيته . وجرى نشر العديد من المواد الوثائقية مثل مراسلات القيصر وقرينته فى خمسة مجلدات ، ومذكرات ويوميات معاصريه . غير ان جذوة الاهتمام بشخصية نيقولاى الثانى خبت فيما بعد .

وقد اثارت اهتماما فائقا لدى طائفة واسعة من القراء رواية مارك كاسفينوف التى نشرها منذ عدة اعوام على صفحات مجلة «زفيزدا» («النجمة») تحت عنوان «السقوط» التى قال الكاتب عنها انها «رواية عن اعمال ونهاية آل رومانوف – آخر قياصرة روسيا وخدمهم» .

وللاسف الشديد رحل مارك كاسفينوف عن عالمنا قبل استكمال اعداد هذا الكتاب للنشر ، ولذا فان بعض فصوله لم ينجز بما ينبغى من الكمال والعمق .

ينبغى قبل كل شىء التنويه بان القيصر نيقولاى كان اكبر

الملاك فى روسيا . فقد كان يملك اقطاعيات شاسعة بلغت مساحتها فى سيبيريا وحدها ٦٧,٨ مليون هكتار وكان يستخرج فيها الذهب والفضة والرصاص والنحاس ، وتستثمر الغابات التى كان يؤجر الجزء الاعظم منها . وكانت توجد وزارة خاصة تتولى ادارة املاك القيصر سميت بوزارة بلاط الامبراطور .

ولبساطته ، بل ربما لكونه محدود الاهتمامات ضحل الثقافة ، ترسخت فى وعيه فكرة مفادها انه الآمر الاوحد ، والسلطان المطلق لهذه الدولة ، لا يعلو رأى على رأيه ، وتتوقف كل الحجج والبراهين على مدى رغبته او عدم رغبته .

كان يبدو بسلوكه ومظهره وكأنه فى حفلة تنكرية . وهذا صحيح فكثيرا ما كان يرتدى قميصا عسكريا بسيطا فى حين كان يملك بلاطا فاخرا لا نظير له فى اوروبا . وتقول الارقام الرسمية التى جرى نشرها فى عام ١٩١٢ ان بلاطه كان يضم حتى اول يونيو ١٢٢٠ شخصا من الجنسين . كان مئات المتطفلين من ذوى الالقاب يحيطون به كل يوم ليخلقوا له الجو المطلوب . وكانوا يحصلون على مرتبات ضخمة دون ان يقدموا شيئا للدولة ، بل لمجرد انهم يبدون فروض الولاء والطاعة للاسرة المالكة ويسبحون بحمدها .

كان الدور الاول فى البلاط يعود للامراء الكبار والاميرات الكبيرات فى اسرة القيصر . وكان العرف السائد يقضى بان يحمل لقب الامراء الكبار اشقاء وشقيقات الامبراطور الحاكم (او الذى كان فى الحكم) ، واولاده ، واحفاده من جهة الابناء . وكانوا كلهم يحيكون دائما المكائد والدسائس لبعضهم البعض . ولكن ما ان كان الخطر يهدد امتيازاتهم او سلطاتهم او املاكهم حتى يتحدوا لمواجهة هذا الخطر .

كانوا جميعا بالنسبة لنيقولاى الثانى «اهله» الذين يمكنه ان يحل بينهم القضايا العائلية البالغة الخصوصية . وكان لا يكن الود للبعض بل ويخشى البعض ، ومع ذلك كان حين ينشب اى نزاع بين اجهزة الدولة واى منهم يقف مدافعا عن اقاربه . كان يتغاضى عن كل خروقاتهم للقانون ونزواتهم ، ويضمن لهم وظائف مربحة .

كانت خزينة الدولة معينا لا ينضب بالنسبة لكل افراد اسرة رومانوف . كانوا يتلقون «هبات» من الدولة مع انهم كانوا جميعا

يملكون ضياعهم الخاصة الضخمة . فقد كان لكل من ابناء الامبراطور الحاكم على سبيل المثال مخصصات قدرها ١٥٠ الف روبل سنويا ، ومليون روبل تدفع مرة واحدة لترتيب محل الاقامة ، اما بعد الزواج فيتلقى مائتى الف روبل سنويا ، و٣٥ الف روبل كمصاريف للقصر .

غير ان كل ذلك بدا قليلا بالنسبة للامراء الكبار . فقد كانوا جميعا يستلمون رواتب ايضا بوصفهـــم عسكريين ، الى جانب الرواتب عن المناصب التى كانوا يتقلدونها . وفى عام ١٩٠٥ نشر أولار الكاتب الصحفى السويـدى بعض المعطيات حول دخل الامير الكبير فلاديمير الكسندروفيتش بن الكسندر الثانى وعـم نيقولاى الثانى . فقد كان يحصل على مليون ونصف مليون روبل سنويـــا كريع لاراضيه وغاباته ومناجمه وعقاراتـــه الاخرى ، الى جانب مليونين ونصف مليون روبل من خزينة الدولة ، و٢٤ الف روبل بصفته جنرالا ، و٥٠ الف روبل كقائـــــد لمنطقـــة بطرسبورج العسكرية ، و٤٠ الف روبل كعضو فى مجلس الدولة ، و٢٥ الف روبل بصفته عضوا فى لجنـــــة الوزراء ، و٣٠ الف روبل كرئيس لاكاديمية الفنون . هذا عدا مبالغ طائلة كان يحصل عليهـــا لقـــاء عضويته فى عدد من لجان الدولة الاخرى .

غير ان هذه الدخول الضخمة لم تكن لتشبع جشع الامراء الكبار الذين لم يتورعوا عن المضاربة والغش بل وحتى عن الاختلاسات المباشرة . ولقد «اثرى» الكسندر ميخائيلوفيتش فى مغامرة باحد الامتيازات فى منشوريا ، ومن جراء اختلاس الكثير من مخصصـــــات بناء السفن الحربية ، وجنى فى سنوات الحرب العالمية الاولى ارباحا طائلة من تجارة الخمور . اما دميترى ميخائيلوفيتش فقد كان يملك مزرعة لتربية الخيول وكان يبيع الاحصنـــــة لفوج الحرس الذى يترأسه . وحقق ميخائيل نيقولايفيتش ثراء من مضاربته بالاراضى الزراعية بالقوقاس وبيع المياه المعدنية من ضيعته بورجومى . اما الكسى ميخائيلوفيتش قائد الاسطول فقد «اشتهر» بارقامه القياسية فى الاختلاسات . ففى عهده اتسمت اختلاسات اموال الدولة بطابع لم يسبق له نظير ، حيث قُدرت قيمتها بالملايين . بل ولم يتورع حتى عن نهب اموال الصليب الاحمر المخصصة للجرحى من الجنود . كتب احد معاصريه : «اتسعت جيوب الكسى الشريف لعدة مدرعات ولمليونى روبل من ميزانية الصليب الاحمر . لقد اهدى عشيقته

راقصة الباليه صليبا احمر رائعا من العقيق ظهر على صدرهـــا فى اليوم نفسه الذى جرى فيه اكتشاف بقاء مبلغ للصليب الاحمر فى عهدته بقيمة مليونى روبل» .

كان كل شيء مسموحا به لافراد اسرة رومانوف ، عدا تلــك الحالات التى كان يتطاول فيها بعضهم على أموال العائلة نفسها . ومن بينهم ، على سبيـــل المثال ، نيقولاى قسطنطينوفيتش الذى سرق بعض مجوهرات أمه لاهدائها الى عشيقته المغنية . وقد ذاع سر هذه الفضيحة ، مما أدى الى تجريد المتهم من كل مناصبه ونفيه الى طشقند .

وجدير بالاشارة ذلك «الاساس» الطبقى للقيصرية : علاقتهــا المتبادلة بالجيش – عماد الاسرة الحاكمة الرئيسى ، وبالكنيســـة الارثوذكسية – عمادها الروحى ، وكذلـــك بالبوليس وبقســـم المباحث . وكانت كلها تكفل استقرار النظام القيصرى .

ولم يكن الجيش بالنسبة لعائلة رومانوف مجرد وسيلة للدفاع عن الدولة ، بل كان بالدرجة الاولى وسيلة لضمان امنها الذاتى والدعامـــة الفعليـــة الوحيدة للعرش . وكان كل من جنود جيش الامبراطورية الروسية يعلن عند ادائه القسم العسكرى التزامه بان يقوم باخلاص دون ان يضن بحياته بخدمة جلالة الامبراطور . وكان الامبراطور يرى فى ذلك الهدف الاساسى للخدمة العسكرية .

وابان حكم نيقولاى الثانى شارك الجيش فى حربين . ولكن كانت هناك حرب ثالثة دموية غير معلنة ، وهى حربه ضد شعبه . فقد جرى استخدام الوحدات العسكرية فى خلال سنوات الثورة الاولى فى روسيا (١٩٠٥–١٩٠٧) لقمـع الحركات الشعبيـــة فى كــل اراضى الامبراطورية الروسية . استخدمت افواج الجيش ، وفق نص وروح القسم ، المدافع والرشاشات عندما اقتحمت متاريس حى بريسنيا فى موسكو وثكنات البحارة والجنود الثائرين فى كرونشتادت واحيــاء العمال فى سورموفو فى ضواحى نيجنى نوفغورود . وكانــت مئات القوزاق تهاجم عمال النسيج فى ايفانوفو وعمال السكك الحديد فى تشيتا ، وتستولى على مساكـن الفلاحين فى لاتفيـا واستونيــــا وجورجيا . فيما كانت السفن الحربية تقصف طوابى سفيابورج التى رفعت راية الانتفاضة . . .

وكانت توجد تحت رعاية القيصر الخاصة وحدات الحرس التى ضمت اجمل المجندين واطولهم قامة . غير ان اساس اختيارهم كان ولاؤهم السياسى الذى تؤكده قيادة البوليس المحلية . وكان ضباط الحرس صفوة ضباط القوات المسلحة ، حيث كانوا جميعهم تقريبا من عائلات الاعيان الموالين للقيصر حتى العظم . وكان القيصر نيقولاى يعرف كل هؤلاء الضباط تقريبا باسمائهم ويؤكد لهم بكل السبل مودته واعتزازه .

وهذه السياسة مفهومة تماما ، اذا اخذ فى الاعتبار ان قوات الحرس لم تكن ، منذ عهد بطرس الاول الذى انشأها ، تساهم الا نادرا فى المعارك ضد الاعداء الخارجيين ، فى حين كانت تشارك تماما فى الصراع ضد «الاعداء الداخليين» ، وتقوم مرارا بالاعمال التأديبية . وعموما كانت أسرة رومانوف تنظر اليها كقوات خاصة ، بل واكثر القوات ولاء لها . ولذا فقد كان تزويد قوات الحرس افضل بكثير من تزويد القوات المسلحة العادية ، وكان نيقولاى الثانى لا يفوت فرصة زيارتها فى الاعياد ؛ بل وبنت قرينته كنيسة لقوات فوج اولانسكى القيصرى الذى كانت تتولى رعايته وقامت بنفسها بتوشية حبريات رجال الدين بالذهب .

وكانت قوات الحرس الخاص لجلالة الامبراطور اكثر وحدات الحرس ولاء ووفاء . وكانت هذه القوات تضم أربعمائة من قوزاق الحرس القيصرى ، وسرية جرينادير القصر وفوج مشاة مركبًا من ممثلى مختلف وحدات الحرس والجيش والاسطول . وكان هذا الفوج يحظى اكثر من غيره باهتمام وحب القيصر . وكان القيصر يشارك جنوده اثناء تدريباتهم على الرماية ويبادلهم قبلات التهنئة بعيد الفصح ، ويقيم لهم احتفال عيد الميلاد ، ويتذوق اطعمتهم . قصارى القول ، كان يحاول بشتى الطرق الاحتفاء بهم ، والظهور امامهم بمظهر المحسن ، وبمظهر «رجل منهم وفيهم» ، وهو ما نجح فيه الى حد ما .

وقبيل الحرب العالمية الاولى كان تحت تصرف القيصر نيقولاى الثانى الى جانب قوات الحرس الخاص ثلاث فرق مشاة وفرقتا خيالة وهى اساس فيلق الحرس (الذى كان يضم علاوة على ذلك اربع وحدات مدفعية من المشاة والخيالة وبعض الوحدات الخاصة) . وقد وجّه كثير من المقربين الى القيصر فيما بعد اللوم اليه نظرا

لانه استخدم قوات الحرس فى الجبهة ابان معارك خريـــف عام ١٩١٦ ، حيث انهكت قواها لدرجة انها لم تعد قوة عسكرية ذات وزن . بل واعتبر هؤلاء ان ضعف وحدات الحرس بالذات هو مــا ساعد على انتصار ثورة فبراير البرجوازية الديموقراطية عـــام ١٩١٧ . ولكن تجدر الاشارة بهذه المناسبة الى ان وحدات الحرس الباقية لم تقف الى جانب القيصر ابان الثورة ، اما جنود كتائبهـا الاحتياطية الموجودة فى بيتروجراد فقد كانوا اول من انضـم الى الشعب الثائر ، حتى قوات الحرس الخاص بالقيصر تخلت عنه .

واذ اعتمدت اسرة رومانوف على حراب وحدات الجيش بوصفها عماد العرش ، توسعت من عام لآخـر فى بناء جهاز البوليس الذى اتخذ ابعادا رهيبة فى عهد آخر ممثل هذه الاسرة .

قال لينين فى حديثه عن حكم آل رومانوف : «. . . القيصرية المستبدة هى استبداد البوليس» ، كما اطلق على القيصر لقــب «صاحب الجلالة البوليسية» . وبالفعل كان نيقولاى رومانـوف فى الواقع اول رجل بوليس ودركى . فقد حرص بصرامة على ان يكــون المحافظون العسكريون ومديرو دائرة البوليس ، وقواد فيلـــق الجندرمة (الدرك) ووزراء الداخلية من الموالين له ومن اليمينيين المتطرفين . وفى عهده تولى هذه المناصب عدد كبيـر مــن عتاة الرجعيين الذين ينفذون ارادة القيصر بشكل اعمى فيما يخص اعدام «العصاة» شنقا او رميا بالرصاص او معاقبة «شعبه» . وكان هؤلاء يتبارون فيما بينهم فى القيام بالاستفزازات المتفننة والجرائــم الوحشية ازاء خصوم القيصرية . وكان البوليس من حيث الجوهر جيشا اضافيا ، اذ كان كل من رجاله مسلحا بمسدس وسيــف ، فيما كانت اقسامه تغص بتلال البنادق ، بل وبالرشاشات فى آخر ايام القيصرية . وكانت وحدات البوليس من المشاة والخيالة وكذلك وحدات القوزاق والجيش تستخدم لقمــع «الاضطرابـــات» فى الشوارع . وللغرض نفسه كان يجرى استخدام فرق الجندرمة من الخيالة الموجودة فى المدن الكبرى . غير أن المهمة الرئيسيـــة للجندرمة كانت تتلخص فى التجسس السياسى والكشف عن «اعداء القيصر والوطن» والقضاء على ما يمكن ان ينجم عنهم من اخطار . والى جانب ذلك كان على الجندرمة الاشراف على المعتقلات والسجون ، وحراسة الحدود وتأمين النظام على خطوط سكك الحديد .

وشغل مكانة خاصة فى اطار نظام البوليس قسم المباحث («اوخرانكا» بالروسية) الذى جرى تشكيله فى بطرسبورج بعد اغتيال القيصر الكسندر الثانى . وكان مخصصا لضمان الامن (ولا سيما لاعضاء الاسرة الحاكمة ، وكل النظام القيصرى عموما) . وفى عهد نيقولاى الثانى وجدت اقسام المباحث فى الكثير من المدن الكبرى . وكانت تشكل اساسا من افراد فيلق الجندرمة المستقل . وقد ارتبط بهذا القسم التطور العاصف للاستفزازات التى كادت تغدو الوسيلة الوحيدة لصد كل حركات «التمرد والعصيان» والنشاط الثورى . وفى عام ١٩١٤ بلغت نفقات وزارة الداخلية على العملاء السريين ستمائة الف روبل .

ولم تكن اقسام المباحث فى المدن الكبرى تخضع عمليا للسلطات المحلية ، بل كانت تابعة لدائرة البوليس فقط . غير ان قسم بطرسبورج كانت له وضعيته الخاصة ، اذ كان من حق رئيسه عرض تقاريره على وزير الداخلية . وكان الوضع الخاص لقسم المباحث فى بطرسبورج يعود الى أنه كان يتولى حراسة اسرة رومانوف الكبيرة العدد . وكان هذا القسم يتولى بناء على اوامر شخصية من القيصر القيام بمهام «حساسة» مثل التجسس على الامراء الكبار والوزراء وعلية موظفى الامبراطورية ، اذ لم يكن آخر القياصرة يركن الى المقربين اليه كثيرا .

وفى عهد نيقولاى الثانى كان يوجد فى روسيا جهاز آخر للمباحث ، وخلافا لامثاله لم يكن يتبع حتى وزير الداخلية . وكان هذا الجهاز يكفل امن البلاط والاسرة المالكة . وكانت نواته من ثلاثمائة من العملاء الذين يتولون مهام الحراسة تحت اشراف عقيد الجندرمة سبيريدوفيتش (وكان هؤلاء يكلفون الدولة مبالغ طائلة تربو على نصف مليون روبل سنويا) . وعلاوة على ذلك كان يوجد ثلاثمائة من الحراس الآخرين التابعين لقومندان القصر فويكوف ، أما رئيس بوليس القصر جيراردى فكان يشرف على مجموعة أخرى كبيرة العدد .

وقد كان آخر القياصرة غاية فى الحزم والدقة حين يتعلق الامر بأمن عائلته . وليس ثمة ما يثير الدهشة فى انه زاد حرس القصر فى تسارسكويه سيلو زيادة كبيرة . فقد كان تحت تصرف الحرس الفوج المركب لدى «جلالة الامبراطور» الذى كان يتولى

الحراسة داخل القصر وخارجه ، وكذلك كان يقوم مرتين كل يوم بتمشيط حرم الحديقة . وكان جناح القيصر بمحطة السكة الحديد وكذلك الخط الذى يفضي الى القصر فى حراسة فوج خاص للسكك الحديد . كما كان رجال بوليس القصر يتولون حراسة المداخل والبوابات الرئيسية للشوارع المتاخمة للحديقة ، فيما كانت تنتشر في الحديقة نقاط الحراسة التابعة لسرية الحدائق . وفي داخل القصر كان القوزاق من قوات الحرس الخاص بالقيصر يقومون بالحراسة الى جانب جنود وضباط الفوج المركب . وعموما كان يتولى الحراسة فى القصر ليل نهار احد عشر مخفرا ؛ وكانت غرفة نوم القيصر تحظى باكبر قدر من الاهتمام حيث كان يحرسها مخفران من جهة الممر وآخر عند النافذة بينما كانت غرفة الضباط المناوبين تقع اسفل غرفة نوم القيصر . وعلاوة على كل ذلك كان الحرس من مجموعة عقيد الجندرمة سبيريدوفيتش يؤدون خدمتهم حول الحديقة وداخلها .

كانت اسرة رومانوف تولى اهمية كبرى للكنيسة الارثوذكسية المدعوة لاقناع ملايين المؤمنين بفكرة المصدر الالهى لسلطة القيصر وبالتالى رسوخها .

وبطبيعة الحال كان القيصر ، وهو فى أمس الحاجة الى دعم الكنيسة الكبير ، يغدق العطاء (من الخزينة العامة بالطبع) لتمويل مطبوعات الكنيسة ويقرب اليه اعلى رجالها مكانة واشدهم نفوذا ، ويعمل على ان يتولى المخلصون له مراكزها القيادية .

وكان القيصر يعير اهتماما خاصا لرجال الدين فى الوحدات العسكرية والاسطول ، الذين بلغ عددهم فى عهده حتى خمسة آلاف من القساوسة العسكريين .

وفى صيف عام ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الاولى . وتكبدت روسيا خسائر كبرى فى هذه الحرب التى اودت بحياة الملايين من الجنود الروس والتى أشعلتها الدوائر الحاكمة فى المانيا التى كانت تعتبر نفسها فى هذا الوقت اكثر استعدادا للصدام من قوات الائتلاف (الوفاق) . وكانت هذه الحرب نتيجة للصراع الامبريالى بين الدول العظمى . ولكن لا يجوز مع ذلك تصور قيصر روسيا كلعبة فى ايدى الامبرياليين ، لا يرد لهم رغبة او امرا . فقد كان بدخوله الحرب الى جانبهم يسعى الى اغراضه الخاصة التى ثبتها بوضوح فى

المعاهدات السرية التي وقعها مع حكومات بلدان الائتلاف . وفي البيان الصادر بمناسبة اندلاع الحرب اتهم نيقولاي الثاني نسيبه ولهيلم باشعال الحرب . غير انه كان قد اقر مسبقا في المعاهدات السرية حق روسيا في مضيقي البحر الاسود ، فاصبحت بذلك احدى المشاركات الرئيسيات في التواطؤ الامبريالي على تقسيم اراضي اوروبا .

في عهد نيقولاي الثاني ازداد سجل الجرائم . ان التاسع من يناير ١٩٠٥ ، يوم جرى اطلاق الرصاص على الابرياء الذين داستهم حوافر الخيل ، يكفي وحده لادانته بوصفه قاتلا . بيد ان ذلك كان مجرد يوم واحد . . . فالقيصر ، الذي عزلته عن شعبه حراب الجيش والجندرمة والبوليس ، خاض ضد رعاياه حربا دموية ضارية . وتزايد عدد الضحايا على وجه خاص ابان الثورة الاولى في روسيا . وتشير المعطيات الرسمية الى انه جرى اعدام ١٤ الف انسان شنقا ورميا بالرصاص حتى ابريل ١٩٠٦ فقط . وفي عامي ١٩٠٧ و١٩٠٨ صدر الحكم باعدام ما يزيد عن خمسة آلاف آخرين .

وصار الارهاب ضد السكان سياسة للدولة . وفي كل يوم كان القيصر ، وهو يقلب الجرائد ، يشعر بالارتياح الى الاخبار الصادرة حول اعدام رعاياه . وبالمناسبة ، كان يصادف في حالات نادرة ، ان تخلو الجرائد من انباء هذه الاعدامات . ولا تتحدث الجرائد سوى عن احكام الاعدام الرسمية ، اما انباء التعذيب والضرب حتى الموت في السجون ومقرات البوليس بدون محاكمة او تحقيق فلم تكن تجد طريقها الى صفحات الجرائد .

ان كون سوفييت ايكاتيرينبورج حاكم نيقولاي رومانوف واصدر عليه الحكم بالاعدام هو مجرد تضافر للظروف . فقد صدر قبل ذلك بكثير حكم الشعب الذي لم يصفح ابدا وما كان بوسعه ان يصفح للقيصر ما اراقه من دماء الشعب وما ارتكبه من جرائم ، وسرقات واختلاسات اقاربه الذين كان يحميهم ، وكذلك اهماله التام لمصائر ملايين المضطهدين والمحرومين . وهذا ما قرر مصير نيقولاي الثاني في يوليو عام ١٩١٨ .

ارخيبينكو

توطئة

مزق رنين الجرس الحاد هدوء المساء الذى ساد المبنى وتهادت اصداؤه المتقطعة عبر المدخل والدهاليز تتعالى فى عتمة الاركان . واندفع البواب تيلى صوب الباب . كان الدكتور ريتسلير قد ابلغه منذ نصف ساعة بانه سيأتى شخصان وعلى تيلى الترحيب بهمـــا بمجرد قدومهما .

تعالى صوت المفتاح وصرير المزلاج . وانعكست اشعة المصباح الصغير على صفحة الشارع الذى بللت احجاره مياه الامطار . ومرت عربة من امام الدار . واقترب شخصان من المدخل بعد ان ابتعـدا عن الجدار الذى كانا يحتميان بـه معطفيهما وقبعتيهما من المياه .

فى الردهة المعتمة تناول تيلى ملابسهما المبتلة قائـلا بصوت خافت :

– تفضلوا ، ايها السادة . صاحب السيادة ينتظركـــم فى مكتبه .

جلس الاثنان فى مقعدين وثيرين بالقرب من المكتب فى غرفـة خافتة الاضاءة . اخذ ميرباخ البدين المستلقى على ظهر المقعـــد يتفحص من وراء ظلال اباجورة المكتب الزائريـــن بفضـول بارد وابتسامة ساخرة لا تكاد تلحظ . خلــــف السفيـر ريتسلير ، مستشاره الاول ، فى وقفة رزينة ممسكا بالملف تحت ابطه .

لم يبارح السفير مكتبه لاستقبالهما ، بل تصافحوا عبـــر المكتب .

السفير : يسرنى ان التقيكم مرة اخرى ايها السادة . عـــلى الرغم من ان دواعى السرور قليلة فى هذه الظروف التى نجم عنهـــا هذا اللقاء الجديد . (التزم الاثنان الصمت منكسى الرأس ، امـــا هو فاستدار نحوهما .) اليس كذلك يـا بارون نيدجاردت ؟ اليس كذلك يا بارون بودبيرج ؟ اننى استمع اليكم ايها السادة .

نيدجاردت : ايها الكونت ، لقد طلبنا هذا اللقاء لانه لم يحدث تحول الى الاحسن فى الوضع الذى ناقشناه معكم فى شهر ديسمبر . الا يبدو لكم ان الوضع قد زاد حدة ؟ . . وانه اصبح منذرا بالخطر ؟

السفير : هذا محتمل . بل لعل الاصوب انه على هذا النحو بالضبط . يبدو ان الوضع قد تفاقم منذ نقل الامبراطور من توبولسك .

نيدجاردت : ألا تكرمتم باخبارنا عما لدى السفارة من اخبار فى صدد الموضوع الذى يعنينا ؟ فمقارنة المعلومات قد تكون مفيدة .

السفير : بكل سرور فى حدود علمنا . (يوجه حديثه الى ريتسلير فينحنى المستشار بادب ويخرج ورقة بحركة سريعة من الملف ويضعها امام السفير .) تفيد اخباريات عملائنا العاملين فى المناطق الشرقية من روسيا ان عائلة القيصر قد نقلت الى الاورال على مجموعتين بعد اعتقالها ٢٦٨ يوما فى توبولسك . المجموعة الاولى مكونة من الامبراطور والامبراطورة والاميرة ماريا . . . (يقرب السفير عوينته من الورقة .) نعم ، ووصلت المجموعة الاولى الى ايكاتيرينبورج فى الساعة الثامنة من صباح ٣٠ ابريل . اما المجموعة الثانية فكانت مكونة من ولى العهد و٣ اميرات ، ووصلت الى المكان نفسه يوم ٢٣ مايو فى السادسة صباحا .

نيدجاردت : الفاصل بينهما ٣ اسابيع .

السفير : نعم . ولدى وصول كل مجموعة الى ايكاتيرينبورج نقلت دون حراسة من المحطة الى المنزل الذى صادروه من المهندس ايباتييف وسط المدينة ، حيث يقيمون جميعا الآن . وتركوا لهم بعض الخدم . وتم ابعاد الباقين بما فى ذلك جيليار وجيبس . وماذا ايضا ؟ ما زالوا يعاملون المعتقلين بلباقة .

بوديبرج : أتعتقدون ذلك ؟

السفير : هذا ليس رأيى . انها المعلومات . (وسادت فترة من الصمت .) اذا نحن امام مسألتين : المعاملة والحراسة . تفيد كل المعلومات ان الحراسة مشددة صارمة . ولكن هناك بعض التسهيلات . فقد منحوا استثناء لطبيب ولى العهد . ويستطيع الطبيب دخول الدار ليلا او نهارا . والامر اسوأ من ذلك فيما

يتعلق بالسكان . فهم يتصفون بالعداء والتوتر الشديد ويبدو ان المعتقلين يشعرون بهذا الجو ، ولذا زاد ضيقهم . وترد من الامبراطور عبر قنوات الاتصال بالدار طلبات متزايدة الالحاح للتعجيل بالافراج عنهم . . .

بوديبرج (وهو يتحرك بعصبية فى مقعده) : يجب علينا الا نخدع بهذه الآمال . . .

المستشار ريتسلير : اسمحوا لى ان اسأل من هو المقصود «بعلينا» ؟

بوديبرج : المقصود نحن واياكم . ولكن انتم بالدرجة الاولى . . . حيث انكم تتمتعون بالنفوذ والقوة . . .

نيدجاردت : ان معلوماتكم تتطابق مع معلوماتنا يا كونت . التباطؤ مستحيل . . . فالامر الذى حدا بنا الى الالتقاء بكم فى بيتروجراد ، وهنا ايضا فى موسكو ، لا يحتمل التأجيل .

السفير : أما زلتم الى الآن تمثلون منظمة الملكيين ؟

نيدجاردت : اجل ، بالطبع . فانتم تعرفون اننى اتشرف برئاسة هذه المنظمة . ونحن نجدد الآن بالنيابة عنها الطلب بالتدخل . ان صاحب الجلالة القيصر الالمانى يستطيع بل ينبغى عليه ان يمد يد الانقاذ .

السفير (يلقى نظرة طويلة متمعنة باهتة الى نيدجاردت من تحت جفنيه المنتفخين) : عزيزى البارون ، اسمحوا لى ان اذكركم بمدى الهوة العميقة التى حفرتها هذه السنوات بيننا . . . فبعد ان رضخ القيصر نيقولاى للتحريض البريطانى ، شن على امتداد عامين ونصف صراعا مسلحا لم يسبق له مثيل ضد الرايخ ، القيصر الالمانى ليس مدينا له بشىء ، وغير ملزم بتقديم اية مساعدة اليه . وعلى اية حال هذه ملاحظة عابرة . وليست لها علاقة بقضيتنا المشتركة وبجوهرها فى اللحظة الراهنة .

نيدجاردت : شكرا على هذا التحفظ .

السفير : عفوا .

نيدجاردت : يسرنى انكم لا تعتزمون الاستسلام لعواطف جانبية فى موضوع فقد اهميته . ومع ذلك . . . اسمحوا لى بملاحظة عابرة . ان الرواية التى تزعم وجود خلاف يفرق بين الاسرتين قد ظهرت بين الناس ومعدة ليتقبلها الناس . لم يتحارب منذ عام

١٩١٤ الامبراطوران بل الشعبان اللذان تحركهما ارادة كل من الامبراطورين . القيصران فوق احداث الساعة . انهما يقفان فوق سيل الاحداث العابرة حتى تلك التى على غرار الحرب العالمية . الاواصر التى تربط الامبراطور الالمانى منذ القدم بنسيبه الروسى لا تنفصم . ولذا آمل فى ان ينتشل القيصر الالمانى القيصر الروسى من ايدى الدهماء الروس ، لانه لو اختلفت الظروف لانتشل القيصر الروسى القيصر الالمانى من ايدى الدهماء الالمان . . .

بوديبرج : ومن باب اولى ان يكون الامر هكذا ، لاننا نتحدث عن مصير عائلة المانية وروسية بالقدر نفسه . فهل هناك مدعاة لان نذكركم بان هذا البلد كان غريبا بالنسبة للاميرة أليسا قبل زواجها . لقد اتت ابنة دوق جيسين الكبير الى هنا متغلبة بصعوبة على مقاومتها الداخلية . ولم توافق آنذاك الا تحت الحاح القيصر الالمانى . فهو الذى أرسلها الى هنا ، وعليه ان يعيدها الآن .

السفير (يهز رأسه شارد البال بينما تتغير نبرة صوته) : ايها السادة ، تعالوا نواجه الحقيقة دون مواربة . لقد تكررت حادثة ازلية : الويل للمهزوم ! ان القيصر المسؤول عن النتيجة غير الموفقة للحرب يطلب الرحمة الآن . وهو لا يستطيع ان يجدها فى بلاده فيلجأ الينا . لقد علمنا بسمارك فى حينه انه لا ينبغى ان نترك للمهزومين شيئا سوى أعينهم حتى يذرفوا الدمع على مصيبتهم . ولكننا لا نقول لكم ذلك ايها السادة . واعترف ان هذه المقولة لا تناسب الحالة التى نحن فى صددها . انكم على حق يا بارون بوديبرج ، انها اسرة قريبة . ولن تتخلى المانيا عنها .

نيدجاردت : لقد ضاع وقت طويل منذ ديسمبر . . . فما الذى فعلتموه ؟ وعلام يمكن ان نعول ؟

السفير : اصبح معلوما لدينا الآن ان سلطات موسكو تعتزم محاكمة الامبراطور ، ومن المحتمل محاكمة الامبراطورة ايضا . وثمة تبادل للآراء فى هذا الصدد بين المعنيين فى موسكو والاورال . ويجرى اعداد مرافعة الادعاء . وموقفنا هو : عدم السماح باجراء المحاكمة . واطلاق سراح العائلة والعودة بها الى المانيا . وانا على يقين ان البلاشفة لا يتجاسرون على رفض رغباتنا هذه .

نيدجاردت : أهى رغبات ام مطالب ؟

السفير : مطالب على الارجح .

نيدجاردت : هل تقدمونها رسميا ؟

السفير : طبعا .

بوديرج : قد تطرح بشكل حازم ، وقد تطرح بطريقة ضعيفة . . .

السفير : يمكنكم الحكم على مدى جدية طرحها من الرسالة العاجلة الاخيرة الواردة من برلين . (يلتفت الى ريتسلير مرة اخرى . ويستل المستشار ورقة من الملف نفسه يناولها الى السفير . يتمعن السفير فى النص بتؤدة ثم يتلوه بصوت مسموع .) اسمعوا : «موسكو . السفارة . ان الخطوة الديبلوماسية التى قمتم بها فى صدد الخطر الذى يهدد اسرة القيصر قد حظيت باستحسان جلالة القيصر . وهو يود مواصلة هذه الجهود الرامية الى اطلاق سراح الاسرة وارسالها الى الرايخ . وايا كانت الظروف لا يمكن ترك الاميرة الالمانية واولادها ، بما فى ذلك ولى العهد الذى لا يمكن فصله عن امه ، فى يد القدر . فون كيولمان» .

نيدجاردت : هذا مدعاة للسرور .

السفير : وهكذا ايها السادة عليكم الا تستسلموا لليأس . فالاسرة تحت مراقبتنا وحمايتنا . وايا كان شكل التهديد فلن نقف موقف المتفرج . وسوف يتم درؤه . لقد لاذ تشيتشيرين بالصمت ازاء خطوتى الاخيرة . ولكنى آمل ان يرد فى القريب العاجل . (نهض السفير ونهض محدثاه وانخفض صوت السفير الى حد يقرب من الهمس) : ربما يكون من الانسب لمصلحة اطلاق سراح الاسرة القيام ببعض التحركات فى الاورال من جانب منظماتكم ايضا . . . ولكننا لن نتحدث عن ذلك الآن . وسوف نخبركم انا والدكتور ريتسلير عما سيحدث فيما بعد (وانحنى المستشار انحناءة صغيرة تجاه الزائرين) . واعتقد ان ما قلناه اليوم يكفى .

تصافحوا مرة أخرى وتوجه الزائران فى صحبة السفير والمستشار الى عتبة الدار وتبادلوا الانحناء . وعندما بلغوا الباب وضع ميرباخ يده فجأة على كتف نيدجاردت قائلا :

— أتذكر ايها البارون سباق الخيل فى مضمار مونيخ قبل الحرب والرهان فيما بيننا ؟

ويلوح نيدجاردت بيده :

– ايها الكونت ، اى سباق او رهان واى شيء يمكن تذكره هنا . . .

ويسمح السفير لنفسه بلحظة من التبسط المتسامح :

– ما بكم يا سادة . لا تتكدروا . سوف يوضع كل شيء فى مكانه الصحيح . وليس من المستبعد ان تروا بعد نحو اسبوعين او ثلاثة امبراطوركم فى مكان ما على الناحية الاخرى من الحدود .

(دار الحوار باللغة الالمانية ، وهى اللغة الام لكافة المشاركين فيه .)

فى البهو فى الطابق الاسفل دار المفتاح من جديد وصدر عنه صوت احتكاك وصرصرة . اغلق تيلى الباب بحذر واطل برأسه الى الشارع الجانبى . ارتدى الرجلان قبعتيهما وخرجا ببطء حيث اختفيا فى ظلام الليل المطير .

كان ذلك فى منتصف مايو عام ١٩١٨ .

الفصل الاول

عملية «النسيب الروسى»

الرماد فوق ساحة كاتدرائية اسحق

كان بورتاليس سفيرا لالمانيا فى روسيا قبل ميرباخ .

وقد انتهت خدمة الكونت فريدريك فون بورتاليس التى دامت ٧ سنوات فى هذه الوظيفة فى الساعة الثامنة من مساء السبت ١٩ يوليو ، اى فى الاول من اغسطس عام ١٩١٤ حسب التقويم الجديد . فى ذلك اليوم المشؤوم ترك مركبته امام المدخل رقم ٢ لمبنى الاركان العامة وصعد درجات السلم الى الطابق الثالث وتوجه الى وزير الخارجية سازونوف (الذى لم يكن قد غادر مكتبة منذ عدة ايام) وسأله : هل ستلغى التعبئة المعلنة فى روسيا نزولا عند مطلب الانذار الالمانى ؟ اجاب سازونوف : لا . فقال الكونت للوزير ان المانيا تعتبر فى حالة حرب مع روسيا منذ هذه اللحظة .

وضع السفير على المكتب ورقة بها نص هذا الاعلان وخرج . وقد اظهر فى اثناء ذلك حيرة وارتباكا عجيبين . وكان قد اعد مذكرتين ، احداهما لحالة قبول الانذار ، والاخرى لحالة رفضه . ونسخ سكرتير السفير النصين على صفحة واحدة . وفى الرابعة صباحا تلفن بورتاليس الى الوزير وطلب اليه اعتبار ان «المذكرة التى تتضمن اعلان الحرب» هى السارية .

فى صباح اليوم التالى تحولت العاصمة * الى ساحة للمسيرات وخرج المئة السود ** الى الشوارع يرغون ويزبدون . وسار الاوباش يحطمون الواجهات والمحال والمقاهى التى تحمل لافتات عليها اسماء المانية . وفى شارع ليتيينى جروا ضابطا المانيا بحلته

---

* كانت بطرسبورج عاصمة الامبراطورية الروسية حتى عام ١٩١٨ . ومنذ عام ١٩١٤ الى عام ١٩٢٤ صارت تسمى بيتروغراد . فى عام ١٩١٨ نقلت العاصمة الى موسكو . — **الناشر** .

** المئة السود — عصابات مسلحة قامت بتنظيم المذابح ، وهى منظمات ملكية بالغة التطرف انشئت لمناوأة الحركة الثورية . — **الناشر** .

المدنية من الترام وكادوا ان يقتلوه . كان فى طريقه الى محطة فنلندا عائدا الى وطنه بعد ان جاء ضيفا الى روسيا .

وبحلول منتصف يوم الاحد هذا اختلط هؤلاء الاوباش بجمهور الناس وانطلق الجميع نحو ساحة دفورتسوفايا وبينهم نساء يرتدين ثيابا فاخرة . وعلى مرأى من الامبراطور والامبراطورة اللذين خرجا الى الشرفة بهذه المناسبة جرى عرض هستيرى للتعبير عن ولائهم للامبراطور والتنديد بالقيصر الالمانى . وعلى رنين اجراس كاتدرائية اسحق وهدير مدافع قلعة بطرس وبولس طيرت اللعنات الموجهة الى القريب الالمانى للامبراطور والامبراطورة . وظلا قرابة عشر دقائق يقفان مبتسمين بتكلف وقلق امام الجمهور الغاص الذى ركع امامهما ثم اسرعا للاختفاء فى القصر .

استمرت موجة شغب المئة السود عدة ايام فى مناطق وسط العاصمة الى ان وصلت الى مقر السفير الالمانى بورتاليس . وجرت هناك واحدة من اكثر «مآثر» المئة السود فعالية فى تلك الايام .

كانت هناك يد خفية توجه الجمهور الغفير الذى احتشد بحلول مساء ٤ اغسطس فى ساحة كاتدرائية اسحق . وكان الكثيرون مسلحين بالعتلات والخطاطيف . وفى الساعة التاسعة اندفعوا لاقتحام السفارة الالمانية التى كانت خاوية فى ذلك الحين . هرب البواب ادولف كاتنير ، الذى كان قد تركه السفير لحراسة البيت ، الى السطح ، فلحقوا به وقتلوه . وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل كانت السفارة تتقد كالمشعل . وتعالت سحب الدخان والرماد فوق ساحة كاتدرائية اسحق . وقبيل حلول الصباح وصل وزير الداخلية ماكلاكوف الى الساحة فأبلغه بسخرية عقيد الجندرمة سيزوف الذى كان يتخطر امام فندق «استوريا» :

– يا سيادة الوزير ، لقد احترقت السفارة عن بكرة ابيها .

وفى ٥ اغسطس قام الممثل الامريكى ويلسون ، الذى عهد اليه بورتاليس لدى مغادرته البلاد بحماية المصالح الالمانية فى بطرسبورج ، بزيارة الى وزارة الخارجية وقدم احتجاجا باسم حكومة الولايات المتحدة الامريكية . واعرب سازونوف عن «اسفه» بحضور ماكلاكوف المبتسم .

سردت صحف المئة السود تفاصيل العملية بغبطة . اما فيما يتعلق بالامبراطور الالمانى ، فان الصحافيين المغالين فى العداء لم

يبخلوا عليه بالنعوت المقذعة .
امتزجت اعمدة الدخان والرماد التي غمرت ساحة كاتدرائية اسحق آنذاك بالرائحة الخانقة للحريق الذي عم اوروبا والعالم بأسره ، والذي سيظل مشتعلا فترة طويلة . ومنذ تلك الايام استمر صراع روسيا المسلح ضد الحلف النمسوي-الالماني ٣ سنوات و٧ شهور . وفقد الجيش الروسي في خلال هذا الوقت ما يصل الى ٧ ملايين فرد بين قتيل وجريح ومفقود .
تلكم هي المعطيات الاحصائية لسنوات بعد الحرب . وهناك مصدر رسمي في وقت لاحق يقول ان روسيا فقدت زهاء ٢,٥ مليون قتيل فقط .
غير ان المقربين من نيقولاي الثاني لم تبد لهم الدماء التي اهدرت غزيرة جدا . او انها لم تبد على اية حال بالغزارة التي تجعلهم يستحون في لحظة تعرضهم للخطر من اللجوء الى طلب العون والمساعدة من الاعداء الالدة انفسهم الذين كالوا لهم السباب في اغسطس عام ١٩١٤ .
وفي عام ١٩١٨ ، عندما طردت موجات انفجار الثورة هؤلاء السادة من اعشاشهم في بيتروجراد وشتتتهم في ارجاء البلاد ووجدوا قيصرهم المحبوب معتقلا في ايكاتيرينبورج ، طلبوا العون والنجدة من القيصر ولهيلم ، الذي رووا نصف اوروبا تقريبا بالدماء الروسية من اجل اسقاطه .
والمقصود بهؤلاء القيصر المحبوب ايضا . ذلك انه قبل نصف عام فقط من حجز نيقولاي رومانوف في دار ايباتييف في ايكاتيرينبورج مثل وزير حربيته السابق شوفايف امام لجنة التحقيق الاستثنائية للحكومة المؤقتة في بيتروجراد . وعندما سأله المحقق : هل كان القيصر على علم بخسائر الجيش الفظيعة ، وما هو تأثير ذلك فيه ؟ اجاب : كان على علم بها ولكن ذلك لم يهمه كثيرا .
ودار الحوار التالي :

رئيس الجلسة : لماذا اذا تولى مهمة القيادة العليا ؟

شوفايف : كنت اقول له : ويا صاحب الجلالة لا يمكن ان تتحملوا المسؤولية . فانتم رب الارض الروسية . وانا لا استطيع ان اتستر وراء اسمكم ، ولا ينبغي لاحد من الوزراء ان يتصرف هكذا . نحن نستطيع ان

تتحمل المسؤولية وينبغى ان تتحملها . اما انتم يا صاحب الجلالة فاسمى من ذلك . . . كلما حدث شيء يقولون هذا امر جلالته . . . فهـــل هذا حسن ؟»

رئيس الجلسة : أكانت هذه الاحاديث تتعلق بالمسائل العسكرية ام بالسياسية ؟

شوفايف : هذه وتلك . . . لقد قلت له صراحة : «يستحيل السير ضد التيار . . . ولا ينبغى السير وراء الاحداث ، بل قبلها وتداركهـــا . . .» ولقد وضحت له باستمرار ضرورة ان يرفع عن كاهله هذا العبء ، الذى لم يكن بوسعه ان يتحمله فعلا .

رئيس الجلسة : فماذا كان رأيه ؟

شوفايف : شكرنى . . . ثم طردنى .

رئيس الجلسة : كيف ؟

شوفايف : عين الجنرال بيليايف مكانى .

رئيس الجلسة : لماذا ؟

شوفايف : لقد فهمت انه مل نصائحى وملاحظاتى .

الامل فى النسيب الالمانى

وجهت روسيا السوفييتية نداء الى الدول المتحاربـــة لوقف الحرب العالمية الاولى فور اعلان سلطة العمال والفلاحين الجديدة فى قاعة الاجتماعات بسمولنى . ولم تؤيد دول الائتلاف (الوفاق) الى هذه المبادرة السلمية . وفى ٢٦ نوفمبر عام ١٩١٧ اجرى رســل الهدنة الروس اول اتصالات لهم مع الخصم ، الذى وافق على الدخول فى مفاوضات لعقد معاهدة الصلح .

ووصلت الى بيتروجراد فى ديسمبر فى اثناء هذه المفاوضات البعثة الالمانية برئاسة الكونت ولهيلم فون ميرباخ (الذى كان فى الفترة من عام ١٩١٥ الى عام ١٩١٧ سفيرا فى اليونان ثم عمل مدة من الزمن ممثلا لوزارة الخارجية الالمانية فى رومانيا المحتلـــة) . واقامت البعثة بناء على موافقة سمولنى (الحكومة السوفييتيـــة — **الناشر**) فى الغرف التى بقيت سليمة من مبنى السفارة السابقة قرب ساحة كاتدرائية اسحـــق . وسرعان ما رأى ديبلوماسيو القيصر الالمانى الذين وصلوا حديثـــا الرؤســـاء والملهمين السابقين للاوباش . وعبر البوابات نفسهـــا التى انهارت فى اغسطس عام ١٩١٤ تحت وطأة هجوم المئة السود تسلل الآن خلسة نيدرجاردت

وتريبوف وجوركو وبينكيندورف لزيارة الضيوف الالمان . ومثلوا امام ميرباخ ومساعده الادميرال كيزرلينج مطأطئى الرؤوس . انهم الآن لا يزعقون ولا يسبون افحش السبــاب ولا يلوحون بالعصى الغليظة ، وانما يشتكون من حكم القدر بخنوع . اولا ، لقد ذاقوا ، حسب قولهم ، مرارة الندم لانهم لم يتراجعوا فى حينه عن الاصطدام بالرايخ . ثانيا ، ان السلطة السوفييتية لا تروقهــم بحال من الاحوال . ثالثا ، انهم ، وهذا هو الامر الرئيسى الآن ، الذى حدا بهم على المجىء الى صاحب السعادة ، يرجون ويستعطفون المانيا ان تتشفع لدى البلاشفة بالعفو عن العاهل المخلوع والشريد والمعتقل فى سيبيريا حاليا .

وعدهم ميرباخ بان يبلغ برلين بكل شىء . وكانت الرسالة التى بعثهــا عن الزيارة التى قامت بها اليــه مجموعــة نيدجاردت وبينكيندورف وتريبوف هى اول معلومات رسمية عن المصائب التى حلت «بالنسيب الروسى» يتلقاها ولهيلم الثانى عبر قنوات جهازه الخاص . وتفيد شهادة المقربين منه ان اول رد فعل له كان اصدار تعليمات للمستشار بيتمان-جولفيج بان «تعد التدابير الخاصــة بتقديم المساعدة الطارئة والانقاذ» .

لم يكن الامر هنا مقتصرا على شعور القربى او على اواصر القرابة من النظام الاوتوقراطى الذى انهار فى روسيا . فقد كان ممثلو آل هوهينزوليرن يشعرون من خلال مصير اقربائهم فى روسيــا بفزع خفى من قرب نهايتهم المحتومة .

وبعد عقد معاهدة الصلح فى ٣ مارس عام ١٩١٨ فى بريست - ليتوفسك وظهور السفارة الالمانية فى موسكو (فى ابريل) وعــلى رأسها ميرباخ نفسه ، انتقل مكان اتصالاته مع مجموعة نيدجاردت وبينكيندورف وتريبوف السرية الى المنزل رقم ٧ فى شارع دينيجنى (شارع فيسنين حاليا) . وامتدت سلسلة المؤامرة التى كان لقــاء الاربعة الذى اوردناه فى التوطئة حلقة منها .

استمر المدافعون عن الرايخ القديم سنوات طويلــة ينفون وجود هذه المؤامرة . ويؤكد البعض فى المانيا الاتحادية اليوم ايضا انه لم تكن لميرباخ اية اتصالات باصحاب النشاط السرى الملكى فى روسيا ، وانه لم يتخذ اية خطوات لصالح القيصر المخلوع ، بل انه لم يشأ حتى مجرد التطرق لمسألة الدفاع عن أسرة رومانوف

لانه لم تكن لها اية علاقة بمصالح المانيا . وهـــم يزعمون ان السفير قد رفض استقبال افراد حاشية القيصر السابقين وامتنع عن الحديث معهم ولم يعدهم باية مساعدة ولم يقدم لهم اى عون . واذا كانوا قد تمكنوا فى بعض الاحيان من تسليم السفير التماسا خطيا فى هذا الموضوع ، فانـــه كان يرفض رفعهـــا الى الجهات المسؤولة . وقصارى القول ان «المانيا اتخذت موقف ضبط النفس والفتور وعدم التدخل بالمرة فى هذا الموضوع» .

اما كيف كان «عدم التدخل بالمرة» فهذا ما تحدث عنه فى حينه ابطال هذه الحادثة انفسهم . ومن بينهم مثلا نيدجاردت الذى نقلنا هنا عن مذكراته لقاء الاربعة فى مايو عام ١٩١٨ . وكذلك ميرباخ الذى تسربت الى الصحف الغربية عينات من المعلومات التى كانت ترسلها سفارته . وبينها رسالتان عاجلتان تستحقان الاهتمام : أ - رسالة بعث بها الى برلين فى ١٣ يونيو ، اى بعد اسبوعين من اللقاء الذى اوردناه فى شارع دينيجنى ، ب - رسالة بعث بها الى برلين ايضا فى ٢٠ يونيو ، اى قبل اسبوعين من مقتل السفير ، حيث يطلع ميرباخ رئيسه ريهارد فون كيولمان بايجاز ، ولكن بوضوح تام ، على النشاط السرى المتزايد فى موسكو وبيتروجراد من جانب التحالف السرى للملكيين والساســـة الليبراليين وملاك الاراضى والصناعيين . ويراجعه ، اى السفير ، سرا «كثير مـــن الاشخاص المعروفين» و«كثير من الشخصيات المترددة» و«اصحاب الاسماء او الالقاب السامية السابقين واصحاب الشركات الكبرى وملاك العقارات والضياع الكبيرة» ، وقد ابلـــغ السفير رؤساءه بان هؤلاء الناس يريدون اطلاق سراح القيصر بمساعدة المانيا «مؤكدين يوميا وبشتى الصور موقفهم الودى منها» . وليس هذا فحسب ، بل ان عندهم نقطة لا تقل عن ذلك أهمية : «انهم يحضرون الينا طالبين مساعدتهم فى مناوأة البلاشفة . . .» .

فباى موقـــف ازاء المتوسلين المتضرعين يوصى السفيـــر رؤساءه ؟ انه لا يوصى بعدم المبالاة على اية حال . فقد كتب فى ٢٠ يونيو : «مع كل فرادة الوضع ، اتصور ان اول ما تمليه اللحظة الراهنة هو ما يلى : ينبغى لنا ان نمنـــع اتحاد خصوم النظام البلشفى المحتضر مع قيادة دول الائتلاف . . . ولذا ارى الا تحمل ردودنا على مطالبهم طابع النفى المطلق . . . ولا ينبغى لنا ان نرد

عليهم برفض مثل هذه المفاوضات بحيث يبدو وكأننا نرفضهـــا بوجه عام . . .» .

كان عدم قول «لا» يعنى قول من حيـث الجوهر «نعـم» . ولا يستطيع المفسرون الغربيون الحاليون أنفسهـــم نفى هذا الآن . فهؤلاء السادة ، اذ يلزمون الصمت المتواضـــع تجاه الخطأ الذى وقعت فيه الديبلوماسية الالمانية فى صدد «احتضار البلشفية» ، يقولون مفسرين : تمثلت الفكرة فى «ضرورة اسقاط البلاشفة ، وضرورة إحياء روسيا البرجوازية . وكان شرط هذا الاحيـاء هو تحوير معاهدة بريست بمعنى انتقال روسيا الى نهج الاسترشاد التام بالمانيا» .

وبعبارة اخرى كان مشروع انقاذ القيصر الروسى بواسطة القيصر الالمانى جزءا من خطة اوسع وهى القضاء على السلطة السوفييتية بقوة الحراب الالمانية وبعث روسيا القديمة القيصرية التى ينبغى ان يكون مصيرها فى الارجح الاتحاد مع الامبريالية الالمانية والخضوع للسيطرة الالمانية . وكان هناك دور ملحوظ فى هذه الخطة للقيصر وولى العهد ، وكانا على قيد الحياة آنذاك ، وكانا تقريبا فى متناول اليد ، فهما من اقرباء العائلة ولذا يمكن تقبلهما اكثر . ولم يبق سوى احضارهما من المنفى واعادتهما الى قصر الشتاء . ولذا «حرك ولهيلم الثانى كل العتلات لكى ينقذ عائلة نسيبه الروسى» .

وقد روى الدكتور كورت ريتسلير ذات مرة بعض تفاصيـــل مشاغله السابقة فى شارع دينيجنى . كان يجمع فى الرايخ القيصرى بين وظيفة الديبلوماسى وبين نشاط الكاتب والفيلسوف الملكـى الليبرالى باسم مستعار هو إ .ـإ . ريودورفير ، فنشر عدة مؤلفات تناول فيها مشاكل السياسة العالمية ، لفت واحد منهـــا انتبـــاه فلاديمير لينين فى عام ١٩١٥ .

قبل ان يجىء ريتسلير الى موسكو كان مستشـــــارا لرئيس الوزراء بيتمان-جولفيج فى الفترة من عام ١٩١٥ حتى عام ١٩١٧ . واصدر فى برلين عشية الحرب العالميـــة الاولى كتابـــا بعنوان «السمات الاساسية للسياسة العالمية المعاصرة» تناوله فلاديمير لينين بالنقد .

بدأ هذا السيد بالترويج للكوسموبوليتية وبموضوعة المصدر الالهى لسلطـــة الرايخ وبفكرة تعاون الجنرالات والاشتراكيين.

الديمقراطيين اليمينيين ، وانتهى بمحاولة فاشلة لانقاذ القيصر من محكمة الثورة الروسية .

وبالمناسبة فانه لم ينته بذلك* . ويرجع ظهور ريتسلير للجمهور فى دوره الجديد الى عهد حلول جمهورية فيمار مكان النظام القيصرى . ولم تتركه الجمهورية بدون عمل . فقد قبع منذ عام ١٩٢٠ فى شارع ولهيلم مؤديــــا دور الخبير الاول لشؤون شرق اوروبا . وظهر هناك ايضا فى صيف عام ١٩٢١ المدعو سوكولوف وهو مهاجر من الروس البيض ، جاء الى ريتسلير بناء على توصية من كبير المحققين فى قضية اعدام القيصر وحصل على تفويض بذلك فى عام ١٩١٩ من كولتشاك «الحاكم الاعلى لروسيــــا» . واستفسر الضيف عما اذا كان الهر الدكتور يستطيع افادته بمعلومات مفيدة فى الموضوع الذى يبحثه .

قال ريتسلير للمحقق هذا : اجل بالطبع ، وافاده ان لديـــه وفرة من المعلومات المناسبة . منها مثلا : انه يستطيع بوصفه قد «عاش هذه المأساة فى الصميم» ان يؤكد ان حكومة جلالة القيصر قد حاولت من خلال سفارتها فى موسكو عام ١٩١٨ عمل «كل ما هو ممكن ، بل وغير ممكن ايضا» من اجل المعتقلين فى الاورال . وللدلالة على ذلك أحضر ريتسلير رزمة من ارشيفات الوزارة تحوى وثائق ترجع تواريخها الى شهور ربيع وصيف عام ١٩١٨ واراها لسوكولوف . وعمل ريتسلير صورا لعدة رسائل عاجلة مأخوذة عن المراسلات بين السفارة والوزارة وبعث بها الى سوكولوف فى باريس فى سبتمبر من العام نفسه وكان من بينها :

من السفارة فى موسكو الى وزارة الخارجية ، يوليو عام ١٩١٨ .

هل يجب تكرار الالتماس الحاسم فى صدد توفير الاهتمام والعنايـــة بالقيصرة بوصفها اميرة المانية ؟ الا ترون ان من الخطر جعل هذا الالتماس يشمل ولى العهد ايضا نظرا لان البلاشفة على علم فى أغلب الظن بان الملكيين يميلون الى وضعه فى الصدارة . لقد زادت عدم ثقة البلاشفة فى صدد الالتماسات

---

* عاصر ريتسلير القيصر الالمانى وجمهورية فيمار وهتلر الذى خصص له معاشا فى عام ١٩٣٥ . وحظى فى المانيا الاتحادية بشرف التحدث شخصيا مع اديناور وشتراوس . وتوفى فى فيلته فى ضواحى دوسلدورف عام ١٩٥٥ وكان فى الثالثة والسبعين من عمره .

الالمانية نتيجة للتصريحات الاخيرة البالغة الصراحة التى ادلى بها الجنرال كراسنوف فى الدون * .

ريتسلير

وزارة الخارجية . الى القائم بالاعمال فى موسكو . يوليو عام ١٩١٨ . اوافق على الالتماسات لصالح اسرة القيصر .

بوشه

نشر سوكولوف هاتين الوثيقتين وغيرهما فى وقت لاحق فى كتابه الذى صدر فى المانيا . وهى تتطابق تماما من حيث المضمون مع الرسالة العاجلة التى بعث بها كيولمان ، والتى تفيد مفكرات نيدجاردت ان ميرباخ تلاها عليه فى مبنى السفارة فى موسكو . ويقول سوكولوف معمما ان جوهرها يتلخص فى ان «الملكيين الروس اجروا مفاوضات فى عام ١٩١٨ مع الالمان بصدد الاطاحة بسلطة البلاشفة» . وقد دخلت «ضمن اطار هذا الموضوع» مسألة اطلاق سراح القيصر والذى ينبغى على منظمة الملكيين وجنرالات القيصر الذين رفعوا رؤوسهم فى جنوب روسيا «ان يدفعوا ثمنه فى شكل خدمات للخطط العسكرية السياسية لبرلين سواء فى وسط البلاد او فى الصراع المسلح الذى اشتعل فى الاماكن ، التى احتلتها القوات المسلحة الالمانية او تعتزم احتلالها» .

ولعل ميرباخ قد عول بجدية تامة على النجاح ، اذ اعلن ، فى الوقت الذى يوجه فيه التهديدات الى الحكومة السوفييتية ، مساومة مع الملكيين السريين : ما هو الموقف الذى سيتخذونه وكيف سيجرى استغلال آل رومانوف ، الذين خيل له ان ابواب دار ايباتييف وشبكة الانفتاح امامهم .

وكما شهد ويلتون فى حينه ، وهو مراقب للاحداث فى روسيا عن كثب (عمل مراسلا لصحيفة «تايمز» الانجليزية) وملكى عنيد ومن عشاق آل رومانوف ، فانه فى اوائل صيف عام ١٩١٨ و«بناء على مبادرة ودعوة من الكونت ميرباخ» اجتمع بسرية تامة فى جلسة خاصة بموسكو ممثلو عدد من الجماعات اليمينية المتطرفة المعادية

---

* لا شك فى ان اشارة ريتسلير هذه تخص التصريح العلنى الذى ادلى به كراسنوف فى مايو — يونيو عام ١٩١٨ فى نوفوتشيركاسك بان الهدف النهائى «لحركة البيض» هو بعث القيصرية فى روسيا .

للنظـــام السوفييتى . وطرح مفوضو برلين للمناقشـــة هناك «الاقتراحات الالمانية فى صدد طرق اعادة القيصرية فى روسيا» . وكان احـــد الاقتراحات يقول : يجب اولا اعادة «حقوق» القيصر نيقولاى الثانى ، ثم اعلان تنحيته مرة ثانية لكى نظهر بذلك ان التنحية الاولى (فى ٢ مارس عام ١٩١٧) باطلة لانها كانت «قسرية فرضتها الثورة عنوة» . وبعد ذلـــك ينصب ألكسى على العرش . واحتدم نقاش اثناء الاجتمـــاع بين الجماعتين الاساسيتين مـــن المشاركين فيـــه : «اتحاد البعث» و«المركز القومـــى» . كانت المجموعتان تريدان الملكية ولكن مع الفارق التالى : كانت المجموعة الاولى مستعدة لقبولها من ايدى الالمان ، اما المجموعة الثانية فقد رفضت اية «هدية» من برلين . يقول ويلتون : كان الالمان يميلون الى تقديم ألكسى الصغير الى مكان الصدارة . فقد خيل اليهم انه سيكون من الاسهل الضغط عليه ، بينما فضل القوميون ميخائيـــل الكسندروفيتش شقيق القيصر خاصة وانه اعلن تنصيبه قيصرا ذات مرة حسب وثيقة بسكوف لتنحى نيقولاى . ولم يتوصـــل المشاركون فى المناقشة الى حل نهائى واتفقوا على «التريث قليلا» الى ان تفتح ابواب دار ايباتييف .

اما ما جرى حينذاك فى برلين فيصفه فيكتور الكسندروف فى كتابه «نهايـــة آل رومانوف» الذى صدر فى عام ١٩٦٦ باللغـــة الانجليزية .

فى تلك الايام من صيف عام ١٩١٨ وبعـــد تمرد التشيكيين البيض بقليل استدعى كيولمان السفير السوفييتى يوفى الى مقره فى شارع ولهيلم وقال له : ان الحكومة الالمانيـــة تخشى ان يقبض الفيلق التشيكوسلوفاكى المنتفض على عائلـــة رومانوف ويسىء «استغلالها» لصالح الاهداف السياسية العسكرية لدول الائتلاف . وقد يعين القيصر السابق قائدا اعلى لجيوش البيض ويمكنه بهذا الدور ان يحيى الجبهة المناهضة لالمانيا فى الشرق فى الوقت الذى «يستعد فيه جيش القيصر الالمانى لانزال ضربة حاسمة بالحلفاء الغربيين فى منطقة شامبان» . وتحذر الحكومة الالمانية من انه اذا لم تحل السلطات السوفييتية دون هذا الانعطاف للاحداث ، فسوف تحرك قواتها المسلحة الى اورشا وبسكوف بهدف محاصرة موسكو والاستيلاء عليها . وسوف تنتقل فى اقرب مرحلة الى الدعم المباشر

للقائد كراسنوف المسيطر على مقاطعة الدون فينفتح امامه الطريق الى الفولجا ، فى عمق البلاد .

كيولمان يهدد من شارع ولهيلم . والملحق العسكرى فى موسكو يردد اقواله من شارع دينيجنى . فقد ذهب الى مفوضية الشعب للشؤون العسكرية والبحرية وقال انه يحذر بدوره من ان القيادة العامة لقوات الاحتلال فى اوكرانيا وفى منطقة روستوف على الدون «فى حالة تحول الاحداث حول ايكاتيرينبورج على نحو غير موات لالمانيا» ستحرك قواتها تجاه تساريتسين حتى ترسخ اقدامها «على ضفتى النهر العظيم» . واكد الملحق العسكرى انه ليس من المستبعد فى اسوأ الاحوال الغاء معاهدة صلح بريست مع ما يتبع ذلك من هجوم المانيا على موسكو وبيتروجراد . ولذا فان الحل الجذرى هو تسليم نيقولاى الثانى وأسرته الى القوات الالمانية ، وهذا الامر من شأنه ان ينهى تماما اى سوء فهم او نقاش فى هذا الموضوع .

رفض الجانب السوفييتى هذه التهديدات . عندئذ اتخذت خطوة جديدة ، وهى عمل جديد من اعمال «عدم التدخل» جاء هذه المرة من دارمشتادت ، موطن القيصرة السابقة الكسندرا فيودوروفنا . فقد تقدم شقيقها ارنست لودفيج (ارنى) ، دوق جيسين الكبير ، بهذا الاقتراح الى السفارة السوفييتية فى برلين : انه يستطيع ان يقدم خدماته الخيرة الى روسيا كوسيط فى النزاع الوشيك الوقوع مع المانيا . وهذه الخدمات هى : أ – يأخذ على عاتقه درء الهجوم الالمانى على روسيا مع ما يعقبه فى هذه الحالة ، حسب رأيه ، من احتلال حتمى لكل البلاد ؛ ب – يأخذ على عاتقه السعى لدى الحكومة الالمانية لتخفيض ، بل وربما الغاء ، التعويضات العسكرية المفروضة على روسيا وفقا لمعاهدة صلح بريست وقدرها ٣٠٠ مليون روبل ذهبا . وثمن هذه الخدمات هو : اطلاق سراح اسرة القيصر وارسالها الى المانيا . ثم استفسر ارنى تلفونيا من دارمشتادت عما اذا كان الجانب السوفييتى ينوى الدخول فى مناقشة كهذه . واتضح ان الجانب السوفييتى لا يعتزم ذلك .

وبحلول يوليو اصبحت ابتزازات برلين لصالح اسرة رومانوف اكثر فظاظة واستفزازا . اذ استغل القيصر الالمانى حادث اغتيال

ميرباخ * في مناورة لصالح اسرة القيصر الروسي . فقد تقدمت برلين بعد ٦ يوليو بمطلب استفزازي ، وهو السماح لكتيبة المانية بدخول موسكو بحجة حماية السفارة . ثم اعلنت في وقت لاحق استعدادها لسحب هذا المطلب في مقابل السماح لاسرة القيصر بالرحيل الى المانيا .

ولكن لم يفلح ريتسلير ولا غيره من المفوضين الالمان في فرض هذه الصفقة المتعلقة باسرة رومانوف على السلطات السوفييتية . فعلى الرغم من كل خطورة الموقف ، تصدت الجمهورية الفتية ، التي كانت معرضة للهجوم من كل جانب ، لادعاءات القيصر الالماني ورفضت مطلب السماح للكتيبة الالمانية بدخول موسكو ورفضت كذلك التدخل لصالح القيصر . وانتهت سلسلة الهجمات على سيادة روسيا السوفييتية بلا شيء للديبلوماسية الالمانية .

اما افراد اسرة رومانوف فقد عولوا اساسا على المساعدة الانقاذية من جانب القيصر الالماني . فأخذوا يراقبون بتوتر من منفاهم البعيد في سيبيريا (ثم في الاورال) حركة القوات المستنفرة من المانيا ، التي ستعيد اليهم الحرية ، كما خيل لهم ، بل وربما ستعيد اليهم السلطة ايضا . وحتى آخر لحظة من النهاية لم يفارقهم الامل في انهم سيدخلون قصر الشتاء او الكرملين مرة اخرى حتى ولو كان ذلك عن طريق المساعدة الالمانية غير المستحبة — فقد تمكن البوربون في حقبة من الزمن العودة الى تيويلري بمعية الاجانب . فلماذا لا يعود آل رومانوف الى قصورهم بواسطة الجيوش الاجنبية وجيوش الحرس الابيض ؟ وملأ هذا الامل رسائلهم ومفكراتهم اليومية في تلك الاسابيع والشهور سواء في توبولسك او ايكاتيرينبورج . كانوا يعيشون على امل ان «ينتهي هذا كله قريبا» وان «ينقشع هذا كله عاجلا او آجلا» وسوف «ينتهي ويمر» .

ان القيصر والقيصرة على ثقة بان «المانيا تريد ان تتيح لهما فرصة العودة الى العرش» . وذلك ، والحق يقال ، شريطة ان يوافقا

---

* قصد الاشتراكيون-الثوريون بالقتل الاستفزازي لميرباخ اشعال الحرب بين المانيا والدولة السوفييتية ، وذلك بعد ان قاموا بتمرد مضاد للثورة . — **الناشر** .

«على التحالف معها وقطع الصلة بالحلفاء الغربيين» . ويتزايد فى محيط الاسرة والمقربين المرافقين : جيليـــار وتاتيشيـــف ودولجوروكوف تطابق «الآراء فى انهـــم سوف يرسلون الى احدى المدن الواقعة قريبا من الجبهة حيث يجرى تسليمهـــم الى القوات الالمانيـــة» . ويذكرون ايضا فى هذه الاجتماعات خطوط السير المحتملة لهذا الاجلاء : الى الدون حيث كراسنوف ، او كييف حيث سكوروبادسكى ، او الى منطقة البلطيق حيث فون دير جولتس او فنلندا حيث مانيرهايم . واعرب دولجوروكوف ذات مرة عن اعتقاده بان التسليم سيتم فى ريجا (التى كانت قوات القيصر الالمانى مـــا تزال تحتلها آنذاك) .

انهم يتساءلون : اين الالمان ؟ وتهمهم وتقلقهم مسألـة اين انصارهم ؟ اى اين هم والى اين يتحركون ، ألن يصل اليهم بطريقة ما جنرالاتهم الذين خرجوا بدعم من القيادة الالمانية فى الحملـــة المسلحة تحت راية احياء القيصرية والذين يحصلون على الرواتب والاعالة المالية من الطغمة العسكرية القيصرية الالمانية فشاركوا فى غاراتها التأديبية على الاراضى السوفييتية ؟

استعلمت الامبراطورة السابقة الكسندرا فيودوروفنا فى رسالة لها من توبولسك فى ٢٠ مارس عام ١٩١٨ من وصيفتها فيروبوفا التى كانت مختبئة فى عـُليـَّة بناحيـــة بيتروجراد : «ما هى اخبار الالمان ، أوصلوا الى بيتروجراد ام لا ؟»

وتهلل الكسندرا فيودوروفنا فى رسالة اخرى الى فيروبوفـــا ذاتها : «تكتب الصحف ان الامير تروبيتسكوى (فولوديا) التحـــق بكاليدين . يا له من أمير بارع !» . وبعد فترة من الوقت تجىء رسالة الى نفس العنوان : «هناك اخبار طيبة عن كاليدين وكراسنوف من الدون . . . ونطلب التوفيق من الرب لمبادراتهم المقدسة !»

القيصر الالمانى لم يساعدهم

«ان المبادرات المقدسة» هى كناية عن الثأر والانتقام . امـــا درجة القدسية فهى تتناسب مـــع وحشية التنكيل . فكلما زادت غزارة الدماء ، زادت قدسيتها .

عمل القادة البيض وفق هذا المبدأ ، وهم الابطال الاوائل من حيث الزمن للموت والتعذيب فى الاراضى السوفييتية التى احتلتها قوات المتدخلين الاجانب ، وهم اناس اوفياء للقيصرية بلا حدود . كان بعضهم حتى وقت قريب ضمن المقربين من نيقولاى الثانـــــى ووضعوا نصب اعينهم سرا وعلانية هدف اجلاسه (هو او ابنه) على العرش . وكان كاليدين وكراسنوف اول مــــن اعلن القيام بهذا الدور ، وكانا يحظيان بحنان وعطف القيصرة السابقة : انهما اثنان من الموالين لآل رومانوف عقدا العزم على قمع الثورة الروسية مــن الدون الواقع تحت سيطرة القوزاق البيض . . .

فى ذلك الوقت الذى كان فيه نيدجاردت وصحبـــــه يجرون المفاوضات السرية مع ميرباخ فى بيتروجراد لاطلاق سراح عائلـــة القيصر ، كان كاليدين فى الجنوب يجرى الاتصالات الاولى بالقيادة الالمانية بهدف تحويل الدون الى قاعدة ورأس جسر لانطلاق الثورة المضادة فى عموم روسيا . وليس مصادفـــة ان يفـر الجنرالات كورنيلوف ودينيكين وماركوف ولوكومسكى وروماتوفسكى وغيرهم من المشاركين فى التمرد المضاد للثورة فى اغسطس عام ١٩١٧ ، الى الدون بالذات من بيخوف حيث كانت القيادة العامة العليـــــا للجيش الروسى .

واعقبت الجولة الاولى جولة اخرى . وحل محل كاليدين الذى انتحر بالرصاص كراسنوف ، الياور السابق للقيصر . وهو نفس كراسنوف قائد فيلق الخيالـــــة الثالث الذى خرج فى اكتوبر عام ١٩١٧ لمقاتلة الحرس الاحمر فى معركة عند تلال بولكوفو قرب بيتروجراد ، وهزم فيها وساعد كيرينسكى فى جاتشينا على تغيير ملابسه والهرب ، ثم أُلقى القبض عليه مع رئيس اركانه بوبوف وارسل الى سمولنى . واطلق سراحه بعد ان اعطى كلمة شرف بالا يشهر السلاح مرة اخرى ضد السلطة السوفييتيـــة . وكانت «كلمة شرف» رخيصة ، فبعد ان اصبح اتامانا فى نوفوتشيركاسك فى ١١ مايو عام ١٩١٨ ، بعث رسالة الى ولهيلم الثانى يرجوه فيهـا اعلان الحماية الالمانية «لدولة الدون المستقلـــة» التى اعلـــن كراسنوف قيامها ، واعلن ايضا ان هدفه هو اعادة حقوق نيقولاى

الثاني وتجله . حتى رودزيانكو ، عضو «اتحاد اكتوبر» * استشاط غضبا لدى اطلاعه على نص هذه الرسالة . وسرق نسخة عنها من صديقه بوجايفسكي («وزير خارجية» الدون الذى اصبح اتامانـــا فيما بعد) ونشرها فى الصحف الاجنبية .

وجاء ايضا فى اسفار تاريـــخ مغامرات اسرة رومانوف فى عام ١٩١٨ ذكر الجنرال سكوروبادسكى ، وهو من اكبر ملاك العقارات فى اوكرانيا . كان فى بدايـــة القرن قائدا لاحدى وحدات الحرس القيصرى في تسارسكويه سيلو (وكان تحت قيادتـــه بعض الامراء الكبار) وكان مقربا من القيصر شخصيا . وتولى ابان الحرب العالمية الاولى قيادة فرقـــــة ثم فيلق . وبعد ثورة فبراير (شباط) طالب سكوروبادسكى باستقلال اوكرانيا . وقـــد اعجب الفيلدمارشال جيرمان فون ايخجورن قائد قوات الاحتلال الالمانية بسكوروبادسكى من النظرة الاولى . ولذا عين فى ٢٩ ابريـــــل جيتمانا (حاكمـــا) لاوكرانيا .

وفى الوقت نفسه تقريبا قام بتوقيع «اتفاقيـــة» مع ايخجورن لتصدير ٦٠ مليون بود ** من الحبوب الى المانيا فى خلال ٤ شهور . وبعد ذلك بعدة ايام اصدر مرسوما بمحاكم الميدان العسكريـــة وعقوبة الاعدام رميا بالرصاص وشنقا والضرب والجلد بالقضبان والسياط .

وبدأت اعمال التنكيل . وانت البلاد تحت نعال المحتلين الالمان والمتزلفين لهم .

وما ان فرغ سكوروبادسكى من التدابير العاجلة للغاية لامداد اولياء نعمته فى برلين بالقمح والشحـــم الاوكرانيين حتى جذبت انتباهه دار ايباتييف فى ايكاتيرينبورج . وبعد موافقة ايخجورن استقل القطار الى برلين . لقد توجه الى القيصر الالمانى مبتهلا طالبا العفو للقيصر .

---

* «اتحاد اكتوبـر» ـ حزب البرجوازيـــة الكبيرة وكبـــار ملاك العقارات . وهو حزب مضاد للثورة ظهر على اثر اعـــلان القيصر بيان ١٧ اكتوبر عام ١٩٠٥ بعد ان دب فى نفسه الهلع لنمو الحركة الثورية . ـ **الناشر** .

** البود يساوى ١٦ كغ تقريبا .

ويقول مؤلف المانى من ايام الرايخ النازى ان «الجيتمان رجا واستعطف الامبراطور ولهيلم بكل الحاح للقيام «بتدخل اكثر فعالية» فى هذا الامر . . . » . وقد وعده القيصر وعدا قاطعا بانه سيعمل كل ما بالامكان . وتعرض الجيتمان لمشكلة «اقامة اسرة القيصر فى الرايخ» . وقدموا له «الوعود الكافية» فى هذا الموضوع ايضا . وسرعان ما قام ايخجورن وميرباخ بناء على تعليمات من الامبراطور «بارسال دعوة سرية الى القيصر فى ايكاتيرينبورج للقدوم الى الرايخ» واضافا ان «الموافقة السوفييتية على هذا الرحيل الى الرايخ سيتم الحصول عليها فى اقرب وقت كما يبدو» .

فى تلك الايام قدم ثلاثة اشخاص الى كييف وهم : الجنرال موسولوف والامير كوتشوبى والامير ليختينبيرجسكى . وزاروا الجيتمان وايخجورن . واقترح الثلاثة على الفور – مع كل ما فى ذلك من جسارة – تجهيز حملة انقاذ تخريبية المانية-هايداماكية * لارسالها الى ايكاتيرينبورج مباشرة .

وافق ايخجورن فى صمت . ووافق الجيتمان فى صخب دون اخفاء مباركته . ويقول زعيم الثلاثة انهما «كانا بعيدى النظر جدا . لقد فتحا لنا الاعتمادات ووعدانا بوضع الرشاشات والبنادق والسيارات تحت امرتنا» .

ووضعت الخطة : ارسال البواخر المسلحة عن طريق الفولجا وكاما وانشاء قاعدة على بعد قرابة ٦٠ كيلومترا من ايكاتيرينبورج . ثم الوصول الى المدينة والاغارة بفرقة مسلحة جيدا على دار ايباتييف . وبالفعل : «ارسلنا افراد الاستطلاع الى ايكاتيرينبورج . . . واقاموا اتصالات بالمبعوثين الالمان الذين كانوا يصلون سرا الى المدينة والذين كان من الضرورى تأمين الحصول على معونتهم . . .» بعد ذلك «كتبت رسالة الى الامبراطور ولهيلم سلمتها الى الكونت الفينسليبين ، وهو من جماعة الجيتمان . . . وقد رجوت الامبراطور الالمانى فى هذه الرسالة ان يتعهد للقيصر بان يحصل هو واسرته على تصريح مفتوح للدخول وسوف يجرى لهما الاستقبال اللائق . . . وانه لن يعتبر على اية حال اسيرا عسكريا لالمانيا . . .»

---

* الهايداماك اسم كان يطلق على جنود الجيتمان . – **الناشر** .

الى ان جمعوا السلاح والافراد ، والى ان اجرى الفينسليبين مشاوراته مع القيصر ، والى ان حصل الممثل الالمانى لدى الجيتمان الكونت موم على الاستشارات بدوره من الفينسليبين لم تعد ثمة ضرورة لهذا العمل ، فقد وصل الى كييف خبر بان دار ايباتييف خاوية وان مراكز الحراسة قد رفعت من حولها . . .

قام جنرالات نيقولاى الثانى المذكورون فى انتظار عودته بتطهير ساحة فى الجنوب له (او لابنه) . واجتهد جنرال آخر من النخبة نفسها فى الشمال . وكان كارل جوستاف اميل مانيرهايم قد ابدى مواهب فائقة فى التنكيل والعقاب فى بداية الحرب الاهلية التى اشعلتها مجموعة سفينخوفود فى فنلندا . فقد نظم مانيرهايم غارة تأديبية واسعة قاسية لقمع الطبقة العاملة والحرس الاحمر بمساعدة الجنرال الالمانى ريوديجير فون دير جولتس الذى هرع لنجدته بقوات الانزال . من اجل ماذا ؟ سوف يتحدد ذلك بعد عدة اشهر عندما يعلنون الملكية فى فنلندا ويرشحون فريدريك كارل امير جيسين ، وهو من الاقرباء المقربين لأليسا اميرة جيسين ، آخر القيصرات الروسيات ، لارتداء التاج غير الموجود اصلا .

ثمة من قام باخراج هذه المهزلة الكئيبة التى جرت فى الاراضى الواقعة تحت سيطرة المحتلين الالمان من جيلسينجفورس حتى كييف ونوفوتشيركاسك . ومخرجها هو الجنرال ماكس هوفمان الذى كان فى التاسعة والاربعين من عمره : وكان ممثلا لهيئة الاركان العامة لبرلين ابان وجود اليابانيين فى منشوريا عام ١٩٠٤ ؛ ثم قدم الى روسيا غير مرة ، كضيف وصديق لمانيرهايم وسكوروبادسكى ؛ وعمل فى سنوات الحرب العالمية الاولى رئيسا لقسم العمليات فى اركان الجيش الثامن (الذى كان يعمل فى بروسيا الشرقية) ، وهو خليفة ليوديندورف فى منصب رئيس اركان الجبهة الشرقية . وقد ضم القيصر هوفمان الى الوفد الذى سافر الى بريست-ليتوفسك . واتضح له هناك انه يكاد يكون اكثر المغالين تحمسا وضراوة لنهج ضم الاراضى وفرض التعويضات . وهوفمان بالذات هو الذى اعد مشروع الضم الذى نفذ فى بريست والذى تم بمقتضاه انتزاع اوكرانيا وبيلوروسيا ولاتفيا واستونيا وجورجيا ، اى مليون كيلومتر مربع من اراض يقطن بها ٤٦ مليون نسمة من الدولة السوفييتية وتحويلها الى محميات للامبريالية الالمانية . وفرض على

روسيا السوفييتية عنوة تحت الحاح واصرار هوفمان ما سمـــى بالبروتوكول الاضافى الموقـع فى ٢٧ اغسطس عام ١٩١٨ والذى توجب عليها بمقتضاه ان تدفع لالمانيا تعويضات قدرها ٦ مليارات مارك (٢,٥ مليار روبل) باشكال شتى .

ولكن الجنرالات السابقين من اتباع القيصر لم يفلحوا فى انقاذه بالرغم من انهم شقوا طريقهم المتعرج اليه بالنيران والسياط من الجنوب والشرق . ولم تنجح ايضـــا عمليـــة «النسيب الروسى» الدبلوماسية التى قام بها القريب فى بوتسدام . لقد فشلت هذه العملية لان السلطة السوفييتيــة لم تستسلم للتخويف والابتزاز والوعيد حتى فى تلك الظروف الصعبة .

وسرعان ما اصبح الوضع صعبا بالنسبة لبعض المدافعين عن القيصر انفسهـــم . فبحلول خريف عام ١٩١٨ وصلت الاعاصير العاصفة التى هبت من اعماق الثورة الروسية بسرعة عارمة الى قلعة الامبريالية الالمانية واهتزت جدرانها وانهارت فى خلال عدة ايام . سقطت الملكية فى المانيا فى ٩ نوفمبر .

وفى ١٣ نوفمبر اعلنت اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا بجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتيـــة الغاء معاهدة بريست اجمالا وكل من بنودها على حدة . وتحققت نبوءة لينين : فبعد ٨ شهور سقط املاء بريست تحت الضربات الموحدة للطبقة العاملة الروسية والالمانية .

ولم يتباطأ القيصر الالمانـــــى المخلوع فى الفرار ووصل الى الحدود فى اليوم التالى مباشرة .

يقول الورثة الروحيون للامبريالية القيصرية الالمانية اليوم ان افراد عائلة رومانوف قد فقدوا قيمتهم السياسية نهائيا قبل نقلهم الى دار ايباتييف ، فلم يعودوا محل اهتمام احد . ولهذا لم تكن السياسة الالمانية بحاجة الى الاهتمام بأمرهـــم ، كما يزعمون . ويدعون ايضا انه ما من احد فى الخارج او فى روسيا ، بل ومن بين الملكيين انفسهم ، كان يعتقد بسلامة وصواب عودتهم .

ولا جدال فى ان نيقولاى الثانى كان شخصية مقيتة حتى فى اعين بعض اليمينيين المتطرفين . فهو من وجهة نظرهم قد لطخ نفســـه بالاخفاقات وحط من قدره بتنازله فى بسكوف . ولهذا السبب كان الالمان يرغبون فى الحصول على عائلـــة القيصر ، اى الكسنـــدرا

فيودوروفنا والكسى ، اذا لم يتمكنوا من انقاذه هو نفسه . فـــان الابن سينصب قيصرا عاجلا ام آجلا ، اما أمه فستصبح وصية على العرش فى عهده ، فمن المعروف انها تمخضت عن مخططات للاستيلاء على السلطة قبل عام ١٩١٧ فى بيتروجراد وصعود معارج السلـــم الذى ارتقته ايكاتيرينا الثانية . وهذا هو سبب «الحلـم الغريب» و«الامل الكبير جدا» الذى تحكم فى مزاج الكسندرا فيودوروفنا فى توبولسك وايكاتيرينبورج : نقل ابنها الى اى مكان آمن ليختفى فيه ومن الافضل ان يكون ذلك فى الوطن الالمانى وانتظار اللحظـة التى سيكون بالامكان فيها تنصيب الكسى قيصرا . وسوف تتولى هـــى التحكم فى عتلات السلطة من جديد من وراء ظهره .

ولا شـــك فى ان هذه الحسابات هى التى املت خطوات برلين لصالح اسرة رومانوف فى ربيع وصيف عام ١٩١٨ . يود البعض طمس هذه الحقائق . ولقد لاحظ ويلتون اياه هذه الخاصيـــة فى حينه . فهو لا يستطيع الا ان يعترف بان تعاطف كيولمان وهوفمان مع القيصرية واسرة رومانوف قد امتزج بمخططات تقسيم روسيا ، كما امتزج الغضب من القيصر لمشاركتـه فى صراع دول الائتلاف ضد المانيا بالرغبة فى انقاذ حياته . واذا كانوا ينفون ذلك ، فان ادلتهم تعانى نقصا : انهم ، اذ يرغبون فى اثبات الكثيـر جدا ، لا يثبتون شيئا . . . فالحقيقة واضحة : هوفمان وشركاه يحاولون ببساطة التنصل من المحاولة الفاشلة .

كان القيصر الالمانى يود مساعدة وانقاذ اسرة رومانوف . ولكن هذا لا يعنى بحال انه الوحيد الذى سعى الى هذا الهدف مقدما على التدخل الفظ فى الشؤون الداخلية لروسيا .

وسوف نبين انه فى اليوم التالى مباشرة لخلع نيقولاى عـــن العرش كد من حول جلالته حلفاؤه الغربيون حتى وقت قريب ونعنى حكومات دول الائتلاف .

كانت مساعدتهم لتمردى كورنيلوف ودوتوف ، ثم الرهان على الكسييف ودينيكين وكولتشاك فى وقت لاحق استمرارا فعليـــا لمخططاتهم الموالية لاسرة رومانوف .

ولا يظهر بوضوح دائما الى اية خزينة من الخزينتين الاجنبيتين كان يتوجه كل منقذ جديد للقيصر ، ألى خزينة المانيا القيصرية ام الى خزينة دول الائتلاف . كان يتوجه الى هذه وتلك فى كثير من

الاحوال . فقد احتال الاتامان دوتوف فى اورينبورج للحصول على اعانات ضخمة من المعسكرين المتصارعين : حصل فى فولوجدا على ١,٥ مليون فرنك من السفير الفرنسى نولانس ، وحصل فى كييف على معونة من العميل العسكرى للقيصر الالمانى العقيد الفينسلبين * .

ومع ذلك يمكن القول : انهم فى الجنوب اعتمدوا فى تلك الشهور بصورة اكثر على التبرعات الالمانية . واعتمدوا فى الشرق على الحماة اليابانيين ودول الائتلاف . وتصرفوا على هذا النحو مسايرين ومتسولين بين الائتلافين المتصارعين او بالاحرى بين منظومتى الاستخبارات الاجنبية واجهزة الامداد والتموين .

كانت ساحة الانطلاق الاولية بالنسبة لكل من سيميونوف وكولتشاك واحدة ، وهى خاربين . فقد تزودا هناك بالسلاح باموال دول الائتلاف واليابانيين وخرجا منها فى الحملة التى بوركت فى صمت من جانب «حلقة ميخايلوف» . وكانا يتلقيان الفرنكات والدولارات من الحكومات الغربية من خلال عميل فى الشرق الاقصى ، وهو اثرى بورجوا (سوف يمارس عمليات التسليم هذه فيما بعد جانين ونوكس ، وهما رئيسا بعثتين لدى «الحاكم الاعلى») . وتدفقت الينات من طوكيو من جينتى تاناكا وزير الحربية هناك (الذى اصبح فيما بعد رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية) يسلمها الى المرسلة اليه العقيد كوراسافا والرائد كوروكى اللذان يخدمان عند سيميونوف . ولم يكن سيميونوف يتميز بحساسية او حرج سواء فيما يتعلق بالنقود او بالمبادئ السياسية . فهو يناضل من اجل «روسيا الموحدة غير المجزأة» ، ولكنه يخدم تاناكا نصير فكرة تقسيم روسيا وضم الشرق الاقصى الروسى الى اليابان ، والذى كان فضلا عن ذلك جاسوسا قديما فى المؤخرة الروسية . ويطالب سيميونوف بانقاذ «كيان الدولة الروسية» ويعلن ان هدف حياته هو احياء سلطة آل رومانوف فى روسيا ومع ذلك يطمح الى ان يصبح حاكما ، فهو يتقبل بتملق وعد تاناكا بوضع سيميونوف على

* علم مؤلف هذا الكتاب بذلك من شولجين فى اغسطس عام ١٩٧٥ فى مدينة فلاديمير . وقد علم شولجين بالاعانات الالمانية من الفينسلبين نفسه الذى تعرف به فى كييف المحتلة عام ١٩١٨ .

رأس «الدولة العازلة فى الشرق الاقصى وشرق سيبيريا» بمجرد ان تتمكن اليابان من انتزاع الاراضى الروسية . . . وهو يروى ذلك فى مؤلفاته عن سيرته الذاتية .

وفى ٢٨ يونيو عام ١٩١٨ ذكر الرائد كوروكى فى تكتم شديد فى خاربين «لنقل ذلك فيما بعد الى انصار الفكرة الملكية فى عمق روسيا» : ان طوكيو قد وعدت بانه «اذا كان الامبراطور الروسى بحاجة الى السفر عبر الاراضى اليابانية او الواقعة تحت سيطرة اليابان ، فسوف يلقى الاستقبال والتأييد اللائقين» . بيد ان هذا المشروع لم يبرر نفسه . ان افواج جايدا وتشيتشيك ، كما هو ، بالمناسبة ، شأن عصابات دوتوف وسيميونوف وكولتشاك التى عملت معها ، خيبت الآمال ولم تبرر الملايين التى انفقها عليها ممولوها فى الولايات المتحدة . يقول المؤلف الامريكى سيدنى هاركييف انه فى تلك الايام «كانوا قلائل الذين راودتهم الاوهام فى ان يتمكن نيقولاى الثانى من الحصول على مكان لقبره الى جوار اسلافه القياصرة فى كاتدرائية قلعة بطرس وبولس» .

ومع ذلك فالحقيقة الدامغة الكبرى هى ان الكتلتين المتصارعتين المتحاربتين قد حاولتا انقاذ عائلة رومانوف فى آن واحد كل لصالحها . وكانت طبيعة هذه المصالح واحدة فى هذه الحالة : فقد تصور ولهيلم الثانى والاوساط اليمينية المتطرفة بدول الائتلاف احياء القيصرية فى روسيا كاداة للمضى قدما فى اخضاع واستعباد البلاد وتقسيمها الى مناطق نفوذ ووحدات اقليمية (حسب الاقتراح القيصرى الالمانى او اليابانى) .

الفصل الثانى

التحالف المقدس : الاساطير والوقائع

بيوركه

كانت لقيصرى روسيا والمانيا اواصر قرابة متشعبة فى عدة بلدان ولا سيما فى انجلترا . ولكن اتصالاتهما العائلية واواصر الصداقة بينهما كانت وثيقة بشكل خاص وحتى حميمة فى بعض الاحيان . فقد كانا يخرجان سوية للنزهة فى العربات الخفيفة او السيارات او يمتطيان الجياد . وكانا يخرجان للصيد فى سبال وشفارتسفالد وغابة بيلوفجسكايا . ولهما صورة فوتوغرافية غير رسمية فى بداية القرن ينظران فيها بمرح الى العدسة محتضنين بعضهما البعض ، وقد تبادلا قبعتيهما واستند كل منهما على الآخر قليلا . وكانت هذه الوضعية مثلهم السياسى الاعلى ايضا . فقد كان القيصران الروسي والالمانى يتجنبان قدر الامكان حقيقة ان دولتيهما اصبحتا فى تحالفين متضادين متصارعين . وقد استسلما مرارا وحدهما دون شهود لاحلام اقامة تحالف مقدس جديد . وتراءى لذهن كل منهما وهما يحتسيان كأسا من الخمر تحالفهما الاوتوقراطى الخاص الراسخ ضد تحولات تطور المجتمع ، والقادر فى اى وقت على ان يكبح بل يقمع اى تمرد او عصيان .

فقد دفعت تيارات التاريخ التى لا يمكن التغلب عليهما بالنسيبين المبجلين الى ناحيتين مختلفتين ثم قربتهما من الاتجاهين المتضادين بحلول الاول من اغسطس عام ١٩١٤ عندما تبادلا لآخر مرة برقيتين خاطبا فيهما بعضهما البعض بنيقى وفيلى . . . ورجا كل منهما صاحبه لآخر مرة ان «يثوب الى رشده» و«يهدأ» . . .

لكن لم تكن لدى هذا ولا ذاك الرغبة فى الهدوء . ولم يود جنرالاتهما وديبلوماسيوهما ايضا ان يثوبوا الى رشدهم . ثم وقع الانفجار . وكان بالامكان ان يحدث هذا الانفجار فى اى وقت آخر ولسبب آخر لا يتعلق بالاحداث فى سيراجيفو : فالقوى المتسببة فيه كانت عميقة جدا وفعالة على نحو لا يمكن وقفه او

ارجاعه . وكانت مصادرها بعيدة جدا عن اطار الارادة الشخصية للنسيبين .

ومع ذلك لم تنقطع نهائيا الصلات العائلية لآل رومانوف وهوهينزوليرن ، حتى فى فترة النزاعات الحادة بين الدولتين التى نجمت عن تعقيدات وتشابكات التناقضات الامبريالية . وكل ما فى الامر ان هذه الصلات كان يمكن لها ان تضعف لبعض الوقت لا اكثر . بل وحتى بعد ان ربطت روسيا القيصرية نهائيا الى عجلة دول الائتلاف ، واصلت الجماعة الموالية لالمانيا فى القصر عملها الدؤوب ، وزاد من تأثيرها وحيويتها ان رئيستها كانت القيصرة ذاتها ، اميرة جيسين السابقة التى لم تتروس تقريبا على امتداد ٢٣ عاما من حياتها فى روسيا .

ولذا كان ولهيلم الثانى ايضا فى عام ١٩٠٥ معبود المئة السود فى عموم روسيا الى جانب قيصرهم . فقد كانت تشخص اليه فى اللحظات الحرجة انظار المشاركين فى المذابح من البوليس والجندرمة ومن «اتحاد الشعب الروسى» السيئ الصيت . وفى اعوام ١٩٠٥-١٩٠٧ توجهت قيادة وفروع الاتحاد (فى كييف وخاركوف وتامبوف وكيشينيف وايليزابيتجراد) بنداءات الى القيصر الالمانى مرات عديدة طلبا للتأييد والمناصرة وبرسائل التحية . وضربت منظمة الاتحاد فى كييف الرقم القياسى فى التزلف ، اذ بعثت الى ولهيلم برقية بتوقيع يوزيفوفيتش تعرب فيها عن «اقصى شعور التبجيل والاحترام والطاعة» .

وتؤكد المطبوعات الالمانية الغربية وجود تحالف غير معلن بين الاسرتين . فقد ذكر سيباستيان هافنر مثلا ان الاسرتين استمرتا حتى فى فترة الحرب تمثلان وحدة ما للمصالح الخاصة ، وحدة اعلى من اى شيء آخر تربط بين الاسرتين الملكيتين فى وجه الثورة التى كانت العدو اللدود بالنسبة لآل رومانوف وهوهينزوليرن على السواء . ونجم عن هذا الانجذاب المتبادل بعث النادى الدولى القيصرى الروسى-الالمانى العتيق الفريد الذى كان اعضاؤه يبقون على مكان لقدر معلوم من التضامن حتى فى حالة الصراع فيما بينهم .

واذا تحرينا الدقة ، فان هذا النادى كان اوسع بكثير فى الواقع . فبالامكان ان نذكر من بين انصاره السريين او الخفيين او الصامتين آل هابسبورج فى النمسا وآل هوهينزوليرن فى رومانيا

وآل كوبورج فى بلغاريـــا وآل كاراجيورجيفيتش فى الصرب وآل بوربون فى اسبانيا وبعض الحكام الاوتوقراطيين الآخرين فى تلك الحقبـــة . ويرى هافنر ان الاثنين البارزين فى النادى كانا القيصر الروسى والقيصر الالمانى . فقد كانت الحرب بالنسبة لهمـا حسب التقاليد القديمة لعبة شيقة ليست لها علاقة تقريبا بالمخاطـــــرة الشخصية «جرت حسب قواعد النادى . . . فقد وازن الطرفان قوتهما وعقدا معاهدة الصلح تبعا للنتيجة : ولم ترد على خاطر اى منهمـا فكرة الصراع حتى القضاء التام على المنافس العسكرى السياسى» . وكانت مراعاة قواعد النادى ايضا هى واحدة مـــــن الفضائـل فى العلاقات بين آل رومانوف واقاربهم الالمان عـلى امتداد قرنين . ويكتب هافنر : «لا حاجة الى الكلام عن مدى الاهمية التى اكتسبتها بالنسبة لهم فكرة هذا التضامن عندما ظهرت مشكلة الصراع ضد البلشفية» .

وبحكم «فكرة التضامن هذه» كان يتوجه نيقولاى من آن لآخر بالرجاء الى ولهيلم لتحقيق بعض الخدمات الشخصية . ففى عـــام ١٩٠٥ مثلا طلب عن طريق فيته قرضا مـــن الاموال مـن برلين للنفقات الخاصة بقمع الثورة . وطرح على القيصر الالمانى فى الوقت نفسه مسألة تخصيص فيلق المانى للمشاركة فى حملات القمع فى كل ارجاء الامبراطورية . وفى احد ايام الخريف من السنة نفسهـا رتب حقائبه استعدادا للهرب من البلاد مع اسرته . حينذاك ظهرت المدمرة «١١٠» الالمانية فى خليج فنلندا بالقرب من بيترجوف التى ارسلها ولهيلم لتكون تحت امرة قريبه . وكما نشرت احدى صحف العاصمة باسلوب متأدب فانه «تسكـــع فى الخليج وراء المدمرة اسطول كامل غير روسى الاصل والمصلحة» وبقى فى المياه الروسية حسب تعبير صحيفة «فيتشيرنى بطرسبورج» «الى ان انتفت الحاجـة الى وجوده» . وقد اضفى جهازا المباحث والبوليس بالبلدين صفة عملية على تعاونهما فى تلك السنوات وكان عملاؤهما يتنقلـــون باستمرار كالمكوك بين بطرسبورج وبرلين .

انشأ قسم المباحث للقيصر الروسى بمساعدة السلطـــــات القيصرية فى برلين واحدة من النقاط القوية الرئيسيـــة للنشاط التخريبى والتجسسى فى القارة الاوربية . وقد حظى كما جاء فى مجلة «بيلويه» فى عام ١٩١٧ بدعم اجهزة البوليس فى البلدان الاجنبية

الاخرى ايضا . ولكن موقف البوليس الالمانى منه كان يتسم بتعاطف وود خاصين . ومهما كانت الطلبات التى يتقدم بها الى الجندرمة الالمان «اخوتهم الروس» فانهم كانوا على ثقة دائما بانه «لن يرد لهم طلب» . واذا ظهرت اية «عقبات شكلية» فى هذا الصدد فان رئيس البوليس على استعداد دائما لتقديم المساعدة ولو بشكل غير رسمى وفى سرية مطبقة . اما كيف كان يقدمها فهذا ما تشهد عليه الرسالة التى بعث بها القنصل الروسى فى برلين كودريافتسيف الى دورنوفو مدير دائرة البوليس حول الدعم التام الذى يقدمه فون مادان رئيس البوليس الالمانى فى «ملاحقة قسم المباحث للثوريين الروس فى اوربا» .

تبين هذه الوثيقة وغيرها ان السلطات القيصرية البرلينية كانت تزود بطرسبورج بانتظام بالمعلومات عن طبع الادبيات الروسية فى مطابع لايبسيج وميونيخ . وكانت تنقل من شهر لآخر معلومات عن نشاط الجماعات الثورية الروسية فى المانيا الى راتايف رئيس عملاء قسم المباحث القيصرى فى الخارج ، وكان مقره فى باريس . ومن بين الخدمات الخاصة التى قدمها جواسيس برلين الى جواسيس بطرسبورج فى تلك السنوات : اعتقال وتسليم البلشفى كامو (سيميون تير-بيتروسيان) ، وتسليم غيره من الثوريين الى قسم المباحث .

وينسب سفر تاريخ اوربا ما يسمى بحادثة بيوركه الى الاسرتين عند المشارف البعيدة للطوفان الجائح . وترجع هذه الحادثة الى صيف عام ١٩٠٥ عندما اغرى ولهيلم نيقولاى ، حيث وعده بدعم عرشه الايل الى السقوط واقترح عليه ان يتفقا معا بمعزل عن حكومتيهما على التحالف المقدس .

وفى ٢٣ يوليو دخل يختان يحملان العلامتين الامبراطوريتين الى خليج بيوركه بالقرب من فيبورج من جهتين متقابلتين . والتقى النسيبان لبحث الوضع فى اوربا . وانتقل ولهيلم الى يخت القيصر الروسى «بوليارنايا زفيزدا» .

اجتمع الامبراطوران طوال يومى الثالث والعشرين والرابع والعشرين . ثم استدعى القيصر الروسى وزير بحريته الادميرال بيريليوف واقترح عليه ان يوقع اتفاقية التحالف الروسى-الالمانى دون ان يقرأها . فامتثل الادميرال للامر .

امضى النسيبان وقتا جيدا فى غرفة اليخت ولكن ما لبث ان اتضح ان جهدهما ضاع سدى . اذ كانت هذه المعاهدة تناقض كل نظام العلاقات الدولية وتعهدات روسيا .

اولا : تعهدت روسيا بناء على هذه المعاهدة بالدفاع عن المانيا فى حالة نشوب حرب مع فرنسا ، ولكن روسيا كانت ملزمة بالدفاع عن فرنسا فى حالة الحرب مع المانيا حسب معاهدة التحالف التى كانت سارية المفعول حينذاك .

ثانيا : تعهد القيصر الالمانى بالدفاع عن روسيا الاوربية ضد اعتداء «اية دولة اوربية» عليها . ضد اية دولة ؟ أضد المانيا ذاتها ؟ ام ضد فرنسا ؟ لكن روسيا متحالفة معها . ربما ضد النمسا-المجر ؟ ولكنها فى تحالف مع المانيا ومن ثم فلن تعتدى على حليف حليفها . او ربما ضد ايطاليا ؟ انها كما هو الحال بالنسبة للنمسا-المجر عضو فى التحالف الالمانى (الثلاثى) . أضد انجلترا ؟ انها لا تستطيع خوض حرب برية ضد روسيا .

أضد اليابان ؟ نعم ، كانت هى مصدر الخطر . خاصة وانه لم يكن قد تم التصديق على معاهدة صلح بورتسموث حتى ذلك الحين . ولكن ولهيلم لم يقطع على نفسه اية تعهدات فى بيوركه تجاه روسيا فى الشرق الاقصى ، ومن ثم كان بوسع نيقولاى ان يحارب هناك بمفرده قدر ما يشاء .

احدث خبر اتفاقية بيوركه بلبلة فى العواصم الاوربية ومن بينها بطرسبورج . وقد دار الحوار التالى بين فيته * بعد عودته من بورتسموث ولامزدورف وزير الخارجية :

لامزدورف : هل اطلعتم على الاتفاقية المبرمة فى بيوركه ؟

فيته : كلا . لم اطلع عليها .

لامزدورف : هل من المعقول ان ولهيلم وصاحب الجلالة لم يطلعاك عليها ؟ (كان فيته قد عرج على القيصر الالمانى فى طريق عودته من الولايات المتحدة الامريكية عبر المانيا) .

فيته : كلا . لم يطلعانى عليها . انتم ايضا لم تسمحوا لى بالاطلاع عليها عند وصولى الى بطرسبورج وزيارتى لكم قبل ان اتوجه الى جلالته .

---

* **فيته** (رئيس مجلس الوزراء حينذاك) ترأس الوفد الذى وقع معاهدة الصلح مع اليابان فى بورتسموث . — **الناشر** .

لامزدورف : انا نفسي لم اكن اعلم بوجودها . . . والآن انظروا الى هذا الشيء الرائع .

فيته (وقد قرا الوثيقة) : ارى ان هذه المعاهدة محض دسيسة ، ناهيك عن انها غير متكافئة . وهى غير شريفة تجاه فرنسا . . . فهل صاحب الجلالة على غير علم بمعاهدتنا مع فرنسا ؟

لامزدورف : كيف ! ؟ انه على علم تام بها . وقد يكون جلالته قد نسيها ، وعلى الارجح انه لم يستوضح جوهر الامر فى الضباب الذى اطلقه ولهيلم . . .

فيته : ينبغى الغاء هذه المعاهدة مهما كلف الامر .

واستوضح فيته عن دور بيريليوف . وهو يرى ان الاتفاقية باطلة حتى لمجرد ان وزير الخارجية لم يوقعها . وبيريليوف لا شأن له هنا .

فيته : هل تعرفون ايها الادميرال ما الذى وقعتموه فى بيوركه ؟

بيريليوف : كلا . لا اعرف .

فيته : كيف حدث انكم لا تعرفون ؟

بيريليوف : انا لا انكر اننى وقعت ورقة ما بالغة الاهمية .

فيته : ما الذى تتضمنه اذن ؟

بيريليوف : ليس لدي ادنى تصور عما تحتويه . فقد حدث ذلك على النحو التالى : استدعانى صاحب الجلالة فى غرفة المكتب باليخت وقال لى : «هل تثقون بى يا الكسى الكسييفيتش ؟» واضاف بعد اجابتى : «اذا وقعوا هذه الورقة . انتم ترون اننى وقعتها انا والامبراطور الالمانى . . . وهو يرغب فى ان يوقعها احد وزرائى ايضا» . وقعتها .

توجهت مجموعة المبادرة الى القيصر وكانت مكونة من فيته وايزفولسكى والامير الكبير نيقولاى نيقولايفيتش . لم تصمد البنية الديبلوماسية المنقولة من نموذج تحفة ميتيرنيخ لاول تجربة للانفصال . فقد كتب نيقولاى رسالة الى ولهيلم تحت ضغط مساعديه يطلب اليه فيها اعتبار وثيقة بيوركه غير سارية المفعول الى ان تنضم فرنسا اليها . وعبثا حاول ولهيلم فى رده تحريض نيقولاى ضد فرنسا : «ان حليفتك قد تركتك دون دعم على امتداد الحرب كلها ، فى حين ان المانيا ساعدتك بشتى السبل . . . وهذا يفرض على روسيا واجبا اخلاقيا تجاهنا ايضا : do, ut des (فانا

اعطيك لكي تعطيني) . . .» * (انه يمنن على نحو واضح بامتناعه عن الهجوم على روسيا فى اثناء الحرب الروسية-اليابانية) . وعبثا استحث القيصر الروسي : «لقد مد كل منا يده الى الآخر ووضعنا توقيعينا امام الرب . . . ما وُقع وُقع» . ظل نيقولاى اصم ازاء هذه الشكاوى . وتقلصت اهمية وثيقة بيوركه الى الصفر .

قل لى من هو صديقك . . .

قال ولهيلم ذات مرة موجها حديثه الى مستمعيه الالمان لكنه كان يضع فى حسبانه مستمعيه فى روسيا وفرنسا : «اطمئنوا ، سأحقق لكم خيرات السلام الالماني . واحذر الذين تسول لهم انفسهم التطاول عليها من اننى سألقنهم ، اذا اقتضت الضرورة ، درسا يتذكرونه مئة عام» . وقال فى خطبة اخرى موجها كلامه الى فرنسا التى لم تنس ضياع اراضيها الشرقية (الالزاس واللورين) : «نحن الالمان نعلن : فلتهلك فيالقنا الثمانية عشر جميعا وليُمح شعبنا كله بملايينه الاثنين والاربعين ، فهذا افضل من ان نعطى ولو شبرا من الاراضى التى اكتسبناها» . ثم يتحدث مخاطبا روسيا بوضوح : «لن اتردد فى سحق الذين سيعيقوننى فى تحقيق خططى الدولية» . بعد ان استمع شوفالوف الى كثير من هذه الخطب فى برلين قال منقبض النفس فى تقرير قدمه الى رئاسته فى بطرسبورج : «ينوه القيصر الالماني فى كل مناسبة بعزمه على تحطيم اية مقاومة على الطريق الذى اعتزم ان يقود فيه الشعب الالمانى بوحى من الرب» .

ولكن عندما وصل الى بطرسبورج لم يظهر على شخصيته اى شىء ربانى . لقد راى الجميع ضابطا بروسيا متكلفا صلفا ليس فيه من العظمة الروحية اكثر مما فى نسيبه الروسى . بل ان الناس كانوا يتساءلون احيانا : من منهما يتفوق على الآخر برجعيته المتطرفة وميوله الاستبدادية ؟ وقد اثار ضجة حينذاك رسم

---

* فى عام ١٩١٩ اختفى عدد كبير من رسائل ولهيلم من المحفوظات فى ظروف غامضة . ثم نشرت بعد ذلك فى الخارج . جرت المراسلة بالانجليزية التى استخدمها كلاهما فى مراسلاتهما البريدية . ونحن ننشرها هنا مترجمة .

كاريكاتورى نشرته «بانتش» اللندنية التى اعطت النسيب الالمانى الاولوية من حيث الجور والطغيان .

كانا يسافران لزيارة بعضهما البعض ولحضـــور العروض العسكرية والاحتفال بالاعياد اليوبيلية العائلية وتبادل الهدايا . وكانا فى اثناء الزيارات يدغدغان على نحو مستحب غرور بعضهمـا البعض بتبادل كلمات الحب والود حول المائدة والتفنن فى عبارات المجاملة . وبعد الوداع كان كل منهما يغمز على الآخر ويصب عليه سيلا من الكنايات والنعوت الخبيثة . وكانت المماحكات والمخاصمات بين الامبراطورين بسبب توافه الامور تكتسب فى بعض الاحيـان طابعا طويلا مملا ، بحيث كانت الاجهزة الديبلوماسية القلقة تضطر الى التدخل فى علاقاتهما . وكانت تقع حوادث فاضحة صغيرة احيانا وكبيرة احيانا اخرى .

وهكذا ، فمنذ عام ١٩٠٦ تقريبا اخذوا يلاحظون فى روسيـــا ان الامير هنريخ البروسى (شقيق القيصر الالمانى) وزوجته ايرينا (شقيقة القيصرة الروسية) كانا ، اذ يأتيان لزيارة اقاربهمـــا ، يبديان فضولا مفرطا فى صدد المعلومات السرية للدولة . ولفـت النظر انهما كانا فى الحفلات والاستقبالات وسط الوجهاء يتقربان من العسكريين ورؤساء الدوائر والخبراء فى المسائل الخاصـة . وتكوّن انطباع متزايد بانهما لم يكونا ضيفين بقدر ما كانا مبعوثين وجاسوسين . يقول اونجيرسكى ، احد العاملين فى وزارة الداخلية : «جوبهت لاول مرة باحد هذه الاسئلة الغريبة فى شتاء عامى ١٩٠٩-١٩١٠ ، حينما تعرفت فى بطرسبورج بهذين الزوجين عند الكونتيسة كلينميخيل . . . وفيما بعد حاولا مرارا ان يطرحا علىّ اسئلـــة فضولية لدى اللقاءات فى بيوت وجهاء بطرسبورج فى عامى ١٩١٣ و١٩١٤ ، وفى بيوت وجهاء موسكو القدماء ، وعند شقيقة ايرينا - الاميرة الكبيرة ايليزافيتا فيودوروفنا فى قصر الكرملين الصغير . وقد «محضانى» انتباههما واهتمامهما ، ورغم كـل افراطهمـــا فى التأدب ، امطرانى بالاسئلة اللجوجة عن واقع الامور فى روسيا . . . لعلهما كرسا حياتهما الطويلة كلها لتوحيد الاسرتين وخدمة مصالح هذه وتلك ، وبالدرجة الاولى مصالح الاسرة الالمانية ، طبعا . فما الذى كانا يسترشدان به فى عكوفهما العنيد الثابت على جمـــع المعلومات فى الوسط الروسى ؟ أكان هذا بدافع التطفل والفضول

فقط ام بهدف معرفة بواطن الامور لصالح الامبراطورية الالمانية والاسرة الالمانية ؟ ليس عندى من شك فى انه السبب الاخير» .

وهكذا نرى انه بناء على تعليمات القيصر الالمانى يقوم شقيقه بالاشتراك مع شقيقة الكسندرا فيودوروفنا بالتجسس فى روسيا ، لجمع المعلومات لحساب برلين من مصادر لم تكن متاحـــة لاى جاسوس آخر موهوب ومحنك .

ان العلاقات المتبادلة بين القصريـــن فى بطرسبورج وبرلين كانت بوجه عام «دافئة اكثر منها ساخنة» لانها كانت تتعقد دومـــا بسبب نزوات ولهيلم . اما فى فترات التعقيدات السياسية فكانــت «باردة اكثر منها دافئة» .

ان «ويلى المحبوب» يجيد احيانا الحديث مـع القيصر الروسى بصوتين مختلفين تماما فى آن واحد ، حيث يختلط الكلام اللطيــف المعسول باللفظ المتوعد ، الذى لم يسمح به لاحد مـن شركـاء روسيا فى السياسة الخارجية الا نادرا . فحينما كان الاسطول الروسى يدور اوربا متوجها الى ميدان الحرب مع اليابان ، استغل ولهيلم لحظة ضعف نيقولاى وطالبه بان يتعهد بالدفاع عن المانيا فى حالـة دخولها الحرب ضد دولة ثالثة . وفى النص الاصلى كان جزء الرسالة الذى يتضمن التهديد على النحو التالى حرفيا :

برلين ، ١٩٠٤/١٢/٧

العزيز الغالى نيقى !

. . . من الضرورى ان احصل منك على ضمان بان تساعدنى اذا اعلنت انجلترا او اليابان الحرب علىّ . . .

واذا لم تضمن لى انك ستحارب معى بشرف وكتفا لكتف فى حالـــة الحرب ، فسوف اضطر للاسف الى منع السفن الالمانية من تقديم الفحـــم لاسطولك .

تحيتى الى اليسا .

نسيبك وصديقك الذى يحبك بحرارة دائما ويلى .

ولكن ايا كانت التقلبات فى العلاقات بين البلاطين ، ومهمـــا حدث من مد وجزر فى القطيعة والحياة الرغدة بينهما ، فان القيصر الالمانى ظل بالنسبـة لاسرة رومانوف فى كـل الاحـوال والظروف النسيب المقبول وويلى المرح المحبوب ، وان كان طائشا ومثيرا للكثير من المتاعب فى بعض الاحيان ، ولكنه منهم وفيهم على ايـة

حال . كان منهم الى درجة ان اسرة رومانوف لم تنقطع عن مراسلته (فى سرية تامة ، طبعا) حتى فى سنوات الحرب العالمية الاولى .

احلام معسولة

يقول المثل الالماني : تعقب الثرثار حتى عتبة كذبه .

ولقد تعقب القدر ولهيلم مرارا الى هذه العتبة . حدث ذلك عندما كان امبراطورا ، وعندما عاش فى دوورن بعد ان صحا من الهزات . اخذ ، لتزجية الوقت ، وتبديد الوحشة المطبقة ، يقرأ الطالع بواسطة ورق اللعب مستعرضا الشخصيات التاريخية لعله يبيض صفحته امام التاريخ وكأنه لم يرتكب ذنبا على الاطلاق .

كتب ولهيلم رسالة الى وزير الحربية الروسى السابق سوخوملينوف يعرض فيها قراءاته : ارست المعاهدة التى ابرمت فى بيوركه بينى وبين نيقولاى الثانى اسس اتفاق السلام والصداقة بين روسيا والمانيا . . . غير ان هذه المعاهدة لم تصبح سارية المفعول بسبب تدخل الديبلوماسية الروسية (ايزفولسكي وسازونوف) ، والجنرالات الروس واعضاء مجلس الدوما * وشخصيات اخرى . ان الحرب العالمية التى طمحوا اليها لم تبرر آمالهم وبددت كل خططهم . وفقد القيصر عرشه كما فقدته انا . ان العواقب الفظيعة التى حلت بروسيا بسبب اعتدائها على المانيا وكل الاحداث التى تلت ذلك تبين ان الدولتين لن تجدا الخلاص مستقبلا ، كما حدث منذ ١٠٠ سنة خلت ، الا بالوحدة المتبادلة الوثيقة لاحياء القيصرية فى البلدين .

ولهيلم الثانى ، الامبراطور والملك

وفى التحفة التى اوردناها لهذا اللاجئ ينعكس كذب وغطرسة الامبريالية الالمانية العدوانية كما تعكس نقطة الماء العكر تلوث حوض بأسره .

هكذا اذا : القيصر الالمانى ولهيلم الثانى لم يعتد ، بل اعتدى عليه ، لم يرد الصدام فى الاول من اغسطس عام ١٩١٤ ، بل فرض عليه . الآخرون هم الذين سعوا الى الحرب العالمية وعقدوا الآمال عليها ، اما ولهيلم وجنرالاته فلا شأن لهم هنا . محصلة الحرب «احبطت خطط» الآخرين ، اما هو فلم يكن عنده ما يحبط ،

---

* او دوما الدولة ــ هيئة تشريعية تمثيلية محدودة الحقوق اضطر القيصر الى تاسيسها امام تصاعد ثورة ١٩٠٥ــ١٩٠٧ . ــ **الناشر** .

فلم تكن لدى اركانه العامة خطط ولا حسابات . وليست عند ولهيلم اية ادعاءات ضد نيقولاى : لقد حرف سازونوف وايزفولسكى وزعماء دول الائتلاف نسيبه عن الطريق القويم ، وبالنتيجة فقد والقيصر الروسى عرشيهما . ولكنه يرى ، والحق يقال ، ان تنحيته عن العرش باطلة فهو ما زال يكنى نفسه ملكا وامبراطورا . اما روسيا فقد حلت بها «عواقب وخيمة» ، وهو يعنى بها ، طبعا ، الثورة ونهاية نيقولاى وترسيخ السلطة السوفييتية على نطاق الامبراطورية السابقة . وفى الواقع ، ثمة ما ترتعد له فرائص ولهيلم : بظهور روسيا السوفييتية الجديدة خبا امل تحقيق برنامج «حملة الشرق» سواء فى شكلها القيصرى او فى شكلها الهتلرى اللاحق . وكان القيصر الالمانى السابق يهدئ من روع سوخوملينوف المعين للمخابرات الالمانية الذى جمع يوما بين التجسس ومنصب وزير الحربية الروسى : قد يسعفه الحظ فيلقى العالم بما فى ذلك روسيا والمانيا ١٠٠ عام الى الوراء . وكلما اطاح بها بعيدا فى طيات الماضى كان ذلك افضل . ان اتفاقية بيوركه التى وقعت فى غرفة اليخت «لم يسر مفعولها» ، لا بأس فليبعث الرب قيصرا جديدا ، وعندئذ يجد استراتيجيو الحملات الجديدة على غرار «حملة الشرق» و«حملة الغرب» خلاصهم المقبل فى «وحدة وثيقة متبادلة» على اساس تحالف عائلى ينبعث من جديد . . .

استسلم الوزراء والجنرالات والمحافظون ورجال الدين القيصريون السابقون لهذه الفكرة على مر عقود فى المهجر . واطاعوا ولهيلم وجنرالاته فى عامى ١٩١٧ و١٩١٨ وكليمنصو ولويد جورج وويلسون فى عامى ١٩١٩ و١٩٢٠ وتزلفوا لهتلر وجنرالاته فى اعوام ١٩٤١–١٩٤٤ .

الفصل الثالث

منابع تاريخ الاسرة

تولى المنصب

عندما بلغ نيقولاى الكسندروفيتش السادسة والعشرين من العمر ، اصبح فى عام ١٨٩٤ القيصر الثامن عشر من آل رومانوف . وقد تربع على العرش مدة ٢٣ عاما . ومن سخرية التاريخ انه احتفل فى ٢١ فبراير عام ١٩١٣ بذكرى مرور ٣٠٠ عام على حكم الاسرة ، عشية سقوطها .

خلافا لرأى بعض مساعديه المستائين منه ، لم يكن هو السبب الوحيد ولا السبب الرئيسى لهذا السقوط . ولكن لا جدال فى انه بذل القسط الذى يستطيعه فى هذا السقوط .

من بين قياصرة آل رومانوف السبعة عشر الذين تربعوا على العرش قبل نيقولاى الثانى لم يمت الا القلائل ميتة طبيعية بهذه الدرجة او تلك . لقد مات والده الكسندر الثالث وهو شاب نسبيا (٤٩ عاما) ، ربما بسبب اصابات لحقت به نتيجة حادث بالسكك الحديد قرب خاركوف ، او لالتهاب بالكليتين من جراء الافراط فى تعاطى المسكرات . ان بعض خصائص طبعه التى ورثها عن والده مثل الغرور والصلف وحب الذات وشح الخيال ، قد زادت حسب قول احد معاصريه فى مجلة «بيلويه» «من القسوة واللامبالاة بمعاناة الآخرين ، الكامنتين فى اعماق روح نيقولاى الكسندروفيتش والمميزتين لآل رومانوف عموما» . وثمة ما ورثه ايضا عن امه ، الاميرة الدانماركية داجمارا : قصر القامة والانطواء التام والقدرة على النظر الى ما يكرهه بعينين حانيتين عطوفتين ، اقرب الى عينى عاشق احيانا .

وعندما بلغ ولى العهد التاسعة من العمر بدأ دراسته المنزلية التى نظمت له خصيصا . ان احد اساتذته ، الجنرال دانيلوفيتش ، كان فى السابق رئيسا لمدرسة المشاة الحربية . واثناء احد العروض اعجب به الكسندر الثالث وعينه «مديرا لدروس ولى العهد

نيقولاى» (مع جعل الاشراف العام لبوبيدونوستسيف) .
عملت هيئة الاساتذة ١٢ عاما لتطوير القدرات الذهنية والذوقية لولى العهد . ثم اضيفت السنة الثالثة عشرة . وكانت أهم مادة هي التي يعرضها بوبيدونوستسيف : مسلمة المنشأ الالهي للحكم المطلق وحصانة السلطة القيصرية . وكان الكسندر الثالث ، وهو شخص ذو طبع صعب وشبه امى ، قد اصدر هذه التعليمات لتعليم ابنه .

وفى خلال الاعوام الثمانية الاولى درس ولى العهد حسب منهج المدارس العادى مع حذف اللغتين الكلاسيكيتين اللاتينية واليونانية القديمة من المنهج وتقوية دروس اللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية وكذلك دروس ما يسمى بالتاريخ السياسى . اما السنوات الخمس الاخيرة فقد خصصت «للعلوم العليا» مع التركيز على العسكرية منها : الاستراتيجية والتكتيك وكذلك علم المساحة . وكان لبير يقرأ له تاريخ الحروب ، وبيكيتوف يدرسه الكيمياء ، وكوى - التحصينات والاستحكامات ، وشتوبيندورف - الطوبوغرافيا . ودرسه بونجه الاحصاء والاقتصاد السياسى . وشغل مستر هيت او كما كانوا يسمونه فى القصر كارل اوسيبوفيتش مكانة خاصة فى مدرسة بوبيدونوستسيف : ولم يكن مدرسا فى واقع الامر قدر ما كان مربيا . فقد غرس فى تلميذه منذ سنيه المبكرة عادة استعمال اللغة الانجليزية بدلا من الروسية . كان من الاسهل على نيقولاى ان يعبر عما يريد بالانجليزية من ان يعبر عنه بالروسية ، وغالبا ما كان حديثه باللغة الام اشبه بترجمة حرفية من الانجليزية .

كان محظورا على اساتذة كل المواد توجيه الاسئلة للتلميذ . اما هو فلم تكن لديه رغبة فى طرح الاسئلة ، ولذا ظلت درجة استيعاب العلوم لغزا حتى النهاية . وبقيت الممارسة الاطلاعية خارج غرفة الدراسة . وكانت تروق لولى العهد اكثر ، ولذا كانت تستغرق وقتا اطول . وامضى عدة فترات مخصصة للمعسكرات لدى القوات بالقرب من العاصمة (اغلبها قرب كراسنويه سيلو) : صيفين فى فوج بريوبراجينسكى ، بمثابة ضابط اول الامر ، ثم قائد سرية ؛ وقضى موسمين آخرين فى فوج الخيالة قائدا لفصيلة

وقائدا لسرية ؛ ثم صيفا آخر فى وحدات المدفعية . وآخر ما توصل اليه هو قيادة كتيبة برتبة مقدم .

وخصص له والده طرادا فى بحر البلطيق بهدف اتمام تعليمه وأمره بالقيام برحلة الى الشرق الاقصى . وابحر نيقولاى شهورا عديدة عبر البحار والمحيطات مكونا انطباعاته الى ان قطعت الجولة فى اليابان بمحاولة اغتياله .

وبحلول خريف عام ١٨٩٤ عندما اشتد المرض بالكسندر الثالث ظهر خليفته امام العالم وروسيا شابا متأثرا جدا بالثقافة الانجليزية يبدو عليه تواضع الى حد يتصرف بلطف وتحفظ ، ويتحدث الانجليزية بطلاقة والروسية بشيء من الصعوبة (بالاضافة الى لكنة عسكرية غريبة) ، وكان مستوى تطوره لا يعلو على مستوى ضابط خيالة عادى .

تباينت آراء الذين استطاعوا القاء نظرة الى نيقولاى عن كثب . قال البعض انه شتيك-يونكر وقال آخرون انه زاؤورياد-برابورشيك * . وقال غيرهم انه نموذج جديد للامبراطور الراحل بافل الاول . وقال البعض الآخر انه حسن التأدب والتربية ولكنه شاب خطر وذو وجهين ومغرور .

سأل دورنوفو وزير الخارجية ذات مرة فيته عن رأيه فى القيصر الشاب . فقال فيته ان نيقولاى ، فى رأيه ، «عديم الدراية والخبرة بالمرة على الرغم من انه غير غبى» ، وهو يترك انطباعا بانه «انسان مؤدب جدا» . فرد عليه دورنوفو : «لقد جانبكم الصواب يا سيرجى يوليفيتش ، سوف تتذكروننى : انه سيكون نسخة من بافل الاول ولكن فى عصرنا الراهن . . .» ويقول فيته معقبا : نيقولاى الثانى ليس هو ، طبعا ، بافل الاول تماما ، ولكن لديه الكثير من ملامح هذا الاخير ، وكذلك من ملامح الكسندر الاول : التصوف والمكر والغدر . . . وبالمناسبة ، ليس لديه تعلم الكسندر الاول . ذلك «كان واحدا من اكثر الروس تعلما» ،

---

* شتيك-يونكر : فى القرن الثامن عشر فى روسيا رتبة فى المدفعية (ادنى من رتبة ضابط) . زاؤورياد-برابورشيك : رتبة تمنح للاشخاص الذين يكلفون بمناصب الضباط (وكانوا يعينون من ضباط الصف) . — **الناشر** .

اما نيقولاى الثانى فذو «تعليم متوسط كما عند عقيد من الحرس منحدر من عائلة ميسورة» .

كان الكسندر الثالث يعانى سكرات الموت ، على مقعده الوثير فى شرفة قصر ليفاديا * . وفى ذلك اليوم ، يوم العشرين من اكتوبر عام ١٨٩٤ ، نشرت صحيفة «يالطا» آخر نشرة عن حالته الصحية وقعها ٥ اطباء . قال لماريا فيودوروفنا ** فى الصباح الباكر : «اشعر بان النهاية قد حانت» . وقبيل وفاته بساعتين طلب استدعاء ولى العهد وامره ان يوقع هناك ، فى الشرفة ، بيانا لسكان الامبراطورية بتبوئه العرش . فقال ولى العهد : «حاضر يا ابتاه» . ومهر الوثيقة بامضائه .

جاء فى البيان : «لقد عهد الينا الرب بالسلطة القيصرية على شعبنا . وسوف نكون مسؤولين امام عرشه عن مصير الدولة الروسية» . تعهد فضفاض ، ولكنه مريح لنيقولاى . كان يعنى ذلك سلطة مطلقة فى يده وحده . وكان نيقولاى يفهم ويقدر تماما فائدة هذا .

وتضمن البيان كذلك بلاغين حسب التقاليد المرعية فى مثل هذه الاحوال : أ — من هى زوجته ، ب — من هو ولى عهده . واجاب على النقطتين فى عبارة واحدة : «. . . نأمر كل رعيتنا باداء قسم الولاء لنا ولولى عهدنا الامير الكبير جيورجى الكسندروفيتش الذى سوف يحمل لقب ولى العهد ، الى ان يشاء الرب ويرزقنا بابن من زواجنا المرتقب من الاميرة آليسا جيسين-دارمشتادت» .

وبوفاة جيورجى فى عام ١٨٩٩ اصبح ميخائيل الشقيق الآخر

---

* القصر الصيفى للقيصر على الساحل الجنوبى للقرم . — **الناشر** .

** والدة نيقولاى الثانى (١٨٤٧—١٩٢٨) ابنة ملك الدانمارك خريستيان التاسع . واسمها الحقيقى داجمارا صوفيا دوروتيا . توفيت بضواحى كوبنهاجن . وقد وصلت الى روسيا فى عام ١٨٦٤ . وتزوجت ولى العهد الكسندر فى عام ١٨٦٦ . وكانت شقيقتها الكسندرا (الكساندرينا) زوجة ادوارد السابع ملك انجلترا . وهى والدة جورج الخامس . ومن هنا احدى اواصر القرابة بين الاسرتين الحاكمتين الروسية والانجليزية (كان نيقولاى الثانى وجورج الخامس نسيبين) . ويعتبر فريدريك التاسع ملك الدانمارك حفيد شقيقتها ، وقد توفى عام ١٩٧٢ . ومرجريت الثانية ملكة الدانمارك هى ابنة حفيدة شقيقة ماريا فيودوروفنا .

للقيصر وليا للعهد . وظل يحمل هذا اللقب حتى عام ١٩٠٤ الى ان ولد ألكسى .

وبعد ١٠ ايام من وفاة والد القيصر الجديد ، ظهر فى اول حفل استقبال فى قصر الكرملين الكبير فى قاعة جيورجى امام ممثلى الشرائح . ودون فى مفكرته : «نهضت فى ذلك الصباح تعترينى انفعالات رهيبة» . فقد كان عليه ان يذكر الحاضرين بان سلطته مستمدة من الرب ولذا فهى راسخة ، ولكن الخطيب كان مضطربا من الخوف . وقد دون فى دفتر يومياته بارتياح : «مر هذا كله بخير والحمد لله» .

على ان الحفل الآخر الذى جرى فى قصر انيتشكوف فى بطرسبورج (١٧ يناير عام ١٨٩٥) لم يكن بهذا القدر من التوفيق . فقد اجتمعت فى القاعة الكبرى وفود تمثل طبقة النبلاء ومجالس الزمستفو * والمدن . وكان على نيقولاى أن يلقى كلمة فى هذا الجمع ايضا . واعد بوبيدونوستسيف الكلمة له بحيث يكون توبيخا لمجموعة من اعضاء الزمستفو الليبراليين من نفير الذين اعربوا عن استيائهم لانعدام بعض الحريات البرجوازية . ووضعت الورقة التى كتب فيها النص بخط كبير فى قبعة الخطيب المصنوعة من فرو استراخان . وفى الساعة الثانية ظهرا اعتلى منصة العرش وجال فى القاعة بنظره والقى كلمة فى الحاضرين . وروى احد رجالات الزمستفو فيما بعد يقول : «رأيت بوضوح كيف كان بعد كل عبارة يقولها يخفض ناظريه الى اسفل ، الى قبعة كما كنا نفعل فى المدرسة فى حالة عدم معرفتنا الدرس جيدا» .

ووقف الامبراطور الشاب ايضا امام اعضاء مجلس الدولة الذين اجتمعوا فى قصر انيتشكوف اياه . كتب مراقب اجنبى عن مدى دهشتهم عندما رأوا خفته الطفولية وخفقته فى مشيته ونظراته التى يلقيها من تحت جبهته وحركاته المتشنجة . . . دخل الشاب وجلا الى الغرفة التى كان اولئك الوجهاء الشيب ينتظرونه فيها ، وخفض عينيه وانتزع من نفسه بصعوبة شديدة عبارة واحدة : «ايها

---

* الزمستفو — الادارة الذاتية المحلية الخاضعة لاشراف النبلاء . كانت صلاحياتها تقتصر على القضايا الاقتصادية المحلية الصرف . — **الناشر** .

السادة ، باسم المرحوم والدى ، اشكر لكم خدمتكم» . راوح قليلا وكأنما يريد اضافة شيء ما ، ولما عجز عن ذلك ، استدار وخرج . تبادل الحضور النظرات : «كان البعض فى حيرة ، والبعض فى حزن وحسرة . وكثيرون توجهوا بقلوبهم الى السماء ضارعين اليها ان ترأف بالامة» . جاء «القيصر الشاب وذهب كهبة ريح فى رمـال الصحراء وتركهم يفركون أعينهم من الحيرة والارتباك» .

عادى الى درجة غير عادية

انه يجلس فى غرفة والده بقصر الشتاء ، الى مكتب تكدست عليه اوراق لم يقرأها . يشعر هنا بعدم الالفة وبالحرج ، بـل وبشيء من الخوف . يتململ فى مقعده الوثير ، واذا باعمامـه ، الماجنين ، المتهتكين ، يندفعون الى الغرفة ويجلسون فى ضجيج * . وطالما بقى الضابط المناوب واقفا بجوار المكتب ، يستطيـع نيقولاى ان يقول لاعمامه شيئا وجيها ، ويستمعون اليه بالاحترام المطلوب . وما ان يغلق الباب وراء الغرباء حتى تدق قبضة فلاديمير او سيرجى الثقيلة على المكتب فيغوص القيصر المبتدئ فى مقعده . وتمر مدة من الزمن ويتعود القيصر على وضعه الجديـد فيهدأون ويتصرفون فى غرفة مكتبه بهدوء وسكون حتى لا يطردهم مـن الغرفة .

كان قوى البنية كثير الحركة . تدرب جيدا فى سباقات اليخوت والدراجات والخيل والمسيرات على الاقدام والرماية بالبندقيـة . (كان يخرج لمسافة ١٠-١٥ كيلومترا فى ضواحى كراسنويه سيلو وفى منطقة ليفاديا وقد تزود بكل ما يلزم الجندى . وقد أعـرب حينذاك الكاتب انطون تشيخوف عن رأيه كطبيب ، فقال : «يقولون خطأ انه مريض وغبى وحانق . وكل ما فى الامر انه ضابط حرس عادى . لقد رأيته فى القرم ومظهره سليم معافى ، وكل ما فى الامـر ان لون بشرته شاحب بعض الشيء» .

---

* المقصود اشقاء الكسندر الثالـث : فلاديميـر (توفى عام ١٩٠٩) والكسى (توفى عام ١٩٠٨) وسيرجى (قتـل عام ١٩٠٥) وبافـل (اعدم بالرصاص فى قلعة بطرس وبولس فى يناير عام ١٩١٩) .

كان شخصا لا أفق له ولا خيال . كانت بواعثه تافهة صغيرة ، واغلبها شخصي بحت . وقد تولى حكم الامبراطورية كما يتسلم الموظف وظيفته في الدائرة . انه يأتي الى الخدمة في التاسعة والنصف صباحا وينهي عمله في الثانية ظهرا . يجري المقابلات الرسمية ويستدعي الوزراء ويستمع الى التقارير ويترأس الاجتماعات احيانا .

وبعد ذلك بامد طويل اشتكى رئيس مجلس الدوما رودزيانكو الى موظفيه من ان القيصر «شحيح الكلام» في المحادثة ، و«يلوذ بالصمت» في اغلب الاحيان ولا يجيب عن الاسئلة : المقابلات معه نوع من العذاب لانها مرتبطة بضرورة «الكلام دون اي جواب» . وبهدف بعث الحياة فيه كان رودزيانكو يحاول في اثناء الحديث ان يحدق فيه بنظرة ويلفت انتباهه اليه ، ولكنه كان كالسابق ينظر جانبا دون اكتراث ، وتعابير وجهه «لا تنم عن شيء» : ومع ذلك فان هذا الصمت لم يكن ، حسب ملاحظات رودزيانكو ، يعني اللامبالاة . فاذا «لاح شيء في الحديث» يمس شخصه مباشرة ، كان يتغير على الفور و«تلمع عيناه وينهض بحدة ويسير في الغرفة» . وكان رودزيانكو يقطع الغرفة معه ذهابا وايابا في هذه الاحوال محاولا ان «يثبت له ما لم يسمعه تقريبا منذ عدة دقائق مضت» .

لم يحدث قط ان كان لدى نيقولاي الثاني سكرتير خاص او لشؤون الدولة . ولم يكن لديه ايضا مساعد لمكتبه لتسيير الامور ومتابعة سير الاوراق . وكان لا يعتمد الا على الضابط الخفير المناوب او ياوره الخاص .

كان يقرأ عددا كبيرا من الاوراق . ويقرأ بالامسيات ايضا بحرص وحتى التعب . وكان يرى ان هذا الواجب هو اكثر الواجبات اثارة للملل ، وكان يثقل عليه منذ البداية . وكان يلقي نظرة من حين الى آخر الى كومة جديدة من الاوراق المقدمة اليه ويحاول ان يتخلص منها بسرعة . منذ الخطوات الاولى كانت يومياته تعكس الصراع الثقيل ، الكئيب مع الاوراق : «قرأت حتى الغداء متغلبا على تقرير مجلس الدولة . . .» ؛ «تأتي عليّ ان اقرأ كثيرا . والشيء الوحيد الذي يهدئ النفس ان جلسات مجلس الوزراء قد انتهت» ؛ «فرغت في المساء من قراءة تقرير وزارة الحربية . وبدا لي وكأنني جندلت فيلا . . .» . وبعد ان استمع في يوم واحد

الى ثلاثة تقارير من الوزراء كتب فى يومياته : «خرجت لأتنزه متبلد الذهن» .

كان القيصر محروما من ملكة الاحساس بالدعابة . اتضح ذلك من الاستمارة التى ملأها اثناء احصاء السكان فى عموم روسيا عام ١٨٩٧ . فقد اجاب القيصر عن السؤال الخاص باللقب : «النبيل الاول» . وكتب فى خانة «نوع العمل» : «صاحب الارض الروسية» .

ان قراراته فى الوثائق الرسمية مبتذلة ، اما مفكراته اليومية فهى مملة ، باهتة لا اصالة فيها . انك لن تصادف هنا اية فكرة فريدة او عبارة مميزة . وافكارها ، شأن سطورها ، رتيبة وعلى نمط واحد تماما . ولا تجد منذ الايام الاولى لفترة حكمه المليئة بالهزات اى صدى تقريبا للاحداث الاجتماعية . وليست هناك اية اشارة الى الاسماء البارزة الهامة فى عصره : الكتاب والمفكرين والزعماء الاجتماعيين او السياسيين . وليس هناك شىء عن محتوى او مغزى عمله . ولم يكن يدون فيها الا الامور الشخصية البحتة والصغيرة التافهة : الغداء وشرب الشاى والتنزه والحفلات ولون ورق الجدران الجديد او الارائك الجديدة ، واستقبال الضيوف او الزيارات . وتسجل الحالة الجوية بدقة نادرة من يوم لآخر : مطر ، ثلج ، صقيع ، رياح ، شمس مشرقة ، حرارة قائظة . كما تذكر درجات الحرارة .

كان يرتدى زى الضباط عادة ، ولكنه كان يبهر زواره احيانا بزى مبرقش غير مألوف . فكان تارة يخرج لمقابلة الوزراء فى زى شركسى وخنجر ، وتارة فى قميص روسى قرمزى اللون وحزام وسروال عريض ادخل طرفيه فى جزمته . وكانت كلماته امام النواب وفى الحفلات قصيرة فى الغالب . واذا جمعت معا تترك انطباعا رديئا ، وحتى ان السلطات اضطرت ذات مرة لحماية كرامة القيصر : فقد صادر البوليس «المجموعة الكاملة لخطب الامبراطور نيقولاى الثانى» لاعوام ١٨٩٤–١٩٠٦ الصادرة عن دار «دروج نارودا» نقلا عن الجريدة الرسمية .

كان يعتبر نفسه انسانا مثقفا ، ولكنه لم يكن يطيق كلمة «مثقف» . فعندما نطق بها أحد الحاضرين فى اثناء حفلة اقيمت لتكريمه (فى احدى جولاته فى المحافظات الغربية) نظر الى من تفوه بهذه الكلمة وقال : «كم اكره هذه الكلمة» . واضاف انه سيأمر

اكاديمية العلوم بحذف هذه الكلمة من اللغة الروسية . وقد اكد هذا المشهد الامير سفياتوبولك-ميرسكى الذى كان مرافقا للقيصر فى جولته وكان آنذاك محافظا عسكريا ثم اصبح فيما بعد وزيرا للداخلية .

كان القيصر يقرأ صحيفتى «نوفويه فريميا» و«جراجدانين» ومجموعات الاقاصيص المسلية المزودة بالصور والرسوم الكاريكاتورية ، ولم يطلع على مؤلفات ليف تولستوى وتورجينيف وليسكوف وسالتيكوف-شيدرين الا بعد ذلك بسنوات كثيرة ، فى منفاه فى توبولسك .

كان يحب بعد ان يفرغ من الاعمال اليومية الحكومية العكوف على لصق الصور الفوتوغرافية فى الالبومات ولعب الدومينو ونشر الاخشاب . وكان من دواعى سروره وغبطته ايضا ان يتنقل من قصر الى آخر للمعيشة : من قصر الشتاء الى القصر الكبير فى بيترجوف ، ومن بيترجوف الى بافلوفسك ، ومن بافلوفسك الى تسارسكويه سيلو ، ومن تسارسكويه سيلو الى ليفاديا ، ومن ليفاديا الى انيتشكوف . وكان فى هذه الحالات يقوم بكل الترتيبات بنفسه . فكان يرتب حقائبه بيديه ويضع بنفسه قائمة الاشياء ويحرص على الا يضيع شىء منها . وكان لدى وصوله الى المكان الجديد يفتح الحقائب ويفرغها بنفسه ويعلق اللوحات والايقونات ويرتب المقاعد والارائك على ذوقه .

كان يعتبر نفسه عسكريا محترفا (مع انه لم يكن راضيا عن رتبته ، فقد اشتكى لزوجته ذات مرة من انه تسمر فى رتبة عقيد ، والترقى محظور قانونا بعد توليه العرش) . وكان يحب تفقد القوات والعروض العسكرية ، ويحضر احيانا اعياد الفوج . وبعد توليه الحكم كان من اولى مشاكل الدولة فى نظره الزى العسكرى الموحد وخاصة مسألة الازرار . كيف ينبغى ربط المعاطف والسترات الرسمية ؟ هل يكون ذلك بالازرار ام بالخطاطيف ؟ واشرك النسيب الالمانى عن طريق عقيلته فى المشاورة حول الخطاطيف . فارسل اليه الاخير برقية فى ١٦ اغسطس عام ١٨٩٧ : «نيقى . هل انت جاد حقا فى عزمك على الانتقال الى الازرار ؟ فكر جيدا وزن الامر» . فاجابه : «نعم . لقد وزنت كل شىء» . وحلت المسألة لصالح الازرار . لكن كيف ينبغى ان تكون الازرار : غامقة

ام فاتحة ؟ وحل التفكير السليم هذه المعضلة ايضا : يجب ان تكون الازرار فاتحة ، لامعة .

ينبغي ان يكون ورق الجدران مبرقشا والكتب زاهية والازرار لامعة . ولكن ماذا بالنسبة لتمثال والده ؟ ينبغي ان يوحى بتبجيل السلطة العليا ، وبالرهبة العادية التى يبعثها رجل بوليس فى النفس . وكان نيقولاى نفسه تجسيدا لهذا التعالى وهذه البساطة العادية . لقد كان كله ، حسب شهادة احد المعاصرين ، عاديا الى درجة غير عادية .

وحسب ذوقه المتفق مع هذه الصفة اقيم تمثال الكسندر الثالث فى ساحة زنامينسكايا فى بطرسبورج ، وكان نموذجا فريدا لفن النحت الكاريكاتورى . كان تمثالا يعكس المستوى السياسى الحكومى للاب والمستوى الروحى الجمالى للابن .

كان القيصر الشاب يترأس احيانا جلسات مجلس الدولة والاجتماعات الاستثنائية ، الطارئة . وقد استوعب هذا العمل تدريجيا . كان يجلس فى مقعد الرئاسة فى هدوء ويصغى بانتباه . وكان قليل الكلام لا ينطق بما هو نافل او غير مناسب ، واذا تكلم لا ينطق بالجواهر والدرر .

كان القيصر موظفا . ولغته لغة موظفين . ومنطق تفكيره منطقهم . ومع ذلك فليس هذا كله سوى جانب من جوانب جوهره . لقد ترك لنا معاصروه من شهود العيان والمقربين فيضا من السمات المتناقضة لصورته فى تلك السنوات المبكرة من حكمه ، مثل التواضع الظاهرى الذى يصل الى حد الخجل وشطحات الاستبداد والتعنت ، والاتزان الخارجي والهلع العصبى الكامن فى عينيه ، وحب الاولاد فى اسرته واللامبالاة بحياة الآخرين ، والقعود فى البيت والميل الى الولائم ، وابداء المجاملة واللباقة ، و«السحر» للناس فى حضورهم ، ومنتهى الحدة فى اطلاق الآراء والاحكام من وراء الظهر ، والتشكيك فى كل ما حوله والاستعداد للثقة باى أفاق او دجال ، وتقديس الارثوذكسية والدقة فى تنفيذ الشعائر الكنسية .

وتطغى البواعث الشخصية على غيرها فى تفكيره وتصرفاته . وكان الناس بوجه عام والوزراء والمقربون بوجه خاص ينقسمون لديه الى فئتين محددتين بوضوح : سيئون وجيدون . الفئة الاولى

تضم الذين لا يثق فى ولائهم له وفائدتهم لشخصه . وتضم الفئة الثانية من كان وفيا له ومفيدا لشخصه ويستطيع ، فضلا عن ذلك ، تلهيته وتسليته .

يمكن ان نعرف من مذكرات رئيس الوزراء السابق فيته من كان يأسره وباية صفة . لقد كان الادميرال بيريليوف وزير البحرية «مسليا ولطيفا جدا على الدوام فى نظر الامبراطور والامبراطورة لنكاته وقفشاته» ؛ وكان مورافيوف وزير العدل «مهرجا مضحكا يجيد القاء النكات» ؛ وكان قومندان القصر الجنرال تشيريفين «مسليا جدا» ؛ وكان الامير لوبانوف-روستوفسكى «مضحكا جدا باستمرار» ؛ وكان الامير اوبولينسكى «مسليا ومحبا للمزاح» ؛ وكان سوخوملينوف وزير الحربية «محبا للمزاح جدا» . وبالمناسبة ، عندما اتيحت لنيقولاى فرصة تقديم هذا الاخير الى الرئيس بوانكاره بعد ذلك بوقت طويل ، تجنب بحذر ان يمس قدراته التهريجية واكتفى بالقول : «انه كما ترون لا يغرى بمظهره ولكنى خلقت منه وزيرا رائعا يحظى بثقتى التامة» . وقد علق الرئيس قائلا : «انه سوخوملينوف نفسه الذى يتحمل افدح مسؤولية عن الاخلال بالنظام وفساد الادارة الحربية فى روسيا . ومن حسن الحظ انه ترك منصب وزير الحربية الذى ارتكب فيه الكثير جدا من الشرور» .

اما فى الواقع ، فلم يكن يحب احدا سوى نفسه وعدة اشخاص من اهل بيته . كان قليل العطاء ويجازى من يتزلف له بالازدراء . وكان بوسعه ان يلاطف شخصا ثم يسرحه بعد ساعة . وكان يتذكر الاساءة جيدا ولا ينساها ابدا .

واذا كلف وزيرا بمهمة خاصة كلف آخر على الفور بالمهمة نفسها من باب عدم الثقة ، الامر الذى ادى مرارا الى الهياج الصامت لدى افضل مساعديه . فقد حدث مثلا ان عقد القيصر اجتماعين فى آن واحد لمناقشة مشروع الدستور (فى احدهما يلقى فيته التقرير ، وفى الآخر جوريميكين) دون ان يعلم كل منهما بالاجتماع الآخر . وعندما علم ملقى التقرير الاول بذلك كتب انه متضايق جدا من احابيل القيصر هذه : «. . . انه غير قادر على تسيير الامور بصراحة ويسعى دائما للسير فى طرق ملتوية . . .» وحيث ان جلالته لا يتمتع بقدرات ميتيرنيخ او تاليران فان احابيله تؤدى به عادة الى

نتيجة واحدة : الى «حفرة قاذورات فى أحسن الاحوال» وبركة دماء فى اسوأ الاحوال .

كان يعين الوزراء ويعزلهم ببساطة ، واجدا فى ذلك تسليته احيانا . كان منصب وزير الداخلية شاغرا . ولا بد من وزير جديد . يضطلع جوريميكين نائب الوزير باعماله موقتا . ولا يريد هذا ان يتحمل اية مسؤولية ولا يضطلع سوى بالاعمال اليومية الجارية نظرا لان الوزير قد يعين بين يوم وآخر . يقول فيته رئيس الوزراء فى لقاء دورى منفرد بالقيصر ان من المستحيل الاستمرار بدون وزير لانه يتراكم فى الوزارة جبل من القضايا «المعلقة التى لا تتحرك من ارضها» .

فقال القيصر ، ردا على ذلك :

– لقد تحدثت معكم ذات مرة يا سيرجى يوليفيتش عن ترشيح بليفه وسيبياجين . وسألت قسطنطين بيتروفيتش (بوبيدونوستسيف) عن رأيه ايضا . وقال لى رأيه . ولكنى لم اقرر بعد تعيين احد فى انتظار وصولكم .

وسأل رئيس الوزراء :

– وما هو رأى قسطنطين بيتروفيتش اذا تفضلتم جلالتكم باخبارى ؟

– قال لى بكل بساطة : بليفه وغد ، اما سيبياجين فأحمق .

– وهل يوصى بتعيين شخص ما ؟

اجاب القيصر مبتسما :

– اجل لقد اقترح شخصا ما . . . ولقد تحدث عنكم ايضا بالمناسبة .

قال رئيس الوزراء :

– يا صاحب الجلالة ، اننى أخمن بثقة تقريبا ما قاله لكم عنى .

– وماذا قال ؟

– لعله قال لكم : ان فيته هو الذى يصلح ، مع انه هو الآخر . . . ولعله نطق هنا بشىء أشبه بالعبارة المعروفة لسوباكيفيتش فى «النفوس الميتة» : «ثمة شخص شريف واحد فقط هو النائب العام ، وحتى هو ايضا خنزير اذا توخينا الصدق» .

وضحك القيصر :

– ما رأيكم لو عينت جوريميكين ؟

قال فيته انه لا يستطيع ان يقول عنه شيئا معينا . ثم اضاف ان كل الاحتمالات تشير الى ان بوبيدونوستسيف يوصي بتعيين جوريميكين لان جوريميكين رجل قانون وبوبيدونوستسيف ايضا رجل قانون ، ومعروف ان رجال القانون يساندون بعضهم بعضا شأن خريجي الليسيه .

حينئذ قال القيصر :

– اذا سأعين جوريميكين .

هذا فى حين ان الكلام كان يجرى عن احدى الدوائر التى كان القيصر ينظر اليها بعطف ، ان لم نقل بحنان . فهى لم تضمن النظام البوليسى فى الامبراطورية فحسب ، بل ضمنت امن القيصر وشخصيته المقدسة . حقيقة ان احد المساعدين قد تساءل حسب قول فيته : «من يستطيع التطاول على امبراطور مثل نيقولاى الثانى ؟» يبدو ان قاذفى القنابل لم يكونوا مهتمين بشخصه كثيرا فى واقع الامر . اذ لم يلحظ احد آنذاك او بعد ذلك دلائل على اية محاولات لتعقبه ، كما كان الحال بالنسبة لجده ووالده . وفسرت حوادث مثل الطلقة من قلعة بطرس وبولس او حادث يخت «شتاندارت» فى جزر فنلندا على انها سوء فهم .

فى عشية يوم الاحد الدامى جرى على شاطئ النيفا احتفال بيوم عيد الغطاس . دخل نيقولاى فى صحبة حاشيته الى السرادق الذى اقيم امام قصر الشتاء لحضور تقديس المطران للماء . وكما جرت العادة اطلقت المدفعية عيارات التحية من قلعة بطرس وبولس . وفجأة انفجرت قرب السرادق قذيفة محدثة دويا . واتضح ان احد المدافع قد اطلق قذيفة حية . واظهر التحقيق خطأ المدفعى العفوى . ولكن القيصر اصيب بالذعر وتحدث الناس عن حدوث محاولة لاغتياله .

وفى الحالة الثانية ارتطم يخت القيصر اثناء نزهة فى بحر البلطيق بصخرة تحت الماء وحدث ثقب به . واجلى ركاب اليخت الى الشاطئ . وأجرى قسم المباحث تحقيقا فى الحادث واتضح ان الامر لم يكن متعمدا وان السبب هو ضعف تدريب طاقم البحارة ، وان الادميرال نيلوف ربان اليخت القيصرى كان يسكر دائما على الرغم من انه كان على مرأى من القيصر باستمرار .

جلس القيصر وستوليبين الى جواره تحت فوهـــة مســـدس بوجروف (فى مسرح الاوبرا بكييف) ولم يحظ القيصر باهتمـــام الارهابى المغامر اذ كان ستوليبين هو هدف التصويب المباشر . ومع ذلك لم يستسلم نيقولاى كثيرا لاوهام لطف القدر به ، ولم يكن فى نيته البقاء تحت رحمته . واهتم بامنه الشخصى ربما اكثر من اهتمامه باى شىء آخر .

عندما وصل الضيف الفرنسى موريزه عمدة بولون الى بيتروجراد فى اوائل العشرينات ، اتجه الى ساحة الديسمبريين حيث يقع مبنى مجلس الشيوخ السابق تحدوه رغبة شديدة فى الاطلاع على ارشيف قسم المباحث الموجود هناك . ثم كتب فى كتابه فيما بعد ان اكثر ما هزه هناك هو الوثائق التى تبين نظام اعلام القيصر باخبار عمل الجهاز السرى . كانت تقارير قسم المباحث توضع بانتظام على مكتب نيقولاى الثانى مرة كل اسبوع . وكان اساسها التقارير المكتوبة التى كانت تشغل عدة غرف بأكملها من اسفلها الى اعلاها بما فى ذلك ما كان يسمى بغرفة المندسين . وكانت غاصة بـ٦٠ صندوقا تضم ملفات الثوريين ، وهى الدليل المادى لنتائـــج استفزازات البوليس الروسى فى خلال ٢٣ عاما ، من ١٨٩٤ الى ١٩١٧ .

قال موريزه بدهشة : «يا له من نظام بديع ويا لها مـــن منظومة رائعة ! اننى ارى هنا كل تاريخ تعقب الحركة الثوريـــة الروسية . . . فلقد سجلـــه قسم المباحث باحترام يومـــا اثر يوم . . . كل ملف له نظامه الواضح ، وكل بطاقـــة لمن يجرى تعقبه تضم المعلومات جميعا عن حياته وكل كلمة وحركة له خلال سنوات كثيرة . . . » ما هو الهدف النهائى لهذا الاجتهاد الشديد للعملاء السريين ؟ ان يعرف العاهل الامبراطور كل شىء ، وان يلقى القبض بعلمه على من ينبغى . . . «نستطيع ان نرى ، فى اى مجلد نأخذه دون تحديد ، ملاحظات بخط القيصر . واذا لم تكن هنـاك ملاحظات يمكن ان نرى خطا احمر وهو الطريقة التقليدية التى تبين دائما مدى الاهتمام الدائم الذى كان جلالته يوليه لدراسة التقارير البوليسية» . ثم يضيف موريزه شيئا اشبه بخلاصة عاطفية : «كم أنفق من الجهد والوقت ، ولماذا ؟ ان الكسندر الثانى الذى وهب هذا العمل ٢٦ عامـــا قد سقط تحت ضربات من كان يتعقبهـــم

ويراقبهم . . . بليفه ، والامير الكبير سيرجى . . . وكم كان من امثالهما ايضا ؟ هل اعاقوا بعقوباتهم احدا او شيئا ؟» .

لم يعيقوا ، ولكن نيقولاى قد يعيق . . . فمنذ السنوات الاولى لحكمه يضاعف عدد حرسه الخاص . وينشئ «وزارته السوداء» الخاصة فى اعماق هذا الحرس . ويعهد لقومندان حرس القصر بصلاحيات واسعة لم يسبق لها مثيل . وشغل هذا المنصب فى عهده تريبوف وتشيريفين السكير (الذى كان فى الخدمة منذ عهد والده) والامير ينجاليتشيف ذو الظل الثقيل وجيسى التافه الكثير الحركة وديديولين الزلق مثل رغوة الصابون . واعتمد «المسبح بحمد الله» عليهم وعلى قسم المباحث وعلى دائرة البوليس وحرص على ان تكون بينه وبين رعاياه ابعد مسافة ممكنة . وليس هذا من الصعوبة بمكان طالما بقى فى القصر . ويختلف الامر عندما يريد ان يذهب الى ليفاديا او يسافر فى ارجاء الامبراطورية .

الامبراطور شخصية مقدسة ولا يمكنه ان يعرض نفسه لمخاطرة الاحتكاك بالشعب العزيز على قلبه . وكانت سفراته ترتب على هذا الاساس .

تعلن حالة الطوارئ على امتداد سكك الحديد وطرق السيارات الرئيسية لمسافة آلاف الكيلومترات . وتنقل الى هناك الافواج والفرق فى حالة استعداد للقتال . ويصرفون للجنود الذخيرة الحية وجراية تعيين المسير . ويملأون المحطات بالجندرمة والمخبرين والمتطوعين من رجال المئة السود . وتتوقف اية حركة اخرى على الخطوط وتحت الجسور .

وبعد عودة الزوجين من رحلتهما الدورية كانا ينخرطان فى مشاغلهما العادية فى قصر الشتاء . وكان افضل هذه المشاغل وأحبها الى نفسيهما الامسيات والحفلات الراقصة التى تقام بالقصر . كانوا يحتفلون فى العاصمة برحيلهما وعودتهما وبمناسبات اعياد الميلاد والزواج ويوبيلات اسرة القيصر ويوبيلات الدولة احيانا . كان الامبراطور وزوجته يشعران فى هذه الحفلات ، كما فى القصر عموما ، براحة واطمئنان أكثر مما فى سهوب الامبراطورية المكشوفة .

لقد اقام جلالة الامبراطور فى قصر الشتاء حفلات كثيرة جدا لكبار النبلاء . وقدم ايضا فى بداية حكمه بعض الهدايا للشعب .

وليمة كبرى فى ميدان خودينكا

جرى حفل التتويج بعد اعلان تولى العرش . وكان ذلــك فى موسكو .

ووضع بدقة برنامج احتفالات التتويج التى عينت فى مايو عام ١٨٩٦ . وقد وضعه فورونتسوف-داشكوف وزير البلاط ونائبــه فريديريكس وفون دير بالين المشرف الاول على المراسم . وكانت هذه اللجنة خاضعة للامير الكبير سيرجى عـم الامبراطور الشاب . وكان الامير حتى وقت قريب استاذا فى تنظيم الولائم ، وكان يشغل فى ذلك الحين منصب المحافظ العسكرى لموسكو .

وأسفرت جهودهم عن ٣ وثائق اساسية تحدد برنامج المراسم على امتداد ٣ اسابيع : «مراســم التتويــج» و«القانون الخاص بتخصيص المؤن للعسكريين لدى ارسالهم فى مأموريات الى موسكو بمناسبة التتويج المقدس» و«برنامج الفترة من ٦ الى ٢٦ مايو عام ١٨٩٦» الصادر عن ادارة التتويج .

وقد ضم هذا البرنامج كل شىء وكان يقع فى عشرات الصفحات . وتناول كل شىء بتفاصيله الدقيقة الا شيئا واحدا ، وهو انه فى ١٨ مايو سيقام مهرجان شعبى فى ميدان خودينكا توزع فى اثنائه هدايا القيصر . ولم ترد بالوثائق المذكورة اية كلمة عن كيفيــة تنفيذ هذا البند من بنود البرنامج والمسؤول عن تنفيذه . وكل ما ذكر انه فى اثناء المهرجان الشعبى سيجتمع بحلول الساعــة الثانية ظهرا فى الجناح الامبراطورى فى هذا الميدان كل الشخصيات السامية من ضيوف موسكو واعضاء السلــك الديبلوماسى . وفى الساعة الثانية وعشر دقائق يصــل جلالــة القيصر والقيصرة الى هناك . وتقوم بالعزف لتهيئة جو الاحتفال الاوركسترا السيمفونية الكبيرة بقيادة سافونوف . وينبغى ان يبدأ الحفل بقطعة موسيقية وضعها قائد الاوركسترا خصيصا لهذه المناسبة .

كانت هناك فسحة كبيرة من الوقت قدرها ١٤ شهرا بين تاريخ صدور القرار بالاحتفال فى ميدان خودينكا فى ٨ مارس عام ١٨٩٥ وبين يوم التتويج . ولم يعملوا شيئا تقريبا خلال هذه الفترة سوى اقامة البوفيهات فى طرف الميدان . ولم تعر السلطات اى اهتمام لحالة الميدان نفسه . هذا فى حين ان ذلك كان فخا حقيقيا للشعب .

في ذلك الزمن كانت تسمية خودينكا تطلــق على ارض جرداء شاسعة تستخدم لتدريب قوات حامية موسكو . وكانت فيها خنادق ومتاريس ، وفيها حفر وآبار من أولها الى آخرها . وقررت اللجنة ان يحتفـــل شعب موسكو بين هذه الافخاخ : يعطى كل قادم الى الميدان لفافة من الورق فيها طلمة وقطعة سجق وكعكة ونحو ١٠ ملبسات و٥ حبات من البندق . وبالاضافة الى ذلك كانوا يوزعون للذكرى «قدح التتويج» المطلى بالميناء وعليه الاحرف الاولى لاسم القيصر الجديد . وجهزوا ٤٠٠ الف لفافة وقدح .

عندما بدأ الازدحام ، أخذ المتعهدون يلقون اللفافـــات على الجموع المحتشدة ، معولين بذلـــك التخفيف من الهرج والمرج ، ولكن هذا لم يجد وزاد من الكارثة . ولم يدرك أحد انه كان ينبغى تأمين النظام مسبقا فى الميدان .

اخذ الناس يزحفون الى خودينكا منذ المساء وطوال الليل . . . وغصت الطرق المؤدية الى الميدان بجماهير الشعب الزاحفة . فقد توجه الى الميدان سكان موسكو والقرى والبلدات الصناعيـــة فى ضواحيها يحدو بهم جميعا حب الاستطلاع الساذج بالاضافـــة الى الامل فى الراحة والتنزه والهاء النفس عن العمل اليومى القسرى الذى أنهكهم تماما . . . ولم يتوجه الى هناك بسطاء الناس وحدهم ، بل كان بين الحشود الزاحفة فى بعض الاماكن تجار وحتى ارستقراطيون مثل الاميرة رينا جوليتسينـــا التى كانت فى الثالثة والعشرين من عمرها ودفع بها حب الاستطلاع الى خوديكنا بجوار العامـل يميليان ياجودكوف (الذى أنقذها) .

وصف ليف تولستوى فيما بعد هذا اليوم المشؤوم فقال ان اغلب هؤلاء الناس كان «مرحين انيقين» . لقد ذهب يميليان الى هناك بعد أن ارتدى «أحسن ما عنده» ولمع جزمته و«قرأ بعض الصلوات» . . . وأخذت رينا ابن عمهـــا معها وتوجهت الى نفس المكان «سعيدة فرحة مبتهجة لمجرد فكرة انهـــا . . . مع الشعب ووسط الشعب تحتفل بتبوّؤ القيصر ، معبود الشعب ، على العرش» .

فى فجر ١٨ مايو احتشد فى خودينكـــا أكثر من نصف مليون شخص على أقل تقدير . ولا توجد اية معطيات دقيقة بالطبـــع . وهناك بعض المصادر يذكر رقما آخر هو مليون وحتى مليـــون ونصف مليون شخص .

تلاحمت حشود الناس الكثيفة دون نظام ، وكان ذلك يجرى اساسا على مساحة كيلومتر مربع واحد بشكل مستطيل يحيط بها الطريق ونهر موسكو ومعسكر المحاربين والبوفيهات التى اقيمت للاحتفال . وقد وجد الذين وصلوا فى المساء والليل مكانا مرتفعا مريحا على متاريس الخنادق . يفيد تقرير رسمي لوزير العدل مورافيوف غير مخصص للنشر انه فى الساعة الخامسة صباحا «غطى بخار كثيف من الضباب الجموع المحتشدة على نحو عاق تمييز الوجوه حتى على مسافة قريبة . وكان الموجودون حتى فى الصفوف الامامية يتصببون عرقا ويبدو عليهم الانهاك» . والذين كانوا اول من وصل الى الميدان وجدوا انهم كمن وقع فى مصيدة . وغدا من المستحيل على المرء ان يجد لنفسه مخرجا من هذا الجمع . واخذت أنسات الذين حل بهم التعب والاجهاد تتزايد باستمرار . وشعر الناس بالاختناق حتى فى الهواء الطلق لان «الجو كان مشبعا بالبخار مما حجب عنهم الهواء» .

أخذ الازدحام يتزايد وأصبح دفع الناس وضغطهم مثارا للعذاب . وحدثت حالات من الاغماء والغثيان . وحسب وصف تولستوى رفعت الحشود من فقدوا الوعى تلقائيا الى أعلى و«دحرجتهم فوق الرؤوس الى خط البوفيهات حيث تلقتهم ايدى الجنود (ظهرت مفارز الجنود فى هذا الوقت على أطراف الميدان وكان وصولهم متأخرا جدا) . ونقل كثير من الاطفال بالطريقة نفسها على رؤوس الحشد الى مكان فسيح» .

قال الحوذى الذى كان يسير مع يميليان بصوت عال : — احضره هنا — وأخذ الغلام ورفعه فوق الحشد . وقال له :

— اجر على رؤوس الناس .

تلفت يميليان فرأى الغلام يغوص بين الجموع تارة ويعلوها تارة أخرى ، وأخذ يتباعد على رؤوس واكتاف الناس .

رقصة كادريل عند السفير الفرنسي

قالوا فى وقت لاحق ان سبب هلاك الناس بالجملة على هذا النحو يعود الى الذعر . هذا صحيح . ولكن يتضح من تقرير مورافيوف الذى سبق واستشهدنا به ، وكذلك من المواد التى

استخدمها ليف تولستوى فى كتابة قصته ان عددا من الضحايا قد وقع على الارض قبل حدوث الذعر . وكان هؤلاء ، كما كتب مورافيوف ، «ممن حل بهم الضعف وفقدوا وعيهم او الذين ضغط عليهم حتى الموت . . . وقد تناقلت الحشود فوق الرؤوس بعض الموتى . ولكن نظرا لضيق المكان ظلت جثث كثيرة بين الحشود الى ان تمكنوا من انتشالها . . .وحاول الجمهور فى حالة ذعر أن يبتعد عن الجثث ، ولكن ذلك كان مستحيلا ولم يسفر عن شىء سوى زيادة الضغط» .

ومع نهاية الساعة السادسة صباحا ، ظهرت حركة فى مختلف ارجاء الميدان ، وكأنها بايعاز مشؤوم من شخص ما ، واضطربت جماهير الناس واخذت تنهض . وادى السقوط فى الحفر والصياح اليائس الصادر عن الذين داستهم الاقدام الى ذعر شامل . ويستطرد مورافيوف قائلا : «كان الاموات المحشورون بين الجماهير يتحركون معها» وبدات البلبلة . ولقى الشيوخ والنساء والاطفال مصرعهم فى الحفر وبين أكوام التراب بعد ان داسوهم ودهسوهم . وتحولت الآبار الى قبور . وترامت من هناك صيحات وعويل انصاف الاحياء الذين اختلطوا بالموتى . واندفع بعض الاحياء الذين سلموا بمعجزة ، «من الممرات وقد تمزقت ثيابهم وهم مبتلون من العرق ، وبدت على عيونهم نظرة مخيفة . . . وسقط كثيرون منهم على الفور فى أنين . وكان احد من تبقوا على قيد الحياة ممدد فوق الجثث ومن فوقه جثث اخرى» .

منذ بضع ساعات فقط قالت رينا جوليتسينا لوالدها انها تود «ان تكون مع الشعب لا ان تنظر اليه فقط» وانها «تريد ان ترى موقفه من القيصر الشاب» . اما الآن فقد تمددت الى جانبها امرأة «بفستان مخطط ممزق وشعر اشقر مشعث . كانت مستلقية على ظهرها . لم يكن وجهها شاحبا ، بل كان ابيض مائلا الى الزرقة كما هو حال الاموات» . وقد قدمت هذه المرأة ايضا لكى تعرب عن «موقفها الطيب من القيصر الشاب» . ولكنها كانت «اول من سقط صريع الزحام . وألقوا بها الى هنا وراء السياج ، امام جناح القيصر» . وعندما دفعت الجموع رينا نفسها الى مكان ما واستبد بها الهلع «صرخت طالبة الشفقة والرحمة . ولكن لم تكن هناك

رحمة . . . فحل بها الضعف وغشى عليها . سقطت ولم تدر من أمرها شيئا» .

كان الثرى المعروف موروزوف بين الجموع ايضا . وعندما اطيح به مع الجميع الى الحفر صاح انه سيعطى من ينقذه ١٨ الفا . . . وقد تساءل تولستوى فيما بعد : «لماذا ١٨ الفا بالذات ؟ ولكن أهم ما فى الامر هو هذا التغير الذى حدث : فى البداية كان السرور والفرح يعم الجميع ، ثم هذه المأساة وهذه الاجساد التى داستها الحشود . . . انه أمر فظيع !»

تعجل المسؤولون فى ازاحة الجثث عن الميدان . فكلما اسرعوا فى ابعادها ومحو الآثار قلت كآبة حفلات الاستقبال وحفلات المرح واصبح مزاج الملوك والامراء الذين دعيوا الى الحفل من كل ارجاء المعمورة اكثر صفاء . بسرعة . . . بسرعة ! نقلوا الموتى والجرحى معا على الزحافات والعربات نفسها . . . ها هو احد الاطباء يحاول تضميد جريح . ولكنهم اخذوا الجريح عنوة من بين يديه وألقوا به الى العربة . واحتج الطبيب ولجأ الى الوزير الذى كان واقفا هناك :

– يا سيادة الوزير ، بالامكان انقاذ هذا الجريح ، وبالامكان انقاذ من هم فى مثل حالته ايضا ! . . ارجو ان تأمروا بفصل الجرحى عن القتلى . . .

صرخ الوزير بصوت كالزئير :

– ليس هذا من شأنك ! ستنال توبيخا !

بلغ عدد القتلى ١٣٨٩ شخصا حسب المعطيات الرسمية . وواضح انهم خفضوا الرقم كثيرا . والاقرب الى الصحة ان عدد القتلى كما ذكرته الصحف آنذاك يتراوح بين ٤٠٠٠ و٤٨٠٠ شخص ، فضلا عن اصابة ٣٠٠٠ شخص آخر بجراح بالغة ، وكذلك عشرات الآلاف الذين خرجوا من الازدحام بكسور وعاهات .

فى الصباح نفسه انتشر خبر الكارثة فى موسكو ، ومع حلول المساء كانت روسيا كلها قد اهتزت لما حدث . ولم يكن هناك سوى عدة اشخاص احتفظوا بهدوئهم ، هم الامير الكبير سيرجى وفورونتسوف-داشكوف وفون دير بالين وزملاؤهم فى اللجنة علاوة على القيصر الشاب نفسه . قد سجل فى مفكرته فى ذلك اليوم : «ان الجموع التى باتت ليلتها فى ميدان خودينكا انتظارا لبدء توزيع الغداء والاقداح (كان يعتبر كيس الطلمة غداء – **المؤلف**) ضغطت

بشدة على البناية ، وهنا حدث زحام شديد . ومن الفظيع انـــه دهس فى الزحام نحو ١٣٠٠ شخص . عرفت بذلك فى الساعة العاشرة والنصف . . . وتبقى لدىّ انطباع كريه عن هذا الخبر» .

تبقى انطباع «كريه» . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ لا شىء البتـة . كانت موسكو التى هزها ما حدث تتوقـــع ان يقوم القيصر اولا : بالغاء الاحتفالات ؛ ثانيا : باصدار الامر بالقبض على المتسببين ومحاكمتهم ؛ ثالثا : بان يغادر هو واسرته وخدمه المدينـــة التى كانت آلاف الاسر فيها تبكى الضحايا الذين لقوا حتفهـــم فى اثناء احتفاله . واتضح انه من الفظيع اضافة هذه الاوامر بالذات الى جدول الاحتفالات المعلن . ولم يصدر ايا من هذه الاوامر الثلاثة .

يؤكد بعض الادباء البرجوازيين الاجانب ان نيقولاى «احزنتـه هذه المصيبة جدا» ، بحيث استبدت به «رغبة جامحة فى الابتعـــاد والاعتزال فى مكان ما للصلاة» . ويزعمون انه رفض حضور الحفل الراقص الذى اقيم فى مساء اليوم نفسه على شرف التتويج ، لكن المقربين أخذوه وكأنما عنوة الى الحفل . «ورضخ لهم وقلبه يتمزق وتوجه الى هناك معهم على مضض اذ كان يحس سلفا انه سيتأتى عليه ان يرقص هناك رقصة كادريل واحدة على الاقل . . .» .

ويبدو نيقولاى على نحو مخالف فى هذا اليـــوم حسب وصف رئيس الوزراء فيته . فقد عين مساء ١٨ مايو اقامة حفل راقص عند السفير الفرنسى مونتيبيلو . وكان من المقرر ان يحضره الامبراطور والامبراطورة . وظلوا طوال اليوم لا يعرفون ما اذا كان الحفـــل سيقام نظرا للكارثة التى حدثت . واخيرا اصبح واضحا ان كثيرين ينصحون الامبراطور ان يطلب من السفير الغاء الحفـــل ، او الا يذهب هو الى هناك على الاقل ، وانه غير موافق قط على هذا الرأى . فمن رأيه ضرورة تجاهل الكارثة . وبالفعل لم يجر الغاء الاحتفالات واقيمت جميعها كما لو ان اية كارثـــة لم تقع . . . وتقرر عدم الاعتراف بالكارثة وعدم اخذها فى الحسبان .

وطالما انهم قرروا «عدم اخذها فى الحسبان» و«عدم الاعتراف بها» ، فقد بقيت فى البرنامـــج كل حفلات الاستقبال والمسرحيات وحفلات المنوعات ومآدب الغداء المقررة ، بما فى ذلك ، بالطبع ، الحفل الراقص عند مونتيبيلو . وضعت على الموائد مئة ألف وردة طازجة ، جلبت خصيصا من بروفانس فعبق اريجها فى القاعات . وقدم

العشاء فى أوان من الفضة ارسلت خصيصا من فرساى احتفالا بهذه المناسبة . وكان سبعة آلاف من الضيوف الذين دعيوا للحفل يرقصون ويمرحون ويأكلون تحت اضواء الثريات . وفى تلك الساعات من المساء ، حينما كان رجال الاطفاء والجنود لا يزالون يرفعون الجثث على ضوء المصابيح فى خودينكا ، انضم القيصر وزوجته الى الراقصين . وكان المنظر على النحو التالى حسب وصف شاهد عيان اجنبى :

«كانت الثريات تلقى باضوائها على ضفائر الزهور وعلى المياه المتناثرة من الفسقية . كان الجميع فى مرح وسرور . . . والضحكات السعيدة ترن فى كل مكان . . . مع ان علية القوم قد شاهدوا فى هذا اليوم الاموات ، اكواما من الاموات تحرقهم الشمس . . . كانت حلقات الراقصين تنعقد وتتجه الى وسط القاعة ، حيث الامبراطور والامبراطورة يرقصان الكادريل . . .» ثم يحل صباح يوم جديد ويتلقى «الامراء وكبار الموظفين بالسفارات والملحقون العسكريون دعوة الى الرماية» . وكان ميدان الرماية على بعد ١٠٠ خطوة من المقبرة التى دفن فيها القتلى لتوهم . وفى الوقت الذى كان الشعب يبكى فيه تحرك فى شوارع موسكو الموكب المبرقش لاوربا القديمة المتعطرة ، المتفسخة ، الايلة الى الزوال .

وبالمناسبة لم يتغير شىء بعد ابلاغ القيصر بالكارثة . ولم يتخذ شىء ضد فورونتسوف-داشكوف وفون دير بالين وغيرهما من رجال القصر جزاء لما حدث فى ميدان خودينكا . اما عم جلالته فكوفئ بمرسوم قيصرى عال صدر هناك ، فى موسكو يعرب عن الشكر لسيرجى الكسندروفيتش ، المذنب الحقيقى فى كارثة خودينكا ، «على التنظيم النموذجى للاحتفالات واجرائها» . كان هذا المرسوم العالى «استهزاء بالشعب» . فقد كان الجميع يعرف حقيقة دور الامير الكبير سيرجى فى الاحداث . ومنذ ذلك الحين اخذ سكان موسكو يصيحون فى وجهه اينما ظهر ، سواء فى الشارع او المسرح او فى الاماكن الاخرى الحافلة بالناس ، مرددين «امير خودينكا» .

لقد تصرف جلالته تجاه السلطات الخاضعة لامرة عمه على نحو يبدو اكثر شدة . فقد بعث الى مجلس الشيوخ مرسوما وصف فيه خودينكا «بمصيبة فادحة» وكأنها كارثة طبيعية غير متوقعة ولا تتوقف على ارادة الناس مثل الزلازل او الفيضانات وأمر باستيضاح

دور السلطات المسؤولة فى الاحداث ، لانها ، كما يبدو ، مع ان الكارثة طبيعية ، «لم تتخذ التدابير المطلوبة فى الوقت المناسب لتوجيـــه جماهير الشعب» . وعهد باستيضاح الامر الى كايزيـر المحقق فى القضايا الاستثنائية ، وحتى يكون التحقيق «محايدا» عين أحد المذنبين فى الكارثة ، وهو المسؤول عن المراســـم فون دير بالين مشرفا على التحقيق .

وكما كان متوقعا استجوب مسؤول المراسم نفسه بنفسه ولم يجد فى تصرفه اية جناية واكد فى تقرير رفعه الى القيصر ان ممثلى وزارة البلاط الذين قدموا من بطرسبورج بمن فيهم كاتب التقرير نفسه كانوا مسؤولين فقط «عن التسلية وتوزيع الهدايا» وكان على بوليس موسكو الاهتمام بامر النظام فى الميدان .

ورفع مسؤول بوليس موسكو العقيد فلاسوفسكى تقريرا جوابيا جاء فيه : ان وزارة البلاط كانت صاحبة الحل والربط فى الميدان ، وهى التى تصرفت فى كل شىء . اما «البوليس فلم تكن له اية علاقة بكل هذه الترتيبات» . وكان اختصاص البوليس هو «الاماكن القريبة من الميدان وحتى تخوم الميدان ، ولم تحدث اية حوادث هناك وكان كل شىء على ما يرام» .

وانتهى الامر ببساطة . فقد وضع مجلدا محاضر التحقيق التى كتبها كايزير «حول اخلال بالنظام فى خودينكـــا» فى خزائن الادارة العامة لمحافظة موسكو . ولم تجر اية محاكمة . وعلى الرغم من ان كايزير غامر بمنصبه وتجاسر على ايراد اسماء عدة مذنبين ، فقد تم الاعلان رسميا عن مذنب واحد هو فلاسوفسكى . وكان عقابـه رهيبا : عزل من منصبه مع صرف معاش له مدى الحياة قدره ٣٠٠٠ روبل سنويا .

وزعت ماريا فيودوروفنا ، والدة القيصر ، الف زجاجة خمر على مستشفيات موسكو للمصابين بجروح بالغة ، وذلك من احتياطى الكرملين المتبقى بعد ٣ أسابيع من احتفالات التتويج الراقصـــة والصاخبة .

وانتاب الابن بعد امه وازع الرحمة ، فأمر بصرف اعانة ١٠٠٠ روبل لكل أسرة فقدت معيلها . وعندما اتضح ان الذين قتلوا ليسوا بالعشرات ، بل بالآلاف سحب هذا التعطف سرا وخفض الاعانـــــة لاسباب مختلفة فصرف للبعض ٥٠-١٠٠ روبل وحرم البعض الآخر

من الاعانة تماما . واعتمد القيصر لهذا الغرض ٩٠ الف روبل فقط اقتطعت منها بلدية موسكو ١٢ ألفـــا كتعويض من نفقات دفن الضحايا .

كلفت احتفالات التتويج نفسها ١٠٠ مليون روبل ، اى ما يزيد على ٣ امثال ما انفق فى تلك السنة على التعليم العام . ولم يكن ذلك من الاموال الخاصة لاسرة القيصر وانما من اموال الخزينة اى مـــن ميزانية الدولة . وبعبارة أخرى «دعوا الشعب للاحتفال ، وبدلا من ان يطعموه شوهوه وأرغموه على دفع ثمن هذا التشويــه الذى الحقوه به» .

ومن هنا فان التتويج عموما كان بحد ذاته استهزاء بالشعب . فقد كان ملايين الرعايا يتضورون جوعا فى المحافظات المصابـــة بالقحط . وكان جنوب روسيا لا يزال يعانى آثار وباء الكوليرا الذى اجتاح تلك المناطق منذ امد بعيد . لقد انتزع القيصر الشاب من البؤساء الذين أوهنهم الجوع وأضناهم المرض والفقر ١٠٠ مليون روبل للاحتفال بعيده .

وكان الهلع ينتاب احيانا حاشية القيصر خشية ان يحاول شعب موسكو الرد على ما سببوه له من عذاب .

وبعد يومين من انتهاء الاحتفالات ، فى ٢٨ مايو ، تلقـى الامير الكبير سيرجى تشجيعا من القيصر الذى عينه قائدا لقوات منطقـــة موسكو العسكرية الى جانب وظائفه السابقة .

وبعد ان فرغ نيقولاى الثانـــــى من الاحتفالات فى موسكو ، غادرها مع زوجته فى منتصف يوليو للقيام برحلة . ان ما حدث لم يمس شعورهما كثيرا . فهما يتوجهان من موسكو التى هزها الحدث للقيام بجولة ترفيهية فى ارجاء روسيا وغرب أوربـــا . واستمرت الرحلة خمسة شهور .

وصل نيقولاى الى نيجنى نوفجورود فى ١٧ يوليو لكى يفتـح فى حفل مهيب سوقا لعموم روسيا ويتسلى فى وسط النبلاء والتجار . وسافر فى ١٣ اغسطس الى فيينا ليحل ضيفا على الامبراطور فرانس-يوسف . وفى ٢٢ اغسطس توجه الى ولهيلم الثانى فى برلين . وتفقد القوات الالمانية فى بريسلافو برفقة ولهيلم فى ٢٤ اغسطس . ثم سافر بعد ذلك الى كوبنهاجن ، الى جده ملك الدانمارك خريستيان التاسع . وفى ٣ سبتمبر سافر من كوبنهاجن الى لندن ضيفا على

الملكة فيكتوريا . وفى ٢٢ سبتمبر وصل الى شيربور قادما من لندن ، فاستقبله الرئيس الفرنسى . وقضى ٣ اسابيع غارقا فى ملذاته فى فرنسا . وفى ١٧ اكتوبر سافر من باريس الى شقيق زوجته ارنست دوق جيسين فى دارمشتادت .

وظهر القيصر وزوجته عند مدخل قصر الشتاء فى ١٩ اكتوبر . ووجد مستقبلوه انه قد اخذ قسطه من الراحة ولفحت الشمس بشرته ونسى كل شىء .

وبعد ذلك بشهرين ونصف الشهر دون القيصر الشاب فى مفكرته عشية حلول العام الجديد : «أتمنى من الله أن يكون العام القادم ١٨٩٧ موفقا ، شأن هذا العام» .

الفصل الرابع

«شخص لم يوجد فى تاريخ روسيا»

القيصر والجوع

كتب لينين الشاب فى بداية القرن ان المرء يستطيع ان يرى على جدران مبانى الادارات المحلية فى كل قضاء تقريبا صورة القيصر الكسندر الثالث يخاطب عمد القرى فى احتفال اقيم بمناسبة تتويجه على العرش قائلا : «انصاعوا لارشادات قادتكم النبلاء !»

كان القيصر نيقولاى الثانى لا يكف عن ترديد تلك العبارة على اثر ابيه الراحل . وكان فى ذلك تأكيد آخر لاعتراف القياصرة انفسهم بعجزهم عن تسيير الامور فى الدولة بدون النبلاء ومساعدتهم وبان عرش الامبراطور الروسى كان يخدم مصالح النبلاء ويحميهم بجبروته .

كان يقال ان القيصر فوق الجميع ، اغنياء وفقراء ، وانه رمز للانصاف والعدالة ولا يعرف التحيز الى احد فقيرا كان ام غنيا . وقد كشف لينين عن نفاق تلك الاكذوبة كاتبا ان الناس فى روسيا والعالم أجمع يعرفون تمام المعرفة حقيقة «انصاف» النظام القيصرى و«انسانية» القيصر الروسى و«طيبة قلبه» .

فلنحاول ان نتبين من هم الذين كانوا يساندون عرشه والذين كان يدافع عن مصالحهم ، ثم نلقى نظرة خاطفة على ممتلكات جلالته ايضا .

كان اكثر من ٧ ملايين هكتار من اصل ١٢٠ مليون هكتار من العقارات الخاصة فى روسيا ملكا لعائلة القيصر . وهذا معناه ان القيصر كان اكبر اقطاعى فى البلاد وعنده من الاراضى اكثر مما لدى نصف مليون اسرة فلاحية .

انه الحاكم الاوحد يحدد مصير البلاد وفق مشيئته دون ان يخضع لرقابة احد ، ويصدر القوانين ويعين الوزراء والجنرالات وكبار الموظفين الذين يعملون وفق تعليماته الشخصية . الا ان روسيا بلاد ضخمة مترامية الاطراف وليس بوسع شخص واحد

فيها ، وان كان القيصر نفسه ، أن يحفظ فى ذهنه كل القوانين وان يعرف جميع الموظفين فى جهاز الدولة . ان شخصا واحدا اعجز عن ادارة بلاد شاسعة كروسيا . فمن يقوم بادارتها اذا ؟ حفنة من الاقطاعيين واصحاب الرساميل من ابناء اغنى عائلات الوجهاء ، والقيصر احدهم ، ومصالحه ومصالح هؤلاء السادة واحدة .

فكيف يعيش الملايين من ابناء الشعب فى ظل حكم «القيصر الطيب» ؟ كيف يعيش هؤلاء الذين يسميهم عادة فى بياناته «رعاياه المخلصين» ؟

فى مستهل القرن كان عدد سكان الامبراطورية (حسب احصاءات الاول من يناير ١٩٠٤) ١٤٤ مليون نسمة بينهم ١٨ مليونا و٥٠٠ الف من سكان المدن ، اما الباقى وعددهم ١٢٥ مليونا و٥٠٠ الف فكانوا يسكنون فى الريف .

كان عدد المؤسسات الصناعية فى روسيا اكثر من ٣٨ الف مؤسسة بقليل ، وكانت تضم مجتمعة نحو ٢,٥ مليون عامل . ومن المؤسسات التى كانت ظروف العمل فيها سيئة للغاية ٢٠٠ مصنع للحديد والصلب يعمل فيها ٣٠٠ الف عامل ، وفى عام ١٩٠٤ انتجت مجتمعة ١٨٠ الف بود من حديد الزهر وكمية مماثلة تقريبا — ١٧٨ الف بود — من الحديد والصلب . وتقدر معلومات اخرى عدد الطبقة العاملة فى روسيا فى تلك الفترة باكثر من ثلاثة ملايين نسمة .

كان كابوس القحط مسلطا على روسيا دوما ، وكان يصيب بانتظام مناطقها الشمالية والجنوبية على حد سواء ، حاملا اهوال المجاعة الى الشعب فى المدن والارياف . كانت المجاعة فى سنوات القحط تشمل مناطق ومحافظات باكملها ، فتحصد الارواح بالملايين . ويكتب لامزدورف بعد عودته الى العاصمة من جولة فى ممتلكاته فى احد الاقاليم التى اصابتها المجاعة : «. . . المتسولون فى كل مكان . . . انهم يسدون المنافذ ويمدون ايديهم مطالبين بكسرة خبز . منظر لا يطاق . . . ونتيجة المجاعة ينتشر وباءا التيفوئيد والاسقربوط» .

لعل مصيبة كهذه تؤرق القيصر وتؤلمه وتمزق قلبه عطفا واسى على «رعاياه المخلصين» ؟ كلا ابدا ! ولاحظ اداري كبير اصابه الهلع من موقف القيصر وافراد عائلته ازاء الجائحة ان جلالته لا

يصدق انه توجد مجاعة . . وفى اثناء وجبة الفطار مع اقربائه «يتحدث عن المجاعة ضاحكا» ويقول ان التبرعات التى يوزعونها بين افراد الشعب تفقدهم القدرة على الصمود . . . ويسخر من اولئك الذين يتطوعون بالذهاب الى المناطق المنكوبة لمساعدتها . . . و«يبدو ان العائلة القيصرية كلها تشاطره موقفه هذا . . .» .

ينسب لامزدورف هذه الملاحظات الى رئيسه المباشر وزير الخارجية جيرس . قد يبدو للوهلة الاولى ان لامزدورف ورئيسه «يروعهما» الامر ولكن الحقيقة هى ان كليهما متفق مع «جلالة القيصر» فى اعتقاده ان «التبرعات» تفقد المنكوبين قدرتهم على «الصمود» . ويستطرد لامزدورف فى مذكراته قائلا ان «الاغلبية الساحقة من الفلاحين والعمال» يسعون وراء الاعانات «بدلا من العمل فى سبيل لقمة العيش» ، الامر الذى يعتبره شرا اكبر من المجاعة : «ان مثل هذا النشاط الخيرى قد يؤدى فى نهاية المطاف الى مصائب اكبر واكثر خطورة من آثار القحط الذى اصاب معظم مناطق روسيا» .

وفيما يتردد القيصر بين اللجوء الى النشاط الخيرى وبين تنظيم اعانات الدولة للمنكوبين من القحط ويرفض البديل الاول لمجرد انه لا يعجبه ويرفض الثانى لافتقار الاموال اللازمة ، تتدفق على بطرسبورج من جميع انحاء البلاد طلبات الاستغاثة والاصرار على تنظيم مساعدة فورية للجياع . وبما ان القيصر ووزراءه يتذرعون بشح الاموال فى خزينة الدولة ، ظهرت فكرة بيع حقوق روسيا فى الحصول على تعويضات حربية من تركيا ، الى البنوك الاجنبية مقابل ستين مليون روبل نقدا لشراء القمح من اجل المنكوبين . ولكن لم يبد اى بنك اجنبى استعداده لعقد صفقة كهذه . عندئذ اقترح احدهم الاستنجاد بالمانيا والاقتراض منها ، الا ان القيصر الالمانى تهرب من تقديم القرض . وهكذا لم يبق الا اعلان حملة وطنية لجمع التبرعات وتنظيمها على نطاق جماهيرى من خلال الحفلات الخيرية . ولكن المسؤولين الرسميين المقربين الى القيصر كانوا لا يخفون شكوكهم فى ان حملة كهذه تستطيع ان تخفف من شدائد المنكوبين . ويكذّب لامزدورف الاشاعة القائلة بان «جلالة القيصر تبرع شخصيا بعدة ملايين روبل من امواله لمساعدة المنكوبين» ويتساءل : اية فائدة من «جمع هذه الخمسة ملايين روبل — وهى

مبلغ تافه فى ظروف كهذه – من خلال تنظيم حفلات خيرية» ؟ بالاضافة الى ان هذه التبرعات الزهيدة ليست مضمونة ايضا «فى ظروف انعدام الرقابة ، وحوادث الاختلاس العديدة التى وقعت فى الاقاليم خير دليل على ذلك» .

الا انه بالرغم من كل العقبات والحواجز وخلافا لشكوك القيصر هب المجتمع لمساعدة الجياع وقام المتطوعون من ابناء الشعب بالمستحيل من اجل جمع التبرعات وشراء القمح وارساله الى المناطق المنكوبة ، وفتح المطاعم العامة فيها (وقد بذل ليف تولستوى شخصيا جهودا جهيدة من اجل ذلك وكان يتعذب من ادراكه لقلة امكانياته وعدم قدرته على تخفيف احوال المنكوبين) . وبينما كان القيصر يتتبع فى عبوس صامت تصاعد الحملة الوطنية لانقاذ المنكوبين كان موظفوه يعرقلون مجهودات القوى الاجتماعية ويعطلون نتائجها اينما ارسلوا للمساهمة فيها . و«اشتهر» الكولونيل فون فندريخ المقرب الى القيصر ، والذى كان مفتشا لوزارة سكك الحديد آنذاك ، ثم عين وكيلا للوزارة فيما بعد ، بأنه عطل بأوامره الحركة فى الخطوط المركزية لسكة الحديد فى المناطق المنكوبة التى اوفد اليها لتقديم المساعدة . وقد طلب ارسال عشرة آلاف عربة محملة بالقمح الى طرق مغلقة حيث بقيت تحت الامطار فاصاب التلف ٦,٥ مليون بود من الحبوب . وعندما ابلغ القيصر بذلك رد جلالته فى انزعاج شديد : «لا تقولوا هراء ! انى اعرف فون فندريخ واعتقد انه يستحق كل احترام . . . المتسولون فى الدنيا كثيرون ، اما الناس الشرفاء امثال فون فندريخ فقلائل» .

وبينما كان البعض من امثال فون فندريخ يفسدون القمح كان الآخرون من امثال ألابين يدسون الحبوب الفاسدة الى الجياع ، ثم يقدمون الى الخزينة حسابات مزيفة جانين من وراء ذلك مبالغ طائلة . واذا كان فون فندريخ كشخص يتمتع بحب القيصر قد خرج من مشكلته سليما ، فان الفضيحة التى قامت حول اختلاسات ألابين هزت ضمير روسيا .

فى احدى سنوات القحط فى اواخر القرن الماضى قررت الحكومة القيصرية خلافا لعادتها تمويل مشتريات الحبوب للمناطق الجائعة بسخاء منقطع النظير ، فخصصت لهذا الغرض ١,٥ مليون روبل ،

ثم ٤,٧ مليون روبل . وقد اوكلت مهمة شراء القمح من اجل محافظة ساراتوف التي الحق بها القحط اشـــد الاضرار الى ألابين رئيس الادارة المحلية في المحافظة ، فعقد صفقتين بهذا الشأن مع شركتي سيخابادوف ودريفوس . قدم الاول الى المراكز المتفق عليها قمحا فاسدا غير صالح للاكل كما قدم الآخر قمحا غير منقى فيه كثير من بذور الاعشاب الطفيلية السامة . وكانت النتيجة ان الكثيرين ممن لم يموتوا جوعا لقوا حتفهم من التسمم والامراض المعوية . وقد اتضح ان ألابين استلم من صاحبي الشركتين رشوات كبيرة .

في اثناء التحقيق الذي اثير ضده في محكمة موسكو حاول تبرئة نفسه مدعيا بانه «قليل الخبرة» . الا ان المدعي العام كوني رفض تلك الحجة مشيرا الى ان المتهم امضى في شتى وظائف الدولـــة ٤٨ سنة من حياته شغل في خلالها مناصب كبيرة ، مثـــل رئيس ادارة عقارات الدولة وسفير روسيا في بلغاريا ورئيس مجلس بلديـــة سامارا وغيرها . وحذر المدعي العام المحكمة من اصدار حكـــم «خفيف» منوها بخطورة سابقـــة كهذه تفتح الطريـــق «للتسيب والاستهانة والتفريط . . . والتهرب من القصاص والتذرع بقلـــة الخبرة» . ومع ذلك اعتبرت المحكمة هذه الحجة بالذات أساســا لتبرئة المتهم .

مرت بضع سنوات واصيبت البلاد بالقحط مرة اخرى . ومن جديد انتزعت حركة الاغاثة الوطنية مخصصات من الحكومة لاعانة الجياع ، ومن جديد قامت فضائح الاختلاس الصاخبة ، وكانت هذه المرة على المستوى الوزاري ، اي على نطاق الدولة . وبطل القصة الآن هو نائب وزير الداخلية جوركو الذي كلف بمهمـــة تكوين احتياطي وطني من الحبوب بقيمة ٨ ملايين روبل . غير ان جوركو ، وهو محبوب القيصر ايضا ، قام خلافا للقانون ببيع صلاحياتـه في شراء الحبوب الى التاجر الاجنبي لدفال الذي اخل بتعهداته . وقـــام السناتور فارفارين بالتحقيق . واثيرت بناء على طلبه قضية ضـد جوركو في محكمة مجلس الشيوخ الذي قرر طرده من الخدمـــة في اجهزة الدولة . غير ان السناتور فارفارين اسقط من حسابه موقف القيصر . وبعـد مرور فترة من الزمـن عندما قدم وزيـــر العدل شيجلوفيتوف الى القيصر قائمة المرشحين للعضوية في مجلس الدولة

من اعضاء مجلس الشيوخ ، وكان فارفارين من بينهم عارض جلالته ترشيح هذا الاخير قائلا انه لا يستطيع ان يغفر له محاكمة جوركو !

استمرت اهوال المجاعة وفضائح الاختلاس حولها من بداية حكم نيقولاى الثانى الى نهايته . وبقيت روسيا فى خلال تلك السنوات الثلاث والعشرين فريسة دائمة للجوع .

فى اواسط خمسينات من هذا القرن صدر فى نيويورك كتاب بقلم ناؤوموف احد المهاجرين البيض الذى شغل منصب وزير الزراعة فى ١٩١٥-١٩١٦ . وكان قد ساهم ايام شبابه فى حملة مكافحة المجاعة فى سامارا عندما اصاب قحط منقطع النظير معظم مناطق البلاد فى ١٨٩٧-١٨٩٨ واحدث فى بعض الاقاليم مجاعة رهيبة مع ما يرافقها من تيفوئيد واسقربوط . وبعد مرور قرابة عشرين عاما ترأس ناؤوموف الاجتماع الاستثنائى لقضايا التموين الذى كان يعالج المشكلة ذاتها . ويقول فى كتابه : «وماذا رأيت حينذاك ؟ لقد ظلت روسيا فى الواقع سواء قبل الحرب او فى اثنائها تتخبط بين فكى الجوع الذى كان يصيب محافظاتها واحدة تلو اخرى ، من ساراتوف الى سيمبيرسك ومن قازان الى اوفا . ان المضاربة بالحبوب واللصوصية والرشوة والاختلاس ما زالت مستمرة كالسابق مع فارق وحيد وهو ان سماسرة الحبوب اصبحوا يضاعفون ثرواتهم دون ان يبتعدوا عن جهاز التلفون . اما قمة الادارة فبقيت على حالها وظلت كما كانت غير كفوءة وغير قادرة على معالجة مشكلة التموين وتنظيم الحساب وتوزيع الاحتياطيات بين مناطق البلاد» .

وبينما كان البعض يعانى فقرا مدقعا وحرمانا كان البعض الآخر يعيش فى رفاهية وبذخ . تشنجات الجوع ، من جهة ، والتخمة والتبذير ، من جهة اخرى . كانت يد الجوع القاسية تحصد قرى بكاملها حول ضياع اصحاب الامر والنهى دون ان يبالى احد منهم بذلك . انهم مشغولون بما هو اهم ، ببناء القصور والفيلات الجديدة فى ضواحى بطرسبورج وموسكو ، وعلى شواطئ البحر الاسود .

ويستطرد ناؤوموف قائلا : من الصعب ان يتخيل العقل الانسانى بقعة اجمل واغنى من فوروس فى القرم بحديقتها ومروجها

الرائعة ووورودها ونباتاتها الاستوائية النادرة الغريبة واريج زهورها الذى يلاحقك هنا وهناك ، واحواضها واقنيتها الاصطناعية التى تشق طريقها متلوية بين ضفاف تصل بينها جسور صغيرة . . . ان هذه البقعة الرومانسية الرائعة بناها لنفسه كوزنيتسوف صاحب فبارك الخزف الصينى الذى كان يعطى عامله اقل من نصف روبل لقاء يوم عمل طوله ١٤ ساعة . ولما سأل احد الضيوف صاحب هذه البقعة الجميلة عن كلفتها رد قائلا : «قد يكون ما انفقته عليها كافيا لتغطية الحديقة كلها باوراق مالية من فئة المئة روبل» .

وحين تفاقمت الاوضاع واحدق بالاقطاعيين خطر فقدان ممتلكاتهم جميعها اختار زعماؤهم اهون الشرين فقرروا التنازل عن جزء منها فى سبيل انقاذ الباقى . وهكذا ظهرت فى السنوات الاولى من القرن الحالى فكرة انتزاع جزء من اراضى الاقطاعيين وعقارات الدولة لتوزيعها بين الفلاحين (مقابل تعويض مالى طبعا) . وقام بصياغة مشروع قانون بهذا الخصوص كوتلر مدير مصلحة شؤون الزراعة واستثمار الاراضى بالتعاون مع البروفسور فى الاقتصاد كاوفمان ومدير مصلحة عقارات الدولة ريتيخ . وقد اقترحوا تسليم الفلاحين ٢٥ مليون هكتار من الاراضى الزراعية العائدة الى الاقطاعيين والدولة . ومع انهم لم ينطلقوا طبعا من مصالح الفلاحين بل من حرصهم على تقوية المواقع الاقتصادية لاصحاب العقارات الزراعية الكبيرة الذين اخذوا يطبقون اساليب الزراعة الرأسمالية على نطاق متزايد ، اثار هذا المشروع المتواضع فى اساسه ، رغم ما يبدو عليه من ضخامة وجرأة اشد شكوك لدى القيصر نيقولاى الثانى . ولم يؤثر فى موقفه واقع ان واضعى المشروع اشترطوا ان تباع الاراضى المذكورة الى الفلاحين مقابل ثمن ضخم وان هذه الاراضى كانت فى معظمها مهملة او برسم الايجار . لقد رفض القيصر المشروع من اساسه .

وكتب على تقرير قدمه اليه رئيس الوزراء فيته حول نتائج مناقشة المسألة الزراعية فى مجلس الوزراء («من الافضل ان يتنازل ملاكو الاراضى عن جزء من عقاراتهم ويحتفظوا بالباقى من ان يفقدوا كل ما يمتلكونه») هذا القرار : «لا يجوز المساس بحرمة

الملكية الخاصة» . ثم ظهر فى وثيقة اخرى قرار آخر يقول : «يجب ابعاد كوتلر عن منصب مدير المصلحة» . . .

ولكن شبح الثورة ظل قائما يثير الرعب وكان لا بد من مواجهة التحدى ببعض الاصلاحات . واثير مشروع الاصلاح الزراعى مرة اخرى ، وقد تقدم به هذه المرة ستوليبين الذى اقترن اسمه سواء بالاصلاح ذاته («اقتطاعات بستوليبين») او بحملة الاعدامات الشاملة التى رافقته كوسيلة لقمع اصوات المعارضين («ربطة ستوليبين» اى المشنقة) . وبموجب الاصلاح اخرجت من المشاعيات القروية فى بعض المناطق قرابة ٢٥ فى المئة من الاستثمارات الزراعية وخصصت لها اراض مقتطعة . وعند الاول من يناير ١٩١٦ خرجت من المشاعيات القروية فى الجزء الاوربى من روسيا ٢,٥ مليون من الاستثمارات التى كانت تملك بالاجمال اكثر من ١٧ مليون هكتار من الاراضى .

وبذلك تحقق ما تنبأت به العقول التقدمية فى روسيا ، حيث اصبح نصف مجموع الاراضى ، التى كانت تملكها المشاعيات القروية والتى اقتطعوها ، فى حوزة اثرياء القرية بهذا الشكل او ذاك ، وبالنتيجة ازداد فى الريف عدد المعدمين والمحرومين من الاراضى .

ومن جهة اخرى ، لم يمس الاصلاح الزراعى فى الواقع ملكية الاقطاعيين للارض بل حث عملية الاستقطاب الاجتماعى فى القرية ، مما ادى بالتالى الى اشتداد الصراع الطبقى بدلا من «تهدئته» . وخلافا لتقديرات ستوليبين لم يساعد الاصلاح على توسيع قاعدة ملاك الاراضى فى الريف او على صرف انظار جموع الفلاحين عن النضال الثورى بدليل ان الفترة ما بين ١٩٠٨ و١٩١٣ ، وهى السنوات التى كان يتوقع ان يعطى الاصلاح فيها تأثيره «المهدئ» شهدت نحو ٢٢ الف تحرك فلاحى فى روسيا .

رسالة من جاسبرا

كان القيصر آخر من يحق له ان يشتكى من ان الثورة اخذته على حين غرة . لقد نبهوه مرارا الى بوادرها وفسروا له مغزى هذه البوادر وحاولوا اقناعه بجديتها واوضحوا له ان الاستهانة بها امر خطير يصعب التنبؤ بعواقبه . وكان من بين هؤلاء المنبهين

اناس يتمتعون باحترام فائق فى المجتمع امثال ليف تولستوى الذى بعث فى ١٩٠٢ الى القيصر نيقولاى الثانى برسالة حاول فيها من جديد تماشيا مع نظريته حول «التوعية الاجتماعية» ارشاد القيصر واعادته الى طريق «العقل والمنطق» * .

لقد سبق للادباء الروس ان حاولوا «ممارسة نفوذهم» فى القياصرة . ويكفينا ان نذكر على سبيل المثال هيرتسن ** . ان رسالة ليف تولستوى الى آخر القياصرة الروس تقف فى صف واحد مع رسائل هيرتسن الانتقادية الى القيصر-«المحرر» الكسندر الثانى . ورغم ما تنطوى عليه هذه الرسائل من وهم – اى التأثير فى تفكير القيصر واقناعه بتغيير اساليب حكمه – لم تكن السذاجة هى التى املتها بل الالم والشفقة على مصير الشعب البائس والرغبة الجامحة فى تخفيف آلامه ولو عن طريق التوسط له امام القيصر . هذه الرسائل كانت ، من حيث الجوهر ، يائسة ، وكأنما يحاول كاتباها اقناع نفسيهما بان الامر رهن بمجرد المنطق وان البلاغة قادرة على اثارة شفقة القيصر على رعاياه وجعله يتحرك ليفعل شيئا من اجلهم .

بعث ليف تولستوى بآخر رسائله الى القياصرة من مصيف «جاسبرا» فى القرم فى عام ١٩٠٢ . وهذه الرسالة قد كلفته جهودا كبيرة ، فقد كان مريضا يشعر بان ساعاته معدودة . نقرأ فى مذكرات جولدنفيزر الذى كان من اقرب اصدقاء تولستوى : «انه يعمل فى هذه الايام لتكميل عمل هام يستهلك كل قواه (رسالة الى القيصر) ونتيجة الاجهاد اصيب باضطراب فى القلب واضطر امس الى البقاء طيلة اليوم فى الفراش» . كما يقول سيرجى بن تولستوى : «. . . استمر والدى بالرغم من ضعفه وآلامه الجسدية فى عمله ، وحتى انه املى نص الرسالة . وفى أواخر ديسمبر

* حاول ليف تولستوى فى حياته التأثير مباشرة فى ثلاثة من القياصرة الروس . فقد كتب رسالة الى الكسندر الثانى فى ٢٢ اغسطس ١٨٦٢ ، والى الكسندر الثالث فى ٨–١٥ مارس ١٨٨١ و٢–٣ يناير ١٨٩٤ ، والى نيقولاى الثانى فى ١٠ مايو و١٩ سبتمبر ١٨٩٧ و٧ ديسمبر ١٩٠٠ وفى ٢٦ مارس ١٩٠١ و١٦ يناير ١٩٠٢ (من جاسبرا) . كما توجه فى ١٥ مارس ١٩٠١ برسالة «الى القيصر ومعاونيه» .

** هيرتسن (١٨١٢–١٨٧٠) ديمقراطى-ثورى روسى ، اديب وفيلسوف . – **الناشر** .

انتهى من كتابة رسالته الى نيقولاى الثانى التى دعاه فيها الى وضع حد للطغيان الذى يمنع الشعب من فرصة التعبير عن رغباتـــه وحاجاته . . . والى القضاء على الملكية الخاصة للارض . . . وفى السادس عشر من يناير انتهى من المراجعة الاخيرة لهذه الرسالة وبعث بها الى القيصر بواسطة الامير الكبير نيقولاى الذى اكد لوالدى فى برقية بتاريخ ٢٨ يناير انه سلم الرسالة الى القيصر» .

ما من شك فى ان مستلم الرسالة قد صعق منذ ان قرأ كلماتها الاولى ، اذ اختار تولستوى لمخاطبته طريقة غريبة للغاية حيث سمى القيصر «اخى العزيز» . الا ان الكاتب لم يلبث ان فسر للقيصر تلك المخاطبة غير العادية قائلا انه اختارها لانه لا يتوجـــه فى رسالته الى نيقولاى الثانى كقيصر بل كانسان واخ . . . وتابـع تولستوى : «انى لا احب ان اموت دون ان اقول لكم كل ما اعتقده فى صدد نشاطكم الحالى . . . فى صدد الشر الذى سيحمله للناس ولكم شخصيا اذا استمر بالسير فى اتجاهه» .

كان فى وسع القيصر ان يدرك بسهولة من السطور اللاحقـــة رأى العقول التقدمية فى روسيا فى نشاطــه ، وفى العواقـــب التى قد يسفر عنها استمرار طغيانه . وتحدث تولستوى عن الحكـم الاستبدادى عامة الذى كان يعتبره متخلفا عن العصر ، والحكـــم القيصرى فى روسيا خاصة الذى يتنافى مع المنطق والعدالة ، ثـــم تحدث عن الظلم فى الامتيازات التى تتمتع بها الطبقات الطفيليـــة المساندة للعرش وعن عسفها .

وكتب ينصح القيصر بان يتخلى عن الحكم الاستبدادى وان يقوم بتحسين اوضاع العمال ويصادر الارض من الاقطاعيين ويسلمهـــا للفلاحين . وقال ان «الحكم الاستبدادى لم يعد يواكب العصر» وانه قائم «على الافتراض الخاطئ باحتمال ايقاف مسيرة الانسان الابدية نحو التقدم» . اما ادعاءات الحارصين على تخليد النظام القيصرى بان «معارضتهم لاية حركة فى اوساط الشعب تهدف الى ضمان خيــر وسعادة هذا الشعب ذاته فانها كذب فى كذب» . وخير شاهـــد على ذلك «المئة مليون مواطن ممن يعتمد عليهم جبروت روسيا» . الا انهم يزدادون فقرا سنة بعد اخرى حتى وصل بهم الامر الى ان «تصبح المجاعة ظاهرة عادية بالنسبة لهـــم» . وحذر تولستوى القيصر من الانفجار ودعاه للتفكير فى ذلك حرصا على سلامتـــه

الشخصية ايضا ، واهاب به الا يعلل نفسه بالاوهام والا ينخدع بمظاهر محبة رعاياه الطيبين له . ان الناس الذين يهتفون فى الاستعراضات الشعبية بحبهم له ليسوا فى الحقيقة سوى غوغاء جمعهم البوليس وامرهم بالهتاف له ، تماما كما حدث مع جده فى مدينة خاركوف حيث كانت الكنيسة الكاتدرائية تغص بالناس وما هم فى الحقيقة الا رجال بوليس بلباس مدنية .

لم يتنازل القيصر نيقولاى الثانى بالرد على رسالة تولستوى ولم تلق نداءات الكاتب اذنا صاغية فى البلاط . وبعد مرور فترة من الزمن عندما اقتنع تولستوى نهائيا بعقم توجهه الى القيصر ومعاونيه (فيته وستوليبين) قال لافراد عائلته : «لقد عملت على الاقل كل ما كان بوسعى لاعرف ان لا جدوى من التحدث اليهم» .

صحيح ان القيصر نيقولاى الثانى استقبل فيما بعد ابن تولستوى لمحادثته شخصيا . ولكن عبثا حاول الاخير اثارة المواضيع التى تطرقت اليها رسالة والده . لقد تهرب القيصر من الحديث عنها متذرعا فى انزعاج شديد بالوعد الذى اعطاه لابيه المحتضر وبالقسم الذى اداه يوم تتويجه . ولم يتبق امام تولستوى الابن بعد ذلك سوى التحدث عن الوصايا الاخرى لوالده : لا تدخن ، لا تسكر ، لا تقتل الحيوانات . استمع القيصر الى هذه التوضيحات بهدوء وفضول بل بشىء من الرضاء . مع انه لم يتوقف ، طبعا ، عن التدخين ولا عن السكر ولا عن الصيد .

وكذلك ، فان معاونى القيصر ممن كتب لهم تولستوى لاسباب مماثلة لم يبدوا احتراما اكبر لتحذيراته .

هكذا فشلت محاولة «تثقيف المجرمين» ، وهى نتيجة منطقية لا بد وان تنتهى اليها محاولات كهذه . وحين رأى تولستوى ان مساعيه ذهبت ادراج الرياح استحوذ عليه – خلافا لكل ما كان يعظ به ويدعو اليه من التسامح والمحبة الخالصة للانسان – شعور بالغيظ والاحتقار ازاء الشخص الذى سماه «باخيه العزيز» ، فأخذ ينعته فى رسائله واحاديثه بانه «ضابط خيالة غير ذكى ثم «جلاد متستر» و«قاتل» . ويتحدث الى اصدقائه بمنتهى الصراحة عن الانتقادات الشديدة التى يلاقيها نشاط القيصر فى اوساط الشعب . كان يروى مثلا ان زوجته قابلت ذات يوم متسولا فى الطريق ، فقال لها : «كان عند اجدادنا القيصر نيقولاى

الاول «ابو السوط» ، اما نحن فعندنا نيقولاى الثانى «ابو المشنقة» . اه ، يا ليتنا نصل اليه لنسدد حساباتنا معه !» .

كان القيصر على علم بآراء تولستوى هذه (من خلال رجال المباحث الذين تمكن بعضهم من الاندساس حتى بين خدم بيت تولستوى فى «ياسنايا بولانا») . وعندما قال تولستوى ذات مرة وهو جالس مع افراد عائلته حول مائدة الغداء : «ان عهد القياصرة يوشك على الانتهاء» كان القيصر اول من علم بهذا من عملاء البوليس السرى ، الا ان طبيعته التافهة منعته من النظر فى الامور بحكمة وشمولية سواء فى اثناء حياة تولستوى او بعد ان توقف قلبه عن الخفقان فى بيت متواضع بمحطة «استابوفو» الصغيرة .

كان ستوليبين هو الذى ابلغ القيصر رسميا عن وفاة اولستوى فى تقرير موجز قدمه فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٠ .

وكتب القيصر على هذا التقرير : «فليكن له الرب قاضيا رؤوفا . نيقولاى الثانى» .

ليس صحيحا ما يقال من ان الحكومة قررت اثر وفاة تولستوى مباشرة تخصيص ١٠ آلاف روبل معاشا سنويا لعائلته . والحقيقة هى ان هذا المعاش لم يخصص فى عام ١٩١٠ ولا فى عام ١٩١١ .

كتبت ارملة تولستوى صوفيا اندرييفنا الى القيصر نيقولاى الثانى مرتين تعرض عليه ان تشترى الدولة عزبة تولستوى «ياسنايا بولانا» بخمسمئة الف روبل وان تضعها تحت حراستها خشية ان تصبح العزبة اشلاء فى ايدى المشترين . وقالت فى اولى رسالتيها : «ان رغبتنا الحارة جميعا هى ان توضع هذه العزبة التى كانت مأوى له من المهد الى اللحد ، تحت حراسة الدولة» . وقالت فى الثانية : «أتوسل الى جلالتكم بالتدخل لانقاذ عزبة «ياسنايا بولانا» . . . ومساعدة عائلتى ، اومن من صميم قلبى بطيبتكم ورحمتكم وشعوركم الدائم بالعدالة . . .» .

قامت فى البلاد ضجة صاخبة اثارها اعضاء المنظمات اليمينية الرجعية المتطرفة . واعلن سابلر رئيس السينودوس الاقدس *

---

* السينودوس الاقدس — اعلى هيئة حكومية فى روسيا (١٧٢١—١٩١٧) لشؤون الكنيسة الارثوذكسية . وكان السينودوس يشرف على مراعاة الطقوس الدينية وقضايا الرقابة الدينية ومكافحة الهرطقة ، ويتمتع بنفوذ كبير للغاية فى جميع ميادين الحياة الاجتماعية . **المترجم** .

ان شراء عزبة تولستوى سيكون «جائزة» لتولستوى بعد وفاته ومكافأة له على هجماته المتوالية على الحكومة .

وفى ٢٠ مايو ١٩١١ احال القيصر رسالة ارملة تولستوى الى مجلس الوزراء لينظر فيها فقرر هذا الاخير فى جلسته المنعقدة فى ٢٦ مايو قبول اقتراح ارملة تولستوى من حيث المبدأ وتكليف وزير المالية بايجاد المبلغ المطلوب . الا ان القول الفصل كان للقيصر فبت فى القضية فى ٢٠ ديسمبر ١٩١١ كاتبا قراره الاخير : «اجد ان شراء الحكومة لعزبة الكونت تولستوى امر لا يمكن السماح به . على مجلس الوزراء ان يكتفى بمناقشة مقدار المعاش الذى يمكن تعيينه لارملة المرحوم» .

هكذا «تخلص» القيصر من ارملة الاديب الكبير بتخصيص معاش سنوى لها . اما عزبة «ياسنايا بولانا» فلم تعلن ثروة وطنية تحرسها الدولة الا بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ .

اجتماع بيترجوف

لا يكفى استعباد الشعب ، لا بد ايضا من ان يوحى اليه بان العلى يبارك هذا الاستعباد ، ولذا سيبقى الى الابد . كما لا يكفى مجرد تجريد الشعب من حقوقه ، بل ينبغى ايضا تعويده على فكرة ان حالته هذه طبيعية تماما ، ولذا فهى راسخة لا تتزعزع .

ان فرض نظام الاستغلال القاسى على ١٤٠ مليون مواطن وتعريضهم للمجاعة والفقر المدقع هما جانب واحد من القضية . اما جانبها الآخر فهو تقسيمهم والتفريق بينهم باثارة التعصب القومى لاذلال بعضهم و«تشجيع» البعض الآخر وغرس شعور الرعب والخضوع فى اذهانهم جميعا امام عظمة وجبروت الحكم الامبراطورى . وكانت سياسة الاستبداد هذه تهدف اساسا الى ابقاء الشعب فى قيود الجهل والامية . فطالما ظل الانسان اميا اسيرا للخرافات بقى وفيا لسيده ، وطالما كان جاهلا عاجزا عن ادراك اسباب مآسيه ظل مستعدا لتقبيل اقدام مستغليه ، حتى وهو يموت جوعا . وكان مساندو العرش لا يكفون عن ترديد ان الانسان الروسى البسيط

المحافظ بطبيعته مخلص للنظام القيصرى وسوف يظل هكذا دائما اذا ابقى بعيدا عن المعرفة والتعليم .

وللاستمرار بهذا النهج التقليدى عقد القيصر ومعاونوه المقربون اجتماعا مع مجموعة من اصحاب المراكز وذوى النفوذ فى الدولة الروسية وقد دام هذا الاجتماع الذى انعقد فى بيترجوف الجديدة ثمانية ايام (من ١٩ الى ٢٦ يوليو ١٩٠٥) وكرس لمناقشة مسألة واحدة فقط الا وهى تأسيس مجلس الدوما . تحدث المجتمعون من حيث الاساس عن الاخطار التى تهدد العرش فى ظروف الثورة المتصاعدة ودعوا الى حمايته من اعاصيرها بالتنفيس عن الغليان الشعبى وتأسيس «مجلس تمثيلى» . كما اثيرت فى اثناء المناقشة مشاكل اخرى للحياة الداخلية فى روسيا وعكست بالوضوح نفسه الطريق المسدود الذى وصلت اليه البلاد بجريرة القيصرية .

. . . فى قاعة فى الطابق الثانى من القصر تطل بشبابيكها المشرعة على النافورات وساحل الخليج الفنلندى جلس على صفوف من الكراسى ٤٩ شخصا قدموا من موسكو وبطرسبورج وفق قائمة وضعها الامبراطور نفسه . كان فى الصفوف الامامية اقرب المستشارين لجلالته — بوبيدونوستسيف رئيس السينودوس الاقدس آنذاك وبوليجين وزير الداخلية وبردبيرج — مدير ديوان الامبراطورية وفريش سكرتير الدولة ولامزدورف وزير الخارجية وريدنجير وزير الحربية وغيرهم .

وترأس الاجتماع القيصر نيقولاى الثانى نفسه . وقد نبه المجتمعين فى كلمته الافتتاحية الى ان كل ما سيقال فى هذا الاجتماع من اوله لآخره هو «سر مطلق» ، ثم تساءل عما اذا كانت هناك حاجة الى تسجيل الكلمات نظرا لسرية الاجتماع الاستثنائية ؟ وعندما اختلفت آراء المجتمعين فى هذا الصدد امر القيصر فون جلدنبرانت بتسجيل المناقشات فى نسختين فقط . (وجدير بالذكر ان دار «ناينباست» الالمانية نشرت النصوص الكاملة لتلك المناقشة السرية بعد شهرين من هذا الاجتماع .)

. . . يهتم رئيس الاجتماع بهذا السؤال : هل سيكون فى امكان مجلس الدوما المرتقب ان يحدد سلطته ؟ يطلب شفانيباخ الكلام : «يا جلالة الامبراطور ، ان الرب نفسه خاضع للقوانين التى

خلقتها حكمته لادارة الكون . ان وضع القانون بيد جلالتكم وتفسير القانون بيد جلالتكم ايضا . اننا لن نسمح لمجلس الدوما ان يقيد جلالتكم» . يستنتج القيصر : «حسنا ، اذا سابقى الحاكم المطلق كالسابق» .

السؤال الثاني : اين يجب ادراج المادة التى تؤكد بقاء الحكم المطلق بشكله التقليدى - فى البيان الرسمى الذى سيعلن فيه القيصر تأسيس مجلس الدوما او فى القانون الدستورى الذى سيتم تأسيس مجلس الدوما بناء عليه ؟ يعتقد المجتمعون ان الامر سيان ، ولكن البيان سيقرأه الناس ثم ينسونه بسرعة ، اما القانون الدستورى فباق ، ويأمر القيصر بادراج المادة المذكورة فى القانون الدستورى .

ثم اراد ان يعلم اذا كانت المادة التى تتحدث عن مسؤولية نائب مجلس الدوما تتضمن ذكر جلالته ؟ فطلب : «اقرأوا لى نص مشروع قسم النواب» . فقرأوا له : «نتعهد امام الرب تعالى بتنفيذ المسؤوليات الملقاة علينا كرعايا مخلصين لجلالة القيصر» . لم يقتنع بذلك فطالب بان يقرأوا له للمقارنة نص القسم الذى يؤديه اعضاء مجلس الدولة القائم . فقرأوا له ذلك النص . فكر قليلا ثم اعلن : «كلا ، ان النص الاول يعجبنى اكثر ، انه اقصر ومعناه اوضح . . . فلنقر النص الاول» .

والآن بعد ان دقق الشيء الرئيسى يمكن الانتقال الى مناقشة موضوع الاجتماع . من يحق له ان يَنتخب ويُنتخب الى مجلس الدوما ؟ يعيد ستيشينسكى الى اذهان المجتمعين ان المادة الرابعة والخمسين للقانون المقبل تسد طريق النيابة فى مجلس الدوما امام الاشخاص الذين «لا يحسنون القراءة والكتابة باللغة الروسية» . وبما ان الاغلبية الساحقة من سكان الامبراطورية ، والفلاحين بصورة خاصة اميون ، يبرز هذا السؤال : كيف وعلى اى اساس وباية شروط يمنح المواطن حقه الانتخابى ؟ وهنا احتدمت مناقشة حادة حول مسألة التعليم الشعبى عموما .

ستيشينسكى : ان مفهوم «المتعلم» مفهوم مبهم غير دقيق يمكن تفسيره باشكال مختلفة . بين شيوخ القرى لا يحسن القراءة والكتابة الا القلائل . وبهذا نسد امام الشيوخ ، وهم اكثر القرويين خبرة واحتراما ، الطريق لارسال ممثلين عنهم الى مجلس الدوما .

وايده فى شكوكه كل من شفانيباخ وناريشكين وبافلوف وبوديبرج .

بوليجين : لا يجوز ان يضم مجلس الدوما نوابا عاجزين عن قراءة المواد المطبوعة حول المسائل المطروحة على بساط البحث .

فيرخوفسكى : على نواب مجلس الدوما ان يوقعوا القسم ، وهذا معناه ان على النائب ان يعرف كتابة اسمه على الاقل .

ناريشكين : ليس هذا مهما ، لا اظن ان امية الفلاح تمثل عائقا خطيرا . فالاميون منهم سيضعون ثلاثة صلبان مكان توقيعهم او سيوقع نواب آخرون نص القسم نيابة عنهم . واعتقد عموما ان العمد الاميين يؤدون واجباتهم المعقدة احسن من المتعلمين بكثير .

جلالة الامبراطور : انا موافق على ان هؤلاء الفلاحين ذوى العقلية السليمة يمكن ان يفيدونا كثيرا بخبرتهم وذكائهم الفطرى .

بافلوف : ينبغى اعتبار المتعلمين او حتى شبه المتعلمين فاسدين منحرفين عن الطريق القويم . . . انهم نباتات ضارة .

جلالة الامبراطور : لعله من المستحسن ان نشطب بند «ج» من المادة الرابعة والخمسين موقتا ، على الاقل . لنواصل المناقشة . . .

السؤال الجديد هو الموقف من القوميات الاخرى ، او بعضها على الاقل . هل يمكن منحها حق الانتخاب او يجب تجريدها منه ؟

ناريشكين : اعتقد انه ينبغى حرمان ابناء القوميات الاخرى من هذا الحق . انهم عنصر غير موثوق به ، ولذا فان وجودهم فى مجلس الدوما المقبل امر غير مرغوب فيه على الاطلاق .

كوكوفتسوف : اظن ان تجريد القوميات الاخرى من حق الانتخاب سيكون ظلما من الصعب ايجاد البراهين لتبريره .

ناريشكين : لا يمكننى ان اوافق على تصورات مجلس الوزراء ، ولاسيما تصوره الرئيسى حول اشتداد ميول التبرم بين القوميات الاخرى . لا اظن ان هذا الكلام يمكن ان يؤخذ على محمل الجد فى هذه المسالة .

جلالة الامبراطور : المشروع يبقى بدون تغيير .

بموجب القانون الانتخابى الذى اقره القيصر نيقولاى الثانى فى ٦ اغسطس ١٩٠٥ ، اى بعد مضى ايام قليلة على مناقشات بيترجوف ، قسم سكان الامبراطورية الى ثلاث مجموعات غير متساوية ، وهى اصحاب الاراضى وسكان المدن والفلاحون . انعم على المجموعة الاخيرة بواحد وخمسين مقعدا من اصل ٤١٢ مقعدا . ولم ينل العمال والاجراء واصحاب الحرف اية حقوق انتخابية على الاطلاق شأنهم فى ذلك شأن الرجال دون سن الخامسة والعشرين وكذلك كل النساء والطلبة والعسكريين ، الخ . .

ولكن الاحداث الثورية قلبت كل الاوراق . ففى ١١ ديسمبر

من السنة نفسها اقر القيصر قانونا جديدا للانتخاب على اساس مشروع اعده رئيس الوزراء فيته . وقد اقام القانون الجديد الى جانب المجموعات الانتخابية الثلاث المذكورة مجموعة رابعة للعمال مشترطا حقهم الانتخابي غير المباشر باقامة الناخب في منطقة الانتخاب مدة لا تقل عن ستة اشهر . وبموجب هذا القانون الجديد جرت الانتخابات العامة بواسطة ممثلين عن كل مجموعة على حدة مع اختلاف شديد في نسب التمثيل بين مجموعة واخرى . فاذا كان العمال ينتخبون ممثلا واحدا لهم للاشتراك في الانتخابات المباشرة عن كل خمسين الفا والفلاحون عن كل ثلاثين الفا منهم ، فان البرجوازيين كانوا ينتخبون ممثلا لهم عن كل سبعة آلاف وينتخب ملاك الاراضي ممثلا مقابل كل الفي ناخب ، او بعبارة اخرى كان صوت الملاك يساوي ثلاثة اصوات للبرجوازيين وخمسة عشر صوتا من اصوات الفلاحين وخمسة وعشرين صوتا من العمال .

الا ان القيصر لم يرتح لهذا النظام ايضا اذ وجد ان مجلس الدوما الاول الذي انتخب على اساسه «يساريا» اكثر من اللازم ، وسرعان ما قام بحله ، شأنه شأن مجلس الدوما الثاني الذي بدا له حتى اكثر يسارية من الاول . لم يلجأ الى المجاملة وحل هذا وذاك .

وبعد حل مجلس الدوما الثاني اصدر القيصر قانونا انتخابيا جديدا زاد فيه التفاوت في نسب التمثيل بين مجموعات الناخبين فاصبح صوت واحد للملاك يساوي ٤ اصوات للبرجوازيين و٢٦٠ صوتا للفلاحين و٥٥٠ صوتا للعمال . وبالنتيجة حصل الملاك والبرجوازيون الكبار في مجلس الدوما على ثلثي المقاعد في حين كانت نسبتهم (في المناطق الاوربية من روسيا) اقل من ١ في المئة من عدد السكان .

«وحش رهيب شرير ذو مئة فم»

في عام ١٧٨٥ طبع الموظف الصغير راديشيف كتابه «رحلة من بطرسبورج الى موسكو» في ٦٥٠ نسخة وبعث بالطبعة كلها الى تاجر الكتب زوتوف . وفيما كان هذا الاخير يبيع الكتاب الجديد ظهرت احدى النسخ على الطاولة الجميلة الصغيرة المزينة بالاحجار

الكريمة فى مكتب الامبراطورة ايكاتيرينا الثانية فى قصر الشتاء . وكانت قراءة الثلاثين صفحة الاولى من الكتاب كافية لكى تدرك جلالتها جوهر المؤلف فامرت الجنرال بروس القائد العسكرى لمنطقة بطرسبورج باعتقال راديشيف فورا والزج به فى قلعة بطرس وبولس . انها ستلقن هؤلاء المخربين مثيرى الفتن درسا لن ينسوه ابدا . فيا لها من وقاحة – مقارنة الحكم القيصرى بـ«وحش رهيب شرير ذى مئة فم !» ! ويا للاهانة لها ، هى الامبراطورة المثقفة ان يقال عنها : «فيلسوف على العرش» ! واحيلت قضية راديشيف الى شيشكوفسكى المعروف فى العاصمة بقسوته فاستوضح من المتهم كل التفاصيل ابتداء من تاريخ شروعه فى كتابة مؤلفه الاجرامى وانتهاء بالشخص الذى قام بطبعه والآخر الذى حمله الى الرقابة والثالث ، المسؤول فى الرقابة ، الذى لم يتعب نفسه بقراءة الكتاب وسمح بتوزيعه دون القاء مجرد نظرة عليه .

ولكن الشىء الاهم الذى اثبته شيشكوفسكى وابلغه الى الامبراطورة حالا هو ان المؤلف يقوم بالترويج لآرائه التخريبية هذه منذ زمن بعيد . وهو بالذات كتب قبل ١٧ سنة (فى عام ١٧٧٣) ! «ان الحكم القيصرى هو ابشع حالة بالنسبة لطبيعة الانسان» وان «ظلم العاهل يمنح الشعب ، قاضيه ، الحق نفسه واكثر الذى يمنحه القانون للعاهل فى معاقبة المجرمين» * .

ومما زاد من غضب الامبراطورة ورغبتها فى الانتقام ان راديشيف ادرج فى كتاب «الرحلة» قصيدة «الحرية» التى وصفتها الامبراطورة بانها «تدعو الى العصيان علنا وتهدد القياصرة بالمشنقة وتتحدث باعجاب عن كرومويل» .

بعد قرن من اقدام راديشيف الذى «غفر» له على الانتحار بالسم ظلت القيصرية ، «وحشا رهيبا شريرا ذا مئة فم» يطارد افضل الناس فى روسيا ويعذبهم ويغتالهم او يدفعهم الى الانتحار . وكان هذا يجرى فى اواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين شأنه فى اواخر القرن الثامن عشر .

---

* من ملاحظات راديشيف على ترجمته لكتاب مابلى «تأملات حول تاريخ اليونان» .

ومع تطور العلاقات الرأسمالية اخذت ركائز روسيا القديمة ، روسيا النبلاء والاقطاعيين ، تهتز تدريجيا مقوضة اساس العرش القيصرى . وبدأت قوى جديدة تنضج فى أعماق المجتمع وتقوى وتضغط من الداخل على قوالب النظام الاقطاعى الاستبدادى الضيقة الجامدة مهددة بتحطيمها . واكتسبت هذه التطورات رغم بطئها الظاهرى طابعا لا رجعة فيه . صحيح ان الوحش كان لا يزال رهيبا وشريرا الا ان حتمية هلاكه كانت واضحة منذ ايام راديشيف للكثير من الناس المفكرين فى روسيا وفى العالم ، ما عدا المتربعين على العرش وبطانتهم الذين ابوا ان يعترفوا بان انهيار القيصرية مسألة وقت لا اكثر .

لم يعد بوسع احد انقاذ القيصرية ، لا نيقولاى الثانى ولا اى قيصر آخر يفوقه عقلا وارادة . لقد اصدر التاريخ حكمه على هذا النظام الاقتصادى الاجتماعى الفاسد والمعادى للشعب بغض النظر عن الصفات الذاتية لهذا القيصر او ذاك .

ولكن تأكيدنا هذه الحقيقة لا يعنى ابدا ان دور القيصر نيقولاى الثانى فى العقود الاخيرة قبل ثورة فبراير الديموقراطية البرجوازية ١٩١٧ كان ، كما يزعم المختصون الغربيون فى تاريخ الاتحاد السوفييتى ومن بينهم هوير ، ضئيلا تافها بسبب صفاته الشخصية كالتفاهة والخمول والضعة «مما يرفع عنه كليا المسؤولية عما حدث» . وفى رأى هوير ان القيصر نيقولاى الثانى وقع ضحية للناس المقربين اليه ، وفى مقدمتهم قرينة القيصر وراسبوتين الذين كانوا يمارسون الضغط عليه ويستغلون ضعفه لحمله على اتخاذ قرارات خاطئة كانت تثير فيه الاشمئزاز احيانا .

ان هدف السيد هوير واضح للغاية وهو التقليل قدر الامكان من مسؤولية القيصر نيقولاى الثانى عما جرى فى روسيا فى سنوات حكمه (١٨٩٤-١٩١٧) حتى يبدو اعدامه فى الاورال عام ١٩١٨ ظلما لا مبرر له . ولكى نكون منصفين لا بد لنا من الاعتراف بان كثيرين من الناس ممن لا يمكن اتهامهم بسوء النية كانوا فى حينهم يشاطرونه تلك التصورات عن القيصر الروسى الاخير اما لاندفاعهم فى النقاش او لجهلهم ببواطن الامور . ولكن حديثنا هنا ليس عنهم بل عن اولئك الذين كانت لهم ولا تزال مصلحة معينة فى استغلال الاسطورة القائلة بان القيصر نيقولاى الثانى انسان «طيب

القلب» ، ولكنه ضعيف الارادة وسلبي و«خامل» مما يجعلــه في الواقع بريئا لا يتحمل اية مسؤولية عما جرى في عهد حكمه .

وبالمناسبة ، كان ليف تولستوي يميل الى هذه الفكرة . كمــا كان فيته يعزو الى سيده احيانا ضعف الارادة والخمولة . ويقول في سخرية ان القيصر نيقولاي الثاني «له طباع امرأة» وان لعبة القدر وحدها «زودت القيصر قبل ان يولد بقليل بما يميز الرجل عــن المرأة» .

يبرز نيقولاي الثاني من على صفحات الادبيات البرجوازيــة۔ الليبرالية القديمة كحاكم خائر العزيمة غير قادر على قمع المعارضة وحتى كأبله كئيب خائب لم يحالفه التوفيق . بل ان افضل اعمــال الصحافيين السوفييت في السنوات الاولى بعد ثورة اكتوبر ١٩١٧ تصور القيصر نيقولاي الثاني «شخصا تافها ، وكأنه لم يوجد في تاريخ روسيا» .

ولكن هذا «الشخص الذي لم يوجد» حكم روسيــا ٢٣ عاما . لقد ظهرت مرارا حالات متأزمة فكان يرتبك ويفقد صوابه ويتردد ، منتقلا من الانفعال الى الفتور واللامبالاة . وضغطت عليه قرينتــه وراسبوتين مرارا وطالباه بالتحرك واتخاذ خطوات حاسمة . ولكنــه مع كل ذلك لم يكن يؤدي دور البيدق . كان واعيا تماما لما يفعله وراغبا في القيام به . اما موقف اللامبالاة فلم يكن سوى قنــــاع لانسان يدرك جيدا مكانته ويعرف هدفه ويجد في نفسه ما يلزم من قوة الارادة والمكر لتحقيقه ، انسان تسيره رجعيته وكراهيتــــه الفطرية لكل جديد في التاريخ ، ولكل تقدم وحرية في الفكر .

ولا يقتصر الامر على ايمانه بالرسالة الالهية للنظام القيصري وعلى ان ذلك الايمان جعله يتشبث بالحكــم الاستبدادي في يأس ويحرص حرصا مستميتا على حمايته ، تحقيقا للوعد الذي قطعه لابيه المحتضر .

الاهم هو انه كان بحكم طبيعته يتمسك باكثر القناعات رجعية ويكره اشد الكره كل ما يواكب العصر ويحمل روح التجدد والتقدم . ان اقل حركة لقوى الحرية والانسانية كانت في رأيــه تهديـــــدا لسلامته وسلامة اهله . لذلك كان يسعى باستمرار لتخليــــد الركود والجمود اينما تيسر له ذلك .

وحينما كان يستقر رأيه على ان امرا ما مضر او مفيد للنظام

6*

وله شخصيا كان يعمل بحزم بل بقسوة مدهشة وبـلا تردد او رحمة ، خصوصا اذا كان الامر يتعلق بالتمرد او الليبرالية اللذين كانا يعتبرهما تهديدا للعرش القيصرى عامة ولسلامته الشخصية خاصة . وعندئذ كانت عاطفيته تختفي وحسن ادبه يتلاشى .

كان فيته يتذكر كيف انه فى خريف ١٩٠٥ حاول فى بيترجوف مع عمى القيصر اقناع جلالته بالموافقة على منح الشعب بعض الحريات الدستورية كمجرد مناورة سياسية فى مواجهته مع الشعب . فى ذلك اليوم غدا البيت الصغير على ساحل البحر مسرحا لنقاش عنيف . وقد هاجم الاميران الكبيران نيقولاى الثانى وتشاجرا فيما بينهما . واحتدم الجدال حول ما اذا كانت الثورة فى روسيا قد اصبحت امرا واقعا . وبعد نقاش طويل مضن اتفق الجميع على ان الموقف - بغض النظر عما اذا كانت الثورة قد بدأت بالفعل او لا تزال على الابواب - يقتضى القيام بمناورة لكسب الوقت ولم القوى . واخذ عما القيصر وقد هيجهما النقاش ، يدفعان بالقيصر الى المكتب حيث كانت ورقة عليها نص جاهز تنتظر توقيعه . ولكن نيقولاى الثانى تعنت . كلا ، انه غير موافق . ولن يضع اسمه تحت هذا البيان ، فلا داعى لمواصلة الطلب ، انه تبديد للوقت لا اكثر .

ومن جديد يتقدم احد عميه ويستأنف محاولاته بينما يثور الثانى ويصرخ ويشتم . ألا يدرك جلالته ان الامر ليس تراجعا ولا ضعفا بل مناورة ، مجرد حيلة ؟ ان الموقف يتطلب المكر والاحتيال ولو موقتا . . . المناورة ضرورية قبل فوات الاوان ! . .

لا ، انه غير موافق . بصورة موقتة او غير موقتة ، الامر لديه سيان . انه معارض ، معارض من حيث المبدأ .

عند الظهر وقد اوشكت قوى الاميرين على النفاد ، وصل من بطرسبورج «الامداد» فى شخص رئيس الوزراء فيته احد القائمين بصياغة نص البيان . وبذلت من جديد محاولات لاقناع جلالته بتوقيع البيان . يقول فيته :

- من غير المعقول ان يتوجه المرء فى قارب صغير الى عرض البحر الهائج . فمن المستحسن ان يختبئ فى مرفأ وينتظر حتى تهدأ الامواج . ان البيان عن الحريات يتيح لجلالتكم ان تكسبوا الوقت حتى تسكن العاصفة . عندئذ سيكون باستطاعتكم السير على نهجكم

السابق بيدين طليقتين .

كلا ! انه غير موافق . الاقتراح مرفوض بالمرة . يخطئ من يتوقع منه ان يتراجع امام الفتنة . الفتنة يجب ان تقمع بقوة مضاعفة وتخمد بالنار والحديد . كلا ، لن يوقع البيان . لن يقف موقف التساهل والتهاون . طبيعته لا تسمح بذلك . لقد اخطأتم التقدير ، يا حضرات السادة .

أيتراجع فيته هو الآخر يائسا ؟ كلا ، لديه ورقة رابحة اخيرة لم يكشف عنها بعد . وهذه الورقة هي آخر الانباء ، وقد التقطها صباحا في ديوان الامبراطورية . وهو يرى ان من واجبه اطلاع جلالته عليها .

اولا – تجاوز عدد الذين شملهم الاضراب العام مليون شخص ، اما عدد المضربين عن العمل في الريف فيربو على ثلاثة ملايين ؛

ثانيا – بلغ عدد عقارات الاقطاعيين التي دمرها الفلاحون الالفين ؛

ثالثا – بدأت حركة العصيان في وحدات الجيش العائدة من الشرق الاقصى ؛

رابعا – اذا تحولت اضطرابات العمال والفلاحين والجنود الى حركة عصيان شاملة بينما يستمر جلالته في رفض القيام بمناورة بسيطة وتوقيع البيان فلا يستبعد ان يجد نفسه مضطرا لمغادرة ربوع روسيا مع افراد اسرته ؛

خامسا – نظرا لخطورة الموقف استعلمت برلين عما اذا كان جلالته يرغب في ان يرسل القيصر الالماني مدمرة الى بطرسبورج ويضعها تحت تصرف جلالته تحسبا لكل طارئ ؟

لم يرد وظل دقيقة صامتا ، خمس دقائق ، عشر . . . يبدو انه ادرك اخيرا انه امام هذا الخيار : اما البيان واما المدمرة الالمانية . انه يختار البيان ، المدمرة لم يحن وقتها بعد . واخيرا رسم صليبا على صدره واقترب من الطاولة ووقع . . .

لم ينس نيقولاي الثاني ساعات الرعب والاهانة التي عاشها في اكتوبر ١٩٠٥ والتي كادت ان ترغمه على الهرب من روسيا . ومن هنا نقمته المضاعفة على الثوريين والديموقراطيين الذين اخذ يطاردهم بحقد متزايد . جاء في منشور للاشتراكيين-الديموقراطيين حول الحريات المزيفة التي منحها جلالته للشعب في هذا البيان :

لقد تجلت تفاهته حتى فى اساليب انتقامه التى كانت بدائية مبتذلة ينقصها الشمول الاستراتيجى . كما كانت ردود فعله فى مواجهة الخطر وتصوراته للخصوم تعوزها الحكمة السياسية ، الامر الذى جعل احد الصحافيين يلاحظ فى تلك السنوات ان القيصر نيقولاى الثانى يذكره بانسان اقبل على حل المعادلات فى الحساب التكاملى وهو لا يعرف سوى عملية الضرب . ان الدافع الرئيسى لكل تحركاته هو الخوف على عرشه وعلى سلامته الشخصية ، والعامل الوحيد الذى يأخذه فى حسبانه هو القوة الجسدية . اما اساليبه المفضلة فى مجال السياسة الداخلية فهى الاجراءات القمعية والعقوبات والملاحقات والارهاب . لقد تغيرت الظروف التاريخية ولكنه لم يتمكن من ادراك ذلك ولم يشأ تكييف سياسته للظروف . انه غير قادر على التسليم بوجود مجلس الدوما الذى تفضل هو نفسه «بمنحه» للشعب ويأبى ان يتسامح حتى مع اغلبية البرجوازية القومية التى لا تكل عن تأكيد اخلاصها المتناهى لجلالة الامبراطور . ان كل ما لا يحمل بركة الكنيسة الرسمية او اذنا من الدائرة البوليسية يثير فيه الخوف والحقد .

عينا غزال

والآن لنحاول ان نتصوره كما كان فى الواقع ، بدون اية مبالغات وتشويهات كاريكاتورية وان نركب صورته من لمحات عديدة منفردة وصلت الينا من مذكرات معاصريه .

كان القيصر نيقولاى الثانى متوسط القامة قوى البنيان يبدو بسبب عنقه السمين وكأنما يتعذر عليه التحرك بعض الشىء . وكانت مشيته تزيد من هذا الانطباع اذ كانت كتفه اليمنى تتقدم قليلا الى الامام حينما يمشى . وكانت ابتسامته ، فى معظم الاوقات غريبة ، «خفية» تغرق فى شاربيه الكثيفين ولحيته الشقراء المستديرة الصغيرة .

وكانت عيناه الواسعتان الخضروان-الرماديتان اللتان تبدوان سماويتين احيانا تنظران الى الناس ببرودة هادئة وكأنما تذكرانهم

بالمسافة التي تفصلهم عنه . او لعل هذا الشعور ناجم عن ان القيصر لم يكن ابدا ينظر الى عيني محدثه . كانت نظرة القيصر فى اثناء الحديث اما ان تتوجه الى مكان ما خلف كتف محدثه ، او تتجول فى جسمه دون توقف .

كان يستقبل زواره بلطف مشوب بالتحفظ دائما ، وكانت حركاته بطيئة رزينة . وكان يتكلم بتمهل وصوت منخفض ويزن كل عبارة . ولذلك كانت تتخلل الحديث فترات تفكير صامت مما كان يضايق محدثي القيصر ويحيرهم فى فهم ما يقصده جلالته وهل كان صمته ايماء الى ان المقابلة قد انتهت او الى انه غير راض عن موضوع الحديث ولا يريد الاستمرار فيه .

كان يضحك بتحفظ ، وفى اثناء الضحك يغطي عينيه او فمه بكفه فى خجل . وكان يحدث احيانا انطباعا بانه شخص متردد غير واثق بنفسه وحريص فى الوقت ذاته على اخفاء ذلك ، الامر الذي تنم عنه حركات كتفه العصبية وسعاله المتعمد ومسحه المتواصل على لحيته وشاربيه .

وبصورة عامة يختلف الناس كثيرا فى وصف مظهره . فالجنرال دانيلوف كان يعتبره جميلا ، ويقول المحامي والكاتب المعروف كوني الذي قابل القيصر فى مناسبات عديدة رسمية وغير رسمية انه انسان جذاب للغاية له «عينا غزال لطيفتان» . وكان فيته يشاطره هذا الاعتقاد . اما ليمكي فكتب فى مذكراته فى ١٦ اكتوبر ١٩١٥ : «اتيحت لى اليوم الفرصة لان اراه عن كثب . . . واراقب طريقة تصرفه مدة طويلة . . . انه غير جميل ابدا ، للحيته وشاربيه لون اصفر غامق وانفه غليظ كانف فلاح ، وعيناه جامدتان كالحجر . . . » . اما مستيسلافسكي فقال عن القيصر بعد مرور شهر على الاطاحة به ان تعابير وجهه وعينيه ذكرته بذئب مطارد .

لم يكن يستعمل كلمات اجنبية تقريبا ولكن كانت فى نطقه لكنة خفيفة . كان يجيد ، الى جانب اللغة الروسية ، الانجليزية والفرنسية والدانماركية ويتحدث قليلا بالالمانية . وكانت مكتبته الخاصة تستلم باستمرار اهم الكتب الجديدة باللغة الروسية واللغات الاجنبية . وفى اثناء تنقلاته كانت المكتبة تسير وراءه . ويشهد مدير المكتبة شيجلوف على ان القيصر كان يقرأ فى الشهر

نحو عشرين كتابا . اما طريقة قراءته فمعلوماتنا عنهـــا قليلة . يقول كوني اياه ان اطلاعه كان لا بأس به ، بينما يشهد القيصر نفسه في دفتر مذكراته في اثناء اعتقاله في توبولسك (وكان عمره آنذاك يقارب الخمسين) انه قرأ للمرة الاولى في تلك الايام فقط القسم الاخير من روايـــة «الحرب والسلام» لتولستوي والمؤلفات الرئيسيـة لكبار الادباء الروس الآخرين امثال سالتيكوف-شيدرين وليسكوف .

كان دقيقا في مواعيده لا يسبقها ولا يؤخرهـــا . وعاش طول حياته على نظام معين لا يتغير : لا ينام ابدا في النهار ، ولكنه يأخذ قسطا من الراحة بعد الغداء . كان ضعيف النظر بعض الشيء ، ولكن لم يره احد (ربما باستثناء اهل بيته) مرتديا نظارة . وكان سمعه قويا مرهفا لدرجة تمكنه من معرفة القادم اليه وهو بعيد من وقع خطواته . اما ذاكرته البصرية فكانت قوية ايضا بحيث يتذكر كل من سبق ورآه مرة قبل سنوات .

لم يكن القيصر نيقولاي الثاني ، خلافا للرأي السائد ، مـن هواة الكحول ولكنه كان من هواة التبغ . وحينمـــا يدخن يدعو الآخرين دائما الى مشاركته ، الا انه لم يكن يتحمل رائحة السيجار ولم يكن ابدا يعرض تبغه او سجائره على الآخرين .

كان يستقبل الزائرين واقفا امام مكتبه وعند جلوسه يدعو الزائر للجلوس ايضـا . وفي اثناء استقبـال الزائرين يدخن عادة ويتمشى احيانا في مكتبه ويتوقف فجأة عندما يثير شيء دهشته او تعجبه .

وفي اثناء الحديث يصغي الى محدثه باهتمام ولا يقطعه ، واذا اعترض عليه لا يرفع صوته ابدا . ولم يصرخ مرة في احد مـــن وزرائه او جنرالاته وكانت تصرفاته هذه تضلل الكثيرين وتكلفهم فقدان وظائفهـم . فالقيصر كان كالعادة لا يتورط في النقاش ولا يفند كلام محدثه او يصححه . لذلك ظل موقفه او رأيه الحقيقي في اثناء المقابلة مخفيـــا وراء قناع من اللامبالاة . وكثيرا ما كان صمت القيصر يضلل محدثه ويشجعه ويجعله يسترسل في عرض براهينه ، فيغادر البلاط متفائلا مغرورا بنجاحه الذي اصبح في الواقع ابعد منه من اي وقت كان ، لان موافقة القيصر الظاهرية لم تكن سوى حيلة يلجأ اليها لمعرفة المواقف الحقيقيـــة لموظفيه .

فاذا وجد انها تختلف فى شيء عن مواقفه هو كان لا يتردد فى ابعاد الشخص عن منصبه عاجلا ام آجلا .

يعزو موسولوف مثل هذه التصرفات الى «نقص الجرأة» لدى القيصر و«عدم قدرته على اتخاذ قرار نهائى فى حضور شخص معين» . لقد علمه مربيه الجنرال دانيلوفيتش فى حينه ان يكبت عواطفه ويخفيها عن الآخرين ، ولكنه لم يوح اليه بان مكانته العالية تفترض وجود قدر معين من الجرأة والصراحة فى معاملاته مع الناس او مع اقرب معاونيه على الاقل . ومن هنا طريقته المتأصلة : تنفيذ ما يقرر بحضور شخص من وراء ظهر هذا الشخص ، وارسال المضايقات فى اعقابه مباشرة . وهكذا فان رئيس الوزراء جوريميكين فوجئ فى اليوم الثانى بعد قيام القيصر باستقبال سامارين رئيس السينودوس الاقدس برسالة من جلالته يقول فيها : «لقد فاتنى امس ان اقول لسامارين انه اقيل من منصبه . فأكلفك بان تحيطه علما بذلك» . وبطريقة مماثلة اقال الكثيرين غيره . ولكن ، الى جانب النفاق الذى اصبح طبيعته الثانية ، كانت تكمن وراء طريقته هذه فى معاملة مرؤوسيه اسباب اخرى ، وهى كبرياؤه المريض وقلقه الدائم من ان يتمكن محدثه من ان يثبت له بطلان موقفه ، والازدراء الذى كان ينظر به الى وزرائه وكأنهم مجرد خدم له . فكان لا يتعب نفسه مثلا بمحاولة تغيير رأى احد من وزرائه اذا اختلف معه فى شيء ولا يسعى لكسبه الى جانبه من اجل الحفاظ على معاون كفء بل كان يتخلص منه بكل بساطة مهما كانت فضائله ويعين مكانه شخصا آخر : الانسان النشيط ذو المبادرة يثير شكوكه دائما . فقد قال لرئيس الوزراء كوكوفتسوف عند تعيينه فى هذا المنصب : «ارجو الا تحجبنى كما كان يفعل سابقك ستوليبين» .

يقول كونى الذى كان يزور البلاط كثيرا انه «بالرغم من حسن المعاملة وبالرغم من الحنان فى عينى الغزال الوديعتين كنت اشعر دائما بان كل هذا اللطف ليس له قيمة حقيقية ولا ثابتة ، وهذا هو الاهم» . وكلما كان كونى يحاول ان يثير معه الحديث «حول الظواهر البشعة للحياة الداخلية» بغية «تحريك فكرته فى هذا الاتجاه» تلقته «نظرة . . . الغزال الوديعة ، بينما تظل يده التى كانت سعادة الملايين ومآسيهم تتوقف على حركة واحدة منها ،

تمسح لحيته الشقراء . . . فيسود صمت ثقيل ويموت الحديث حتى يستأنفه سؤال جديد ما» .

ومن المفارقات انه مع عدم ثقته الداخلية بنفسه كان «يعتبر ذاته حاملا للرسالة الالهية وهذا الشعور كان يثير فيه احيانا نوبات من الغرور المدهش تجعله يضرب عرض الحائط بكل النصائح والتحذيرات التى يتقدم بها الشرفاء القلائل من بين المحيطين به» .

كان يصغى الى وزرائه بلطف ظاهرى ، ويقيلهم بدون تردد . ولم يحدث مرة ان دافع عن احد منهم حتى اكثرهم وزنا لديه . وفى حال الفضائح او النمائم او الوشايات لم يكن يحاول الا نادرا التحقيق فى الامر لمعرفة الظالم والمظلوم وفصل الحق عن الباطل بل كان دائما يميل فى قراره الى ابعاد الشخص الذى اثيرت الضجة حوله ، من غير ان يخوض فى الدوافع والمسوغات .

وكان فى اثناء المقابلات الرسمية يستمع الى محدثه بوجه لا ينم عن شىء ، الا ان ردود فعله فى الرئيسى كانت خاطفة وقدرته هذه على استيعاب فحوى الامور تثير الدهشة . وكان لديه احساس مفرط بالمعانى الغامضة يمكنه من ادراك مغزاها الحقيقى فورا . وكان يفضل من بين مقدمى التقارير اولئك الذين يعرضون عليه المسائل المعقدة باختصار ووضوح بدون حذلقة مزيفة ، وكانت مقابلاته معهم تدوم احيانا ساعتين او ثلاث ساعات .

ثمة رأيان سائدان عن القيصر يناقض احدهما الآخر . يقول احدهما انه «انسان مشلول الارادة» ويقول الثانى انه «بيزنطى ماكر كذاب ضيق الافق قليل الاطلاع وضعيف التعلم» . ويصر كونى على ان كلا الرأيين بعيد عن الحقيقة ، ويقول : «اقنعتنى احاديثى مع القيصر بانه ذكى ولا شك ، اذا كانت هذه الصفة لا تفترض فى الانسان شمولية النظرة الى الحياة والقدرة على استيعابها بكل ظواهرها وابعادها» .

وكان الآخرون يعتبرون القيصر نيقولاى الثانى انسانا ذكيا ، او كانوا بالاحرى لا ينكرون فيه قدرا معينا من الذكاء ويعترفون بوضوح احكامه وحتى بحدة تفكيره . وقد سخر يوما ، فى حديث مع سازونوف ، من تصوراته الليبرالية الساذجة عن روسيا : «اذا

كتب لك او للآخرين امثالك ان تجدوا انفسكـــم ذات يوم امام الشعب الروسى وجها لوجه فانى متأكد بانه لن يبقى اثرا منكم بعد اسبوعين» . ولكن القيصر لم يكن يتميز ببعد النظر وكان يعجز عن تقدير العواقب البعيدة المدى لخطواته . كانت نظرته الى الامور سطحية للغاية وتقديره للظروف بدائيا . وحتى اذا كان لا يخلو من الذكاء فعلا ، فهو ذكاء انسان عادى ، لا ذكاء قائد دولة . واذا استعملنا لغة الشطرنج يمكننا القول ان ذكاءه كان كافيا لتحديد الحركة القادمة فقط اذ كانت تنقصه القدرة على التحليـــل وادراك المغزى الاستراتيجي للعبة . ومنطقه – مع انه درس علم المنطق على ايدى اساتذة فى ايام شبابه – كان ايضا مبتورا وناقصا . ويتذكر كونى انه اثار معه حديثا ذات مرة عـــن احتمالات «عودة الهدوء الى البلاد» اذا نفذت الوعود عن الحريات التى اعلنهـــا فى بيانه الصادر فى ١٧ اكتوبر ١٩٠٥ . فقال القيصر وكأنه يهدئ نفسه : «اجل ، انه نصيب جميـــع الدول . . . بريطانيـــا وفرنسا . . . لقد مرت جميعا بهذه التجربة . . . » . وتماسكت بصعوبة عن القول : «ولكن فى بريطانيا وفرنسا كانوا سيقطعون رأس جلالتكم !»

ليس «نقص الذكاء ، بل انعدام الشفقة الانسانية» هو ما يفسر فى اعتقاد كونى الكثير مما «حمل الى روسيا المآسى والعار» . يقول كونى : «ان الجبن والخيانة كانا اهم معالم حياتـــه وحكمه معـــا وفيهما – لا فى قلة ذكائه او نقص ارادته – يجب البحث عـــــن بعض اسباب النتيجة التى انتهى اليها هذا وتلك» ثم يعود ويؤكد مرة اخرى ان نقص طيبة القلب وبالتالى نقص الشعور بالكرامـــة الذاتية لا نقص الذكاء «هو الذى جعلـــه يستمر وسط ما كان يتعرض له المقربون اليه من اهانات وآلام بالتشبث بحياتـــه الحقيرة عاجزا حتى عن لقاء ساعته الاخيرة بشرف» . وهذه السطور كتبت قبل اعدام القيصر فى ايكاتيرينبورج بعام واحد .

كان نيقولاى يؤمن بالخرافات ويتوكل صراحة عند تقرير شؤون الدولة على الحدس والقدر والغريزة . ومن هنا ذلك القناع مـــن اللامبالاة الذى كان يتستر به . كان يستطيع ان يفكر طويلا قبل ان يستقر رأيه على شيء ، الا ان قراره النهائى كان فى حالات كثيرة يتوقف على ايماءات حدسه او على امارة عرضية تافهة . وكثيرا ما

كان يحدث ان يقدم احد الوزراء اليه تقريرا متكاملا دقيقا مبنيـــا على ادمغ الحجج واصح المعطيات ، الا ان القيصر كان بعد اطلاعه عليه يغوص فجأة فى حالة من التأملات الصوفية ويظل مدة طويلة يوازن بين بشائر الخير ونذر السوء حتى يتوصـــل الى قرار خاص يمليه عليه «صوته الداخلى» . وانتشرت اشاعة تقول انه لا يتخذ قراراته قبل ان يخمن على قطعة نقدية : «طرة او نقش ؟» .

تواقيع القيصر

ان الامبراطور حريص اشد الحرص على تقوية روح الاجتهاد فى مساعديه . ولكن ، فى اى اتجاه ؟

يؤكد محافظ تومسك فى تقريره السنوى على «ضرورة بنـــاء مزيد من الكنائس» لا فى المدن فقط بل فى المناطق الريفية على وجه الخصوص . ويكتب القيصر على هامش التقرير : «اؤيد هذه الفكرة من صميم قلبى» .

ويكتب الجنرال سوخوملينوف من منطقة كييف العسكرية فى مذكرته الى القيصر عن استحالـــة «توفير العدد الكافى من الكتب الدينية من اجل الجيش» بسبب موقف وزارة المالية التى لا تخصص اموالا لذلك . قرار القيصر : «على وزارة الحربية ان تطلب باصرار اشد تخصيص الاعتمادات اللازمة لسد احتياجات الجيش الحيويـــة هذه . . . ان موقف هذه الوزارة او تلك ليس مهما طالما كنت اريد ذلك» .

ويشدد الجنرال يونوف المحافظ العسكرى لسيميريتشيه فى تقريره السنوى على «الضرورة الحيوية» لمواصلة القيام «بمصادرة اكبر كمية ممكنة من الاراضى من القرغيز الرحل لاقامة معسكرات للقوزاق فيها» . ويوافق القيصر على اقتراحه ويكتب على هامش التقرير : «ينبغى مواصلة استعمار هذه المنطقة بكل اصرار» .

ويعبر المحافظ العسكرى لمقاطعة ترغاى الجنرال لوماتشيفسكى فى تقريره عن يقينه بان «فتـــح المدارس للقرغيز امر لا جدوى فيــــه» . فيكتب القيصر : «موافـــق . يحال التقرير الى وزارة المعارف» .

يقول الجنرال جازنكامف من استراخان فى تقريره ان المدرسة الثانوية فى المدينة «لم تعد تستوعب كل الراغبين فى الالتحاق بها» وان فتح مدرسة ثانوية اخرى اصبح «ضرورة ملحة» . ويسجل جلالته بخط يده على التقرير : «لا مجال لاية مدرسة ثانوية . يمكن الحديث فقط عن مدرسة متوسطة للتعليم المهنى» .

ويفيد محافظ اولونيتس فى تقريره السنوى انه تم فى محافظته نتيجة جهود مجالس الزمستفو «فتح ١١٧ مدرسة شعبية اخرى» . قرار القيصر : «العجلة فى هذا المجال غير مستحسنة ابدا» .

وكتب على تقرير لمحافظ فولوغدا لوديجينسكى حيث جاء فيه ان مجالس الزمستفو تسعى الى زيادة المخصصات للمدارس الابتدائية الشعبية عن طريق تخفيض نسبة مخصصات المدارس الكنسية : «هذا لا يعجبنى بالمرة» .

ويلاحظ محافظ بولتافا فى تقرير سنوى انه بالرغم من وجود فرق معين بين برامج المدارس الكنسية ومدارس الزمستفو فانه يحرص دائما بمنتهى الصرامة على ان يجرى التعليم فى الاولى والثانية «على اساس مشترك قوامه الارثوذكسية والاخلاص للقيصر» . فيكتب القيصر على هامش التقرير : «فى الحفاظ على تلك القيم المقدسة الملازمة لقلب كل روسى ضمان للتثقيف الحقيقى لجماهيرنا الشعبية» .

ويفيد ستوليبين محافظ ساراتوف انه تأكد من ان تلامذة الكلية الزراعية يقومون سرا بطبع المناشير والكراريس الممنوعة ، ثم يوزعونها بين الفلاحين . ويثور جلالته : «يا للعار ! ما هو العقاب الذى فرض على ادارة الكلية ؟»

ويخبره تقرير المحافظ العسكرى فى ستيبنويه عن ازدياد نشاط «الاشخاص المنفيين المقيمين فى المنطقة تحت الرقابة البوليسية السرية والعلنية» . انهم ينتظمون فى حلقات تثقيفية ويشاركون فى نشاط ادارات الاحصاء والجمعية الجغرافية ، وقد اوصلوا ممثليهم الى مجلس البلدية . ويكتب القيصر على التقرير : «ينبغى وضع حد لهذا» .

ويطلب الامير جوليتسين الحاكم المدنى العام فى القفقاس الاذن من جلالته بزيادة عدد رجال البوليس ورفع أجور مسؤوليه . قرار جلالته : «طلب مشروع» .

ويلفت الادميرال انكفيست محافظ مدينـة نيقولايف فى تقريره انظار جلالته الى ان المدينة فى حاجة ملحة الى زيادة البوليس ١٨ شخصا . وكتب القيصر على تقريره : «ينبغى تنفيذ هذا الطلب» .

ويتحدث محافظ ساراتوف ستوليبين (الذى عين فيما بعد رئيسا لمجلس الوزراء) فى تقريره عن تجربته الناجحة فى قمع اضطرابات الفلاحين بواسطة فصائل صغيرة من الخيالة . اظهرت التجربة افضليتها على المشاة ، فهـــى اكثر قدرة على الحركة وعلى تفريـــق جموع المتمردين بالسياط . فكتب القيصر : «موافق تماما» .

الاقلال من المدارس وزيادة السجون ، الكنائس عوضا عـــن الكليات ، البوليس عوضا عن المدرسين ، حماية الملاك من الجياع عوضا عن مكافحة المجاعة – ذلكم هو سبيل القيصر «الى قلب كل روسى» .

الفصل الخامس

«عجلة الموت»

طلقات قرب قصر الشتاء

قبل ثلاثة عشر عاما من النهاية فى ايكاتيرينبورج سمح القيصر لجنرالاته الذين قادهم الامير الكبير فلاديمير باقامة المذابـــح فى شوارع العاصمة وفى ساحتها الرئيسية امام قصر الشتاء مباشرة . ولهذا الغرض ارسل الى احياء بطرسبورج ٤٠ الفا من الجنود ورجال الدرك بما فى ذلك كتيبتان لفوج بريوبراجينسكى الذى كان القيصر قد تدرب فيه كضابط تحت قيادة عمه الامير الكبير سيرجى . وقد هاجمت الجيوش وقوات الدرك المسيرة السلمية للعمال (حتى ١٤٠ الفا مع زوجاتهم واطفالهم) الذين دعاهم القس جيورجى جابون الى طلب المساعدة والحماية من القيصر . كان ذلـــك فى ٩ من يناير ١٩٠٥ . وقد دوت الطلقات الاولى فى الساعة الثانيـــة عشرة ظهرا بالقرب من باب نارفا . وفى الساعة الثانية بعد الظهر اطلق الجنود النيران على السائرين فى الصف الرئيسى الذى اقترب مـــن قصر الشتاء . وكانوا يسيرون بروح مسالمة حاملين الايقونات والرايات الدينيـــة . فاذا بطلقات البنادق وبرجال الدرك راكبين الخيول ينهالون على الناس العزل ويضربون النســـاء والاطفال بالسيوف ويدوسونهم بسنابك الخيل ويقتلون الجرحى . وامتلأت ساحـــة دفورتسوفايا والشوارع المجاورة باجساد المقتولين والجرحى ، الا ان رجال الدرك استمروا باطلاق النار مصوبين فوهات بنادقهم الى قمم الاشجار فى حديقـــة الكسندر التى تسلق اليهـــا الصبيـان الفضوليون لكى يراقبوا المظاهرة مـــن الاعلى . دوت الطلقـــات وتساقطت الجثث الصغيرة الى الارض المغطاة بالثلج . ثم انتقلت المذابح الى الشوارع الاخرى وفى نهاية اليوم دون فى سجل الاحد الدامى الالوف من الجرحى والقتلى .

فى الليل سجل القيصر فى يومياته : «يوم فظيع . اضطرابات خطيرة فى بطرسبورج نتيجـــة اصرار العمال على الوصول الى قصر

الشتاء . الجيوش اضطرت الى اطلاق النيران فى شتى انحاء المدينة . وقع العديد من الجرحى والقتلى . قلبى مثقل والمى لا يطاق» . ثم يقول بعد عدة سطور : «ماما جاءت الينا اليوم من المدينة وقت صلاة الصباح مباشرا . تناولت وجبة الفطار مع الجميع . ثم تنزهت مع ميشا» . اذا ، لم يكن قلبه مثقلا الى تلك الدرجة ولم يفقد شهيته تماما . وسجل فى اليوم التالى : «تناول العم الكسى وجبة الفطار معنا . استقبلت بعثة من قوزاق الاورال اتوا الىّ بالكافيار . قمت بنزهة قصيرة . شربت الشاى عند ماما» .

ان مزاجه يتحسن من ساعة لاخرى . انه مستعد الآن حتى لاعلان غفرانه لاولئك الذين «اضطرت الجيوش الى اطلاق النيران عليهم فى شتى انحاء المدينة» . واعدادا لمراسيم مهزلة «الغفران» هذه قام قسم المباحث بعد مرور عشرة ايام على الاحد الدامى باخبار ممثلين عن العمال فى المصانع لتشكيل «وفد عمالى» يضم ٣٤ شخصا . وقد جرى تشكيل الوفد بالطريقة التالية : موظف صغير لادارة احدى الفبارك جالس فى بيته يشرب الشاى . فاذا بضربات قوية على الباب . يهرع صاحب البيت ليفتح الباب ويفاجأ بالشاويش وضابط الدرك وعدد من رجال البوليس والبواب .

– حضرتك فلان ؟

– نعم .

– البس بسرعة وسر معنا .

– لماذا ؟ لاى سبب ؟

– اسرع !

ثم وضعوه فى عربة خيل وحملوه الى جناح البوليس فى قصر الشتاء . وكان الدركى يعجله باستمرار : «أسرع ، اسرع !» . وعند الوصول قادوه الى قاعة ، حيث مثل امام الجنرال تريبوف المحافظ العسكرى لمدينة بطرسبورج . فامر هذا بتفتيش الرجل . وبعد ان فتشوه امر بخلع ملابسه فخلعوها . ثم البسوه لباسا غريبة ونقلوه الى محطة السكة الحديد ودفعوه الى عربة مغلقة حيث وجد فيها مجموعة من «ممثلى العمال» الآخرين الذين قبض عليهم بالطريقة نفسها وحظر عليهم التحدث فى العربة .

وفى تسارسكويه سيلو نقلوا الى القاعة الكبرى لقصر ايكاتيرينا ، حيث خرج القيصر الى هؤلاء المساكين الذين كاد عقلهم

يطير من شدة الخوف ، وتوجه اليهم بخطبة قصيرة . اجل ، انه على علم بان «حياة عمال المصانع ليست سهلة» وان الكثير فيها «يحتاج بالفعل الى تغيير وتحسين» . غير انه ينذرهم قائلا : «لا يجوز ابدا ان تعلنوا عن حاجياتكم الى القيصر بواسطة مجموعة من المشاغبين . انه امر مشين ، انه جريمة» . ثم يقول جملته الرئيسية التى اقيمت من اجلها كل تلك المهزلة فى الواقع : «انا اثــق بشعور العمال الشريف وباخلاصهم الراسخ لى ، ولذا فانا مستعد لاغفر لهــم ذنبهم» .

وبعد اسبوعين من الاحد الدامى نشر لينين فى صحيفة «الى الامام» مقالا عنوانه «الجنرال تريبوف يتصرف» وصف فيه هذا المشهــد بانه «مهزلة بشعـــة» . وقال ان «القيصر استقبـــل فى مقره فى تسارسكويه سيلو بعثة من ٣٤ عاملا انتقاهم البوليس والقـــى امامهم خطبة مليئة بالعبارات الكاذبة والنفاق عن حرص الحكومـــة الابوى على حماية العمال ، والصفح عن جرائمهم» . وابدى لينين ثقة بان البروليتاريا الروسية لن تنخدع بهذه المناورة وتنبأ بانها «سوف تخاطب القيصر بلغة اخرى» * .

كان الرأسمالى سافا موروزوف يعتبر من اكثر اناس وسطه ذكاء وثقافة وكان يعرف جيدا نفسية العمال والاداريين فى المصانع . وقد قابل جوركى فى تلك الايام من يناير ١٩٠٥ بعد وقوع المذابح مباشرة . قال موروزوف :

— ان القيصر حمار ، لقد نسى ان الناس الذين يطلقون عليهم اليوم الرصاص تنفيذا لاوامره كانوا قبـــل عام ونصـــف يقفون راكعين امام قصره ينشدون «احم قيصرنا يا رب» .

ثم جلس الى جانب جوركى واضاف قائلا :

— نعم ، لا مفر من الثورة الآن . . . ان سنين الدعاية لا تعطى ما توصل اليه جلالته نفسه فى خلال ذلك اليوم فقط .

اخذت تصل الى روسيا اصوات من العالم الخارجى الذى هزه نبأ المذابح . وكان البعض يعرب عن الدهشـــة («كيف يمكن ان تحدث أشيـــاء كهذه ؟») ويستنكـــر البعض الآخر («كيف تجرأ

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، ص ٢٤١ .

القيصر ؟») ، بينما اصدر البعض الثالث حكمه النهائي الصارم على القيصرية . وكان من بين المجموعة الاخيرة جان جوريس الذى نشر فى تلك الايام مقالا فى صحيفة «لومانيته» حول حوادث يناير فى بطرسبورج .

كتب جوريس : كان باستطاعة روسيا والبشرية كلها حتى الآن ان تفكر فى ان نيقولاى الثانـــى هو «الاسير الاول لنظام الحكـــم الاستبدادى» وان البيروقراطية تضطهد الشعب وتنهبه رغم ارادته وغصبا عنه . وكان بوســـع البعض حتى الآن ان يظنوا ان القيصر الروسى غير مسؤول عن مذابح كيشينيف التى دبرها البوليس بكل دناءة ولا عن الحرب الفاشلة مع اليابان ولا عن اية اعمال قذرة اخرى . ولكن الشعب «توجه هذه المرة الى القيصر مباشرة» فاذا بنهر من الدم يفصل القيصر عن «شعبه» . ان القيصريـــة بانزال ضرباتها على العمال اصابت نفسها بجراح مميتة . لقد بات اليوم واضحا للجميع ان «القيصر قاتل بلا شك» .

اما القيصر فبعد ان اعلن «غفرانـــه» لضحايا مذابح التاسع من يناير وسط تهديداته وتحذيراته لهم توجه بكلمات الشكر والامتنان الى الذين اطلقوا النيران عليهم تنفيذا لاوامره . لقـــد اختفت رزانته المألوفة لتحل محلها عواطف وحرارة غير عادية فى الاسطر التى وجهها الى افراد فوج سيمينوفسكى : «شكرا لكم ، يا اعزائى جنود فوج سيمينوفسكى ! انا ممتن لكم من صميم قلبى على خدمتكم . ان شجاعتكم وصمودكم واخلاصكم قد حطمت الفتنة» . ويقول فى رسالة اخرى الى جنود هذا الفوج : «انى احب جنود فوج سيمينوفسكى واكن لهم احتراما عميقا واوصى ولى العهد بان يحبكـم كما احبكم انا . ارجو ان تقبلوا امتنانى العميق للسيفين الصغير والكبير اللذين اهديتموهما لولى العهد . لقد حمل السيف الصغير ، اما السيف الكبير فسوف يحمله باذن الله بعد التحاقه بالخدمـــة العسكرية» .

وبالاضافة الى كل هذا يقدم الى جنود فوج سيمينوفسكـــــى تسهيلات غير عادية ويعلن ان كلا منهم يستطيع بعد انتهاء مدة خدمته ان يتوجه الى جلالته مباشرة : «اما الذين تنتهى مدة خدمتهم قريبا ويذهبون الى ديارهم فليعرفوا ان من حقهم ان يتوجهوا الىّ مباشرة فى حالة ما اذا ظلمهم احد او حاول ان يعاملهم معاملة غير

لانقة . فليحفظكـــــم الله» . وكانت لهذا الامتياز اغراض بعيدة المدى ، فقد اكتسب فوج سيمينوفسكى فى عام ١٩٠٥ سمعة فوج من الجلادين ، وكان القيصر يريد بوعد الحماية الشخصية تشجيع اعوانه الذين بدأ الكثيرون منهم يرتعشون رعبا امام العاصفـــــة الثورية المتصاعدة .

قرارا القيصر

جاءت الام الى السجن لزيارة ابنها المعتقـــــل . ودار الحديث بينهما عبر شبكة حديدية بحضور دركى . قالت الام لابنها انهـــا ذهبت امس لزيارة نائب التحقيق .

– سألته متى سيخرج اولادنا من السجن ؟

– وماذا قال ؟

– قال ان الناس لا يخرجون من سجوننا بل ينقلون منهـــا محملين .

– فماذا قلت له ؟

– قلت : حرام عليك ، اولادنا ليسوا قتلة ، لماذا تعاملونهم بهذه القسوة ؟ فقال انهم اسوأ من القتلة ، القتل جريمة عادية ، اما اولادكم فجريمتهم افظع بكثير : لقد ثاروا ضد القيصر !

كان القيصر نفسه يشاطر نائب التحقيق المذكور اعتقاده بـان ما من جريمة مهما كانت شنيعة تستطيع ان تقارن بجريمة التمرد عليه ، على القيصر الروسى .

ثمة بين وثائق الارشيف اضبارة كتب عليها بخط جميل «حول وضع قواعد محاكم الميدان العسكرية ، ١٩٠٦» . واول ما يلفت النظر فى هذه الاضبارة رسالة الادارة العامة للمحاكم العسكرية الى وزارة الحربية المؤرخة فى ٨ يوليو ١٩٠٦ . وتحمل الرسالة كتابة بخط الامبراطور نفسه : «اذكر الادارة العامة للمحاكم العسكرية موقفى من الاحكام بالاعدام . انى موافق عليهـا اذا نفذت فى خلال ٤٨ ساعة بعد ارتكاب الجريمة والا فاعتبرها اعمال انتقام وقساوة ترتكب باعصاب باردة . نيقولاى الثانى» .

قد يبدو لاول وهلة انها دعوة الى الشفقة ، أليس كذلك ؟ ان القيصر يرفض اعمال الانتقام ويشمئز من ارتكاب القساوة باعصاب

باردة . انه انسان وديع ، قلبه عامر بالشفقة والرحمة . انه لا يقبل بعذاب الانسان ومستعد للمغفرة تماشيا مع تعاليم الكنيسة المسيحية .

ولكن لنتصفح اولا مواد الاضبارة المذكورة . ثمة ، الى جانب كتابة القيصر المؤرخة فى ٨ يوليو ، قرار جلالتـــــه بتاريخ ٢٠ اغسطس حول اقامة محاكم الميدان العسكرية ، ذلك القرار الذى وصفه اثر صدوره على شكـــــل قانون حزب العمال الاشتراكى-الديموقراطى فى روسيا * فى منشور للجنته فى بطرسبورج («الى كل العمال فى مدينة بطرسبورج») بانه «عمل تعسفى لا حد له ولا نظير» .

هذان القراران يشكلان معا حجر الزاوية لما يسمـــــى بنظام العقوبات السريعة الذى ظل ساريا فى السنوات العشر الاخيرة لوجود القيصرية . وكما يتبين من قرار الثامن من يوليو ، يتمنى القيصر «الرحيم» ان يتم تنفيذ احكام الاعدام «بعد مرور ٤٨ ساعة عـــلى ارتكاب الجريمة» ، ويشدد على ان يراعى هذا المبدأ بكل صرامة . ويهرع وزير الحربية فى ٢٠ يوليو الى تحذير كل من يتوجب عليه معرفة ذلك وكل من تلقى على عاتقه المسؤولية عن تنفيـــذ هذا الامر ، وفى مقدمتهـــم قادة المناطـــق العسكريـــة والمحافظون العسكريون والمدعون العامون العسكريون والقضاة بانهم «مسؤولون امام جلالته شخصيا» عن تنفيذ هذا الامر بكل دقة .

كلا ، لا يريد احد منهم التهرب من تنفيذه . ولكن التمسك بالمدة المطلوبة – ٤٨ ساعة – ليس بالامر السهل ايضا ، لاسيما وانه ما من دولة من الدول بما فيها روسيا مرت طوال تاريخها بهذه التجربة . ذلك ان مدة ٤٨ ساعة غير كافيـــة حتى اذا اختصرت الاجراءات القضائية الى اقصاها . فاصدار الحكم بالاعدام يفترض محكمة (اية محكمة وان كانت شكلية) كما يفترض قبلها عمليـــة الاستجواب والتحقيق التمهيدى ، ثم التحقيق القضائى واستدعـــاء الشهود والاجراءات النيابية ، ثم المحكمة ذاتها . . . فكيف يمكن تنفيذ كل ذلك فى خلال ٤٨ ساعة ؟

---

* الحزب البروليتارى الثورى فى روسيا . – الناشر .

ألا يتفضل جلالته ويأخذ هذه المصاعب في تقديره ؟ ويقدم الجنرال بافلوف المدعي العام العسكري المعروف بقساوته (وقد اغتاله الثوريون فيما بعد لهذه القساوة بالذات) الى القيصر من خلال وزير الحربية هذه الملاحظة الانتقادية : هناك ١٢ محكمة عسكرية على مستوى المناطق في كل الامبراطورية الشاسعة من اقصاها الى اقصاها . ولاجراء محاكمة عاجلة في اية نقطـــة في هذه الاراضي الشاسعة ينبغي نقل المحكمة الى المتهم او ، بالعكس ، نقل المتهم الى مركز معين . ونظرا للمسافات تستغرق العملية في الحالتين مدة سبعة او ثمانية ايام على اقل تقدير او حتى اسابيع وشهورا كما يحدث في الواقع ، وليس ٤٨ ساعة على الاطلاق .

وايد وزير العدل شيجلوفيتوف المدعي العام العسكري بافلوف في موقفه هذا ، كما ايده آخرون بعضهم بوجل وبعضهـــم بجرأة اشد . الا ان الامبراطور رفض اعتراضاتهم .

ما هذا ؟ أهو خطأ لجلالته الذي أصدر امره دون ان يأخذ في حسبانـــه كل العوامل والاعتبارات ؟ ام انـــه مجرد نفاق وقناع لتمويه المغزى الحقيقي لامره الا وهو اعدام الناس بدون تحقيق ومحاكمة ، لانه يستحيل في خلال ٤٨ ساعة اجراء اي تحقيق جدي في جريمة خطيرة ؟

هكذا بالضبط . ان امر القيصر ليس وليدة اخطاء أو سوء معرفته للظروف . كلا . ان جلالته واع تماما لما يقوله ويفعله . فامره بتنفيذ احكام الاعدام في خلال مدة لا تتجاوز ٤٨ ساعة يهدف في الحقيقة الى توسيع نطاق تطبيق احكام الاعدام التعسفية ، اي الاحكام الصادرة بدون محاكمة ولا تحقيق التي كان رؤساء الحملات التأديبية ينفذونها في شتى انحاء الامبراطورية مستغلين صلاحياتهم اللامحدودة التي اعطاهم اياها جلالته شخصيا . وقد اصبحت لهذه التجربة امثلة عديدة — في موسكو في خلال قيام الجنرال دوباسوف والكولونيل مين بقمع الانتفاضة في منطقة بريسنيا ، وفي تشيتا حيث جرت الحملة التأديبية بقيادة رينينكامف وميلير ، وبالقرب من ريغا بقيادة الجنرال اورلوف . وقد حان الوقت الآن لتطبيق التجربة على نطاق المحاكم العسكرية في المناطق .

وقد اكد القيصر نفسه ذلك لوزير حربيته ريديجر ، فخرج هذا الاخير من مكتب جلالته (في ٢٩ يوليو ١٩٠٦) وارسل تقريره

عن مقابلته مع القيصر الى رئيس الوزراء ستوليبين مشيرا الى ان «جلالته اذ اكد له اصراره على تنفيذ الاحكام بالاعدام فى حدود ٤٨ ساعة بعد ارتكاب الجريمة» اضاف موضحا : «ان السرعة فى تنفيذ الحكم تجعل العقاب اكثر رعبا» . لقد تحدث لوزير الحربية – شفويا – عن القاء الرعب ، اما فى قراره المكتوب فيدعى بان امره لا يهدف الا الى تفادى «الانتقام» و«القسوة» ، لانه يرفضهما مبدئيا . بيد انه من الواضح للجميع ان القسوة والرغبة فى الانتقام هما بالذات ما املى عليه قراره فى ٨ يوليو الذى اصبح قانونا للدولة بعد ان صادق عليه مجلس الوزراء فى ٢٠ اغسطس ١٩٠٦ .

ان الاساليب والوسائل لا تهمه كما لا يهمه كثيرا اذا كانت احكام الاعدام تنفذ بعد محاكمة او بدون اية محاكمة على الاطلاق ، او اذا كانت المحاكم تنظم وفق مقتضيات القانون او كانت مجرد عملية شكلية . المهم ، كما قال فيته آنذاك ، ان تستمر «عجلة الموت» فى دورانها .

وفى الوقت نفسه يتسابق جهازا العدل السريع : المحكمة العسكرية فى المناطق تقوم بالتحقيق وتنفذ احكام الاعدام فى خلال ٤٨ ساعة ، اما محاكم الميدان العسكرية فتنفذ احكامها فورا وفى المكان .

فى عام ١٩٠٦ جرت اعدامات فى ٩٤ مدينة من مدن الامبراطورية وفى خلال ١٥٤ يوما من ٣١ اغسطس عام ١٩٠٦ الى ٣١ يناير عام ١٩٠٧ جرت اعدامات فى ١٢٣ يوما وكانت الضحايا بالآلاف .

وكلما كان يشتد دوران «عجلة الموت» كانت تحتدم الصراعات بين الوزارات والمصلحات ، اذ كانت كل منها تحاول القاء مهمة تنفيذ الاعدامات على غيرها ، فهذا اسهل واكثر امنا .

لم تهدأ النقاشات حول هذا الموضوع منذ اوائل ١٩٠٦ بين وزارة العدل ووزارة الداخلية ، بين المصلحة العامة للسجون ومصلحة الدرك ، بين المحاكم ومؤسسات النيابة العامة العسكرية والمدنية ، بين المحافظين العسكريين وقادة المناطق العسكرية . وكل طرف يسعى لاثبات ان الطرف الآخر اكثر قدرة على القيام بهذه المهمة واكثر استعدادا لها ، وهى اقرب الى اختصاصه . ويشتكى وزير الحربية ويديجر ان محاكمه (محاكم الميدان العسكرية ومحاكم

المناطق العسكرية) تئن من كثرة الاحكام بالاعدام وان أيادى القضاة تكل لكثرة ما يوقعونه على احكام الاعدام . فليوقف دورنوفو وزير الداخلية وشيجلوفيتوف وزير العدل احالة قضايا المدنيين الى المحاكم العسكرية ليقوما باصدار الاحكام عليهم بنفسيهما وباعدامهم فى سجونهما . غير ان وزير العدل يعارض . ويرد على ريديجر : طالما ان الهدف من الاجراءات القضائية السريعة ، كما يتضح من امر الامبراطور ، هو القاء الرعب ، فان المحاكم المدنية لا تستطيع مهما كانت صارمة ان تعطى التأثير النفسى المطلوب ، خلافا للمحاكم العسكرية القادرة على ذلك تماما . لذلك فليستمر العسكريون باصدار احكام الاعدام وتنفيذها فى المستقبل ايضا .

عجلة الزمن

القاعدة العامة هى : الامتناع عن اية مبادرة ، الحكومة بحاجة الى الانتظام والانضباط التام فى تنفيذ الاوامر ، دون اى تساهل لاحد . والمطلب الرئيسى هو الصرامة والقسوة . هكذا تقتضى الاوامر على كل المستويات .

وقد ارسل دورنوفو وزير الداخلية فى ١٢ فبراير ١٩٠٦ تعليمات الى كل المحافظين نبههم فيها الى ضرورة :

الانتباه الى الدعايات التخريبية بين السكان عامة والفلاحين خاصة .

تطهير القرى من كل الطلبة وموظفى مجالس الزمستفو واليهود غير المقيمين فيها .

الزج بهم فى السجون .

على المسؤولين المحليين ان يسدوا الطريق على اى معارضة للسلطات .

نظرا لكون السجون لا تسع المعتقلين يجب الافراج عن اقل السجناء خطرا للافساح فى المجال لاعتقال مجموعات جديدة من الثوريين .

وقبل ذلك بعدة اشهر ، فى ١٤ اكتوبر ١٩٠٥ ، اصدر حاكم العاصمة الجنرال تريبوف ، زميل وزير الداخلية دورنوفو المقرب ، امرا دخل بنده الرئيسى الى الابد فى سجل تشنجات القيصرية : «لا طلقات خلبية ولا توفير للرصاص» .

فى ١٥ ديسمبر ١٩٠٥ كتب البارون ميديم فى رسالة الى محافظ موسكو العسكرى دوباسوف يوصيه «بان يوحى الى القوات بكل

حزم» بالطريقة التالية فى معاملة اعضاء الفصائل الثورية المحتجزين : «الضرب بالرصاص حالا بدون اى تحقيق» .

قاد النقيب راحمانينوف عملية الاستيلاء على مدرسة فيدلر فى موسكو ، التى اختبأ فيها مئة فرد من اعضاء الفصائل الثورية . وقد هاجم المدرسة بالمدفعية واستولى عليها بعد معركة بالسلاح الابيض . ولما سئل فيما بعد فى المحكمة عن تعليماته بخصوص هذه العملية اجاب قائلا : «لقد امرت بذبح وقتل كل من يرفض الاستسلام» . وقال ردا على سؤال آخر : «اكرر لكم مرة اخرى : لقد استلمت امرا قاطعا باقتحام المدرسة وذبح كل من فيها» .

وتمشيا مع هذه التعليمات يطلب الجنرال شيدمان فى ١٩ ديسمبر عام ١٩٠٥ : ان «تمشط كراسنايا بريسنيا ويقتل الجميع دون اعتقال احد» .

وامر الضابط جرابى قوات القوزاق التى ارسلت فى حملة تاديبية الى منطقة البلطيق : «كل من تلاقونه فى الغابة يضرب بالرصاص فى مكانه . اما البيوت فتحرق» .

تدور عجلة الزمن ويسير العالم فى تطوره قدما . ويبدو وكأن رياح العصر بدأت تهب فوق روسيا ايضا فاصبحت تحاول التخلص من قبضة الحكم الفولاذية . بمَ ستنتهى المذابح الشاملة التى دبرها كلاب النظام البوليسى ، وهل سيتسنى لهم ان يفلتوا من العقاب ؟ لقد اخذت هذه التساؤلات تؤرق بعض الناس المتبصرين المقربين الى القيصر منذ الثورة الروسية الاولى . ترى ماذا سيحدث لو قدم اليهم يوما الحساب على اوامرهم «بقتل الجميع» و«عدم توفير الرصاص» و«عدم اللجوء الى الطلقات الخلبية» وعلى شعارهم القائل «هكذا كان وهكذا سيكون دائما» ؟ ثمة ما يغرى بالابتعاد عن «عجلة الموت» قدر الامكان وتوفير الاثباتات من الآن بعدم التورط الشخصى فى دوامة المذابح الشنيعة ؟

فاذا بفيته فى لحظات الاختلاء نفسه يتدرب على لوم القيصر نيقولاى الثانى ، فيصفه بانه «حاكم عديم القلب» اريقت فى عهده سيول من «الدماء البريئة الى هذه الدرجة او تلك» ، ويشتكى من ستوليبين الذى «اطلق احكام الاعدام وحول هذا النوع من العقاب الى مجرد اغتيال لا معنى له ولا مبرر فى كثير من الاحوال» ، ومن ان «دوامة القتل بامر من الحكومة» حلت مكان القضاء . ويتساءل

فيته ساخرا : «احب ان اعرف موقف الفوضويين مـــن ستوليبين الآن ، بعد ان ضرب بالرصاص وشنق عشرات الالوف من الناس — وكثيرون فارقوا الحياة بلا اى مسوغ — اذا لم يكن يحميه جيش كامل من المخبرين والبوليس ، الذين يكلفون خزانة الدولة عشرات آلاف الروبلات سنويا» . ويفترض هنـــا ان صاحب هذه السطور ليس له اية علاقة «بدوامة الاغتيالات» وانه مجرد متفرج يحق له ان يستنكرها لان ضميره صاف فهو لم يظلم احدا ولم يؤذ احدا . صحيح انهم حاولوا جره ايضا الى تلك العملية المشينة من الملاحقات والقاء الرعب ، الا انه لم يتخاذل ولم يرضخ للضغوط . «. . . ومما اعتبره فضلا كبيرا لى انه فى خلال نصف عام مـــــن رئاستى لمجلس الوزراء ابان الثورة لم يقتل فى بطرسبورج الا بضع عشرات من الناس ولم يعدم احد . فى خلال تلك الفترة اعدم فى روسيـــا كلها أقل مما يعدمه ستوليبين الآن فى خلال بضعة ايام . . . » . اذ لم يقع من الضحايا سوى «بضع عشرات من الناس» . وهو فخور بان الامر اقتصر على هذا العدد التافه نتيجة صلابته وصموده فى وجه الضغوط التى تعرض لها من الاعلى . «ومن أهم الاتهامات التى لا تزال توجه الىّ هو اننى لم اعدم الا القليل ابان رئاستى لمجلس الوزراء ، بعد ١٧ اكتوبر وكنت اعارض الآخرين فى ذلك . قالوا اننى ارتبكت وحتى خفت ، ان الذى لا يتجرأ على سفك الدماء ليس جديرا بالمناصب الرفيعة» .

حتى لو أخذنا فى الاعتبار ان الكثير من شكاوى فيته املاه شعوره بالاهانة التى الحقها القيصر به حين ابعده عن منصب رئيس الوزراء وسلم هذا المنصب الى ستوليبين ، يبقى واضحا ان فيته يبالغ كثيرا فى وصف «معارضته» لحملة الارهاب الحكومية . فقـــد كان بحكم طبيعته «لا يرتبك» و«لا يخاف» كما كان على أتم علم بـ«قواعد اللعبة فى عجلة الموت» وواثقا بقدرته على الاشتراك فيها ، ممـــا جعله يشغل منصبه الرفيع .

واذ يدعى فى مذكراته بعد مضى فترة كبيرة من الزمن بانه كان يعارض منهج خصومه بين حاشية القيصر ، يحاول ان يظهر فى مظهر انسان ليبرالى ونصير للتجدد وعدو للرجعية وقائديهـــا ستوليبين وتريبوف . ولكنه لا يستطيع ان يقنع احدا ، لان الجميع يعرفون ان فيته الذى كان على اوثق ارتباط بالنظام القيصرى ، شأنه فى

ذلك شأن البرجوازية الروسية ، لم يتقدم يوما ولم يستطع ان يتقدم ببرنامج ديموقراطى تقدمى ، وكان ينادى بتطور روسيا البرجوازى ويتقدم بالمشاريع فى هذا الخصوص دون ان يسقط من حسابه للحظة واحدة ان هذه المشاريع لا يمكن تحقيقها فى روسيا الا عن طريق الاصلاحات التدريجية وبموافقة طبقة النبلاء وعلى رأسها القيصر نيقولاى الثانى الذى كان كل من فيته وستوليبين وتريبوف وزعماء المئة السود يخدمونه بمنتهى الاخلاص ، كل قدر استطاعته . اشار لينين الى ان «القيصر يحتاج الى فيته وتريبوف على حد سواء : فيته لاغراء البعض ، وتريبوف لكبح جماح البعض الآخر ؛ ان فيته للوعود وتريبوف للعمل . فيته للبرجوازية وتريبوف للبروليتاريا . . . فيته معناه سيول من الكلام ، اما تريبوف فسيول من الدم» .

كان فيته من المبادرين الى ارسال القوات التأديبية بقيادة رينينكامف وميلير الى سيبيريا . ويدحض ادعاءاته حول حرصه على تفادى «سفك الدماء» دوره القيادى فى تنظيم العديد من الحملات التأديبية ابان ثورة ١٩٠٥ ومن بينها حملة مين ودوباسوف فى موسكو وحملة ريختر فى ريغا ومذابح ريمان فى ضواحى موسكو والمذابح المماثلة فى منطقتى البلطيق والبحر الاسود . وبالاضافة الى ذلك كانت حكومة فيته هى التى اصدرت فى ١٩٠٥ كثيرا من الاوامر والتعليمات مطالبة السلطات المدنية والعسكرية باستخدام اكثر الوسائل صرامة وقسوة فى مكافحة الحركة التحررية ، بما فى ذلك الاعدامات بدون تحقيق ومحاكمة .

وهو الذى ابرق تعليمات القيصر الى اتامان قوات الدون طالبا منه «قمع الانتفاضة فى روستوف على الدون بدون تردد» . وبناء على القرار الذى اتخذه مجلس الوزراء فى اجتماعه المنعقد برئاسة فيته فى ١٥ ديسمبر ١٩٠٥ ارسل وزير الحربية الى قادة المناطق العسكرية امرا سريا بان «يستخدموا السلاح بلا تردد» . وبناء على القرار ذاته ارسل تعليماته الى هيئات السلطة المحلية فى الاقاليم مشددا فيها على انه «من الضرورى فى الوقت الراهن استئصال جذور العصيان الى الابد» . وبما ان «الاعتقالات لم تعد اليوم تحقق هدفها كما انه من المستحيل محاكمة المئات بل الالوف من الناس ينبغى

للسلطات القضاء على المتمردين فورا بقوة السلاح مع تدمير واحراق بيوتهم فى حالة مقاومتهم» .

لقد تمكن الكونت فيته من ان يجمع فى نفسه بين «الحرص على تفادى سفك الدماء» والدعوة الى «التسامح والرحمـــــة» وبين الاستعداد للقتل والتدمير واضرام الحرائق . ومهما بدا الامر غريبـا كان الكونت فيته يجمع بين الامرين بمرونة مدهشة .

لقد اعجب الامبراطور نيقولاى الثانى بنتائج الحملة التأديبية التى قادها رينينكامف وميلير فدعى الضابطـان الى القصر لتناول وجبة الغداء مع القيصر . وقبل ان ينتهى الغداء خطر لفيته ان تجربة الفصائل التأديبية تستحق ان تطبق على نطاق شامل . فاسرع الى تحقيق هذه الفكرة فى رسالة كتبها الى وزير الداخلية دورنوفو فى ١١ مارس ١٩٠٦ .

الفصل السادس

عندما تصلح كل الوسائل

حزب الياس الوحشى والمذعور

طرح تطور الاحداث فى روسيا بكل حدة مسألة حياة وموت آل رومانوف . كان يزداد وضوحا انه ليس لدى البيروقراطية التى شلها الجمود ولا لدى الجنرالات الذين اضعفتهم الهزائم العسكرية المتوالية القوة الكافية لانقاذ الحكم القيصرى . وعندئذ تقدمت وزارة بليفه (الذى كان يشغل سابقا منصب المدير العام بدائرة البوليس ، ثم عين وزيرا للداخلية ورئيسا للدرك) بمشروعها حول تحريك العناصر الرجعية من البرجوازية الصغيرة والكولاك لتعزيز مواقع العرش فى المجتمع الروسى .

كتب لينين فى هذا الصدد : «ان الملكية مضطرة لحماية نفسها من الثورة . ولم تكن ملكية آل رومانوف **الروسية** بحكم طبيعتها شبه الاسيوية المفعمة بروح القنانة تستطيع ان تحمى نفسها الا باقذر الوسائل واكثرها بشاعة ودناءة وقسوة» * . وشرع بليفه فى استخدام وتطبيق تلك الوسائل على نطاق واسع ، ثم طورها ستوليبين وبالنتيجة ظهر المئة السود بجماعاتهم الاجرامية الارهابية التى يتزعمها «اتحاد الشعب الروسى» وهو اكثر تزمتا وضراوة من هذه الجماعات .

وابتداء من اكتوبر ١٩٠٥ عندما اكتسب الاتحاد شكله التنظيمى النهائى اخذ يعمل فى الساحة الاجتماعية كمنظمة ارهابية تخريبية شوفينية متطرفة تناصر الملكية وتدافع عنها دون ان تتورع عن وسيلة مهما كانت .

وفى عام ١٩٠٦ التفت حول «الاتحاد» مجموعة من المنظمات الملكية الاخرى (من بينها منظمة «الاجتماع الروسى») ثم انضمت بعض هذه المنظمات الى «الاتحاد» . وفى عام ١٩٠٧ حدث فيه

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٠ ، ص ٣٢٦ .

انشقاق فانقسم الى عدد من المجموعات المتصارعة ، اهمهمـــا «اتحاد الشعب الروسى» (رئيسه دوبروفين) و«جماعة المـــلاك ميخائيل» (زعيمها بوريشكيفيتش) . وكانت نقطة الاختلاف بين كل هذه المنظمات المتشابهة هى موقفها من مجلس الدوما . واهـــم الصحف الناطقة بلسان المنظمات المذكورة هى «الراية الروسية» (صدرت من اكتوبـــر ١٩٠٥ حتى فبرايـر ١٩١٧) ، وجريدتـــا «التوحيد» و«العاصفة» التى تخصصت جميعها ، حسب تعبير فيته ، «بالسباب مختارة شتائمها من قاموس المحلات العمومية» . وكانت لدى «الاتحاد» عندما بلغت الثورة الروسية الاولى اوجهـــا فروع عديدة فى معظم المدن الكبيرة وحتى فى الريف . وكانت اهم الفروع تعمل فى بطرسبورج وموسكو وكييف واوديسا وكانت تمولهـــا الحكومة عمليا وتحميها وتستخدمها المباحث والبوليس والدرك . هكذا ظهرت على الساحة السياسية للامبراطورية بعد ١٧ اكتوبر ١٩٠٥ قوة كبيرة وخطيرة لا يستهان بها لديها كل ما يلزم مـــن الاموال ومراكز الدعاية والامكانات الطباعية .

كانت المبادرة الى تأسيس «اتحاد الشعب الروسى» تعود الى مجموعة من كبار الاقطاعيين ورجال الصناعة وملاك البيوت . امـــا قاعدتها الاجتماعيـــة فهى البرجوازية الصغيرة والتجار والفلاحون الاثرياء والموظفون ورجال الدين ، واخيرا «حضيض» المدينـــة والعناصر المنفصلة عن طبقاتها . وهؤلاء جميعا قادهم للمعركة ضد الحركة الثورية فى سبيل انقاذ العرش القيصرى «متعيشون عـلى المغامرات السياسية ، اناس قذرون عقلا وروحا ليست لديهم فكرة سياسية شريفة واحدة قادرة على الحياة ، فهم يركزون كل جهودهم على اثارة اخسّ ما لدى الغوغاء من مشاعـر» . ويؤكد فيتـــه ان منظمتهم ليست قادرة «الا على المذابح والهزات الرهيبة ولكنها لا تستطيع ان تخلق الا ما هو سلبى . هذه المنظمة تمثل وطنيـــة متوحشة ، عدمية تتغذى بالاكاذيب والافتراءات والخداع . . . انها حزب اليأس الوحشى والمذعور» .

كتب لينين وهو يفضح عصابة المرتزقة الملكيين : «يقـــوم البوليس اينما تيسر له ذلك بتعبئة سفلة المجتمـع الراسمالى وتنظيمهم من اجل النهب والعنف . . . انهم يطلقون نيران المدفعية (فى اوديسا) ويقلعون عيون الناس (فى كييف) ويلقونهم من الطابق

الخامس ويقتحمون البيوت ويعرضونها للنهب والخراب ويضرمون النيران فيها ويحولون دون اطفائها ويطلقون الرصاص على كل من يتجرأ على مقاومة المئة السود» . ونجد «الصورة ذاتها فى كل مكان» من بولندا الى سيبيريا ومن خليج فنلندا الى البحر الاسود . ان «الثورة المضادة تسرح وتمرح» * عبر رحاب الامبراطورية الشاسعة .

وكان على الجبهة العريضة لمعركة القيصر ضد رعاياه قطاع عمل اوباشه فيه بغيرة خاصة ، وهو مذابح اليهود . وكان تدبير هذه المذابح احد الدعائم الرئيسية للادارة القيصرية . لقد قتل ٥٠٠ شخص من الاهالى فى كيشينيف فى ٦ و٧ ابريل ١٩٠٣ . فاضطرت السلطات المحلية الى ان تصف هذه المذبحة فى تقريرها الى المركز بانها «لا تعرف مثيلا من حيث ضراوتها» .

ثم جرت مذبحة مماثلة فى جومل فى سبتمبر من ذلك العام ، كما شهد عام ١٩٠٤ و١٩٠٥ سلسلة من المذابح بلغت اوجها فى اكتوبر ١٩٠٥ . لقد نشر البيان القيصرى حول الحريات فى ١٧ اكتوبر ، وفى ١٨ منه اجتاحت موجة من اشعال الحرائق واعمال الشغب الامبراطورية من اقصاها الى اقصاها . وابتداء من تلك الايام اتسمت المذابح بسمة جديدة ، وبرز المئة السود الذين اطلقوا على انفسهم اسم «اتحاد الشعب الروسى» قوة رئيسية صدامية فيها . كما اصبح «الاتحاد» اثر نشوئه مباشرة مركزا نظريا لتلك الحركة الاجرامية و«مدرسة لكوادرها» . وكان زعماء هذا «الاتحاد» يحاولون عادة تبرير المذابح واعمال الشغب والتدمير بادعاء انها ليست سوى «انفجار للغضب الشعبى» ، وان الانسان الروسى البسيط الوفى والمخلص للقيصر يندفع الى الشوارع لكى ينتقم من «حملة الاعلام الحمراء» البغيضين .

كان القيصر ينتقم لما اصابه من مخاوف واذلال فى ١٩٠٥ منظما حملة واسعة من المذابح والنهب : ضد اليهود فى اوديسا وكييف وايكاتيرينوسلافل وغيرها من المدن ، وضد الارمن فى تيفليس وباكو وغيرهما من مدن القفقاس ، وضد البولنديين – فى بيلوستوك وجيتومير والمدن الاخرى فى المناطق الغربية من الامبراطورية ،

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٢ ، ص ٧٦–٧٧ .

ومذابح اليهود والمثقفين فى تومسك ونوفوسيبيرسك وسائر مدن الشمال الشرقى ، والمذابح ضد المنظمات العماليــة والمثقفين فى بيتروجراد وموسكو وايفانوفو-فوزنيسينسك التى وقع ضحية لها مناضلون ثوريون كثيرون .

لم يكن يشك الا القلائل فى ان عمــلاء القيصر كانوا يوجهون نشاط «اتحاد الشعب الروسى» . وكانوا ، شأنه ، يثيرون المذابح بانفسهم .

ثمن الخوف

فى كلمة القاها ماركوف الثانى احد زعماء «اتحاد الشعــــب الروسى» فى مجلس الدوما عام ١٩١٢ نفى نفيا قاطعا ان منظمتــه تتلقى اية أموال من السلطات . وبعد مرور خمس سنوات فى اثناء استجوابه فى لجنة التحقيق الاستثنائية جرى بينه وبين رئيسهـا الحوار التالى :

الرئيس : قولوا ما كان موقفكم من تمويل منظمتكم على حساب خزانة الدولة ؟

ماركوف الثانى : كنا نتلقى تلك الاموال ولا نجد غضاضة فى ذلك .

الرئيس : لم تكن عقيدة حزبكم اذا تؤكد مبدأ استقلاله عن الحكومة ؟

ماركوف الثانى : بلى ، كانت ، ولكن ما فائدة المبادئ بـلا نقود ؟ ان المنظمة كانت بحاجة الى المال .

الرئيس : لماذا اذا انكرتم هذا الواقع امام مجلس الدوما ؟

ماركوف الثانى : لان الاعتراف بذلك كان يضعنى فى موقف حرج .

الرئيس : ولماذا لم تحاولوا ان تقفوا موقفا آخر وتعلنوا على رؤوس الاشهاد ان استلام الاموال من مصدر حكومى ليس بالشىء المشين ؟

ماركوف الثانى : لا اعتقد ان نظافة مبادئ الحزب الذى يؤيد العرش تصبح امرا مشكوكا فيه لمجرد استلامه الاموال من حكومة صاحب هذا العرش .

وبعد ان اثبت التحقيق نهائيا واقع تمويل الحكومة «لاتحـــاد الشعب الروسى» ، طرح عليه هذا السؤال : "من بين انصار العرش الغيورين كان يستفيد مباشرة من تلك الاموال ؟ واتضح ان زعيم المنظمة نفسه كان اول المستفيدين .

الرئيس : وكيف كنتم تنفقون الاموال التى كانت تاتيكم من حكومة القيصر ؟ هل كنتم تسلمونها الى المنظمة او تتصرفون بها شخصيا ؟

ماركوف الثانى : كنت اسلم جزءا منها والفق الباقى .

الرئيس : وهل كنتم تقدمون تقارير عن مصروفاتكم ؟

ماركوف الثانى : كلا ، لم اكتب اية تقارير ولم يكن يتوجب علىّ ان اكتبها .

الرئيس : ما هى المبالغ التى كنتم تتقاضونها من الحكومة شخصيا ؟

ماركوف الثانى : كنت اتقاضى عادة ١٤٤ الف روبل كل مرة .

وهكذا كان يتقاضى كل مرة نحو ١٥٠ الف روبل ويضعها فى جيبه لانه «لم يكن يتوجب عليه ان يكتب اية تقارير مالية عن مصروفاته» . ترى وكيف انفقت الاموال التى وصلت سليمة الى صندوق المنظمة ؟

الرئيس : هل كنتم تجمعون اشتراكات من اعضاء المنظمة ؟

ماركوف الثانى : اجل . خمسون كوبيكا فى السنة .

الرئيس : الم تحدث حالات كانت المنظمة تدفع فيها للعضو ، لا العضو للمنظمة ؟

ماركوف الثانى : تقصدون اننا كنا نشترى الاعضاء ؟

الرئيس : قصدى ان اقول : هل كنتم تمولون الناس بغية تشجيعهم على الانضمام الى منظمتكم ؟

ماركوف الثانى : اجل ، كنا نمولهم بلا شك .

احد اعضاء اللجنة : وما هى الاعمال التى كنتم تحرضونهم على القيام بها ؟

ماركوف الثانى : كنا نغرس فيهم فكرة ضرورة وجود سلطة قيصرية متينة .

اجل ، لقد كان اخلاصهم للقيصر العزيز بلا حدود حقا . . . ولكنه اخلاص يعززه بريق الذهب .

لقد تأكد بعد الثورة ان قيادة «اتحاد الشعب الروسى» كانت تتقاضى اموالها من صندوق خاص «بناء على امر من جلالته» . وكان يشرف على الصندوق فى البداية تريبوف ، ثم وضع تحت اشراف وزراء الداخلية الذين كانوا يستخدمون امواله بناء على طلبات مدراء دائرة البوليس . وقد اتقنت طريقة الاستفادة من هذه الاموال الى حد جعل ضابط الدرك كوميساروف ، وهو من اهم عملاء «الاتحاد» يعترف فى تلك الايام فى حديث مع رؤسائه : «ان كل شىء متوقف

على المبلغ الذى سوف تخصصونه . فاذا كان المبلغ كافيا استطيع ان ادبر اية مذبحة تريدونهـا ، لعشرة اشخاص او لعشرة آلاف شخص» . وكان بليفه وزير الداخلية يعتقد ان «المشترك فى مذبحة متوسطة الحجم» يمكن ان يكلف صندوق البوليس مبلغا يتراوح بين ٦ و١٠ آلاف روبل .

اخذت المناشير التى كان المئة السود يطبعونها ويوزعونها فى ارجاء البلاد باعداد ضخمة ابتداء من خريف ١٩٠٥ تثير كثيـــرا من التساؤلات امدا طويلا . ترى من يكتب نصوصها واين تطبـع ومن يقوم بتوزيعها ؟ كانت تلك الاوراق القذرة المفعمة بالحقـــد الهمجى على الانسان تنذر باقتراب المذابـــح عادة . فلولا هذه المناشير لما تكهرب الجو الاجتماعى وتسمم الى درجة تجعـــــل فى الامكان ضرب جزء من الاهالى بايدى جزء آخر منهم . ولم تقتصر المناشير على الدعوة الى المذابح بل كانت فى بعض الاحيان تتضمن تعليمات ملموسة حول هدفها ، كما جاء فى منشور لفرع «الاتحاد» فى مدينة الكسندروفسك (فبراير ١٩٠٦) :

«ايها الروس الحقيقيون ! يا انصار القيصر والكنيسة الارثوذكسية ! خذوا السلاح والفؤوس والمحشات واجتمعوا فى ميدان المدينة تحت الالوية الثلاثية اللون لفصيلتنا الصدامية ، وانتظروا حتى تاتيكم الاشارة ، فنندفع جميعا حاملين صور القيصر والايقونـــــة المقدسة لنقاتل اعداءنا الالدة اصحاب الاعلام الحمراء» .

وقد اتضح ان المناشير كانت تاتى من بطرسبورج وموسكو ويتم توزيعها بواسطة جهاز «اتحاد الشعب الروسى» . وكانت تطبع بملايين النسخ فى مطابع صغيرة بمراكز الاقضية والمحافظـــات جزئيا . اما الجزء الاساسى فيتم طبعه – مع كل ما فى الامر مـــن فظاعة – فى مطبعة سرية اقيمت خصيصا لهذا الغرض فى مبنى وزارة الداخلية مباشرة !

كان يقوم على نشاط هذا المعمل للتخدير النفسى البارون فون دير ليبى والسناتور البارون فون تيزنجاوزن والجنرال فون راوخ ، وبين موظفيهم راتشكوفسكى رئيس قسم المباحث وضابط الدرك كوميساروف ، وكانت الناحية الفنية من اختصاص موظفين رسميين . اما النصوص فكان بعضها يأتى من . . . البلاط . واكثـــر هذه المناشير فظاظة كان يكتبها ، كما اثبتت الصحافـــة ، الجنرال

تريبوف ، كما كان يساهم فى كتابتها فون كرامير الذى كان يزور القيصرة كثيـرا وكذلـــك بوكسجفـــدن ونيدجاردت والجنرال بوجدانوفيتش . ويقال ان عددا من المناشير كتبها مؤلف شهيــر اراد ان يبقى اسمه مجهولا . وفى هذا الصدد اشارت صحف العاصمة فى اعقاب ثورة فبراير الى ان القيصر نيقولاى الثانى كان يتمتع فى اوساط البلاط بسمعة «انسان ذى مواهب ادبية» و«كلمة سلسة» و«احساس بالاسلوب» . ويبدو ان جلالته كان لا ينكر توفر الموهبة الادبية لديه اذ التحق بالرابطة الروسية لهواة الادب الى جانـب اشرافه على جمعية التاريخ لعامة روسيا .

قالت قرينة رئيس الوزراء فيتــه فى حفلــة غداء رسميـــــة ببطرسبورج فى اثناء ثرثرة الضيوف حول المائدة : «تصوروا ان راتشكوفسكى نال لقاء مطبعته القذرة مكافأة قدرها ٧٠ الــف روبل !» . بعد هذه «الملاحظة السخيفة» أغلق صاحب الحفلة باب بيته فى وجه السيدة فيته الى الابد . ولكن وثائق ارشيف الحكومة القيصرية تشهد على ان الجنرال تريبــوف قدم فعـــلا الى القيصر نيقولاى الثانى فى اواخر عام ١٩٠٦ تقريرا حول نشاط المطبعـــة السرية للمناشير فكتب جلالته على التقرير : «يدفع ٧٥ الف روبل الى راتشكوفسكى لقاء الاستخدام الماهر للقوى الاجتماعية» . وكان بوسع السيدة فيته ان تقوم بملاحظات «اكثر سخفا» لو ذكرت مثلا ان كلا من راتشكوفسكى وكوميساروف قد منح ايضا بامر مـــن القيصر وسام الدولة كتشجيع لهما لقاء اقامة صلات وثيقة مــــع «القوى الاجتماعية» اى مع الاوباش .

ولكن ما فات السيدة فيته ان تذكره فى مأدبة الغداء المذكورة تحدث زوجها عنه باسهاب فى مذكراته . فقــد كتــب ان القيصر كان يحب رجال المئة السود حبا جما باعتبارهم «نخبــة ابنـــــاء الامبراطورية الروسية ومثالا للوطنية وقوة يعتز بها الوطن» ، مع انهم كانوا فى الحقيقة «ابطالا للسوق القذرة يتجنب الناس الشرفاء لقاءهم ويمتنعون عن مصافحتهم» . لقد مكن موقف القيصر المئـة السود من افتتاح مطبعة سرية فى دائرة البوليس صارت تطبـــع فيها مناشيرهم الاجرامية الداعية الى المذابح .

حرص القيصر فى بداية الامر على اخفاء اتصالاته بزعمـــــاء «الاتحاد» ، فكانت تتم غالبا بواسطة الاميرين الكبيريــن نيقولاى

نيقولايفيتش وفلاديمير نيقولايفيتش وكذلك الجنرال راوخ والامير بوتياتين ، مع مراعاة بعض السرية . بقي القيصر فترة يخجل من التعامل مع «اتحاد اللصوص والمجرمين هذا» كما كتب فيته . ثم تعود عليهم فاصبح «تأييده لهم الذى كان يفضل سابقا الا يعرضه للانظار تأييدا علنيا مكشوفا» .

ومما يؤكد ذلك واقع ان دوبروفين رئيس «اتحاد الشعب الروسي» تلقى غير مرة دعوات لزيارة البلاط ومقابلة جلالة الامبراطور شخصيا كما استقبل نيقولاى الثانى رسميا وفودا «للاتحاد» . وفى ديسمبر ١٩٠٥ فى اثناء استقبال مجموعة من زعماء المئة السود اهدوه شارتي «الاتحاد» فشكل احداهما ببدلته والاخرى بقميص ابنه الصغير .

لقد جذبوه اليهم . وكان يتصرف وسطهم بدون اية كلفة ويفتح امامهم ابواب منزله فى البلاط ويقيم لهم الولائم ومراسيم تسليم الاوسمة والمكافآت . بل كان يسكر معهم بكل بساطة ويرقص فى نشوة السكر رقصات شعبية روسية . وكان يدعوهم فى الانخاب ورسائل وبرقيات التهنئة الى «الاتحاد» ويصفهم بانهم «ابناء الشعب الروسي الابرار» ويعدهم بالمكافآت «لقاء اخلاصهم» ويقول : «انى فى حاجة اليكم . . . اليكم الشكر من قيصركم . . . انتم املى ودعامتى» . وكتب فى ٢٣ ديسمبر ١٩٠٦ على رسالة تحية تلقاها اتحاد سائقى عربات الخيول الذى كان يمد منظمات المئة السود بكوادر «المناضلين» : «بلغوا سائقى عربات الخيول امتنانى وقولوا لهم ان يتحدوا ويجتهدوا» . ولم يخجل فى اثناء استقبال رسمى فى البلاط ان يسأل محافظ مدينة ياروسلافل امام الجميع عن صحة زعيم الفرع المحلى «لاتحاد الشعب الروسي» الذى كان اهالى ياروسلافل يخجلون من مصادقته .

وفى سبتمبر ١٩٠٦ عندما اصيب رئيس «اتحاد الشعب الروسي» دوبروفين بمرض خفيف زاره الجنرال راوخ حاملا اليه تحية من الامبراطور مع تمنيات الشفاء السريع . ولكن الامر فاق كل حد حينما اكد القيصر محاباته للمئة السود علنا ورسميا فى برقية بعث بها الى دوبروفين فى ٣ يونيو ١٩٠٧ ، اى فى اليوم الذى قام فيه ستوليبين بحل مجلس الدوما الثانى ، الامر الذى كان يعنى فى الواقع انقلابا سياسيا . وقد اعلن القيصر فى برقيته بكل

صراحة : «فليكن «اتحاد الشعب الروسي» سندا امينا لي» . وكتب فيته فيما بعد : «هذه البرقية البشعة التي ارسلت بمناسبة صدور البيان حول حل مجلس الدوما الثاني بينت المستوى الحقير لفكر امبراطورنا السياسي ونفسيته المريضة» .

وكان القيصر يطلب من مساعديه على الدوام ان «يسيروا مع التيار» ، وكان يراقبهم باهتمام ليعرف مدى استعدادهم لهذا . وكان ينظر بعين الريبة والشك الى الذين لا يريدون ان يلتحقوا «باتحاد الشعب الروسي» او يختلفون معه .

كان موقف نيقولاي الثاني من رعاياه غير الروس يقوم على شعار «مطاردة ابناء القوميات الاخرى» الذين يبلغ عددهم ما يقارب ستين مليون نسمة من سكان الامبراطورية . واذا كان سكان بعض المناطق النائية في عهد القياصرة السابقين يتمتعون بابسط الحقوق القومية وببعض التسهيلات التي اتاحت لهم ان يحتفظوا بقدر معين من الاستقلال الحضاري ، فان ادارة نيقولاي الثاني اخذت تسلبهم هذه التسهيلات بوقاحة لم يسبق لها نظير . لذلك لن يكون من المبالغة القول ان القيصر الاخير كان منظما لاكبر هجوم في تاريخ الامبراطورية على كل حقوق الاقليات القومية . كانت الامبراطورية الروسية في عهده تتسابق بنجاح مع بعض الدول الاقطاعية الرأسمالية العديدة القوميات امثال النمسا-المجر على لقب «سجن الشعوب» المشين .

ونوه المؤرخان الفرنسيان لافيس ورامبو ، اللذان لم يكونا يميلان كثيرا الى انتقاد ادارة القيصر الروسي ، بان السعي الى طمس التنوع والرغبة المستمرة في جعل الاشياء تبدو على شكل واحد كانا اهم علامة لعهد نيقولاي الثاني وابيه الكسندر الثالث . فقد كانت سياسة التمييز والملاحقات والقمع وبث الشقاق القومي تجري بتعليمات مباشرة من القيصر في جميع المناطق القومية التي تكتنف روسيا من البلطيق الى القفقاس .

وكانت المحافظات البلطيقية تتمتع تقليديا بمحاباة القياصرة الروس . ففي خلال قرن ونصف كان النبلاء المحليون ، واغلبهم من البارونات الالمان ، يمدون الامبراطورية الروسية بالجنرالات والوزراء والدبلوماسيين وقادة البوليس . وكان هؤلاء جميعا يتمتعون بالامتيازات ويملكون اراضي شاسعة ، وكانوا ، مع

البرجوازية الالمانية ، يملون اسلوب الحياة فى مدن البلطيق الكبيرة . وهؤلاء لم يشعروا باى تضييق فى الامبراطورية القيصرية . والامر مختلف بالنسبة الى جموع الشعب من الاستونيين واللاتفيين ممن كانت تستغلهم هذه الفئة من السادة الالمان . لقد كلف الامبراطور الكسندر الثالث فى عام ١٨٨٣ السناتور ماناسيين بتحليل «علل» الادارة فى البلطيق والكشف عن «ضعفها الداخلى» . حلل السناتور وكشف وتقدم بمشروع من اجل «اصلاح النظام الادارى» . وفى عهد نيقولاى الثانى شرعت السلطات المركزية فى تنفيذ هذا المشروع . فاخرجت المدارس الابتدائية من تحت اشراف الادارة المحلية ووضعتها تحت اشراف وزارة المعارف . كما اجرى اصلاح فى مجال القضاء أصبحت وزارة العدل طبقا له تعين وتقيل القضاء كما اصبحت محاكم ريفل وريغا وميتافا وليبافا خاضعة لغرفة القضاء المركزية فى بطرسبورج .

اما الموقف من القفقاس فيتجلى بوضوح من الواقع التالى : كتب الحاكم العام للقفقاس جوليتسين ذات مرة تقرير الى القيصر ان «الارمن اصبحوا فى رأيه متكبرين اكثر من اللازم» ، وان «الكنيسة الارمنية تساهم فى نشر الميول الثورية بين السكان المحليين» . وقد عاقب الحاكم العام ، بموافقة القيصر ، «المتكبرين» ، فوضع حجزا على ممتلكات الكنيسة الارمنية . الا ان مجلس الدولة اعتبر هذا الحجز غير شرعى واتخذ قرارا بالغائه . وهنا تدخل القيصر فرفض الموافقة على هذا القرار وبذلك اصبح الامر بالحجز ساريا .

فقد عرض ستوليبين فى ١٧ مارس ١٩١٠ بامر من القيصر مشروعا على مجلس الدوما «حول نظام اصدار القوانين والمراسيم التى لها اهميتها على نطاق الدولة والتى تخص فنلندا» . وكان القيصر يريد من خلال هذا المشروع ان يؤكد مرة اخرى انه لا يزال «الامير الفنلندى الكبير» وان سيادته على هذا البلد راسخة ، وانه عازم على تقوية هذه السيادة عن طريق استكمال نظام التشريع ، وذلك على الاقل «فى القضايا الخاصة بمصير امارة فنلندا ومصير الامبراطورية ككل» .

وقد حلل لينين فى ٢٦ ابريل ١٩١٠ مغزى تلك الاحداث فى مقال «هجوم على فنلندا» الذى وصم فيه مجددا الطبيعة الشوفينية للحكم القيصرى الذى يضطهد ابناء القوميات الاخرى دون

استثناء وفضح لينين الليبراليين البرجوازيين بمحبتهم للعبارات الطنانة وتعاطفهم الكاذب مع القوميات المضطهدة ، فقد «. . . بقي كلامهم كلاما ، اما الجوهر ، **فهو صب الماء على طاحونة** سياسة الحكم الاستبدادى المعادية للانسان» . وتنبأ لينين بانه «سيأتي وقت تنهض فيه بروليتاريا روسيا لتدافع عن حرية فنلندا ولاقامة الجمهورية الديموقراطية فى روسيا» * .

كان فيته ينصح القيصر «بمنح اليهود حقوقا مساوية لحقوق رعاياه الآخرين» . وبما ان «الآخرين» كانت حقوقهم ناقصة او معدومة ايضا فان الحديث عن المساواة كان مجرد سفسطة لان الجميع كانوا متساوين فى حرمانهم من الحقوق . وكان ينكر على الجميع حقهم فى حضارتهم او لغتهم القومية ، سواء أكانوا اوكرانيين ام بيلوروسيين ام من شعوب القفقاس ، التى توهجت جمرة عصيانها تحت السوط القيصرى بحيث بدأ الكثيرون يتحدثون عن انه ينبغى «اخضاع» القفقاس مرة اخرى ؟ غير ان البعض فى الاوساط الحكومية كانوا يعتقدون ان الحديث يجب ان يجرى اولا عن «اخضاع» روسيا ذاتها ، حتى يتيسر بعد ذلك اخضاع القفقاس واعادة الاطراف القومية الى صوابها .

وما من شىء كان قادرا على تغيير اعتقاد القيصر نيقولاى الثانى ان الوضع لا يقتضى الغاء القوانين الاستثنائية الموجهة ضد الاقليات القومية بل تشديدها وان القوة الوحيدة المفعمة عزما على تطبيق نظام الملاحقات والمطاردات هذا هى المئة السود .

وبموجب التشريع الذى كان ساريا فى الامبراطورية الروسية آنذاك كانت مشاريع القوانين الجديدة لا تعرض على القيصر الا بعد ان يناقشها ويقرها مجلس الدولة (وكذلك مجلس الدوما بعد عام ١٩٠٥) . ولكن ما من مرسوم تشريعى عنصرى شوفينى اقر فى خلال العقود الاخيرة من الحكم القيصرى قد مر بالمراحل المذكورة . فقد اقرت هذه المراسيم جميعها بطرق ملتوية او دخلت حيز التنفيذ كامر واقع . والمشاريع التى كان مقدرا لها ان تفشل دون شك فى مجلس الدوما او مجلس الدولة جرى تمريرها بواسطة الاجتماعات الاستثنائية لدى القيصر فى اطار ما يسمى «الادارة

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ١٩ ، ص ٢١٩ ، ٢٢٢ .

العليا» . وكانت قوة القانون بمجرد ان يوقع القيصر تقريرا يقدمه له وزير من الوزراء . وبهذه الطريقة تمكن القيصر فى ١٩٠٥–١٩١٠ من اصدار معظم المراسيم الموجهة ضد الاقليات القومية .

ومهما يكن من امر – وفقا للقانون او خلافا له – فان ابقاء الامبراطورية فى حالة توتر مستمر وخوف دائم من وقوع المذابح ليس كافيا ، اذ لا بد كذلك من تأمين جو من الارتيـــاح النفسى لعصابات «اتحاد الشعب الروسى» يسهل لها القيام بجرائمها فى اية لحظة بينما يتجمد المجتمع وقواه الديموقراطية مذعورين تحـــت مرصاد قسم المباحث والمئة السود . ويتكامل التعاون والتنسيق بين وزارة العدل والبوليس وقسم المباحث وقيادة الجيش ومحاكم الميدان العسكرية والدرك وبين كل منها ، من جهة ، وبين «اتحاد الشعب الروسى» ، من جهة اخرى . ويبارك هذا التعاون جلالـــة القيصر نيقولاى الثانى . لقد اصبحت صداقته مع زعماء المئـــة السود الذين لا يبخل بمنحهم كل انواع المكافآت ثمنا يدفعه لهم بسبب خوفه . انه خائف ، خائف من الثورة وخائف من روسيـــا وشعبها الكادح ، الشعب الحقيقى ، وليس اوباش المجتمع .

ان التسامح هو الذى اطلق العنان للمئة السود من الزعمـاء الى الاوباش . فى حالات نادرة كان يقع بعضهم فى يد البوليس فلا يجد رجال القضاء القيصرى بدا من معاقبتهم ، فكان القيصر يتدخل شخصيا ويحول دون معاقبتهم . ومما له دلالته ان نيقولاى الثانى كان لا يتحمل اى حديث حول العفو عـــن الثوريين ، فى حين كان مستعدا على الدوام للدفاع عن انصاره من رجال المئة السود ، حتى دون ان يحثه احد على ذلك . وقد اعترف ذات مرة بانه «يخوض صراعا مستمرا مع جهازه القضائى» مدافعا عن المئة السود ، وقال : «اعتقد ان المحاكم الروسية تعامل المشاركين فى المذابـــح بقسوة زائدة وصرامة لا مبرر لها . وانى اقسم لكم بشرفى القيصرى بانى ساقوم مستقبلا ايضا بتغيير الاحكام التى تصدرها ، تلبية لطلبات «اتحاد الشعب الروسى» العزيز» . وفى الواقع ظل «يغير» الاحكام ويرسل برقيات التهنئة الى المتهمين التى تنتهى بكلمات الشكـــر والامتنان و«قبلات القيصر» ووعوده بالمكافأة . وقد كتب احـــد المعاصرين ان رجال المئة السود كانوا يختبئون خلـف ردائـه ، ويخرجون زبانياتهم السامة من تحت العرش الروسى ، وكانـــوا

«متلاحمين ومنظمين شأن كل عصابات اللصوص وقطاع الطرق خشية ان تحل نهايتهم» .

هكذا تكون خليط فريد متعدد العناصر سمى فى اوساط المجتمع «القيصرية التأديبية» . وكان عبارة عن نظام يجمع بين الدهاء والتبسيط الساذج ، نظام ربط بين اللصوص ورجال البوليس وكبار الاقطاعيين وافراد الاسرة القيصرية وخدم المطاعم العامة وحكام المحافظات اثناء تعذيب الشعب وارعابه بالسوط والبلطة .

وكان الامبراطور ملهما لذلك النظام يوجه نشاطه ويقوم بتنسيقه . اما زعيماه البارزان كرامير وبوريشكيفيتش فيفضحان من على منبر مجلس الدولة او مجلس الدوما على «التآمر اليهودى الماسونى العالمى» ضد العرش القيصرى الروسى ويدعوان للقضاء على «ذرية هيرودوس وازالة اثرهم من ارض روسيا» . الا ان القيصر لم يكن فى حاجة الى نداءاتهما هذه لانه كان مستعدا للسير فى الاتجاه المطلوب دون اى تحريض .

ولكن الى اين يسير والى اين يؤدى هذا الطريق ، فهذا ما كان لا يزال يجهله هو وبطانته .

«بامر من جلالة القيصر»

قدمت وزارة الداخلية تقريرا الى القيصر حول حركة الاضرابات فى البلاد ، ذكرت فيه اين تيسر احباط الاضرابات بواسطة مكسرى الاضرابات واين تطلب الامر اللجوء الى القوة . وكتب القيصر على التقرير : «ينبغى فى المستقبل العمل دون تخاذل ايضا» .

واشتكى عدد من المحافظين فى تقاريرهم من الصعوبات التى يلاقونها فى ايجاد الراغبين فى التعاون مع السلطات لتكسر الاضرابات لان المضربين يهددونهم عادة بالعقاب . فوقع القيصر فى ٢ ديسمبر ١٩٠٥ مرسوما تعهدت السلطات بموجبه رسميا بحماية المندسين ومكسرى الاضرابات وحددت «للمحرضين» على الاضرابات عقابا بالسجن لمدة اربع سنوات واكثر .

ارسل تريبوف نائب وزير الداخلية فى ٢٢ يوليو ١٩٠٥ تقريرا الى القيصر يرجوه فيه الموافقة على زيادة سلك رجال البوليس فى محافظة كورلانديا . فامر القيصر بزيادة سلك البوليس انطلاقا

من ضرورة وجود رجل بوليس واحد لكل ٤٠٠ نسمة من السكان الى جانب زيادة اجور البوليس وتخصيص ١٩ مليون روبل لهذا الغرض .

وافاد قائد منطقة كييف العسكرية فى تقريره ان ميول العمال الثورية بدأت تنتقل الى الجنود . واعتقادا منه بان احتكاكات الجنود بالاهالى تهدد بافساد الجيش اقترح عزل ثكن الجيش عن الاحياء السكنية باسوار خشبية عالية . وكتب القيصر على هامش التقرير : «اقتراح سليم تماما» .

ولكن مهما كانت الاسوار مفيدة فان الضرب بالعصى اكثر فائدة . فبموجب «قانون العقوبات الجسدية» السارى فى الامبراطورية كان من حق رئيس قسم البوليس ان يعاقب اى فلاح ضربا بالعصى . ولما اقترح مجلس الدولة الغاء هذا القانون المشين كتب الامبراطور على تقرير عن المناقشة بهذا الشأن فى مجلس الدولة : «سوف ألغيه اذا وجدت ضرورة الى ذلك» .

وافاد محافظ خيرسون فى تقريره السنوى ان مخالفات القانون ازدادت فى الاحياء العمالية ، فيكتب القيصر على هامش التقرير : «الضرب بالعصى !» .

وافادت قيادة الجيش فى منطقة الشرق الاقصى ان مجموعة من «الفوضويين المحرضين» وصلت الى المنطقة من بطرسبورج بغية افساد الجيش . فيكتب القيصر على التقرير – دون ان يتأكد من صحة هذه المعلومات او ان يسأل عن نتائج التحقيق او المحاكمة : «ينبغى شنق المحتجزين» .

وكتب تعليقا على تقرير محافظ مدينة اوفا حول اطلاق النار على مسيرة عمالية ومقتل ٤٧ شخصا بالرصاص : «يا ليت عددهم كان اكثر !» .

وفى اثناء تقرير قدمه رئيس الوزراء فيته حول الموقف الداخلى قال القيصر وهو يتفرج من النافذة على نهر نيفا : «آه لو استطعنا ان نمسك هؤلاء الثوريين جميعا ونغرقهم فى الخليج مرة واحدة !» .

. . . اقيم فى مبنى ادارة خط سيبيريا لسكة الحديد فى تومسك اجتماع للرأى العام الديموقراطى . وفجأة احاط رجال المئة السود المبنى باشارة من محافظ المدينة واضرمت النيران فيه .

فاشتعل الحريق فى طوابق المبنى الثلاثة ولكن المحافظ منع رجال المطافئ من اطفائه وظل يتفرج عليه من شرفة بيته ، بينما كان الاوباش يقتلون كل من حاول الافلات من المبنى المشتعل عبـــر الباب الخلفى . وقد هلك نتيجة تلك المؤامرة الاستفزازية الـــف شخص الا ان محافظ المدينة تلقى من بطرسبورج برقية شكـــر و«قبلات القيصر» .

بعد مذبحة وقعت فى جومل فى ديسمبر ١٩٠٥ اثبت ان المذبحة نظمها الكونت بودجوريتشانى احد ضباط الدرك فى المدينة بمساعدة «اتحاد الشعب الروسى» . وطرح رئيس الوزراء فيته نتائج التحرى فى حوادث جومل على مجلس الوزراء وقرر هذا الاخير بعد استماعه الى وزير الداخلية دورنوفو فصل الضابط بودجوريتشانى مـــن الوظيفة واحالته الى المحاكمة . ولكن القيصر كتب بعد اطلاعه على المحضر : «ليس من شأنكم ان تتدخلوا» ، ورفض ان يوافق عـلى قرار المجلس .

كان مدير قلعة بطرس وبولس يقدم بانتظام تقريرا الى القيصر مع قائمة السجناء فى الاول من كل شهر . واستلـم القيصر بصورة منتظمة ايضا معلومات مماثلة من مصادر اخرى : من قسم المباحث (تقارير اسبوعية حول الاعتقالات والبحث عن المطاردين) ومن فيلق الدرك ومن قادة الحملات التأديبية .

واليكم نموذج لتلك التقارير ، وهو تقرير يومى لمدير حراسة البلاط :

٢٦ يناير ١٩٠٦

الجنرال رودوف مدير مصلحة الدرك فى محافظة تشيرنيجوف يعيد النظام فى قضاء سوراج . وقد قام بتفتيش اكثر من ٤٠ قرية بمرافقـــة فصيلة من القوزاق ، كان خلالها يعقد اجتماعات للفلاحين ويطالب بتسليـم المحرضين له وباعادة الممتلكات الى الملاك . وكان يعاقب المحرضين عـلى الفتن بالضرب بالعصى امام المجتمعين .

واذا رفض الاجتماع تسليم المبادرين الى الفتن كان الجنرال رودوف يأمر باحراق بيوت الفلاحين ، فكان يعيدهم الى الصواب حالا .

وقد ضرب بالعصى ١٢٠ شخصا كما هاجم الفلاحون عدة مرات قائد فصيلة القوزاق بالعصى او الفؤوس فقتلوا فى مكانهم .

وقد رأيت من واجبى ابلاغ جلالتكم بذلك .

الجنرال تريبوف

وكان وزير الداخلية دورنوفو يقدم الى القيصر تقريرا اسبوعيا حول مكافحة الحركة الثورية . جاء فى احد تلك التقارير :

١١ يناير ١٩٠٦

يمكن القول ان الانتفاضة التى قامت فى منطقة البلطيق تم قمعها . فقد اعلن مندوبو ٤٦ قضاء فى ٣ يناير للجنرال شتوف عن استسلامهم وخضوعهم الكامل وانشدوا بصوت واحد السلام الوطنى «يا رب احفظ القيصر» وهتفوا فى الختام «هورا» .

ومع ذلك لا تزال تقع حوادث عنف ازاء الاقطاعيين فى بعض النواحى .

وفى القفقاس تم قمع الانتفاضة على خط فلاديقفقاس لسكة الحديد .

وفى ناحيتى الكسندروفسك وايليسافيتجراد من محافظة خيرسون ابدى الفلاحون مقاومة للقوات مما حمل هذه الاخيرة على اطلاق النيران فوقع ١٥ قتيلا و٨٠ جريحا .

وقد رأيت من واجبى ابلاغ جلالتكم بذلك .

دورنوفو

كان القيصر لا يخجل ان يدعو الى مائدته فى قصر ليفاديا او فى تسارسكويه سيلو اناسا اشتهروا بضراوتهم خلال الحملات التأديبية ويستمع بلهفة الى احاديثهم . ويشهد الضابط يفيتسكى الذى حضر ذات مرة احدى مآدب الغداء فى القصر الملكى : «كان جلالته يستفسرنا كثيرا عن تفاصيل حملتنا التأديبية فاستنتجنا انه كان ملما بها وكان على علم بمضمون برقيات ميلير وموافقا معه على انه كان من الضرورى قمع الثورة بمزيد من الحزم والقساوة لمنع تكرارها» .

وكان القيصر حريصا اشد الحرص على الاحتفاظ بما يمنحه مركزه من الحق المطلق فى التحكم بمصائر البشر وكان يمنح المحافظين العسكريين الحق فى احالة الاشخاص المدنيين الى المحاكم العسكرية واقرار الاحكام بالاعدام التى تصدرها فيهم ويحرمهم فى الوقت نفسه من الحق فى تخفيف تلك الاحكام وتخفيض الاعدام الى السجن مثلا .

كان يكلف مفوضيه بتجريد الناس من حقهم فى الحياة لا بمنحهم اياه . وكان يعطيهم الحرية فى القسوة ، لا فى التسامح . وبهذه الطريقة كان يسد امام المحاكم اى طريق نحو «التساهل» ويجرها الى القسوة المتناهية ازاء المتهمين . واذا اراد اى من المحافظين العسكريين انقاذ متهم معين من الاعدام ، لم تكن لديه حيلة سوى

التوجه الى القيصر مباشرة بواسطة وزير الداخلية ، ولكن نادرا مـا كان حكام المحافظات يبدون مثل هذا الحرص او يجرؤون عـــلى ازعاج وزير الداخلية بطلبهم ، كما لم يحدث الا نادرا جدا ان لبى القيصر طلبا كهذا .

الفصل السابع

جريجورى راسبوتين

الترحال عبر الدروب

لم يحب نيقولاى الثانى احدا غير ذاته (واطفاله) ، ولم يشفق على انسان ولم يحرص على احد ، حتى اكثر المخلصين له من حاشيته . ان ذهب احد فسيأتى غيره . كان نيقولاى يتصرف بهم على هواه ، ويلفظهم بكل بساطة . انه يقوى على طرد اى فرد ، حتى وان كان قد لاطفه وقبله لتوه .

ولم يستثن من هذه القاعدة التى كانت تسرى فى العلاقات بين العرش وحماته سوى راسبوتين . فهو وحده العارف بخفايا القصر وتقلبات الطبع الملكى .

فى الماضى ايضا كان لدى القياصرة معبودون ورجال سلطة محظوظون ومستبصرون وبهاليل . وكانوا عادة من حاشية القيصر ، ومن الارستقراطيين فى احيان كثيرة . غير ان راسبوتين لم يكن يشبه ايا منهم . فهو فريد من نوعه ، معبود لم يسمع به من قبل وما ُعرف له مثيل .

دخل القصر قادما من غابات التايجا ، كما يكتب الكسى تولستوى ، وبلغ العرش الامبراطورى . و«اصبح هذا الفلاح الامى ذو النظرات المتطايرة والقوة البدنية الجبارة يحتال على روسيا بتهكم وسخرية» .

انه لا يسأل الرحمة وليه القيصر والقيصرة العظيمين ، بل هما اللذان ينحنيان امامه بخشوع وتملق . انهما يتوسلان شفاعته امام القدر ومباركته وتوصياته نيابة عن الرب . ومهما كانت الملفات والمحاضر وخلاصة التقارير عن مغامراته وافعاله الفاحشة التى كان يسجلها البوليس ويبعثها الى مكتب القيصر ، فانها ترتد عن جريجورى راسبوتين كما ترتد الكرة عن الجدار .

عندما ظهر راسبوتين فى العاصمة كان عمره ، كما يبدو ، ما بين ٣٠-٣٢ عاما (اما هو فلم يعرف تاريخ ميلاده) . وهو يتحدر

من عائلة ميسورة . كان والده يدير ارتيلا للاعمال الموسمية يقوم بشحن وتفريغ الصنادل على نهر تورا . وتقول بعض المعطيات انه (وكذلك ابنه جريجورى) اشتغل بعض الوقت حوذيا لعربات البريد على الطريق العام الذى يربط ما بين تيومين وتوبولسك . بدأ جريجورى بشرب الفودكا وهو لا يزال صبيا . وكثيرا ما كان يتسكع دون عمل . وقد تزوج فى سن العشرين * . واشتهر فى القرية بعربدته وبذاءة لسانه . كان يدخل فى عراك مع شقيقه ، بل وحتى مع ابيه ، ليس فقط قبل ان تصبح له منزلة ، وانما بعد ان اعتلى ذروتها ايضا . وعلى اثر محاولة راسبوتين سرقة الخيول تقدم اهالى القرية الى السلطات بطلب يرجون فيه ابعاده عنهم الى اى مكان . وحين كان طلبهم لا يزال قيد الدراسة غادر القرية بنفسه .

وفى اثناء ترحاله بدأ «تحوله» . كان يتسكع بين الاديرة والابرشيات مرتديا ما يشبه لباس الرهبان ، متصنعا الجنون ، مستجديا الناس . وكانت تتسكع معه احيانا ، وتقضى الليل اينما حل امرأتان جوالتان او ثلاث . تعلم قليلا قراءة النصوص الدينية ، وهضم طريقة تلاوة الصلوات بصورة صاخبة وانفعالية وتمتمة النصوص المقدسة دون ارتباط بحيث يغدو حديثه عسير الفهم ومتقطع الجمل .

بعد ان قطع راسبوتين روسيا من اولها الى آخرها (وصل حتى نوفى افون فى الجنوب) عاد الى قريته ، ولكن فى صورة «الورع» هذه المرة .

فى قريته بوكروفسكويه التفت حوله حلقة من المريدين (اغلبها من النساء) من اتباع طائفة «الخليستيين» الدينية التى كانت منتشرة فى سيبيريا آنذاك . هذه الطائفة التى تعرفها راسبوتين اثناء ترحاله كانت ملائمة له وتتفق وذوقه . فهى لا تعترف بالكتب الدينية ، وتؤمن بـ«كلمة الرب الحية» التى تصل المؤمنين من خلال انسان «فاضل» الى درجة عالية ، كما هو ، فى هذه الحالة ، شأن جريجورى راسبوتين بالنسبة الى اتباعه .

الاساس التنظيمى : تتكون الطائفة من «سفن» اى حلقات

---

* كانت عائلة جريجورى راسبوتين تتألف من الزوجة براسكوفيا والابن دميترى والبنتين ماتريونا وفارفارا .

مغلقة تقام في كل منها بانتظام صلوات جماعية حماسية للوصول الى «النشوة الروحية» .

الاساس الفكري : لا يتم خلاص الروح الا عبر الخطيئة والتوبة . ان لم ترتكب خطيئة فلن تستطيع تخليص روحك . وكلما كانت درجة الفسق اكبر ، كانت مأثرة التوبة اعظم وكان تقدير رب السموات لها اكبر . على هذا الاساس كان جريجوري يشعر وكأنه في وسطه ومحيطه . وطالما يطلب رب الكون ممارسة الخطايا فان راسبوتين يلبي هذه الرغبة . وبدأت في «سفينته» التي تكون «طاقمها» من النساء في الغالب حفلات صاخبة يتم في خلالها ترتيل النصوص والقصائد الدينية ، والرقص الجنسي الشهواني العاري ، والتهتك الجماعي . لم يرق هذا الامر للسلطات المحلية . وعجل راسبوتين هذه المرة ايضا في مغادرة قريته مستبقا الاحداث .

ومن جديد راح راسبوتين يتخبط في دروب الارياف وشعاب الغابات ، متسكعا بين الملاجئ الليلية والخانات والاديرة الى ان دفع به القدر (عام ١٩٠٢) الى بطرسبورج . وقد حمل معه توصية خطية من اسقف ابرشية قازان وقدمها الى رئيس الاكاديمية الدينية سيرجي متضرعا اليه ان يلتفت لحاله بشكل عام ، ويعطيه مساعدة نقدية بشكل خاص . كان يجلس في مكتب سيرجي صديقا راسبوتين القادمان – شفانيباخ ونيدجاردت ومعهما فيوفان مفتش الاكاديمية والمرشد الروحي الخفي للقيصر والقيصرة . بدا للجميع ان شيئا ما غير عادي في هذا الرجل : حركاته ، حديثه ، نظراته .

وما لبث فيوفان ان عرّف في القسم الداخلي للاكاديمية زوجة الامير الكبير نيقولاي بهذا الفلاح التقي . ومن ثم قام الزوجان بتقديم هذا الرحال الى القيصرة الكسندرا فيودوروفنا . واذا بصاحبة الجلالة تجلس مسحورة امام نظرات راسبوتين الثاقبة المسمرة ، تصغي الى حديثه القروي البسيط الملئ بالعطف والمفعم بغرائب الافكار الصوفية . ويلي ذلك تقديم راسبوتين الى القيصر نيقولاي الثاني ، ثم دعوته لاول مرة الى القصر ، حيث استحوذ بسرعة على اهتمام العائلة واندمج في دور «واحد منهم وفيهم» .

في عائلة رومانوزف ، شرع راسبوتين يؤدي دور «الورع» جيدا وهو يتمتم بالتعاويذ المسيحية ويتطلع الى ملاقاة «القادر العلي» . وفي مواعظه الخاصة ، في البدء امام القيصر وزوجته ومن ثم في صالونات

بطرسبورج الارستقراطية ، كانت الاصطلاحات الانجيلية الصوفية تمتزج بالتعابير الفارغة ، المتبقية لديه من زمن الرقصات الليلية فى حلقته ، حول وحدة الجسد والروح . لا حقيقة إلهية غير حقيقة النشوة الروحية الشهوانية وجريجورى راسبوتين بشيرها . ومن البشير والنبى الى الرب المنقذ خطوة واحدة . ويعرض راسبوتين فى شخصه الواحد الاثم والخلاص والنعيم . وعدا ذلك ، اعلن نفسه منزّلا من العناية الالهية لحماية سلالة رومانوف والقيصر والقيصرة ، وبالاخص (وهو ما اضيف فيما بعد حين ولد الكسى) وقاية ولى العهد * المريض من اخطار وعوارض الحياة .

كانت عائلة رومانوف بحضور دجال تيومين لا تشعر بمرور الوقت . كتب نيقولاى فى دفتر يومياته فى الاشهر الاولى من تعرفه براسبوتين : «اجتمعنا نحن السبعة من جديد مع **صديقنا** . . . وكان بوسعنا ان نصغى ونصغى اليه بلا نهاية» . ويرد فى احد التسجيلات بان راسبوتين وصل الى القصر فى الساعة الثالثة نهارا وظل هناك حتى المساء . وفتحت امامه ابواب مخادع العائلة المالكة . ودخل هذه المرة غرفة نوم القيصر . وكانت الزوايا الهادئة محط اهتمامه بشكل خاص . ودخل هنا مرة ثانية ، لا من اجل العناية بالقناديل فحسب ، وانما لمآرب اخرى ، الامر الذى اثار حوله فيما بعد ضجة عالية – على مسمع من العالم كله تقريبا – الراهب الاب اليودور الذى كان من المئة السود الساهرين على الاخلاق الروحية .

ان اليودور الذى كان من افضل اصدقاء راسبوتين فى البداية ، ومن ثم عدوه اللدود ، نظم عام ١٩١٤ محاولة للقضاء على حياة

---

* عانى الكسى منذ ولادته مرض الهيموفيليا (استعداد الجسم للنزيف الدموى المستمر) . فاية كدمة او جرح او خدش بسيط ، الامر التافه بالنسبة للاطفال الآخرين ، كانت تهدد الكسى بالموت . وقد ورث هذا المرض عن اقربائه الالمان فى جيمين : ففى المانيا ذهب ضحية لهذا المرض ، غير مرة ، اقرب اقرباء والدة الكسى – الكسندرا فيودوروفنا . وقد راح راسبوتين يسحر بحذاقته المريض مستخدما شتى انواع الشعوذة والحيل ، بحيث استطاع ان يوحى له ولأهله بانه مداويه ومنقذه الوحيد الذى لا غنى عنه .

راسبوتين ، اذ بعث اليه فى بوكروفسكويه احدى النساء المتعصبات التى سببت له جرحا بليغا بضربة سكين فى البطن — ومن اجل ان يتجنب اليودور الانتقام هرب الى النروج واصدر هناك كتابا فضح فيه راسبوتين .

نعود الى دفتر يوميات القيصر : «جلس معنا جريجورى» . لقد ظل نيقولاى الثانى وقتا طويلا ، حتى نهاية القيصرية تقريبا ، يتمتع بموهبة التلذذ بمحيط راسبوتين : «كل كلمة تصدر عنه هى السعادة بالنسبة لى ، فبوجوده تنتعش روحى» .

ان روبرت ميسى ، الذى وضع فى اساس كتابه المتكون من ٥٠٠ صفحة عن مناقب آل رومانوف قصة مرض الكسى ، يثبت بان راسبوتين بث الخوف فى قلبى الوالدين من خطر وفاة الابن . وهذا صحيح ، ولكن جزئيا . فقد ارعب راسبوتين القيصر والقيصرة بخطر وفاتهما هما ايضا . انه تعلم استغلال خوفهما . وبعد ما تأكد من متانة تأثير ايماءاته المغناطيسية الى حد كبير ، تمادى فى غيه بعيدا حتى نهاية حياته . ان الخدمة الدؤوبة التى اولاها راسبوتين سيديه لم تنف الضغط ، ولا حتى الابتزاز المباشر . فكان راسبوتين يهددهما : «ولى العهد حى طالما انا حى» . ومن ثم وسع هذه الصيغة : «نهايتى تعنى نهايتكما» .

لقد اكد يوسوبوف الذى قتل راسبوتين ان «تدينه كان قناعا» ، اما تملقه فكان يخفى «خداعا وقذارة» . ومع ذلك يعترف يوسوبوف بانه كانت لراسبوتين «قوة فوق قوة البشر» تجلت بشكل خاص ، كما يعتقد ، فى «حيويته الخارقة» التى ابداها ابان قتله .

لقد فهم راسبوتين جيدا كنه القيصر والقيصرة . واوحت له ملاحظاته بان التهيج الصوفى او التعاويذ المبهمة غالبا ما تترك انطباعا لديهما اكثر تأثيرا من اية حجة منطقية جيدة الاعداد . فعن طريق التمتمات غير المفهومة والولولات الغامضة كان راسبوتين يطرد الارواح الشريرة عن العائلة ويبعد المرض عن الكسى . وكثيرا ما كانت نوبات المرض التى يمر بها الكسى تزداد حدة من جراء هستيريا الام ورعبها . وكان الهدوء الذى يوحى به راسبوتين للام ينتقل الى الابن ايضا . ويبدو ان راسبوتين جرب ما يشبه التنويم المغناطيسى على الابن المريض مباشرة . كان يعود ابن القيصر فى

غرفة نومه مساء ويجلس الى طرف فراشه ، ويوجه نظراته الحادة اليه فى العتمة ، ويمسد رأسه برقة ، ويقص عليه شتى الحكايات بصوت رخيم واثق . انه يهدئ من روعه ، ويحول انتباهه ، ثم يجعله يغط فى النوم . لقد عود راسبوتين الطفل عليه ، على صوته ، وعلى تلك الاحاديث الليلية المصحوبة بالخرافات والحكايات الهزلية ، الى درجة ان مجرد ظهوره فى الغرفة كان كافيا ليكف الطفل المريض عن الانين والبكاء ، ثم يهدأ ويستسلم للنوم . ويجرى هذا كله امام انظار الوالدين المبهورين بهذه «المعجزة» .

كان راسبوتين يخدر السلالة الملكية كلها متنبئا لها بالحياة الرغيدة والمستقبل الامن . ولولا كلامه الغامض لفقد تأثيره . وكما يسيطر الساحر على زبائنه ويبقيهم بين يديه عن طريق مجموعة من الطقوس والحركات ، كان راسبوتين ايضا يمارس الصلوات الممزوجة بهذيان لا تحل طلاسمه ولا يترجم الى اية لغة بشرية .

ومن تيومين او نوفى افون يبعث راسبوتين الى القصر برقيات قد تبدو ثمرة من ثمار السكر . ولكن صاحبى الجلالة المعنونة لهما يضعانها فى مصاف التبجيل . وهى من حيث الاسلوب تذكر الى حد ما بلغة القسوس ، واحيانا بلغة اللصوص الاصطلاحية .

يتمتم راسبوتين شيئا ما بشكل غامض بلغته «الخاصة» . ولكن عند الضرورة ، وحين تجبره الظروف ، يستطيع التخلى عن لغته هذه ، مثلا ، فى تلك الحالات التى اطلق عليها فيما بعد تسمية «تجارة التأثير على الطريقة الراسبوتينية» : كان يستغل راسبوتين وضعه المكتسب فى القصر ليساعد – لقاء ثمن طبعا – كل من يلتمسه مهما كانت مشكلته . وعلى هذا الاساس كان يؤمن لاحد الوجهاء – وظيفة ، ولصاحب المصنع – طلبية تموين ، وللمحكوم عليه جنائيا – العفو ، وللضابط الالمانى الاسير – الخلاص . وحسب شهادة سكرتير راسبوتين السابق ، كانت تمر من خلاله كل شهر اثناء الحرب زهاء ١٥٠ رسالة كهذه .

كانت العبادة الفظة للاشياء والحاجيات تطغى على حياة آخر سلالة آل رومانوف تحت قبب قصورهم وعلى يد راسبوتين الماهرة برز هنا خليط فريد من تكنيك السحر . . . يدقون على الدفوف ، ترن الاجراس منذرة بقدوم الاعداء ، ترفع الصلوات الصاخبة الى مختلف صنوف الآلهة : قطع الخشب والجذامير ، الاصنام الصغيرة ،

الاوثان المصورة والمنقوشة ، الطلامس – عصا ذات مقبض على هيئة رأس سمكة ، حزام منقوشة عليه مقتطفات «مقدسة» . كانت هذه العبادة الجنونية للاشياء تجرى على خلفية البريق الشكلى للثقافة الاوربية واناقة المظاهر الاستعراضية ورونقة حفلات الرقص والولائم .

لقد استحوذ السحرة والمشعوذون منذ امد بعيد على اهتمام الزوجين الاخيرين من آل رومانوف . منهم المحليون ومنهم الاجانب الذين كان الفرنسى بابيوس والنمساوى شينك اول من دعى منهم الى القصر . وقد سبق راسبوتين مباشرة المدعو مسيو فيليب الذى استدعى الى القصر من فرنسا وكان فيما مضى بائع سجق فى ليون ثم اصبح مساعد طبيب ، وكان مطلوبا للبوليس الفرنسى من جراء ممارسته الشعوذة . وقد انزل فى جوار غرفة نوم القيصر لكى يستخدم طرقه الخاصة باستحضار الارواح والتنويم المغناطيسى وغيرها من اجل ان يرزق الزوجان الملكيان بولى عهد (بعد ان ولدت لهما اربع بنات) . وكان بالنسبة لعائلة رومانوف اشبه بمستشار فى شؤون ادارة الدولة .

ان الكسندرا فيودوروفنا المتنورة وحائزة شهادة البكالوريا فى العلوم الفلسفية اضافت الى «معجزات» راسبوتين شيئا خاصا من عندها واغنتها بقيمها الروحية الذاتية . فهى تكتب مثلا لزوجها : «اهدانى صديقنا فيليب ايقونة ذات جرس ينبهنى باقتراب الاشرار ويعرقل دنوهم منى» .

او : عندما كانت القيصرة فى رحلة الى محافظة نوفجورود قدموا لها احدى الناسكات الورعات التى تبلغ من العمر ١٠٠ عام . وبعد ان كتبت لزوجها واصفة هذا اللقاء ، اضافت : «تبعث الناسكة اليك هذه التفاحة . ارجوك اكلها» . فالقيصرة تعتقد بان فاكهة الناسكة «تبعث القوة» . وبعد مدة تسأل نيقولاى الثانى عن مصير الثمرة المقدسة ويأتيها الجواب بان الزوج والابن «اكلا التفاحة ووجدا انها رائعة» .

شارع جوروخوفايا ، ٦٤

منذ ان ظهر راسبوتين فى بطرسبورج غيّر شقته ست مرات . وانتقل الى شارع جوروخوفايا فى الاول من مايو عام ١٩١٤ .

كان عند راسبوتين ما يكفي من الزائرين في الماضي ايضا . ولكن مع انتقاله الى جوروخوفايا ، وخاصة بعد عودته من زيارته لمحافظة تيومين التي دامت شهرين ، حيث تعرض هناك لمحاولة الاغتيال (وهذا ما زاد في شهرته) ، راحت السيدات والسادة يسيرون افواجا الى محل اقامته .

من خلف القنطرة ، عبر الفناء نصف الدائري تتقدم مسرعة نحو المدخل المركبات المكشوفة الانيقة والسيارات الفاخرة والحناطير التقليدية . وعلى اثر كبار الزائرين ينقل الخدم من العربات صناديق الخمر والسلال الممتلئة بالاطعمة والزهور .

كان هناك في العاصمة ذات المليوني نسمة مختلف اوكار وبيوت الدعارة . الا ان رائحة خاصة كانت تنبعث من هذه الدار . فعبر هذه الشقة يمتد طابور اصحاب الرتب والالقاب والثروات الذين لا يمكن من النظرة الاولى تخمين ما الذي يربطهم بهذا المكان ويجعلهم يجتمعون فيه : وزراء ، اصحاب مطاعم ، سماسرة لبيوت المال ، امراء ، محامون ، تجار عقيق ، وصيفات ، مكيسين واصحاب مسارح . واحيانا في النهار ، ولكن على الاغلب تحت جنح الظلام ، يتسلل الى هنا رؤساء الحكومات الروسية المتعاقبة المتقاعدون او الذين لا زالوا في الحكم - جوريميكين ، تريبوف ، شتورمير ، الوزيران خفوستوف وبروتوبوبوف ، رئيس دائرة البوليس بيليتسكي ، الوجيهان كرامير وشفانيباخ ، المطران فارنافا ، والامير يوسوبوف ، الذي سيلقى راسبوتين المضياف مصرعه على يده بعد سنتين .

وكثير من هؤلاء الضيوف كانوا قد تحلقوا في الماضي ايضا حول مائدة راسبوتين ، مدعوين الى الولائم الفاخرة العامرة بنبيذ ماديرا . بيد انه اعتبارا من عام ١٩١٥ صار يلاحظ اكثر فاكثر بين سيل الزائرين العسكريون من الضباط والجنرالات الذين يأتي بهم الى هنا الامير اندرونيكوف . وكما لو ان الامر حصل تلقائيا ، يظهر بين جمهور المدعوين سيدات وسادة ، ممن كانوا يتجولون ، لاسباب مختلفة ، في مواقع الجيوش العاملة . لا يمكن القول ان الاجهزة السرية في الامبراطورية كانت غير مبالية ازاء هذا التجمع الغريب في شارع جوروخوفايا ولم تهتم به على الاطلاق . كلا . فقد كانت هناك مراقبة الى حد ما . وتشهد على ذلك مقتطفات من المعلومات

المحفوظة فى الارشيف . ولكنها كانت سلبية الى حد بعيـــد ، ولا تؤدى الى اى فعل – فليست هذه مكافحة لعصيان ، ولا عمليـــة لاصطياد الثوريين . . .

ومن بين الضيوف كان يتميز بالانشراح والتقرب الواضح من المضيف : آنا فيروبوفـــا ، وصيفـــة الامبراطـــورة ، وارون سيمانوفيتش ، ٤٢ سنة ، تاجر من الدرجة الاولى ، من مواليـــد موزير ، سكرتير راسبوتين ، وماريا جولوفينا ، ٢٦ سنة ، ابنة موظف كبير ، السكرتيرة الثانية لراسبوتين ، وموسى جينزبورج ، ٦٣ سنة ، صيرفى كبير ومستشار تجارى ، ودميترى روبينشتين ، ٣٩ سنة ، صيرفى كبير ، مرشح فى الحقوق ، وايفان ماناسيفيتش۔ مانويلوف ، المحرر الثقافى فى القسم الدولى لصحيفة «نوفويـــه فريميا» ، السكرتير الشخصى لرئيس مجلس الوزراء ، وميخائيـــل اندرونيكوف ، امير ، ٢٨ سنـــة ، موظف فى وزارة الداخليـــة ، والكسندرا فون بيستولكورس (شقيقة فيروبوفا) ، ٢٥ سنـــة ، زوجـــة ضابط يخدم فى مقر قيادة الحرس تسافر عـلى طول خط الجبهة فى العربة المخصصة للجرحى ، واكولينا لابتينسكايا ، ٢٩ سنة ، من مواليد محافظة موجيليف ، ممرضـــة ، كانت تسافر فى القطار۔المستشفى الخاص لصاحبة الجلالة ، وبعدئـــذ انتقلت الى شقة راسبوتين واخذت تعيش هناك اسابيع بكاملها .

ومن الضيوف الدائمين ايضـــا الدكتـــور بادمايف ، ومدام سوخوملينوفا (زوجة جنرال) ، وكذلك الزوجان القريبان جدا مـــن راسبوتين : نيقولاى سولوفيـــوف ، ٥٢ سنـــة ، موظف كبير فى السينودوس الاقدس ، وزوجته ايليزافيتا ، ٣٠ سنة ، معجبـــة براسبوتين . ويسكن الزوجان على بعد عدة خطوات من بيتـــه . وسولوفيوف هذا هو اب الملازم ب . سولوفيوف نفسه الذى عقد قرانه فى عام ١٩١٧ على بنت راسبوتين وتوجه معها الى سيبيريا لكى ينقذا عائلة القيصر من السجن .

جريجورى راسبوتين – روح المجتمع كله . مسلكـــه الفظ وسكره الدائم لا يمنعانه من ان يقبض باحكام على هذا الخليط من الناس ، وان يتحكم بالصلات والعلاقات السائدة فيما بينهم . وهـو فى هذه الحالة يعتمد على اقرب المقربين من المحيطين به . وعنده لكل واحد منهم تقريبا كنية خاصة به . ان الاحساس الفلاحـــى

بالفكاهة والميل الى النكتة هما اللذان امليا على راسبوتين عادة اطلاق الكنية .

تعلموا لغة الشيفرة للمراسلة فيما بينهم ، ولم يكن ذلك للتسلية ، وانما لاخفاء ما يفكرون فيه وما يضمرونه . فقد كان عندهم ما يكتمونه . وكان جوهر تصرفاتهم ينطلق من واقع انهم من الناس المعارضين بضراوة لخطط سحق المانيا القيصرية والذين يعتقدون ان على روسيا الا تتخاصم مع المانيا ، فى اى حال من الاحوال ، لانها كانت حصنا للقيصرية ، ولهذا السبب ، وكذلك لاعتبارات اقتصادية ، يجب على روسيا حتى الدخول معها فى تحالف .

ان ميل راسبوتين الى المانيا كان راسخا وفعالا ومثابرا . تحدثت ابنته ماتريونا (ماريا) فى المهجر ، وكانت قد قضت فى تيومين شهرا جالسة عند فراشه : «كان والدى من المعارضين الاشداء للحرب مع الامبراطورية الالمانية . وعندما اعلنت الحرب كان طريح الفراش فى تيومين على اثر الجرح الذى سببته له جوسيفا . وبعث القيصر له برقية يسأله فيها نصيحته . . . كان والدى فى برقياته الجوابية ينصح القيصر بكل الوسائل بـ«ضبط النفس» وعدم اعلان الحرب على ولهيلم . . . كنت آنذاك بالقرب من والدى وشاهدت بنفسى برقيات القيصر وبرقيات والدى الجوابية» .

لم يستطع راسبوتين وشركاؤه درء الحرب مع القيصر الالمانى ، غير انهم منذ الاشهر الاولى لاندلاعها كانوا يحاولون اخمادها — باسم التضامن والتحالف وانقاذ كلتا السلالتين من الثورة المحدقة . وكان هذا السعى سره الاكبر .

كان الناس يتساءلون عما اذا كان جاسوسا ويخمنون ما اذا كان عميلا لمخابرات اجنبية . ليست هناك مسوغات واضحة لتأكيد ذلك . لكن لا شك فى انه لا يمكن للمخابرات الاجنبية الا ان تولى اهتماما لزبائن الدار رقم ٦٤ فى شارع جوروخوفايا ، وان تحاول استغلالهم لخدمة اهدافها . اما مدى نجاحها فى تحركها هذا فى الوسط المحيط براسبوتين فهو امر يلفه الضباب . اما ان تسرب اسرار الدولة من خلال هذا الشق وارد وممكن فامر تشير اليه دلائل كثيرة .

حسب الرأى الذى ادلى به المؤرخ السوفييتى بوكروفسكى فى العشرينات فان راسبوتين الذى كانت تحت تصرفـــه اموال اسرة رومانوف ، اغنى العوائل فى روسيا ، لا يمكن ان تغريـــــه نقود الاجهزة السرية الالمانية او اية اجهزة سرية اجنبيــــة اخرى . ان راسبوتين المخلص بطريقته الخاصة لآل رومانوف كان بامكانــه ، اقتداء بهم ، بيع او خيانـــة اى كان : قادة الائتلاف ، الامبراطور الالمانى وحتى صنائعه المقربين اليه . وهو اذ كان يقدم خدماتــه لآل رومانوف ويقوم بنشاطه معهم ، من اجلهم وباسمهم ، مارس كل الاعمال التى من شأنها ان تعود على سلالة القيصر ، وعليـــه شخصيا بالفائدة والارباح بالمعنى الحرفى والمجازى للكلمة . غير انه ، كما يبدو ، لم يكن عميلا للاجانب عن وعى ولسبـــق اصرار منه .

ولكنه كان من الجائز ان يقدم «بلا وعى» خدمات للمخابرات الاجنبية الملتفة حوله وذلك من جراء الخصائص المعروفـــة التى تميزت بها تصرفاته . وكان بامكان عملاء الاجهزة السرية الالمانية ، بل وحتى مخابرات دول الائتلاف المضادة لها ، ان يستفيدوا مــن ثرثرة راسبوتين وعربدته المتهورة على مقربة مباشرة من اهـــم مصادر المعلومات الرسمية . وكان مثل هذا الخطر ، سيما وانه لم يكن من الصعب جدا اكتشافه ، يحتم على المسؤولين الكبـــار الالتزام باعلى درجات الحذر ازاء الرواد الدائمين لشقة راسبوتين ، وعلى الاقل — ابعادهم الى اقصى حد عن مصادر المعلومات ، وغلق خزائن الوثائق السرية بوجههم غلقا محكما .

لم تكن هناك عمليا مثل هذه الحيطة . بل كان ما يشبه الضد منها تماما . فقد اعرب رئيس الوزراء السابق كيرينسكى فى المهجر عن اعتقاده بانه «كان يعمل الى جانب راسبوتين دون عائق لا انصار المانيا فحسب ، وانما عملاؤها ايضا» . وذكر ماكلاكوف — احد قادة حزب الكاديت السابقين : «عندما كان خفوستوف وزيرا للداخلية حدثنى بانه وضع راسبوتين تحت المراقبة ، وقد اتضح له تماما انه يحيط براسبوتين اناس مشبوهون بعمالتهـــم للالمان . . . ووجد خفوستوف ان من واجبه اخبار القيصر بذلـــك ، فكان هذا سببا للنقمة عليه واقالته» .

اما العميل السرى الذى ساهم فى مراقبة شقة راسبوتين فتحدث بدقة اكبر : «اتضح لى حينذاك بان شقته هى المكان الذى يستطيع الالمان فيه ، من خلال عملائهم ، الحصول على المعلومات الضرورية لهم» .

وتجدر الاشارة الى ان المخابرات الاجنبية طورت نشاطها فى روسيا منذ امد بعيد وفى مقدمتها المخابرات البريطانية واليابانية والنمساوية ، واما فى السنوات العشر التى سبقت الحرب فقد ابدت المخابرات الالمانية ايضا نشاطا ملحوظا . وكانت دائرة مكافحة التجسس فى روسيا تتصدى لها بشكل ضعيف وبمستوى سيئ . ان الاجهزة السرية لدول الحلف المركزى ، التى نسقت اعمالها منذ عام ١٩٠٨ ، استطاعت بعد ان استغلت الفعالية الواطئة لدائرة مكافحة التجسس الروسية ، ان تقيم مراكزها التجسسية فى منطقتى بيتروجراد وكييف العسكريتين ، وان تحول محطة فيرجبولوفو الواقعة على الحدود الى نقطة لاستلام وتسليم المعلومات .

استطاع رئيس المخابرات العسكرية الالمانية العقيد نيقولايه ان يقدم عشية الحرب للامبراطور الالمانى تقريرا عن بعض النجاحات الهامة لدائرته : تم الحصول على مجموعة من الوثائق الروسية السرية للغاية من جهاز الادارة العسكرية مباشرة . وقد تم الحصول على قسم منها من عند الملازم المدعو آدالبيرت زيفيرت الذى كان يخدم فى القسم السرى لمقر منطقة كييف العسكرية ، حيث يتم الاطلاع على المراسلات الرسمية والشخصية لضباط وجنرالات المنطقة ، بمن فيهم قائدها . ان الملازم زيفيرت الذى جنده ألتشولير رئيس الجهاز السرى النمساوى-الالمانى المشترك فى كييف قد وضع للاخير عددا من التقارير عن الوضع فى الجيش الروسى وذلك بالاعتماد على رسائل الضباط والجنرالات التى كان يطلع عليها .

كانت معلومات زيفيرت التى وصلت الى بوتسدام من كييف هامة بالطبع . غير انها فقدت بريقها امام الوثيقة التى وصلت الى هناك من بطرسبورج ، وبالتحديد ، من مكتب وزير الحربية . لقد رمت المخابرات النمساوية-الالمانية شباكها على الجنرال سوخوملينوف منذ ان كان فى كييف قائدا للمنطقة العسكرية ، هذا المنصب الذى شغله اعتبارا من عام ١٩٠٤ . استطاعت فى البدء

تجنيد زوجته (لقبها العائلى قبل الزواج بوتوفيتش) . وبعدمـــا انتقلت الى بطرسبورج سوية مع زوجها (ترأس زوجهـــا الاركان العامة منذ عام ١٩٠٨ ، ثم اصبح وزيرا للحربية على امتداد ست سنوات ، مـــن عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩١٥) ، اخـــذت مدام سوخوملينوفا تزور راسبوتين عـلى الدوام وتشارك فى الامسيات الساهرة وحفلات الشرب . وعن طريقها تورط فى تقديم المعلومات الى ألتشولير كل من العقيد ايفانوف والنقيب فيلر - الموظفان فى ديوان وزارة الحربية ، واصحاب العلاقة بشؤون الوزارة المهندس جوشكيفيتش ، وبولى-بولاتشيك ، ودومبادزه (احـد اقرباء محافظ يالطا دومبادزه المشهور بقساوته) ، واخيرا ، المقدم يرانداكوف - رئيس قسم مكافحة التجسس فى الادارة الرئيسية للاركان العامة .

وهذه المجموعـــة بالذات هى التى سرقت وسربت من وزارة الحربية وثيقة ذات اهمية استثنائية اعدها سوخوملينوف ليقدمها للقيصر شخصيا : «تقرير عن حالة الجيش الروسى واجراءات اعداده من عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩١٣» . ومفهوم ماذا كان يعنى مثل هذا الصيد بالنسبة للاستراتيجيين الالمان ، سيما وانهم كانوا فى ذلك الوقت يضعون اللمسات الاخيرة عـلى الخطط الميدانيـــة لغزو روسيا . . .

اندلعت الحرب . فصعبت ، بالطبع ، مهمة الجاسوسية الالمانية فى الاراضى الروسية ، الا انها لم تلغها تماما ، بل وحتى لم تضعفها كثيرا . كفت عن العمل النقطة الالمانيـــة لتسليـــم المعلومات فى فيرجبولوفو لقربها من الجبهة . ولكن اقيمت مثل هذه النقطـــة فى ستوكهولم تحت اسم «المركز الاخضر» ، وكان يقودهـــا السفير الالمانى فى السويد فون لوتسيوس ذو الصلة الوثيقة بالعقيـــد نيقولايه عن طريق المخابرات العسكرية الالمانية . فاين ومن كان يشتغل لحساب لوتسيوس ، اى لحساب نيقولايه ؟

تقوم الاجهزة السرية لدول الائتلاف بايصال المعلومـات الى حكوماتها والتى تفيد ان القيادة الالمانيـــة تظهـــر ابان العمليات العسكرية فى شرق اوربا سعة اطلاع غريبة . فهى كثيرا ما تنزل ضربات دقيقة لا يمكن تأمينها بواسطة اجهزة الاستطلاع التقليدية للجبهة . ولكن مهما كانت اجهزة مكافحة التجسس الروسية ضعيفة وتسودها الفوضى نتيجة خيانة يرانداكوف ، الا انها كانت تقوم من

وقت الى آخر بلفت انتباه القيادة العامة والقيصر شخصيا الى هذه الحالات المشبوهة ذاتها . ما من شك ، كما تؤكد مخابرات كـلا الجانبين ، ان الخصم يستطيع بهذه الدقة ضرب الاهداف المرسومة ، لكونه يستلم الاشارات من العملاء المقيمين فى مكان ما فى عمـق المؤخرة الروسية .

فى احدى ليالى صيف عام ١٩١٥ اقتحمت اجهزة مكافحة التجسس فى بيتروجراد فندق «بيلفيو» الواقع فى شارع بولشايا مورسكايا ، وقامت بتفتيش الغرفة رقم ٢٨ التى يشغلها الامير اندرونيكوف . كان هذا الشخص معروفا فى مجتمع بيتروجراد الرسمى كله ، ومع ذلك لم يكن يعرف عنه الكثير جدا . فى عام ١٩٤٢ كشف احـد المؤلفين الفاشست الالمان النقاب عن بعض تفاصيـل حياة هذا الشخص . ابوه من جورجيا ، خدم ضابطـا فى الجيش الروسى ، وشارك فى الحرب الروسية-التركية . وامه هى البارونة اونجيرن-شتيرنبيرج . وقد ولد اندرونيكوف الصغير وترعرع فى المانيـا . وعندما جاء فى سنى شبابـه الى روسيـا اتصل بـ«اتحاد الشعب الروسى» وعقد صداقـة مع حاكم مدينـة بيتروجراد فون دير لاونيتس ، ثم اصدر صحيفـة «صوت الروسى» . غير ان المؤلف الفاشى التزم الصمت ازاء بعض المسائل الاخرى . فهو لم يذكر ان اندرونيكوف استطاع بمرور الزمن كسب ثقة راسبوتين ، بحيث اصبح واحدا من اقرب الناس الذين يركن اليهم باطمئنان . وقد وصفه رئيس الوزراء السابق فيته بانه «شخصيـة دنيئـة» . جاسوس . . . غير جاسوس ، نصاب . . . غير نصاب . شغلـه الشاغل ان يتصرف بنذالة وان يحيك المكائد ويثير الخصومة بين الناس . كان يحشر نفسه بين جميع الوزراء . فهو الصديق الحميم لسوخوملينوف وقرينته ، ولوزير الداخليـة ماكاروف . ثم قال فيته «لقد دس انفه فى شؤون مكتبى . . . دس انفـه فى شؤون كوكوفتسوف الذى قال عنه بانه «دنىء جدا»» .

عثر لدى اندرونيكوف اثناء التفتيش على وثائق عسكريـة لم تكن له بها اية علاقة ، خاصة وانه ما كان يقدر الوصول اليهـا . وقد اتضح انه استطاع بطريقة ما الحصول على اذن بالدخول فى موقع مرابطة الجيش الثانى عشر . وقـد تعود الذهاب الى هناك لزيارة معارفه الضباط-الارستقراطيين . وكان يحصل منهـم على

المعلومات الحربية ، ويسرق الخرائط وصور الاوامر العسكرية .
كان هؤلاء المعارف والخلان انفسهم يزورون ، عند عودتهم باجازات قصيرة من الجبهة ، شقة راسبوتين بدعوة من اندرونيكوف الذى كان يقيم لهم الولائم هناك ويعرفهم بالنساء ويستل منهم آخر الاخبار عن الوضع داخل الجيوش . ولهذا الغرض نفسه كان اندرونيكوف يستغل لقب الامير للتعرف بالضباط فى المدينة والبحث عن اصحاب فى مطعمى «استوريا» و«يفروبيسكى» . وبعد ان استاجر غرفة فى فندق «بيلفيو» اقام هناك خلف القاطع مكتبا غير رسمى لمسك الملفات . وفى هذا المكان كان يخفى الوثائق الحربية التى يحصل عليها من الجبهة والمؤخرة ، ويضع ، بطلب من المانيا ، قوائم بمصير الضباط الالمان الذين وقعوا فى الاسر لدى روسيا .

من خلف القاطع تتطاير فجأة احدى الاوراق من درج المكتب . . . تخيم الدهشة على وجوه رجال مكافحة التجسس . والآن يبدو ان المصيبة ستحل حتما بهذا الامير الانيق . ثم يبرز عنوان على ورقة : «حول حالة قوات الاحتياط والتسلح» . التوقيع : الجنرال ابانتشين . لاى غرض ولحساب من حُررت هذه الوثيقة ؟ هذا ما لم يستطع توضيحه بشكل معقول اثناء التحقيق ابانتشين ولا اندرونيكوف . ومن خلال الامر العسكرى الذى صدر على اثر هذا الحادث يمكن معرفة ان الجنرال ابانتشين «بأمر من القائد العام الاعلى يسرح من الخدمة مع حرمانه من حق ارتداء البدلة العسكرية من جراء كتابته تقريرا اجاز فيه لنفسه نشر معلومات سرية للغاية ذات طابع عسكرى» . اما اندرونيكوف فلم ينله اى عقاب البتة . فقد ظل طليقا وواصل ممارساته المشبوهة حتى شهر ديسمبر عام ١٩١٦ ، حين توقفت عن العمل الى الابد بورصة المعلومات العسكرية فى شارع جوروخوفايا على اثر اغتيال راسبوتين ورمى جثته فى نهر نيفا عبر فتحة فى الجليد . . . وأمر القيصر بعدئذ بابعاد اندرونيكوف الى ريازان .

الى هذا الحين تقريبا تعود قضية اصحاب مصانع السكر فى كييف الذين قاموا فى ظروف الحرب بتزويد العدو بالسكر الروسى . كان يهدد الثلاثة جميعا خطر الاعدام شنقا حتى الموت . وقد توجهوا الى شارع جوروخوفايا ، ٦٤ ، بطلب المساعدة . الا ان انقاذ هؤلاء

المتهمين بدا صعبا حتى بالنسبة لراسبوتين ، لانهم كانوا معتقلين بأمر من بروسيلوف (قائد الجبهة الجنوبية-الغربيـــــة) الذى كان يرفض الاستماع الى طلبات العفو عنهم حتى وان جاءت من القيصرة . ولم يشعر المضاربون بابتعاد حبل المشنقة عن رقابهم الا عندمـا امر نيقولاى الثانى بنقل القضية من القضاء العسكرى الى المدنى ، وفى نهاية عام ١٩١٦ اغلقت قضيتهم تماما .

كان روبينشتاين يشغل منصب مدير البنـك الروسى-الفرنسى بالاضافة الى وظيفة مدير شركة «ياكر» للتامين . ووفقا لقواعد ذلك العهد كانت وزارة الحربية ملزمة بالتأمين على طلباتها الخاصـــة بالسلاح والمحفوظة فى الخارج ، وعلى نقلها الى روسيــا . وكانت شركة «ياكر» تقوم بالجزء الاكبر من عمليات التأمين هذه . وفى عام ١٩١٥ تم اعتقال روبينشتاين بتهمة نقل المعلومات عــن اماكن توزيع الطلبات الحربية وخطوط سير بواخر النقل المستأجرة مـن قبل وزارة الحربية الى شركات التأمين فى البلدان المحايدة ، دون ان يأخذ فى الاعتبار واقع ان هذه الشركات كانت بدورها على صلة بالمؤسسات الالمانية . وكان واضحا تماما ان الخصم يحصل على هذه المعلومات . فكانت غواصاته استنادا الى هذه المعلومـات تكتشف وتغرق وسائل النقل البحرى الروسية المحملـــة بالمواد العسكريـــة . وعلاوة على ذلـك ، كانت «ياكر» تزود المؤسسات السويدية بمعطيات عن القدرات والخطط الانتاجيـــة للمؤسسات الصناعية الروسية المؤمن عليها لديها ، متجاهلة فى هذه الحالـــة علاقة السويديين بالالمان . كان روبينشتاين مهددا بالشنق . بيد ان راسبوتين توسط له عند القيصر والقيصرة فاطلق سراحه فى عام ١٩١٦ . وبعـد ثورة فبراير كشــف ماناسيفيتش-مانويلوف للمحققين عــــن ان روبينشتاين «شكــر» راسبوتين بمبلـغ ١٠٠ الف روبل لقاء اطلاق سراحه .

فسر سكرتير راسبوتين السابــق سر حصانـــة روبينشتاين بالخدمات التى كان يقدمها هذا الصيرفى الى القيصرة . فبتوصية من راسبوتين جعلت منه قبل الحرب وكيلا لشؤونها المالية الخاصة . وبتكليف من الكسندرا فيودوروفنا كان روبينشتاين يقوم بانتظام بعمليات التحويل المالية بين روسيا والمانيا ، وساعد على وجـــه الخصوص فى تحويل مبالغ ضخمة الى «اقربائهـــا غير الاغنياء» فى

جيسين . وعندما وقعت الحرب بدا وكأنها اوقفت مثل هذه الممارسات . الا ان موكلة روبينشتاين التى «بقيت قلقة على اقربائها» واصلت كالسابق البحث عن فرص «لتحويل النقود سرا الى المانيا» . اما روبينشتاين فواصل هو الآخر «بمهارة كالسابق» القيام بالعمليات ذاتها ، ولو انها اضحت «حساسة وخطرة للغاية» . لقد مدت الكسندرا فيودوروفنا الممتنة يد الخلاص له فى تلك اللحظة حين تدلت فوق رأسه انشوطة المشنقة .

فى الحقيقة ، ان شفاعة كهذه كانت محفوفة بالمخاطر حتى بالنسبة لها ، للقيصرة . فقد اصيبت فى البدء بصدمة عندما سمعت بنبأ اعتقال روبينشتاين . وكان اعتقاله بمثابة ضربة بالنسبة لها ، لا لكونها فقدت وكيلها فحسب ، بل ولانها تخاف من احتمال الاساءة لشخصها من جراء هذه الفضيحة التى لا سابقة للعرش بها . خُيّل لها فى اللحظات الاولى ان اعتقال روبينشتاين : «يعود الى العمليات المتعلقة بتحويلاتها . . . وانه سيكشف عن علاقاتها به حالا» . وحين اتضح ان اسباب الاعتقال لا علاقة لها بشؤونها هدأت من روعها واضحت جريئة ، ومارست ضغطا على السلطات — فخرج روبينشتاين طليقا . واستنادا الى تأكيد المؤلف ذاته ، سلمت له آنذاك قصاصة ورق كتب عليها : «سيمانوفيتش ، اهنئك . ان صاحبنا الصيرفى طليق . الكسندرا» .

عام ١٩١٦ ، الوقت ربيعا . فى شقة راسبوتين ، وعلى المائدة يغلى الماء فى السماور . يجلس شخصان الواحد مقابل الآخر : راسبوتين وروبينشتاين . اقتربا من بعضهما الى حد كبير جدا ، بحيث كاد انفاهما يتلامسان . انهما يتهامسان . وما يتهامسان فى صدده محرم سماعه حتى على الجدران . يطلب روبينشتاين من جريجورى راسبوتين ان يعرف من «صاحب الجلالة» ، عند اول فرصة ملائمة ، متى يمكن ان يبدأ الهجوم الروسى المرتقب الحاسم على جاليتسيا .

بعد عدة ايام ، يتحدث راسبوتين فى القصر مع «صاحب الجلالة» فى شتى المواضيع ، ويدس فى سياق الحوار سؤالا وكأنه جاء عفويا :

— هل ستقوم بالهجوم ام لا ؟

— سوف لن يحصل الهجوم ، يا جريجورى .

– ورغم ذلك ، متى ستقوم بالهجوم ؟

– السلاح لا يكفى حاليا . ولن يكون هناك ما يكفى منه الا بعد شهرين . . . وعندئذ ساقدم على الهجوم وقبل هذا الموعد لا استطيع باى حال من الاحوال .

بعد ما عرف الوزير خفوستوف بهذا الحديث الذى جرى خلف مائدة القيصر شرع يستفسر من راسبوتين عن سبب اهتمامه بالذات فى مواضيع بعيدة جدا عن مواعظ المنقذ السامية ، وعن قضايا الصلة المتبادلة بين الروح والجسد ؟ وهنا يأتى التوضيح : يفكر روبينشتاين بشراء وبيع مساحات من اراضى الغابات فى المحافظات الغربية ، ولما كان لا يعرف كيف ستتطور احداث الحرب لاحقا ، اخذ يتردد بين عقد الصفقات او الامتناع عنها . ولذلك كان من الضرورى مساعدته بابداء النصيحة له . «ولهذا تحدثت انا مع ابينا القيصر . . . نعم . ثم ما هو شأنك انت يا ابن الكلبة ؟» . ودخل تعليق خفوستوف فى سجلات التاريخ : «يا ترى ، هل كانت هذه المعلومات ضرورية للصيرفى من اجل شراء الغابات ، او من اجل ايصال الخبر الى برلين وبالتالى اتاحة الفرصة امام الالمان لكى ينقلوا ٥–٦ فيالق من الجبهة الروسية الى جبهة فردن الفرنسية – هذا ما اصبح الآن من الصعب اثباته» .

ليست هناك اسرار عائدة للدولة يمكن ان يخفيها الزوجان القيصران عن راسبوتين ، بما فى ذلك الاسرار العسكرية . فهو يسأل كما يشاء ، وهما يجيبان عن كل سؤال يطرحه . ويستفسر جريجورى راسبوتين عن معلومات لا يمكن ان يطلع عليها لا غالبية الضباط الكبار فحسب ، وانما العديد من الجنرالات ايضا دون اية خشية من ان يضع نفسه موضع الشك او حتى من ان يُلام على تطفله الزائد عن اللزوم . من خلال قراءة مراسلات الزوجين رومانوف فى اعوام ١٩١٤–١٩١٦ يتكون انطباع وكأنهما كانا مهتمين بالدرجة الاولى ان لا يفوت فضيلة جريجورى اى حدث هام ، وان لا يفلت من نطاق نظره حتى ولا سر ستراتيجى واحد ، وانهما بجهودهما المشتركة يعملان على سد كل ثغرة ، وان كانت صغيرة ، فى تصوراته عن وضع وخطط الجيوش العاملة .

تخبر الكسندرا فيودوروفنا زوجها فى القيادة العامة العليا : «**ان صديقنا** لا زال يصلى ويفكر فى الحرب . وهو يقول ان من

اللازم علينا اخباره فى الحال عن كل شىء حالما يحدث شىء ما ملفت للنظر» . وورد فى السطر التالى : «لقد وبخنا لاننا لم نقم **باخباره** عن ذلك فى الوقت المناسب» . وكما نلاحظ ، فان «الصديـــق» لا يسأل فحسب ، بل ويطالب بالمعلومات ، واذا لم يستجب الزوجان بالسرعة الكافية فانه ينزل بهما عقوبة (اعلن توبيخا لصاحبـــى الجلالة) .

قبل ذلك بوقت قصير يبعث نيقولاى الثانى مـــن مقر القيادة لزوجته مجموعة كاملة من الاخبار الميدانية حول الوضـــع على الجبهة ، مضمنا اياها معلومات فى غاية السرية . ويكتب القائـــد العام الاعلى ، ان عليه الآن ان يقول «عدة كلمات عن الوضـــع العسكرى» : يعتبر هذا الوضع خطرا فى اتجاهى دفينسك وفيلنا ، وجديا فى الوسط باتجاه بارانوفيتشى . . . وجدية الوضع تكمن «فى الضعف الرهيب لحالة افواجنا التى وصل عدد افرادها الى اقل من ربع قوامها . ولا يمكن تعزيزها قبل مرور شهر لان المجندين الجدد لن يكونوا جاهزين قبل هذا ، ثم ان البنادق قليلة جدا . واما المعارك فهى مستمرة ، ومستمرة معها الخسائر» . ويمضى قائلا : «ورغم ذلك تبذل جهود كبيرة من اجل نقـــل الاحتياطيات الممكنة من الاماكن الاخرى الى دفينسك . . . بالاضافة الى هذا انه لا يجوز حاليا الاعتماد على سككنا الحديدية كما كان الامر سابقا . ولن ينتهى حشد قواتنا الا فى العاشر او الثانى عشر من سبتمبر ، اذا لم يظهر العدو قبلنا هناك ، والعياذ بالله» .

التواريخ ، المواعيد ، النقاط ، الاتجاهات ، النواقص — كلها مدونة بالتفاصيل . الامور الهامة والخطرة — واضحة ، كما لو انها على راحة كف . انه ليستعصى على الفهم كيف كان يمكن فى ظروف الحرب الركون الى قناة المراسلة الخاصة فى ايصال مثـــل هذه المعلومات . فقد كان تسربها للعدو يعنى خطر موت عشرات ومئات آلاف الجنود . وفى خاتمة الرسالة يضيف صاحبها وكأنه تذكر : «ارجوك ، يا حبى ، عدم اخبار اى احد بهذه التفاصيل ، اننى كتبتها لك وحدك» . ولكن لم يكن هذا الشرط يسرى عـــلى راسبوتين . ويتضح من رسالة القيصرة الجوابية انه اطلـــع مباشرة على هذه «التفاصيل» . ورغم ذلك يواصل نيقولاى امداد زوجته بالتقارير الحربية السرية للغاية .

فيما بعد شهد بيليتسكي رئيس دائرة البوليس امام لجنة التحقيق التي شكلتها الحكومة المؤقتة على «ان الالمان كانوا على علم بخطوط ومواعيد سير القطارات ذات الاهمية الخاصة سواء في منطقة الجبهة او في الشريط المحاذي لها» .

ولكن كانت هناك ايضا حالات بدا فيها القيصر قليل الكلام . ربما كان ذلك بضغط من رئيس اركان القيادة العامة العليا الجنرال الحذر الكسييف . وعندها كان يتأتى على القيصرة وراسبوتين استخلاص المعلومات منه . . . تطرح القيصرة بشكل مباشر الاسئلة التي تهم راسبوتين . وهي لا تخفي ذكر من اوصى على هذه المعلومات ، ولا الشخص الذي تود الحصول عليها من اجله .

«يا ملاكي العزيز ، بودي ان اطرح عليك الكثير والكثير من الاسئلة المتعلقة بخططك ازاء رومانيا . وكل ذلك يهم **صديقنا** جدا» . ثم تضيف : «والآن بشكل سري للغاية . . . اذا ما قام الالمان ، في اللحظة التي يبدأ فيها هجومنا ، بتوجيه ضربة الى مؤخرتنا عبر رومانيا ، فباية قوى ستستطيع المؤخرة حماية نفسها ؟ هل سيرسل الحرس الى الجنوب من مجموعة كيلير وللدفاع عن الطريق المؤدية الى اوديسا ؟ . . واذا ما استطاع الالمان اختراق رومانيا وانزال الضربة بجناحنا الايسر فما هي القوى التي ستكون قادرة على حماية حدودنا ؟ وما هي خططنا الحالية في القفقاس بعد سقوط ارضروم ؟ . . ارجو عفوك ، اذا كنت ازعجك ، بيد ان مثل هذه الاسئلة تقتحم الدماغ من تلقاء ذاتها» .

بعد هذه الاسئلة كلها ، التي من الصعب ان نتصور انها «تقتحم الدماغ من تلقاء ذاتها» ، يرد سؤال من المستبعد بالطبع ان يتمخض عن خيال القيصرة : «حبذا لو نعرف هل ينفع قناع أليك المضاد للغازات ؟» .

بديهي ان الكسندرا فيودوروفنا لم تكن تحتاج لتطرز قمصانا حريرية لراسبوتين الى حيازة معلومات سرية حول ما هو جديد في الوسائل المضادة للغازات ، او عن الهجمات الجديدة فيما وراء ارضروم ، ومن باب اولى الى الاحتفاظ بخارطة سرية خاصة تشير الى العمليات العسكرية وجدت في مخبأ القصر السري بعد ثورة فبراير .

لم يكتف راسبوتين بالاطلاع على الشؤون العسكرية بل كان يريد توجيه هذه الشؤون . فمن بطانته فى شارع جوروخوفايا ٦٤ ، لا يرنو للوصول الى المعلومات العسكرية ، بل والى القيادة العسكرية . واعتبارا من صيف عام ١٩١٥ يتجلى طموحه الى المشاركة فى تخطيط العمليات وفى وضع المهمات للجيوش والجبهات . واستنادا الى المعطيات التى يحصل عليها من خلال الكسندرا فيودوروفنا يحاول اعطاء التوجيهات العسكرية والسياسية الى القيادة العامة . ومهما بدا غريبا ، فان هذه التوجيهات الصادرة عن هذا الساحر الامى من تيومين لم تكن بالمرة فوضوية او عديمة المعنى . فقد كان فيها تسلسل منطقى قائم على فكرة معينة : عن طريق التخفيض المتواصل لنشاط القوات المسلحة الروسية نبدى لولهيلم الثانى التنازل والميل الى الصلح . وفى اللحظة المناسبة نعقد معه اتفاق سلام انفرادى من اجل الانتقال لاحقا الى الهجوم على اعداء العرش فى الداخل .

لم تكن هذه المهمة من المهام السهلة . . . العودة الى الاقرباء الالمان اضحت الآن اكثر تعقيدا مما كانت فى الماضى . فبعد مضى نصف عام منذ ان تبادل القريبان الكلمات اللاذعة بالتلغراف ، تكدست فى الحقول الاوربية قرابين الضحايا . لقد اريقت فى الاشهر الاولى من الحرب دماء كثيرة للغاية ، الامر الذى جعل من غير الممكن تحويلها خفية الى سوء فهم دبلوماسى . وقد ربطت البرجوازية الروسية مصالحها الانانية ربطا محكما بهذه الحرب وبدول الائتلاف بحيث لا يمكن لجماعة البلاط المولعة بالمانيا قطع هذه العقدة بسهولة وامان . ولكن لا فرق – سواء دول الائتلاف او الالمان – فالافضل ان «يقطعوا ذيلنا من ان يقطع الفلاحون الروس رأسنا» .

ان المعين الرئيسى للالهام الستراتيجى عند الاب جريجورى هو ، عادة ، الاندفاع السحرى غير المعروف المصدر ، او الاحساس الباطنى بمشيئة الخالق ، او الرؤيا الصوفية الهابطة من السماء . ان الرأى الذى يطرحه راسبوتين بالاعتماد ، مثلا ، على الحلم يكتسب بالنسبة لعائلة رومانوف قوة الالزام . فكل ما لدى «الورع» مفعم بمعنى خفى : بحة صوته ، فواقه ، وحتى سعاله الاعتيادى . واستنادا الى هذه المؤشرات الخاصة بالاحتراق الداخلى لدى راسبوتين بعثت الكسندرا فيودوروفنا على امتداد عام ونصف (فى

١٩١٥-١٩١٦) الى مدينة موجيليف زهاء ١٥٠ من توصياته وتحذيراته وطلباته المباشرة .

تخبر القيصرة زوجها فى احدى رسائلها الى مقر القيادة : «ان جريجورى يسعل ويقلق من جراء الوضع حول القضية اليونانية» . وكما يبدو من الرسالة ، فان راسبوتين لا يسعل عبثا : انه يريد بعارض الزكام هذا تحقيق انعطاف كامل فى ما يسمى بالسياسة البلقانية (الجنوبية الشرقية) للحكومة القيصرية ، وهو ما يشهد عليه التعليق الذى كتبته صاحبة الجلالة بخط يدها حول سعال راسبوتين : «ان **صديقنا** القلق جدا يرجوك (بمناسبة الوضع الناشىء فى الجنوب الشرقى - **المؤلف**) ارسال برقية الى ملك الصرب . . .» وحتى ان نص البرقية جاهز : «ارفق بطيه ورقته التى ستصوغ البرقية بموجبها : اكتب فكرتها بكلماتك الخاصة» .

ان نيقولاى رومانوف ، الذى درس خمسة عشر عاما على يد احسن اساتذة الامبراطورية ، يسترشد فى ستراتيجيته ازاء البلقان بشخابيط المعتوه السيبيرى السابق ، وكل ما يطلب منه ، وهو القائد العام الاعلى للجيش الروسى والاوربى المتنور «اعادة كتابة فكرة هذا المعتوه بكلماته الخاصة» . وبالمناسبة ، لم يغتظ من زوجته . فقبل هذا وبعده كتبت له شيئا من هذا القبيل غير مرة .

وما غفا العقل الستراتيجى لراسبوتين فى صيف عام ١٩١٦ ايضا . فبينما كان هجوم الجيوش الروسية فى ذروته ، كتبت الكسندرا فيودوروفنا الى مقر القيادة : «**انه** يعتقد الآن بانه قد يكون من المفيد عدم الهجوم بشكل مثابر فى الجزء الغربى من الجبهة . . . يمكن القيام بهجوم ضار والانتهاء من الحرب فى خلال شهرين ، ولكن سيضحى فى هذه الحالة بحياة الآلاف من الناس ، اما اذا ابدى صبر فيمكن ايضا بلوغ الهدف دون اراقة دماء كثيرة» . «الانسانى» من شارع جوروخوفايا ينصح بالانتصار على الالمان «بالصبر» ، ولا تغريه الامكانية التى اختلقها هو بنفسه حول كسب الحرب فى خلال شهرين . وكل هذا ضرورى من اجل عرقلة العمليات فى المنطقة الشمالية من الجبهة اولا ، ومن ثم تكرار الشىء ذاته فى المنطقة الغربية .

بعد ان سعى راسبوتين الى ان يعرقل ، لبعض الوقت ، هجوم الجيوش فى المنطقتين الشمالية والغربية حاول بلوغ هذا الهدف

ايضا فى المنطقة الجنوبية الغربية . وبهذا تبلغ الكسندرا فيودوروفنا زوجها فى الوقت المناسب : «يأمل **صديقنا** فى اننا لن نقوم بعبور جبال الكاربات ، وحتى لن نحاول السيطرة عليها» . ثم تعاود مرة اخرى : «آه ، يا زوجى ، لماذا يزحفون ويزحفون (جنود بروسيلوف – المؤلف) ، كما على جدار . الافضل ان ينتظروا الفرصة المناسبة ، لا تجعلهم يسيرون الى الامام والى الامام . . .» . وبعد مضى ثلاثة ايام ، فى الرسالة التالية يرد احد السطور ، الذى يبدو وكأنه غير ذى معنى ، ولكنه فى الواقع يحمل فى طياته مفتاح الوصول الى جوهر ستراتيجية راسبوتين العسكرية-السياسية برمتها : «كم انا سعيدة لكونك امرت ب بالتحدث اخيرا بجدية مع ج وب» .

يبدو ان الامر مبهم ، ولكن يمكن فك رموزه : «ب» – بروتوبوبوف ، «ج» – جريجورى (راسبوتين) ، «ب» – بادمايف . فعلى يد هذا الثلاثى شدت مجموعة الكسندرا فيودوروفنا آنذاك عقد الصلات والمفاوضات السرية مع الحكومة الالمانية القيصرية التى تعود مرحلتها الاولى الى عام ١٩١٥ .

لا يمكننا ان نتصور بمعزل عن حقيقة نشاطات راسبوتين المعادية للدولة مدى عمق فساد النظام القيصرى فى العقد الاخير من وجوده . بالطبع ليس من السهل تماما تحديد اى قسط من آرائه ينطلق من فهمه الخاص للاشياء – فهمه البدائى جدا نتيجة فقره الثقافى العام (كان لا يكاد يستطيع القراءة ، ولم يطلع على الكتب والوثائق ، ولم يكن يعرف جغرافيا العالم ، ولم يسمع بالمرة عن وجود العديد من الدول) . وعلى اية حال ، هناك من بين الذين تابعوا حياته اشخاص على يقين من انه ، رغم كل رهافة عقله المحتال ، كان يردد فقط فى المسائل الرئيسية شيئا توحى به مصادر مجهولة . فالاساس المبدئى لهذا «الشىء» لا يعود اليه ، واما صيغة تجسيده بالكلمات فهى من عنده .

بعد ان احتل فى البدء مكانا فى حياة عائلة رومانوف ، اخذ ينشر تأثيره بالتدريج على مجموعة واسعة من شؤون سياسة الدولة الداخلية والخارجية وغيرها . كانت مناجاته الروحية الداخلية التى يرددها خلف المائدة تخفى مشروعا معينا وحسابات دقيقة . فالهدف الذى وضعه راسبوتين نصب عينيه (او بالاحرى – الذى

وضعته له القوى الخفية التى مهدت امامه الطريق) كان يرمى الى تثبيت اقدامه اولا فى البلاط من خلال المواعظ والاحابيل السحرية ، ومن ثم تعزيز قوة تلك المجموعة الموالية لالمانيا والتأثير فى مجرى القضايا السياسية لصالحها ، والوثوب ، ان امكن ، الى السلطة العليا فى مصلحة هذه المجموعة نفسها . وهكذا ففى عشية الحرب العالمية الاولى ، وفى اوارها ، يأخذ راسبوتين بالتقرب مباشرة من سلطة الدولة ، وبممارسة هذه السلطة الى حد معلوم وفى اوقات معينة .

عند عتبة السلطة

هل شارك راسبوتين فى قيادة الامبراطورية الروسية ؟ وما هو مستوى مشاركته فى شؤون الدولة ؟

لقد انكر بعض افراد حاشية القيصر الذين اودعوا سجن قلعة بطرس وبولس بعد الثورة وجود مثل هذه المشاركة ، مع انهم اضطروا فى اثناء التحقيق الى ذكر حقائق تدل على جبروت محبوب القيصر هذا . وانكرها فيما بعد المهاجرون البيض . ويحاول دحض ذلك وكلاء ومروجو البضاعة المعادية للاتحاد السوفييتى ، وكل صنوف المختصين فى الشؤون السوفييتية ، اى كل الذين يحاولون ، انطلاقا من السعى لتخفيف اثم القيصر امام روسيا ، اسقاط الصفة السياسية عن راسبوتين وربط اسمه ، بشكل اساسى ، بحفلات التنويم المغناطيسى ونبيذ الماديرا وبالبارونات المتيمات .

فى حين ان الحقائق الدامغة تشهد على ان راسبوتين كان يأتى الى تسارسكويه سيلو كمستشار رئيسى للدولة ، كوزير اعظم وكعضو فى المجلس الامبراطورى الثلاثى غير المعلن .

وقد اضطلع راسبوتين بهذا الدور طيلة سنين عديدة وعلى الاخص فى فترة الحرب العالمية ، وهو ما تشهد عليه رسائل القيصرة الى زوجها فى مقر القيادة الواقع فى موجيليف . وهذه الرسائل مفعمة بالتوصيات والتعليمات الفعلية التى يفهم منها عادة وكأنها صادرة عن راسبوتين مباشرة . اما لقاءاتها مع راسبوتين (السرية او المموهة قدر الامكان) فكانت تعقدها بدار آنا فيروبوفا فى تسارسكويه سيلو – فى البيت الصغير ذاته الذى وصفه وزير الداخلية فى احدى المرات بانه «عتبة السلطة» .

وهذه سطور نموذجية من تلك التي كانت تطفح بها رسائل القيصرة الى زوجها في عامي ١٩١٥-١٩١٦ : «التقيت آنا خطفا . وجاء **صديقنا** الى هناك ليتحدث معي» . . . «انا استعد للذهاب الى آنا لكي نلتقي **صديقنا**» . . . «قضى **صديقنا** يوم امس وقته عند آنا ، وكان لطيفا الى حد بعيد . . . سأل كثيرا عنك ايضا» . . . «هبت الى آنا وجلست عندها حتى الساعة الخامسة وتحدثت هناك الى **الصديق**» . . . «اعتزم مرة اخرى رؤية **الصديق** عند آنا . . .» . من خلال طائفة من مثل هذه الاخبار ذات النمط الواحد برق ذات مرة ايضاح ، كما لو فرضه ظرف سيئ : «التقى **به** عند آنا ، واما اذا التقيته في القصر فيفكرون حولي باشياء لا يعرفها الا الله» . وقد احاطت الزوج علما بكل وصايا راسبوتين : «يا لها من برقية رائعة من عند **صديقنا**» . . . «انها برقية ساحرة من **الصديق** ، وسوف تبعث في قلبك الغبطة» . . . «هل نقلت لنفسك على ورقة منفردة ما جاء في **برقيته** هذه ؟» . تلك هي احدى وسائل القيصرة لاغناء زوجها بـ«حكمة» الورع . فيجب على القيصر استنساخ تعليماته وجعلها في مصاف النصوص المقدسة بحيث يحتفظ بها دائما امام ناظريه . وتصدر القيصرة احيانا بنفسها التعليمات : «احتفظ بهذه الورقة بين يديك» . . . «مره (بروتوبوبوف – **المؤلف**) بان يطيع **صديقنا** اكثر . . .» . اما رد فعل نيقولاي ازاء عملية اجباره على النقل فهو : «اشكر لك برقة رسالتك اللطيفة وتوجيهاتك الدقيقة بشأن التحدث الى بروتوبوبوف» .

قد يبدو ، للوهلة الاولى ، ان الشكر على «التوجيهات الدقيقة» بمثابة تهكم طالما انه جاء على لسان حاكم مستبد حرص مدة ٢٣ عاما على الدفاع بلا هوادة عن حقه الالهي في السلطة الفردية . بيد ان نيقولاي ما كان يتهكم . ولم تكن توجيهات الكسندرا فيودوروفنا اهواء فارغة لزوجة تعاني وحشة الفراق . فقد كانت تصدر ويأخذ بها بجدية . وبالمناسبة ، حصلت ايضا حالات خروج على هذه التوجيهات . فقد اعرب القيصر في احدى المرات عن شكه في جدوى بقاء بروتوبوبوف غير السوي تماما في منصب وزير الداخلية (كما تطالب القيصرة) . وشعورا منه بان راسبوتين سيدافع عن محسوبه بروتوبوبوف يضيف نيقولاي : «ولكن ارجوك يا عزيزتي لا تدعي

10—539

صديقنا يتدخل فى هذه القضية ، وانا سأتحمل المسؤولية ، ولهذا فبودى ان اكون حرا فى اختيارى» .

يا للعجب ! اراد نيقولاى هذه المرة ان يبقى «حرا فى الاختيار» ، واعتزم عزل الوزير المناسب لراسبوتين . ولكن لم يحصل ذلك . فها هى الزوجة ترد : «يا عزيزى ! . . ربما لا اكون على قدر كاف من الذكاء ، غير ان شعورى متطور الى حد بعيد ، وهو غالبا ما يساعدنى اكثر من العقل . لا تستبدل اى احد الى ان نلتقى ، دعنا نناقش كل شىء سوية بهدوء» . ان القيصر الاسير للطروحات حول لالزومية العقل وسهولة الاستعاضة عن هذه الخاصية باخرى ، والواقع كذلك تحت تأثير دعوة القيصرة ، او بالاحرى راسبوتين ، الى «مناقشة كل شىء سوية بهدوء» يقرر ابقاء بروتوبوبوف فى منصبه الذى ظل فيه حتى جاءت ثورة فبراير و«عزلته» منه .

اذا ما قارنا تواريخ رسائل القيصرة المتضمنة تعاليم راسبوتين بتواريخ المراسم الامبراطورية فى تلك الايام لاستطعنا ان نرى كم كان لراسبوتين تأثير واسع على مجرى شؤون الدولة .

فقد اوصل راسبوتين لمنصب وزير الحربية سوخوملينوف (خدم من عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩١٥) . وعندما حل محله واحد اكثر اخلاصا وكفاءة هو بوليفانوف (خدم من ١٣ يونيو ١٩١٥ حتى ١٣ مارس عام ١٩١٦) ، تمكن راسبوتين من عزله عن هذا المنصب . وهناك العديد من الشواهد على مكائد مجموعة راسبوتين فى وزارة الحربية .

اوصى راسبوتين بتعيين خفوستوف فى منصب وزير الداخلية (عام ١٩١٥) . وبالحاح منه اعطى بروتوبوبوف المنصب ذاته (شغله من سبتمبر ١٩١٦ حتى فبراير عام ١٩١٧) .

وبتوصية منه عين بمنصب رئيس مجلس الوزراء جوريميكين (ظل فى هذه الوظيفة من يناير عام ١٩١٤ حتى يناير ١٩١٦) ، واعقبه شتورمير (يناير – نوفمبر عام ١٩١٦) ، ومن ثم جوليتسين (ديسمبر ١٩١٦ – فبراير ١٩١٧) الذى عين بعد وفاة راسبوتين ولكن بتوصية سابقة منه .

وكان من بين صنائعه المعينين فى الوزارات والمناصب الاخرى ذات المسؤولية كاسو ، شيجلوفيتوف ، تيزينهاوزن ، روخلوف ،

بارك ، تاتيشيف ، فوييكوف ، ريتيخ ، دوبروفولسكى ، بيليتسكى وآخرون عديدون . وكل هؤلاء وامثالهم من رجال الدولة كانوا لا يترقون الا بعد تقديم تعهد لراسبوتين بالخضوع له وتحقيق طلباته . والدليل الرئيسي على صلاحية هذا المحسوب او ذاك للنشاط الحكومي يتحدد بدرجة خضوعه للمحترم جدا جريجورى . فان كان الوزير يطيعه فهو صالح للعمل ، وان لم يقدم له التبجيل فهو مشكوك فيه ومن الافضل التخلص منه . وما ان يتضح ان الوزير الذى اسديت له الحماية قد اخل بتعهده الشخصى امام حاميه ، حتى يحرم من دعم راسبوتين وبالتالى - تلقائيا تقريبا - من ثقة القيصر .

وعلى قاعدة هذه العلاقات المتبادلة تم فى سنى الحرب العالمية الاولى وحدها تعيين وعزل زهاء ٢٠ وزيرا وعدد من رؤساء مجلس الوزراء . ومن بينهم يمكن اعتبار شتورمير - رئيس الوزراء القيصرى ما قبل الاخير واحد اكثر عملاء راسبوتين مثابرة - نموذجا للارتقاء السريع نحو القمة والسقوط الجامح بالسرعة ذاتها . وكان ماناسيفيتش-مانويلوف وهو شخص غامض تماما حلقة الوصل بينهما . وفى اثناء ترؤس شتورمير للوزارة كان يأخذه معه الى راسبوتين ليقدم التقارير عن مجرى الامور . وكان راسبوتين فى وقت من الاوقات يميل كثيرا الى شتورمير بالرغم من انه كان يتحدث عنه بلهجة لا تخلو من الازدراء . كان يقول للمحيطين به : «لقد عينت هذا الالمانى على مضض ، وانا لا ارتاح له . انه مراوغ كبير . ولكن ثمة شىء حسن ، وهو انه لا يستطيع الافلات منى . وقد قلت له هكذا : احكم ، ولكن علىّ ان ارى ليس ما تفعله فحسب ، وانما ما تفكر فيه ايضا» . وكان يسمى شتورمير «الشيخ الهرم» تهكما به . ولقاء حماية راسبوتين كان رئيس الوزراء يقدم له خدمات تصل الى مستوى الخنوع المذل : كان ينفذ دون ادنى اعتراض رغباته فيما يخص التعيينات والمكافآت وتخصيص الاعانات من خزينة الدولة ومنح الامتيازات والعفو والاعفاءات من الخدمة العسكرية . كما كان يمرر فى مجلس الوزراء القرارات التى يوصى بها راسبوتين (خدمة لمصالح «اسياده») . وبعد ما تسلم شتورمير منصبه اصدر قبل كل شىء امرا لدائرة

البوليس بشأن تامين الحماية الشخصية لراسبوتين كما لو كان واحدا من العائلة الامبراطورية * .

الا ان شتورمير الذى اسكرته نشوة السلطة فقد الحذر تجاه محسنه وحتى انه اثار ذات مرة سخطه . ففي شقة المطران بيتيريم ، التى قاد اليها ماناسيفيتش-مانويلوف المذنب شتورمير ، حصل مشهد مسرحى . عندما اختلى راسبوتين برئيس الوزراء فى الغرفة المجاورة دوى صراخ : «انت لا تستطيع الوقوف ضدى ! . . اعمل حسابك لكى لا ارفع يدى عنك ، والا ستحل عندها نهايتك !» . وقد ادلى ماناسيفيتش لاحقا بهذه الشهادة : «بعد ان غادر شتورمير الشقة سالت راسبوتين : لماذا يا جريجورى يفيموفيتش كنتم تصرخون فى وجهه ؟ فاجابنى : «ان الشيخ الهرم يخرج على طاعتى . . . يجب عليه ان يسير خلفى كما لو وضعت سلسلة فى رقبته ، والا فسأكسر له رقبته» .

لقد لقن راسبوتين هذا «الدرس» لرئيس مجلس الوزراء بعد عشرة ايام فقط من تعيينه .

يتضح من ملفات لجنة التحقيق الاستثنائية الخاصة بجرائم القيصرية ان ما لفت انتباه المحققين على وجه الخصوص حضور القيصر الذى لا سابق له الى مراسم افتتاح دورة مجلس الدوما عام ١٩١٦ (لم ينعم على الدوما بزيارته فى السابق بتاتا) . واراد المحققون معرفة ما اذا كان القيصر قد ذهب الى الدوما بايعاز من راسبوتين حقا ؟ يقول شتورمير انه عرف حينذاك عن طريق التقارير السرية لعملاء البوليس بان الزيارة السامية للدوما كانت بطلب من راسبوتين الذى «بعث» بالقيصر الى هناك . قال راسبوتين بحضور احد المخبرين السريين : «سأعمل هكذا ، سأبعث بالقيصر الى الدوما . . . ليذهب وليفتح (الدورة — **المؤلف**) ، ولن يجرؤ احد على الاعتراض على شىء» . ويشهد ماناسيفيتش-مانويلوف : «كنت فى تلك الايام عند راسبوتين وقلت

---

* حافظت على سلامة راسبوتين اربع جهات (كل جهة على انفراد) : رجال المباحث ، البوليس العام ، بوليس القيصر ، والحراسة الشخصية الخاصة التى نظمتها مجموعة من الصيارفة على رأسها روبينشتاين .

له : «يقولون ان لكم تأثيرا كافيا حتى لاجبار القيصر على الظهور فى الدوما» . فأخذ راسبوتين يقطع الغرفة ذهابا وايابا ثم قال : «نعم ، سأقوم بذلك على الارجح ، وسيذهب ابونا القيصر الى الدوما . . . فقل انت للشيخ الهرم (شتورمير - **المؤلف**) ان هناك مثل هذه الفكرة وان من المحتمل حضور القيصر الى الدوما . . .» .

يحاول البعض التقليل من دور راسبوتين فى جرائم القيصرية وذلك عن طريق الحجج الزاعمة ان «العلة لم تكن فى راسبوتين ، وانما فى الفساد» ، وكأن هاتين الظاهرتين منفصلتان . وهم يستندون الى كلام شولجين الذى قال انه «لم يكن هناك راسبوتين ، بل كان هناك فجور» ، وانه لم يكن الجميع يأخذون خرابيش راسبوتين على محمل الجد ، وانه لو جاء راسبوتين اليه (الى شولجين) «لقذفه» من على درجات السلم ! وكأن القضية هنا لا تتعلق بدور راسبوتين وانما بسفالة الاوساط الحاكمة فى بطرسبورج . وقد كرر شولجين هذا الرأى فى احد اللقاءات مع مؤلف هذا الكتاب عام ١٩٧٥ ، ولكن مع تدقيق واحد : «. . . كان وجها الشر متداخلين - فقد كنا نحن انفسنا سافلين ، واستطاع راسبوتين الاكثر سفالة منا ان يستخلص لنفسه من ترهلنا قوة وسلطة» . واضاف شولجين بان راسبوتين كان يحتل بلا شك «مواقع قوية» ، والا لما شرع يوسوبوف وبوريشكيفيتش فى القضاء عليه (وشولجين نفسه حاول ثنى بوريشكيفيتش عن هذا العمل لعدم جدواه بالمرة - «ما الفائدة من قتل الثعبان بعد ان لدغ») .

ليس مهما فى هذا السياق ان خط «السافل» راسبوتين كان كالخرابيش وليس خطا انيقا مزخرفا . . . ولا يدل على اى شىء تصريح شولجين الصارم عن انه كان بامكانه «قذف» راسبوتين من على درجات السلم لو «جاء» اليه - قبل كل شىء لان راسبوتين لم يتردد اليه بالمرة لكونه يعرف بعدائه نحوه ، كما ان شولجين لم يتردد الى خصومه الذين يمكن ان يصيبه مكروه منهم .

لم يكن شولجين الشخص الوحيد الذى «لم يتردد» اليه راسبوتين ، فهو حتى ليلة مقتله لم يتردد ابدا ، على سبيل المثال ، الى قصر يوسوبوف الذى كان يشك فى نواياه . وقد تطلب الامر مجموعة كاملة من المتآمرين وخطة خاصة وضعت من قبلهم ، لكى

يتم بمكيدة اعدت بدقة استدراج راسبوتين الى هذا القصر * . على اية حال ، فان تبجح شولجين بصرامته تجاه راسبوتين لا يوفر لنا اى شيء لفهم مسألة قوة او عدم قوة راسبوتين .

يدعى البعض ان تأثير راسبوتين فى شؤون الادارة العليا فى الامبراطورية «مبالغ فيه» ، وان وظيفته «المرسومة بدقة» فى حضرة القيصر كانت «ممارسة الهراء الصوفى» . ومن المستبعد ان يتفق مثل هذا الادعاء سواء مع الحقائق والوثائق التاريخية التى ورد بعضها هنا ، او ، بالاخص ، مع التحليل العميق والاستنتاجات المبدئية من مثل ما اورده لينين من مواد وثائقية واقعية لا تدحض .

وضع لينين فى مؤلفاته كلا من نيقولاى الثانى وراسبوتين فى خانة واحدة ووصفهما على نحو واحد باعتبارهما شريكين فى الفكر ومسؤولين عن الكثير من مصائب وعذابات الشعب بملايينه العديدة .

روسيا القديمة عند لينين هى ديار نيقولاى وراسبوتين .

اما السلطة العليا فى روسيا القيصرية فهى «عصابة للتافهين ، انصاف العاقلين ، على شاكلة رومانوف وراسبوتين . . .» ** .

وعند الحديث عن السياسة الخارجية للحكم المطلق تساءل لينين : من هم اركان هذا الحكم ؟ واجاب : «القيصر ، وراسبوتين والعصابة القيصرية بالطبع» *** .

وفى «رسائل من بعيد» فضح لينين بشدة «وقاحة ودعارة العصابة القيصرية وعلى رأسها المسخ راسبوتين . . .» **** .

كان لينين يشير الى ان راسبوتين «اذ يستغل حماية القيصر شخصيا او اقربائه» ***** يدوس على كل شيء ، وعلى القوانين ايا كانت .

---

* حذرت السلطات راسبوتين من الخطر عدة مرات . واوصاه وزير الداخلية بروتوبوبوف بصريح العبارة بضرورة اخذ الحيطة من يوسوبوف .

** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٥ ، ص ١١٧ .

*** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣١ ، ص ٢٩٧ .

**** لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٦ ، ص ٢٦٤ ، دار «التقدم» .

***** لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢١ ، ص ١٧٨ .

وكتب لينين ان الثورة «عرت ثم عزلت **نيقولاى الثانى وشركته** (راسبوتين)» * .

فما هو العام بين هذا التعريف اللينينى «للغــول راسبوتين» بصفته شريكا من نوع خاص للقيصر يقف الى جانبه فى دفـــــة الحكم ، وبين صورة مهرج القصر – البهلول ، البرئ نسبيــــا والمكلف بالقيام لدى القيصر بممارسة الهراء الصوفى ؟

لا يتسم بالمغالاة مطلقا التقييم اللينينى لراسبوتين باعتباره واحدا من ابرز عناصر البطانة القيصرية المجرمة المتنفذة التى كان يتزعمها ويقف ، كما قال لينين ، «على رأسها» .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣١ ، ص ٤٨٠ .

الفصل الثامن

قبيل المجزرة العالمية

الهزيمة المشينة

بعد ما انهى ولى العهد نيقولاى دورته التعليمية فى البيت قدم الفحوص النهائية امام والده - وهو ممتحن ليس على درجة عالية من التعلم ، ولكنه صارم - فحصل فى الحال على مكافأة تشجيعية : صدر امر ملكى بالتهيؤ لرحلة الى رحاب الدنيا الواسعة .

وضع تحت تصرف «السائح» البالغ من العمر ٢٢ سنة الطراد «ذكرى آزوف» العائد الى اسطول البلطيق . ورافقه فى الرحلة ولى العهد اليونانى جيورج (جورجى) وعدد من ضباط الحرس الشباب ، من بينهم الامير اوبولينسكى والامير كوتشوبى من حرس الفرسان ، وفولكوف من الخيالة القيصرية . وعين لقيادة الرحلة الاميران بارياتينسكى واوختومسكى . وكانت اليابان هى المحطة الاخيرة للرحلة .

واجتازوا منذ اكتوبر عام ١٨٩٠ وحتى ابريل عام ١٨٩١ البحار والمحيطات حتى بلغوا اليابان بأمان . الا ان حادثا وقع فى مدينة اوتسو اليابانية بتاريخ ٢٣ ابريل وضع حدا للرحلة : عند مرور عربة ولى العهد الروسى فى موكب احتفالى عبر الازقة الضيقة انطلق فجأة من بين صفوف رجال الامن اليابانيين رجل البوليس ساندزو تسودا واستل سيفه من غمده موجها ضربة الى راس نيقولاى . الا ان السيف حاد جانبا وافلح اليونانى جيورج فى ابعاد الضربة التالية . ولم يكن من نصيب نيقولاى سوى جرح بسيط وحالة رعب قصيرة . هنا انتهت الرحلة الاستطلاعية حول العالم . وبعد ما رفض نيقولاى زيارة طوكيو (رغم طلبات السفير الروسى فى اليابان) اسرع معصوب الرأس عبر كيوتو الى ظهر سفينته ، وما لبث ان ظهر هناك امبراطور اليابان شخصيا ليقدم له الاعتذار عما حصل . وبعد مدة قصيرة عاد الطراد «ذكرى آزوف» بركابه الى سواحل الوطن بمرافقة عمارة من السفن الحربية المدرعة استدعيت من فلاديفوستوك .

اشار بعض المعاصرين الى ان ضربة السيف هذه تركت ندبة لا فى يافوخ ولى العهد فحسب ، وانما فى نفسه ايضا . وهذا ما اتضح لاحقا بعد ان اصبح امبراطورا . كتب فيته : «عندما تولى نيقولاى العرش لم يستطع التعامل مع اليابانيين بود تام . . . فقد احتفظ بتصور عن اليابانيين كأمة مكروهة ، تافهة وضعيفة ، يمكن القضاء عليها بنقرة اصبع واحدة من قبل العملاق الروسى . . .» . وعلى قاعدة هذا التحامل الاعمى الممزوج بالاستخفاف الارعن كان من السهل على اولئك الذين يتربصون اغتنام المنافع ان يلعبوا لعبتهم .

اريد لبذور التحريض المنشورة فى مثل هذه التربة ان تعطى ثمارها الخبيثة . كما دفع الامبراطور الالمانى ولهيلم القيصر الروسى الى الاصطدام باليابان وذلك عن طريق الاقاويل حول ضعفها وضآلة قدراتها . وفى الوقت ذاته كان ولهيلم (من خلال ممثليه الدبلوماسيين) يلهب حماسة طوكيو بالاطراء على الديناميكية اليابانية ، وبالمديح لامبراطورية الشمس المشرقة ، وبالتأكيدات حول هشاشة «المارد الروسى ذى الساقين الخزفيين» ، وكذلك بالاتفاقات السرية حول المساعدة الالمانية لليابان بالسلاح والخبراء العسكريين والمعلومات التجسسية .

يؤكد الامبراطور الالمانى للقيصر رغبته فى المساعدة قدر الامكان فى قضية التصدى «للخطر الاصفر» المنطلق من اليابان والصين . ويؤكد لامبراطور اليابان وحاكم بكين تعاطفه مع فكرة ازاحة الروس عن الشرق الاقصى ، ان لم يكن حتى موسكو فالى بحيرة بايكال على اية حال ، وحتى تشيتا فى اسوأ الاحتمالات . ووراء هذه الفكرة هدف بعيد : توريط الجيش الروسى فى نزاع بمنطقة الشرق الاقصى ، واجباره على تخفيف اجراءات حماية الحدود الغربية للبلاد وفى الوقت نفسه تصعيد الضغط الالمانى على هذه الحدود وبالتالى فرض شروط على روسيا بخصوص علاقاتها الاقتصادية والسياسية اللاحقة بالرايخ من شأنها ان تفتح امامه الطريق نحو الهيمنة فى اوربا .

لم تكن هناك حاجة لتوفير ظرف ما خاص للقيام بخطوات دبلوماسية فى هذا الاتجاه . فقد استخدمت جميع الفرص المتاحة . فمثلا ، زار الامبراطور الالمانى روسيا وحل ضيفا فى قصر

بيترجوف ، وعندما كان يتجول سوية مع القيصر بعربة مكشوفة في المتنزه ، بادر الضيف فجأة بطرح سؤال على مضيفه : هل سيعترض القيصر اذا ما احتل الاسطول الحربي الالماني الميناء الصيني تسينداو ؟

نيقولاي ضد ذلك ، ولكنه اخذ على حين غرة ولم يستطع ان يجد ما يجيب به على الفور . الا انه احاط مساعديه علما بالسؤال الخبيث . وتمخضت عن هذه الواقعة عواقب جدية . فقد دخلت السفن الالمانية خليج تسينداو وانزلت الجيوش الالمانية هناك . واوحى الامبراطور الالماني عبر سفيره في طوكيو الى اليابانيين ان نيقولاي الثاني نفسه اقترح عليه «التحرك سوية في اعماق آسيا» ونصح الالمان بـ«التقدم بخطوة تالية بعد تسينداو» وفي الوقت نفسه «التحضير لازالة العقبة اليابانية» بالاشتراك مع روسيا .

لاحت آفاق التنشيط الحاد لسياسة اليابان وتحضيراتها العسكرية ضد روسيا ، وهو ما كان يسعى اليه ولهيلم . بلا شك ان «احد الدوافع الى ذلك قدمه الامبراطور ولهيلم باحتلاله تسينداو» ، كما يعتقد فيته . فقد حاول بجميع الطرق «زجنا في المغامرات بالشرق الاقصى . . . وسعى الى توجيه كل قوانا نحو الشرق الاقصى . . . وهو ما استطاع بلوغه تماما» .

منذ امد بعيد ، اثبتت الدراسات التي قام بها المؤرخان السوفييتيان رومانوف وايروساليمسكي ان الامبراطور الالماني ، بكل بساطة ، كان يكذب حينما حدث اليابانيين عن اتفاقه مع القيصر . وفي الحقيقة لم يعط نيقولاي في بيترجوف ولا في اي مكان آخر موافقته على الغزو الالماني للصين عامة ، وعلى احتلال تسينداو خاصة . ولاغراض استفزازية اختلق ولهيلم رواية كاذبة عن وجود اتفاقية روسية-المانية بشأن الشرق الاقصى لكي يدفع الامور نحو اندلاع نزاع في هذه المنطقة من العالم . وقد استخدم طائفة من الوسائل التي اشتهر بها : دبلوماسية البوارج والطرادات الحربية ، واجهزة العباءة والخنجر وكل الحالات الاخرى التي تخدم خططه بهذا القدر او ذاك . في الحقيقة ، التزم نيقولاي بعد هذه الواقعة جانب الحذر اكثر عند لقاءاته مع ولهيلم ، كما حصل مثلا اثناء لقائهما التالي في بوتسدام . بيد انه لم تدم طويلا جهود نيقولاي هذه وسرعان ما تغلب لديه التهور الذاتي .

سبقت اندلاع الحرب مباحثات روسية-يابانية طويلة . وفى ذلك الوقت ، حين تعثرت بشدة هذه المباحثات وغدا واضحا ان اليابانيين ، بالرغم من تنازل بطرسبورج ، يميلون الى القطيعة ، سافر القيصر والقيصرة لزيارة اقربائهما فى دارمشتادت . ودون اعتبار لخطر اندلاع الحرب الذى خيم على البلاد اصطحب القيصر معه قادة الدائرتين الحربية والخارجية (من بينهم وزير الخارجية لامزدورف) وكذلك مجموعة من الجنرالات العاملين فى مكتبه العسكرى السيار (يشبه اركانا عليا متنقلة) . تحل هذه المجموعة من المرافقين فى قصر الدوق الكبير (شقيق القيصرة) . من منطقة جيسين الالمانية يحاول نيقولاى بمساعدتهم قيادة شؤون الامبراطورية عامة ، والاشراف خاصة على اعمال حاكمه العام فى الشرق الاقصى .

كان ظهور مركز السلطة الروسى فوق الاراضى الالمانية بمثابة هبة من السماء بالنسبة لولهيلم ، الذى جند فى تلك الايام كل قواه من اجل توريط روسيا فى نزاع مسلح فى الشرق الاقصى . فقد كان يجرى كل يوم امام انظار رجال مخابراته واركانه العامة سيل المعلومات السرية من والى الشرق . وفى قصر الدوق المكتظ بجواسيس الامبراطور الالمانى (وفى مقدمتهم صاحب الدعوة المضياف) كان ضباط القيصر يعالجون يوما بيوم وثائق القيادة ويصدرون الاوامر والتعليمات ، ويفكون رموز شفرات التقارير والبرقيات الواردة من بطرسبورج وخاربين وبورت-ارثر . ومن يوم لآخر كان خبراء الشفرات الالمان يضعون فوق مكتب الامبراطور الالمانى نسخا من الملتقطات . فكان ولهيلم على علم بجميع التحركات والمناورات التى تفكر الحكومة القيصرية فى القيام بها فى الشرق الاقصى ، بما فى ذلك التنقلات والتحضيرات الحربية للقوات المسلحة . واضحت جميع مراسلات نيقولاى الثانى ككتاب مفتوح امام الامبراطور ولهيلم .

لقد ثبت ان ولهيلم كان ينقل المعلومات المسروقة من دارمشتادت (على اقل تقدير – جزئيا) الى الاركان العامة اليابانية . جن جنون فيته عندما عرف بهذا «الاهمال الفظيع» لدى الجماعة التى حطت ركابها فى قصر الدوق ارنست . وسأل فيته وزير البلاط فريديريكس الذى وصل بطرسبورج قادما من دارمشتادت ، كيف

استطاع بلا اكتراث غض النظر عن مثل هذا الموقف الاجرامى ازاء مصالح امن الدولة ؟ فاعترض فريديريكس انه لفت انتباه صاحب الجلالة الامبراطور الى خطورة احتمال تسرب والتقاط الاخبار ، الا ان جلالته لم يرغب فى تغيير اى شىء . وظل دون جواب ايضا التحذير المماثل الذى قدمه فيته الى الوزير لامزدورف .

شهد المعاصرون على ان روسيا برمتها ذاقت عام ١٩٠٤ مرارة الخسائر التى سببها الهجوم اليابانى المفاجئ الغادر . وغصت قلوب الناس البسطاء بالكثير من الغضب والاستياء . وتذمر الشرفاء فى روسيا من تصرف الحكومة القيصرية - من مغامرتها وجشعها وعماها وضيق افقها وغبائها - التى حكمت على البلاد بالشلل امام الخطر الخارجى المحدق . لقد لف الحزن الشديد السكان من جراء نبأ الكارثة فى مكلأ بورت-ارثر . وحاولت جماعة المئة السود عبثا فى تلك الايام القيام بمظاهرة موالية للملكية ، فلم يخرج احد تقريبا . ولوحظ غياب الحماسة فى الشوارع ، ولم تكن ملحوظة كثيرا فى القصر ايضا . غير ان صاحب التاج ذاته سجل نفسه مسبقا فى عداد المنتصرين .

اما الى اى مدى اعاقه الاعتداد الزائد بالنفس عن ادراك حجم الخطر فيتضح من واقع انه قبل شهر واحد فقط من الانفجارات فى بورت-ارثر ، فى اثناء حفلة الاستقبال بمناسبة عيد رأس السنة ، تبسم القيصر بسخرية وازدراء للسفير اليابانى وقال بالفرنسية : «ستصل اليابان بالامور الى الحد الذى سيثير غضبى» .

لم يكن القيصر يتوقع ما سيحل من فواجع بالبلاد ، الى حد انه عندما سأله احد النبلاء : ماذا سنعمل الآن بعد الاجتياح الليلى وتحطيم الاسطول فى مكلأ بورت-ارثر ، انتفض القيصر وقال باستخفاف : عليكم ان تعرفوا بانى اعتبر كل ما حصل كعضة برغوث .

ان ما اطلق عليه نيقولاى ، بهذه الدرجة من الاستهانة ، عضة برغوث استحال الى حرب دموية مديدة استمرت تسعة عشر شهرا وخسر فيها الجيش الروسى ٤٠٠ الف شخص من القتلى والجرحى والمعوقين والاسرى : كلفت الحرب روسيا مليارين ونصف المليار من الروبلات الذهبية كنفقات حربية مباشرة ، ما عدا الخمسمائة

مليون روبل التى خسرتها روسيا على شكل اموال سيطرت عليها اليابان وسفن حربية وتجارية غارقة .

وضعت معاهدة بورتسموث السلمية حدا للحرب . وسجلت هذه المعاهدة النتائج والتطورات التى اعتبرتها الصحافة الغربية فى تلك الايام بفخر «ظاهرة الشرق الاقصى» و«المعجزة اليابانية» . لم تكن هناك فى الحقيقة اية معجزة . فقد عرف سر فتح الصندوق دون عناء نسبيا .

لقد جعلت الامبريالية الالمانية كتفها جسرا لتعبر من خلاله العسكرية اليابانية نحو منصة انتصارها فى منشوريا . . . وليست المانيا وحدها فى هذا المجال .

ففى الفترة من ابريل عام ١٩٠٤ وحتى يوليو عام ١٩٠٥ حصلت اليابان على اربعة قروض من المانيا وانجلترا والولايات المتحدة الامريكية بمبلغ اجمالى وصل الى نصف مليار دولار ، وهو ما غطى زهاء نصف نفقاتها الحربية . وادى هنا السلاح الالمانى والانجليزى والمستشارون العسكريون الغربيون دورا ليس اقل من ذلك ، ان لم يكن اكبر . فقد أمن الرايخ الالمانى لليابانيين مساعدات عسكرية متعددة الجوانب قبل حادثة بورت-ارثر بعشر سنوات على الاقل .

الجيش اليابانى ، الذى انزل عام ١٩٠٤ فى البر الاسيوى ، انشىء ودرب عمليا على ايدى الضباط الالمان . وتمت تحت اشرافهم ايضا مضاعفة هذا الجيش ثلاث مرات فى الفترة من عام ١٨٩٦ حتى عام ١٩٠٣ . والاسطول البحرى اليابانى ، الذى اصطف عشية ٢٧ مايو عام ١٩٠٥ ، فى مضيق تسوسيما من اجل مواجهة اسطول روجيستفينسكى ، ساعد فى بنائه وتسليحه بناة السفن والادميرالات الالمان والانجليز . فبمساعدة هذين البلدين المادية-التكنيكية وباستشارات خبرائهما زادت السعة التحميلية لهذا الاسطول فى خلال السنوات الثمانى نفسها اربع مرات ونصف المرة . وبالنتيجة ، عندما نشبت الحرب فى الشرق الاقصى ، وقفت ضد الاسطول الروسى فى المحيط الهادى البالغ عددها ٦٩ سفينة قديمة ١٦٨ سفينة حربية يابانية من احدث طراز .

اما الشىء الذى لم يبخل الرايخ طبعا فى تقديمه لاتباعه اليابانيين فهو خبرة تنظيم عمل الاجهزة السرية وبيع وشراء الخدمات

التجسسية . وفى كثير من الحالات كانت هذه الخدمات مجانية وقائمة على اساس التبادل الودى . ومئـــات الجواسيس اليابانيين الذين ترعرعوا فى كنف المخابرات الالمانية والبريطانية كانوا يعملون فى مؤخرة الجيش الروسى ، فى بطرسبورج وموسكو والمـــدن الكبيرة الاخرى ، ويتابعون اجراءات القيادة الروسيـــة وتحركات الجيوش ووضع الصناعة الحربية ، ويرسلون المعلومات التى يحصلون عليها الى المركـــز فى طوكيو . وفى الوقت ذاتـــه كانت برلين تشاطر اليابانيين المعلومات السريـــة الواردة من الموالين لالمانيـــا فى بطرسبورج . وهكذا ، ففى الوقت الذى كانت فيه ادارة نيقولاى الثانى لا تعير اهتماما لابسط الاستعدادات اللازمـة لصد الهجوم اليابانى المحتمل معتمدة على القضاء والقدر وعلى الاعتقاد بامكانية «دحر اليابانيين بالعصى» ، كان الخصم يتابع بشكل دقيـــق جدا الآلية الروسية العسكرية والاقتصاديـــة ، واستطاع ان يكشف مسبقا ثغراتها ومفاصلها الضعيفـــة ، واضحى منذ الايام الاولى للنزاع قادرا على انزال الضربات الماحقة بالجيش الروسى .

كتب لينين فى يناير عام ١٩٠٥ فى مقالـــه «سقوط بورت-ارثر» : «لقد اتضـح ان الجنرالات والقادة العسكريين بلداء وبدت البيروقراطية المدنية والعسكرية طفيلية ومأجورة ، كما كانت عليه فى زمن نظام القنانة . وتبين ان الضباط جاهلون ، قليلو الثقافة ، غير معدين ، ليست لهم صلـــة وثيقـــة بالجنود ولا يحظون بثقتهم . . . وتعرت بهرجة الجبروت العسكرى للحكم المطلق فى روسيا . وغدا واضحا ان القيصرية عقبة تقف فى وجه التنظيـــم العسكرى المعاصر على مستوى يستجيب لاحدث المتطلبـــات» . وتوصل لينين الى هذا الاستنتاج : «ان الذى اصيب بهزيمة مشينة هو الحكم المطلق وليس الشعب الروسى» * .

بورتسموث

لا يجوز القول ان نيقولاى لم يكترث بمجرى الحرب ونتائجها . فقد كف عن قراءة التقارير والاخبار فى مكتبه ، واخذ يجوب دروب الامبراطورية متفقدا حالة الجيوش . وحيثما حلّ كان يفتش القطعات

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، ص ١٥٥-١٥٨ .

العسكرية المتجهة الى الشرق الاقصى ويلقي الخطب التوجيهية امامها ، ويباركها ، ويوزع الايقونات الصغيرة والصلبان على الضباط والجنود ، ويشارك فى مراسم تدشين السفن الحربية الجديدة . وقد علق آنذاك الجنرال دراجوميروف بسخرية لاذعة قائلا : «نضرب اليابانيين بايقونات قديسينا ، اما هم فيلقموننا قذائف وقنابل . . . نحن نوجه لصدورهم الايقونات ، اما هم فيوجهون لصدورنا الرصاص» . انت تواجهه بالانجيل ، وهو يواجهك بالرصاص . . . يا لها من حرب رائعة !

لم يكن صاحب الجلالة غير مبال ، ولكن لم يعذبه القلق ايضا ، ناهيكم عن اليأس . وقد بلغه نبأ سقوط بورت-ارثر وهو فى محطة بارانوفيتشى اثناء تجواله . وعندما حل المساء دوّن فى دفتر يومياته : «انه لخبر صاعق جاءنا من ستيسّل حول تسليم بورت-ارثر لليابانيين بسبب الخسائر الضخمة وتفشى المرض فى الحامية ونفاد العتاد تماما . انه لحدث صعب ومؤلم ، ولو انه كان متوقعا ، عسى ان يستطيع الجيش استرداد القلعة . فقد قاتل المدافعون عنها ببطولة وعملوا كل ما يجب عمله . وهذا يعنى ان ارادة الله وراء ذلك» .

وصل من بطرسبورج نبأ اغراق سفينة القيادة المدرعة «بيتروبافلوفسك» . وكان على ريدزيفسكى ، الذى شغل موقتا منصب وزير البلاط ، ان يبلغ القيصر بهذا الحادث الفاجع . حددت الساعة الثالثة للقاء رسميا بالقيصر . ساور القلق ريدزيفسكى وفكر فى ما سيكون عليه الحال عندما سيخبر القيصر بالحادث . وفجأة يصل رسول من قصر الشتاء ويعلن الغاء اللقاء . تنفس ريدزيفسكى الصعداء – لقد مرت ولو مؤقتا . لم يمض وقت طويل حتى اعلن الرسول ثانية : سيجرى اللقاء فى الساعة المحددة .

تحدث ريدزيفسكى بعدئذ عن هذا اللقاء : جئت الى القيصر فتبين انه كان مشغولا بحضور القداس المقام على روح الادميرال ماكاروف . قلت بينى وبين نفسى لقد حصل الأسوأ . وانتظرت حتى انتهاء مراسم القداس . عاد القيصر من الكنيسة مرتديا البدلة العسكرية البحرية وشرع يصافحنى بانشراح ثم سحبنى من يدى الى مكتبه محدقا الىّ مشيرا الى النوافذ التى كانت تتهاوى خلفها حبيبات الثلج المندوفة :

– يا له من طقس لطيف ! انه يصلح تماما للصيد ، ونحن واياكم لم نخرج للصيد منذ امد بعيد ، واليوم كما اعتقد هو يوم الجمعة ، فهل عندكم رغبة فى الخروج للصيد غدا ؟

امتقع وجه ريدزيفسكي امتعاضا وتمتم بكلمات غير مفهومة وعجل بالخروج . وعند هبوطه السلالم رأى مشهدا فى الساحة من بعيد : يقف القيصر عند النافذة ، يمتشق بندقيته موجها فوهتها نحو سرب الغربان السود الذى كان يغطى السماء الشتوية القاتمة .

وهذه مقتطفات من تسجيلات القيصر فى ايام تسوسيما (المعركة التى جرت فى ١٤ (٢٧) مايو) :

١٦ مايو . ركبت الحصان ، تجولت على القارب . بدأت تصل اليوم شتى الاخبار المتضاربة عن معركة قواتنا البحرية مع الاسطول اليابانى . وكلها تتحدث عن خسائرنا ، وتتميز بالصمت المطبق ازاء الاضرار التى لحقت باليابانيين . وهذا ما يؤلم الفؤاد بفظاعة . تناولت اولغا وبيتيا وكيريل طعام الغداء .

١٧ مايو . ما زالت الاخبار المؤلمة والمتضاربة تصل عن المعركة الخاسرة نسبيا فى مضيق تسوسيما . تجولنا لوحدنا نحن الاثنين . كان الطقس حارا بشكل عجيب . شربنا الشاى وتغدينا فى الشرفة .

١٨ مايو . الطقس مدهش . تناول سيرجى فطوره . جاء ميخائيل ليودعنا لانه سيسافر غدا الى برلين لحضور حفلة زفاف الاميرولى العهد . قمت بجولة شيقة على ظهر الحصان . . . تناولنا طعام الغداء فى الشرفة وتجولنا فى بافلوفسك .

١٩ مايو . الآن تأكد تماما خبر تحطيم سفننا البحرية كلها تقريبا فى خلال يومين من المعارك . وروجيستفينسكى نفسه جرح ، ووقع فى الاسر . كان الجو هذا اليوم رائعا ، الامر الذى زاد فى ضيق النفس . فطر بيتيا . تجولنا على ظهور الخيل .

٢٠ مايو . كان الجو حارا جدا . سمع فى الصباح صوت الرعد من بعيد . فطرت ناريشكينا . استقبلت تريبوف . تجولت قليلا ثم تنزهت على ظهر القارب الصغير .

كان بامكان روسيا الا تخسر الحرب فى عامى ١٩٠٤–١٩٠٥ . فبصرف النظر عن جميع الاخفاقات والتراجعات ، وبالرغم ايضا عما حصل فى تسوسيما ووافانجو وموكدن ، فقد ظلت القدرة العسكرية والاقتصادية الروسية حتى نهاية الحرب تفوق كثيرا نظيرتها اليابانية . ووصل الخصم الى حالة النهك والعياء .

احتفلت الامبريالية اليابانية بانتصاراتها وهى شاحبة من جراء ما نزفت من دماء . وبلغت حالتها الفعلية – مع مراعاة التصاعد السريع للاستياء الثورى فى البلاد – حدا جعلها تتوجه ، بعد عدة ايام من معركة تسوسيما ، الى الرئيس الامريكى تيودور روزفلت ترجوه ان يأخذ على عاتقه مهمة الوساطة السلمية . وافق روزفلت وطلب بالتلغراف من السفير الامريكى فى بطرسبورج ان ينظم لقاء بالقيصر وان يحاول اقناعه بعدم جدوى مواصلة النزاع لاى من الطرفين المتحاربين ، فهو ، على العكس ، يهدد كليهما بمضاعفات داخلية خطرة ، وبان السلام ضرورى على نحو خاص بالنسبة لروسيا التى تهزها الاضطرابات والتمردات .

فى ٢٥ مايو (٧ يونيو) استقبل نيقولاى الثانى السفير الامريكى واخبره بانه موافق على اجراء المفاوضات مع اليابانيين . وفى اليوم التالى توجه روزفلت رسميا الى الحكومتين الروسية واليابانية باقتراح الدخول فى مفاوضات حول وقف الحرب والتوقيع على معاهدة سلام . وافقت الحكومتان كلتاهما على الاقتراح : انطلقت الحكومة الروسية من مسوغات الرئيس الامريكى لضرورة توجيه الجهود نحو قمع الثورة ، وانطلقت الحكومة اليابانية من وعيها لعجزها الفعلى عن مواصلة الصراع ضد روسيا بالاضافة الى خوفها الكامن ايضا من نمو المزاج الثورى لدى الجماهير التى اخذت تدرك اكثر فاكثر تعارض هذه الحرب مع المصالح الحقيقية للشغيلة سواء فى اليابان او فى روسيا . اختيرت بلدة بورتسموث الامريكية مكانا لاجراء المفاوضات .

اريد لعملية السلام ان تكون جسرا نحو خنق الثورة الروسية . بيد انه حصل العكس : كانت عملية السلام جسرا نحو انتفاضات ثورية جديدة ، وتصعيد لاحق لاستياء الجماهير الشعبية المتذمرة من مغامرة الشرق الاقصى . وتميز الوضع فى روسيا بالاضافة الى ذلك بانخراط جماهير الجنود فى الاحداث اوسع فاوسع . يعود الجيش الروسى من الشرق الى وسط البلاد متذمرا من جراء عار الهزائم التى قاده اليها جنرالات القيصر . ونقل الجنود عدوى مزاجهم هذا الى صفوف السكان . والعكس بالعكس ، حيث جرى تحت تأثير نهوض الحركة العمالية فى البلاد تصاعد المزاج الثورى لدى الجنود .

كانت السلطات تريد عودة الجيش وتخشى منهـا . لقد كانت الاوساط الحاكمة فى القصر تنظر الى هذه القضية من منظارين . بودها توجيه القوات ضد الشعب لتقمع الثورة بالحراب . ولكن من بين هذه الاوساط ذاتها ترتفع اصوات تحذر من عودة الجيش الى وسط البلاد . وكان كثير مـن الضباط الذين قادوا القوافـل العسكرية العائدة من الشرق غير واثقين بانهم سيجدون فى وسط روسيا الوضع القديم نفسه . بعد ان عاد الامير فاسيلتشيكوف مع فوجه الى بطرسبورج اثر توقيع معاهدة السلام تحدث الى نيقولاى الثانى قائلا انه «حتى وصوله الى مدينـة تشيلابينسك لم يكن يعرف بالضبط ما الذى يجرى فى البلاد» ، وكان يعتقد بانه «لن يرى فيها العائلة القيصرية التى اشيـع انهـا هربت الى خارج الحدود» . وبالنسبة لرئيس الوزراء فيته واعضاء حكومتـه كان الامير «يتوقع رؤيتهم معلقين على اعواد المشانق» . ولكن صلـح بورتسموث عقد لكى يتم تلافى مثل هذه الاحداث بالذات . وفيته الذى مهر المعاهدة بتوقيعه اكد فيما بعد انه لولا صلح بورتسموث لكان بالامكان حدوث كوارث خارجية وداخلية من شأنها ان تطيح بأسرة رومانوف عن العرش .

كانت معاهدة بورتسموث ترمز الى تثبيت الوجـود الامبريالى اليابانى على البر الاسيوى . فبمضى شهرين ونصف على توقيعهـا فرضت الحكومة اليابانية على كوريا معاهدة الحماية ، وبعد خمس سنوات ، فى عام ١٩١٠ ، ضمت كوريا الى قوام الامبراطوريـة اليابانية . وانتقل الى سيادة اليابان شبه جزيرة كوانتون مع مينائى بورت-ارثر ودالنى ، والفرع الجنوبى من السكة الحديد الصينيـة الشرقية وكذلك نصف جزيرة ساخالين الروسية (الى الجنوب مـن خط العرض الخمسين) .

بيد ان اليابان ليست وحدها التى خرجت من الحرب بغنيمة . فقد اخرج الكستناء من موقد الشرق الاقصى بايدى الغير الامبراطور الالمانى ولهيلم الثانى ايضا . فهو كان يعول على الانهاك المديـد لروسيا فى هذه الحرب . ولم يخطئ فى حساباته : فمن جراء الحرب التى انهكت حقا قوى روسيا ولسنوات عديدة ، اضحت المانيا ، كما يرى فيته ، «الرابحة اكثر من الجميع» . ففى ٢٨ يوليو عام ١٩٠٤ ، وبناء على أمر مباشر من القيصر وقع فيته فى برلين ، دون

اية تحفظات ، اتفاقية تجارية جديدة مع المانيا ، او بالادق على ملحق اضافى للمعاهدة الروسية-الالمانية بشأن التجارة والملاحة البحرية لعام ١٨٩٤ . وبموجب هذه الاتفاقية رفع الالمان بشدة الرسوم على الشعير والجودار الروسيين . اما مقادير الضرائب على البضائع الالمانية المستوردة فظلت كما فى السابق على مستوى واطئ الى اقصى حد . خفضت الرسوم على اخشاب الخام المستوردة من روسيا الى المانيا ، ولكنها زادت بالنسبة للمصنوعات الخشبية الروسية . وعموما ، تفاقم اكثر من السابق وضع روسيا كمورد للخامات الطبيعية . كانت الاتفاقية تنفح بتطلع التوسعيين الالمان الى الابقاء على روسيا كمورد للخامات الرخيصة التى تحتاجها الصناعة الالمانية ، وكذلك الاحتفاظ بها كسوق مفتوحة على مصراعيها ، وغير محمية بالحواجز الجمركية لتصريف البضائع الصناعية الالمانية .

ولم يكن ذلك سوى جائزة واحدة فقط من تلك التى قلد ولهيلم نفسه بها لقاء نجاح مكائده التحريضية فى الشرق الاقصى . فهو اذ استطاع دفع بطرسبورج وطوكيو الى الصدام اكتسب منافع فى هذا الجانب او ذاك .

ابتداء من ربيع عام ١٩٠٤ اخذ مركز فيرجبولوفو يزود الامبراطور الالمانى بشكل منتظم ، من خلال ايلينبرج ، بالمعلومات عن الانكشاف الفعلى للحدود الغربية الروسية التى فقدت غطاءها العسكرى السابق من جراء نقل الوحدات العسكرية الى منطقة الشرق الاقصى . ومصير هذه الوحدات هو ضياع قسم منها فى المعارك (٤٠٠ الف قتيل وجريح واسير) ، وتسريح قسم آخر فى الشرق الاقصى وسيبيريا بعد ان وزعت على جنوده قطع الاراضى . اما الافواج التى كانت محط ثقة اكثر من غيرها ، وفى مقدمتها افواج القوزاق ، فقد وزعت على المحافظات الداخلية واوكلت لها مهمة مساعدة السلطات فى اخضاع السكان . وعلى هذا النحو اضحى الدفاع عن الحدود الغربية ضعيفا لعدة سنوات قادمة .

استغلت الامبراطورية الالمانية فرصة دخول روسيا واليابان فى صراع مسلح ، فثبتت اقدامها دون عوائق ذات شأن فى رأس الجسر الذى استولت عليه فى عام ١٨٩٨ ، والذى فتح امامها الطريق الى التغلغل الامبريالى اللاحق فى الصين . وعجل

الستراتيجيون البحريون الالمان ، وعلى رأسهم تيربيتس ، فى عامى ١٩٠٤–١٩٠٥ فى اعادة تجهيــز تسينداو وتزويدهــا بالمعدات باعتبارها القاعدة الرئيسية لاسطولهـــم الحربى فى شرق آسيا . وبالمناسبة ، لم يتمكن الالمان من الاحتفاظ طويلا بهذه القاعدة . لم يتركهم تلامذتهم اليابانيون يخلدون الى الراحة هناك كثيرا . ففى ٢٣ اغسطس عام ١٩١٤ اعلنت اليابان ، بعد انضمامهـــا لدول الائتلاف ، الحرب على المانيا واحتلت تسينداو ومجموعة من جزر المحيط الهادى . لقد كان حريق الشرق الاقصى فى عامى ١٩٠٤–١٩٠٥ بمثابة المقدمة للمذبحة العالميــة فى اعوام ١٩١٤–١٩١٨ . فبعد مضى تسعة اعوام خرج جنرالات الامبراطور الالمانى فى حملة «من اجل تأمين المجال الحيوى» .

طلقتان عند الجسر اللاتينى فى ساراجيفو

فى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٦ (٢٩) يونيو عام ١٩١٤ صعد المراســـل الخاص سكوراتـــوف الى متن اليخت القيصرى «شتاندارت» المرابط عند ساحل خانكو ، وبعد ان اخذ موافقـــة الادميرال نيلوف تقدم من الطاولة التى جلس خلفها القيصر والقيصرة ووصيفتها فيروبوفا يلعبون بالورق . اخذ القيصر الظرف من يـد سكوراتوف وفتحه . ما ان لمح برقيتين داخله حتى نهض وسار برفقة نيلوف الى مقصورته الخاصة على ظهر المركب مشيرا بايماء الى السيدتين لتتبعانه .

وحتى المساء لم يظهر اى من الثلاثة على سطح اليخت . استدار اليخت استدارة حادة عن خانكو باتجاه البحر ، وبسرعة قصوى سار صوب كرونشتادت .

تضمنت البرقيتان التى جاء بهما سكوراتوف اخبارا فى غايـــة الاهمية . اكدت احداهما النبأ الذى وصـــل الى اليخت فى اليوم السابق ولكن بشكل مشوش : فى ١٥ (٢٨) يونيو قتل برصاص مسدس فى مدينة ساراجيفو فى البوسنة ولى العهد النمساوى-المجرى فرانتس فرديناند وعقيلته صوفى فون هوهينبيرج . وكان الزوجان قد عرجا على ساراجيفو بعد انتهاء المناورات التى قام بها الجيش

النمساوى فى اراضى البوسنة المحتلة القريبة من حدود الصرب . وتم القاء القبض على القاتل * .

ولم يكن الخبر الثانى اقل مدعاة لقلق القيصر والقيصرة من الخبر الاول . قبل يوم واحد من حادث ساراجيفو طعن راسبوتين فى قرية بوكروفسكويه بسيبيريا بسكين فى بطنه وجرح جرحا بليغا . حدث ذلك عند مروره بشارع القرية محاطا بجمهرة النساء المتدينات . وقامت بالهجوم عليه فيونيا جوسيفا التى كانت فى السابق احدى مريداته ورفيقته فى سفره وتجواله على الاديرة . اخذ الفلاحون يطاردونها فى القرية ، ولكنها لم تستسلم لهم ، وكانت تصرخ : «لا بد ان اقتل عدو المسيح هذا» . وحاولت ايضا ان تنتحر بالسكين ذاتها . . .

فى المساء وصل اليخت «شتاندارت» الى بيترجوف بعد ان اطفئت الانوار فيه من دون ان يمر على كرونشتادت . وفى القصر الكبير ، انزوت فى الحال الكسندرا فيودوروفنا مع وصيفتها فى جناحها الفخم وهى تكاد لا تقوى على كبت انينها ودموعها . وقد بدا للخدم فى الوهلة الاولى انها حزينة على مقتل فرانتس فرديناند ، الا انهم ادركوا بعدئذ انها تبكى على ما حدث لراسبوتين .

فى الثانى من اغسطس عام ١٩١٤ ، بعد خمسة وثلاثين يوما من صعود المراسل الخاص الى متن اليخت «شتاندارت» وتسليمه الظرف للقيصر ، اعلن نيقولاى الثانى رسميا فى قصر الشتاء وبحضور جمهرة من وجهاء البلد ، ان المانيا فرضت على روسيا الحرب . مضت عدة ايام واذاع القيصر الاعلان ذاته امام اعيان موسكو المجتمعين فى قاعة جيورجى فى قصر الكرملين الكبير .

لا علاقة بين حادثتى ساراجيفو وبوكروفسكويه من حيث

---

* دوت الطلقتان عند مدخل الجسر اللاتينى من جهة الكورنيش . فقد اطلق الصربى غافريلو برينتسيب من الرصيف وسط الجمهور رصاصتين على الزوجين اللذين مرا على مهل فى سيارة مكشوفة وارداهما قتيلين فى الحال . كان موكب ولى العهد ، خلافا للتقاليد المتعارف عليها ، يسير من دون اى حرس ، الامر الذى يثير كثيرا من الشكوك : فالبوليس كان يعرف على نحو رائع بالتوتر الخطر فى المدينة . وكانت المناورات فى البوسنة وقدوم فرانتس فرديناند الى ساراجيفو يحملان طابعا استفزازيا صارخا .

المصدر . والصلة الوحيدة بينهما هي وقوعهما في وقت واحد تقريبا . ورغم ذلك . . .

قال راسبوتين فيما بعد انه لو لم يقع ما فعلته به الملعونة فيونيا لما وقعت الحرب . وكان هو على الدوام ضد الخصومة مع «البلد القيصري المانيا» ، وسبق له ان كبح جماح نيقولاى الثانى من الاصطدام بها ولكبحه فى ذلك الصيف ايضا لو لم يصب بجرح فى حينها . لا لكونه ضد الحرب عموما ، بل لانه كان يدعو الى تحالف النظامين الملكيين ، ويقف ضد الثورة عموما ، ويعتقد بانه يمكن التنازل الى الامبراطور الالمانى من اجل مثل هذا التحالف .

اعد الحرب العالمية الاولى الامبرياليون جميعهم . غير ان الامبرياليين الالمان المتعطشين الى اعادة تقسيم العالم جذريا لصالحهم كانوا اكثرهم عدوانية . كتب لينين ان «البرجوازية الالمانية اذ روجت الحكايات حول الحرب الدفاعية من جانبها ، اختارت عمليا اكثر الفرص ملاءمة ، من وجهة نظرها ، للحرب ، مستخدمة آخر ما لديها من التكنيك الحربى المتطور ومتداركة الاسلحة الجديدة التى كانت روسيا وفرنسا قد قررتا التزود بها» * .

لقد ارادت المانيا القيصرية الحرب فاشعلتها . واندفعت الاركان العامة فى برلين الى معركة شاملة يدفعها الغرور بالفرق فى الوسائل العسكرية المتوفرة لدى الطرفين ، او على الاصح ، لتفوقها المادى-التقنى على جيوش الخصم ، وقبل كل شيء روسيا .

يشرح سكرتير ديوان القصر للشؤون الخارجية فون ياجوف فى رسالته الى السفير الالمانى فى لندن ، المؤرخة فى يوليو عام ١٩١٤ ، الاسباب التى تدعو المانيا الى استغلال حادث ساراجيفو لاغراض الهجوم . فهو يؤكد ان «روسيا غير مهيأة فى الوقت الحاضر لخوض الحرب . وفرنسا وانجلترا ايضا غير راغبتين حاليا فى دخول الحرب» . واشار الى ان الخلل فى ميزان القوى موقت ، وانه سيتغير حتما . النتيجة : توجيه ضربة قاضية للخصم ذى الاستعداد الضعيف او السيئ .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ١٦ .

والى هذا الاستنتاج وصل ولهيلم الثانى وفرانتس فرديناند فى اثناء لقائهما عشيـــة الحرب فى كونوبيشت ، اذ قرر كلا طرفى المؤامرة الانتقال من لغة الانذارات الى لغة المدافع .

بغض النظر عن النزوة الذاتية للشاب الصربـى فان الجواب واضح تماما عن هذا السؤال : من الذى كان ينتظر بفارغ الصبر هذا الحادث ، وفى خدمة من يصب ما حدث ؟

تصور التعليقات الالمانية على الحادث ان ولهيلم الثانى عندما سمع بطلقتى ساراجيفو رفع يديه مرعوبا الى السماء متوسلا الى العلى القدير ان يجنبه عواقبهما الخطرة . ووضع باول زيته لمقاله هذا العنوان : «الامبراطور يخشى الحرب ، انه لا يريدها» .

منذ ان وضع حد فى بورتسمـوث ، فى سبتمبـر عام ١٩٠٥ ، للنزاع الروسى-اليابانى وحتى يونيو عام ١٩١٤ انقضت زهاء تسع سنوات . وهى حقبة ليست طويلة جدا ، الا انهـــا ليست قصيرة ايضا . وفى خلال حقبة اقل منها استطاعـت بلدان خسرت الحرب ان تعيد تنظيم وسائلها الدفاعية وتستأنف بناء الحواجز الضرورية على حدودها . ولكن القيام بمثـل هذه المهمـــة بدا بالنسبـــــة لامبراطورية رومانوف فوق طاقتها .

وبالرغم من اتضاح تنامى الخطر الالمانـــى ، بقيت المقدرة الحربية للقوات المسلحة الروسية واستعدادها للقتال دون الحـد المطلوب . فلم يطرأ اى تطور جوهرى فى وضع الماكنة العسكرية القيصرية التى اعطى لها لينين وصفا عميقا وماحقا فى عام ١٩٠٥ بعد سقوط بورت-ارثر .

قبل اسبوعين من بداية الحرب العالمية استقبـــل نيقولاى الثانى فى مقره الرئيس الفرنسى بوانكاره واكد له استعداده التام لخوض المعركة – مثلما حصل تقريبا قبـــل هذا بمدة قصيرة فى كونوبيشت حين تبادل ولهيلم وفرانتس فردينانــد مثـــل هذه التأكيدات .

ولكن عندما اندلع لهيب الحرب تردد نيقولاى رومانوف برهة فى اتخاذ القرار . ربما صعقته الصورة الغامضة لخاتمة ذلك الدرب الذى دفعه اليه ولهيلم وبوانكاره . فبعد ان اصدر الامر بالتعبئة العسكرية ، غير رأيه وطلب بالهاتف من رئيس الاركان العامـــة يانوشكيفيتش ايقاف الاجراءات المتخذة ، وذلك تحت تأثير برقية

التهديد التى بعثها اليه ولهيلم الثانى . بيد ان هذا التوقف لم يدم طويلا ، وتحت ضغط العسكريين استؤنف العمل بأمر التعبئة .

مرت اسابيع معدودة وعرفت روسيا بالمصرع الفاجع للجنرال سامسونوف . ومرت اشهر معدودات وعرفت البلاد ايضا بالانسحاب الاضطرارى للفرق الروسية بعد ما ظلت دون عتاد ، وكانت احتلت لفوف ، وحررت جاليتسيا ، ودفعت بالخصم الى اعماق بروسيـــا الشرقية ، وحطمت الجيش النمساوى عند بيريميشـــل . وبحلول صيف عام ١٩١٥ اتضح ان القوات الروسية المنسحبة بسبب نقص العتاد تركت خلفها فى سوح القتال زهاء نصف مدفعيتهـا وخسرت اكثر من مليون شخص بين قتيل وجريح .

الفصل التاسع

الحرب

القارة الاوربية وسط النار

اندلع الصراع المسلح الذى ستنهار فى خلاله اربع امبراطوريات – الروسية والالمانية والنمساوية-المجرية والعثمانية .

ما ان خرج بورتاليس من مكتب سازونوف ، بعد ان وضع على طاولته مذكرة بشأن اعلان الحرب ، حتى اخذ دولاب الاحداث الحربية يدور بسرعة قصوى . دار الحلزون الجهنمى ، الذى حطم ولهيلم الثانى عنه صمامات الامان ، متخذا طابعا اوربيا شاملا ثم عالميا . ولفت دائرة الحرب العالمية المتوهجة ، فى نهاية المطاف ، زهاء ثلاثين دولة فاق عدد سكانها على مليار ونصف مليار نسمة .

ومن بين ٢٩٠ فرقة عسكرية بعثت بها حكومات دول الائتلاف فى الاسابيع الاولى للحرب الى ميادين القتال الاوربية قدمت روسيا اكثر من نصف هذا العدد . ومن جراء الاخطاء فى الاستعداد والتسلح ، وكذلك بسبب البطء فى التمركز (نتيجة سوء وسائط النقل) اضطر الجيش الروسى الى دخول المعارك الاولى بجزء من قواه فقط . وبالاضافة الى ذلك ، قدر له منذ البداية ان يأخذ على عاتقه عبء الاغاثة المستمرة لحلفائه على امتداد فترة الاربعين شهرا التى شاركت خلالها روسيا فى الحرب العالمية الاولى .

ولكن بالرغم من كل الصعوبات حققت القوات المسلحة الروسية فى اثناء المعارك الاولى انتصارات وانزلت بالخصم عددا من الضربات الموجعة . وفى معركة جاليتسيا (اغسطس – سبتمبر عام ١٩١٤) الحقت اربعة جيوش روسية (الجبهة الجنوبية-الغربية) باربعة جيوش نمساوية-مجرية هزيمة كبرى ، واجبرت الخصم على التراجع العام بعد ما اخترقت الجبهة فى قطاع عريض . بيد ان

الجبهة الجنوبية-الغربية لم تستطع استغلال هذا الانتصار فى تحقيق نتائج استراتيجية وذلك لانها كانت تعانى نقصا فى قوات الاحتياط اللازمة – بالرغم من امر نيقولاى الثانـــى الذى يزعـــم ان هذه الاحتياطيات قدمت .

حينما كانت المعارك دائرة فى جاليتسيا ، كانت جيوش الحلفاء المنهكة تصد باستماتة هجوم الجيوش الالمانيـــة عند مشارف العاصمة الفرنسية ، على طول نهر مارنا . وخيم على باريس خطـــر مميت ، فكتـــب الرئيس بوانكاره رسالة الى القيصر نيقولاى يطلب مساعدته .

نزولا عند امر القيصر الشخصى دفعت القيادة العامة العليا عـــلى عجل بجيشين للهجوم على بروسيا الشرقية : جيش رينينكامف الاول وجيش سامسونوف الثانـــى . انتشر جيش سامسونوف على خط لومجا – ملاقا واندفع بجرأة الى الامام وذلـك بدعـــم من جيش رينينكامف الاول فى البداية . وفى منطقة بيركيندفيلد-اوهاو وجـه جيش سامسونوف ضربات ماحقة الى قلب وجناحى جيش بريتفيتس الثامن الالمانى المتقهقر امامه . بعد ما تحمـــل بريتفيتس خسائر فادحـــة وخلف وراءه كثيرا من المعدات كتب مذعورا الى القيادة الالمانية (فى كوبلينتس) بانـــه ينوى الانسحاب الى ما وراء نهر فيستولا ، ولكنه لا يعرف ما اذا كان سيستطيع الصمـود فى هذا الموقع الجديد او لا . عمت البلبلة المانيـــا بعد ما شاهدت فى دروبها طوابير النازحين من الشرق . وتلافيا لوقوع الكارثة سحب رئيس الاركان العامة الالمانية مولتكه من جبهة مارنا بفرنســـا فيلقين وفرقة خيالة واحدة وحشد فيلقا ثالثا فى منطقة ميتس ، تم دفع بهذه القوات الى بروسيا الشرقية .

كان قائـد الجبهـة الشمالية-الغربية جيلينسكى يؤكـــــد لسامسونوف فى تلك الايام ان جيش رينينكامف الاول يواصـــل المشاركة فى الهجوم معززا الضغط على الخصم . اما فى الواقع ، فكان رينينكامف قد توقف وخرج من المعركة تاركا جناح الجيش الثانى الروسى مكشوفا ، وذلك فى لحظة حرجة من تقدم القوات الالمانية الجديدة من جهة الغرب . استغـــل هيندينبورج المعين خلفـــا لبريتفيتس الثغرة التى فتحت على حين غـرة فانقض عـلى الجيش

الثانى بعد ان انهكته الهجمات واستنفد عتاده . وقع هذا الجيش فى الكماشة ودمر تدميرا كاملا .

الا ان الحلفاء استطاعوا تحسين وضعهم . فالجيش الالمانـــى الذى ضعف بنتيجة سحب قسم من وحداته الضاربة نحو الشرق اوقف عند نهر مارنا ، ثم ازيح الى الخلف . وفى المحصلة النهائية صمد الحلفاء فى الجبهة . تمكن الفرنسى جوفر من قصم ظهر جيش الالمانى كلوك عند ضفاف نهر مارنا . ولكن ما كان لهذا النصر ان يتحقق لولا سامسونوف الذى «ادمى» ، حسب تعبيره ، بريتفيتس خلف فيستولا .

دفع آلاف الجنود من الجيش الثانـــى الذى خانه رينينكامف دماءهم وارواحهم لقاء «معجزة نهر مارنا» ، ووقع معهم ضحية للخيانة ذاتها قائد هذا الجيش الكسندر سامسونوف ، الذى انتحر فى ٣٠ اغسطس عام ١٩١٤ فى منطقـــة العمليات قرب سولداو . وكان رينينكامف قبل ذلك بيومين قد هرب الى فيلنا تاركا قواته .

توقع الجميع ان يحيل نيقولاى الثانى هذا الخائف الهارب الى محكمة عسكرية . الا ان ذلك لم يحصل . وظل رينينكامف فى الجبهة بعض الوقت فى منصب قيادى هام . ولكن جرى فيما بعد ما يشبه التحقيق معه ، ولكنه لم يسفر عن اية نتيجة : فقد وافقت القيصرة على استقباله رسميا وتحدثت معه بلطف ظاهر ، ممـــا جعـــل السلطات القضائية عمليا عاجزة عن اتخاذ الاجراءات ضده .

واصلت السلطة السوفييتية ، بعد مجيئها ، التحقيـــــق حتى النهاية مع رينينكامف . ذكرت الجنرال بمسؤوليته عن الحملات الانتقامية التى قادها ضد الثائرين عام ١٩٠٥ ، بالاضافة الى خيانته على جبهة بروسيا الشرقية عام ١٩١٤ . وبناء على قرار المحكمـــة الثورية اعدم فى عام ١٩١٨ رميا بالرصاص .

فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩١٤ دخل الجيش الروسى معركة وارشو - ايفانجورود التى توجت بهزيمة كبرى للخصـــم وبانسحابـــه الى الغرب . ٢٢ مارس ١٩١٥ استسلمت قلعة بيريميشل المحاصرة وتم اسر ١٢٠ الفا من جنود العدو والاستيلاء على ٩٠٠ مدفع . واعتبارا من ذلك الربيع بدأ مركز ثقل الصراع ينتقل اكثر فاكثر نحو الشرق حيث كانت روسيا تواجه ١٢٠ فرقة من اصل ٢٦٨ فرقة فى حوزة التحالف الالمانى . خططت القيادة الالمانية لاحراز انتصارات حاسمة

بواسطة هجومها الصيفي في الشرق بعد تأكدها من ان نيقولاى الثانى اخذ يتخبط من جهة الى اخرى ويبدد قواه مكيفا اياها في الغالب وفقا لحاجات حلفائه العسكرية والسياسية .

استطاع الخصم اختراق الجبهة عند منطقة جورليتسا في بولونيا . لم تستطع روح الصمود لدى الجنود الروس التعويض عن نقص العتاد وقلة وسائل النقل والمواصلات وضعف جهاز الاستطلاع واخطاء القيادة ، فشرعوا بالانسحاب الواسع تحت نيران المدفعية الالمانية : لم يكن لديهم ما يردون به على العدو ، اذ لم يخصص للمدفع الواحد سوى ثلاث قذائف في اليوم . في ٢٢ يونيو سقطت مدينة لفوف . ورغم ما ابداه الجيش الروسي من مقاومة عنيدة اضطر في خلال يونيو - يوليو الى التخلي عن منطقة جاليتسيا وجزء من منطقة البلطيق . وفي ٢٢ اغسطس سقطت قلعة كوفنو التي تركها الجنرالان الهاربان الى المؤخرة جريجوريف وميلير-زاكوميلسكي المسؤولان عن حمايتها . وفي نهاية الصيف اصبح تحت الاحتلال الالماني كل ما يسمى ببولونيا الروسية . وبدا للجنرالات الالمان انه لم يبق الا بذل بعض الجهد ويتم اخراج القوات الروسية الرئيسية من المعركة . غير ان هذا الهدف ، كما تبين ، لم يكن قابلا للتحقيق . ان الجيش الروسى المقاوم لم يسمح للعدو بتطويقه ، وحافظ على قواه الحية ، واستطاع تثبيت اقدامه عند الخط الدفاعي دفينسك - بينسك - تارنوبول - تشيرنوفيتسى ، حيث تم له ايقاف الهجوم النمساوى-الالمانى هناك .

كشفت اخفاقات صيف عام ١٩١٥ لشعوب روسيا بشكل جلي على وجه خاص ان القيصرية عاجزة عن تأمين حماية فعالة للبلاد وانها تضحى بالجيش من اجل مصالح دول الائتلاف الامبريالية وتقود الامور نحو الكارثة . وظل دون عقاب اولئك المسؤولون عن الانهيارات والنقص في القذائف ، وكذلك اعوان العدو المتسترون والمكشوفون ، العاملون في مقار القيادات وفي الوزارات . ولم يقص احد عن منصبه غير وزير الحربية سوخوملينوف (في ١١ يونيو عام ١٩١٥) . ولكن بعد وقت قصير من هذا ، وفي احلك ايام الهزائم المرة ، عين نيقولاى الثانى في مناصب عسكرية رفيعة وجوها اخرى معروفة بميلها الى المانيا ، من بينها ايفيرت - قائدا

للجبهة الغربية وفون بليفه – قائدا للجبهة الشمالية-الغربية .
وفى هذه الفترة من المحن العصيبة بالنسبة للجيش الروسى لم يقدم الحلفاء الغربيون تقريبا اى شيء من شأنـــه تخفيف اعباء روسيا ، حتى ولو تعويضا عما قامت به من اجلهم . ومرة اخرى اتضح ان الحلفاء مشغولون اكثر بقضاياهم الخاصة ، وان مصاعب الجيش الروسى قلما تعنيهم ، وان ما يهمهم ، على نحو اساسى ، هو ان يستطيع هذا الجيش بذل كل قواه فى سبيل اشغال العدو المشترك وشل حركته . وبالفعل ، فبالرغم من جدية انسحابات ربيع وصيف عام ١٩١٥ ، فقد وفر الجيش الروسى بمقاومتـــه العنيدة الفرصة للقيادة الغربية لكى تتجاوز الازمة الخطرة من جراء الهجمات الالمانية الاولى بالغازات على ايبر ، حين فر من المواقع الامامية الآلاف من جنود الحلفاء هربـــا من الغازات السامـــة . واستثمرت قيادة الحلفاء الهجمات الروسية المضادة لتحسين مواقعها فى فلاندريا ، وشامبان وارتوا . وبعد ما حصل الحلفاء على فترة لالتقاط الانفاس ، استخدموها فى الحال لكـى يسدوا النقص فى الذخيرة الحربية ، ويعززوا مدفعيتهم الثقيلة ، وليسحبوا وحدات عسكرية من مستعمراتهم ، ولكى يشتروا من الولايات المتحدة ثم ينقلوا عبر المحيط كمية كبيرة من العتاد الحربى .
اراد الحلفاء الغربيون ، وخاصـــــة انجلترا ، خوض الاعمال العسكرية حتى النصر . الا ان الامر مختلف الى حد ما بالنسبة لعناصر معينة فى الاوساط الرفيعة لكل من بيتروجراد وبرلين ، فثمة اناس يبدون اولى علائم «التبرم» من حالـــة الخصام بين الامبراطوريتين . لقد اوحت الاشهر الثمانية الاولى للحرب الدموية – بلغت خسائر كل طرف فى خلال هذه الفترة فقط حتى المليون شخص من القتلى والجرحى – لعدد مـــن الشخصيات المقربـــة للقيصر الروسى وللامبراطور الالمانـــى بفكرة عدم فائدة هذه الحرب لاى مـــن الطرفين .
تعود الى ربيع وصيف عام ١٩١٥ الخطوات الاولى لجماعـــة راسبوتين المعشعشة فى القصر ، والتى كانت ترمى الى اقامة صلات سرية مع الحكومة الالمانية . واتخذ الالمان مثـــل هذه الخطوات ايضا . وجرت عملية جس نبض متبادل لامكانيـــة عقد صلح منفرد . اجاب ولهيلم بـ«نعم غير مشروطة» ردا على المذكرة السرية

التى رفعها له فاليكنهاين مستفسرا عن مدى تحبيذ المفاوضات مع روسيا حول الصلح .

الحساب فى ازدياد

تحمل الجنود البسطاء عذابات هائلة وقدموا ما لا يحصى من الضحايا فى لهيب الحرب المستعر احيانا والخامد احيانا اخرى . وتكمن مأساة هذه العذابات فى ان الجنود لم يكونوا يعرفون من اجل ماذا يحاربون ، وان غايات ومصالح «القيادة» و«الاسياد» فى هذه الحرب كانت غريبة عنهم وغير مفهومة لديهم .

كتب الجنرال بروسيلوف يقول : «كم من المرات سألت الجنود فى الخنادق لماذا تحارب ، فكنت اتلقى حتما وعلى الدوام جوابا يقول بان احدا ما قُتل مع زوجته فى مكان ما على يد احد ما . . . وهذا معناه ان الناس اقتيدوا الى المذبحة دون ان يدركوا لماذا . . . اى بنزوة من القيصر . . . ان جيوشنا المدربة والمتمسكة بالانضباط العسكرى دخلت المعارك مذعنة ، ولكن لم يجر بالمرة رفع معنوياتها ، ولم تكن تدرك ابدا ما تعنيه هذه الحرب» .

ما من شك ان التعاطف مع الصرب كان شديدا فى روسيا . فقد كان لجسامة المصائب التى ألمت بالسلافيين الجنوبيين صداها فى قلب كل روسى . واثارت الاستياء قساوة عدوان الامبرياليين النمساويين-الالمانيين الذين نووا «خنق» الشعب الصربى الصغير «دون استخدام القفاز المخملى» ، كما تبجح المستشار الالمانى بوقاحة حينذاك .

بيد ان المعين الرئيسى لشعور التضامن لدى الشعب الروسى مع الصرب هو ما كتب عنه آنذاك لينين : من بين جميع الدول المتحاربة كان الصربيون وحدهم الذين يقاتلون من اجل وجودهم القومى ، وفى بلاد الصرب وحدها كانت هناك حركة تحرر وطنى مديدة تضم فى صفوفها الملايين ، كان الدفاع ضد هجوم النمسا استمرارا لها . والى جانب ذلك اشار لينين الى ان هذا الجانب لا ينطوى على اهمية جدية فى الحرب الاوربية الشاملة ، وان افكار النضال التحررى تنطبق فقط على نضال الصرب ، اى على زهاء

«واحد بالمائة من المشاركين . . . فى الحرب . . . اما بالنسبة الى ٩٩ بالمائة فكانت الحرب استمرارا للسياسة الامبريالية . . .» * .

ان الجندى الروسى ، الذى بعثه القيصر الى سوح المعارك الدانية والقاصية ، كان فى كل مكان وفى اعقد الاوضاع يحارب بما عرف عنه من بسالة وصمود . ولكنه بجمهرته لم يستطع ان يعرف بعد (ربما كان يخمن جزئيا فقط) انه حينما كان اصحاب السلطة يجبون منه ضريبة الدم باسم تعاقدهم مع دول الائتلاف ، كان البعض منهم يحوك فى زوايا القصر شباك المؤامرة لحساب المانيا ، وهو على استعداد لبيع حلفائه والجيش الروسى ايضا للامبراطور الالمانى .

كان اللولب المحرك لهذه المكائد خوف نيقولاى الثانى وبطانته من الثورة . ففضلا عن الذكريات الاليمة بالنسبة لهم ، المرتبطة بهزات عام ١٩٠٥ ، كانوا ينظرون بقلق ايضا الى العديد من احداث السنوات الاخيرة التى سبقت الحرب .

كانت تلك اعوام النهوض الثورى الجديد فى روسيا . فالطبقة العاملة التى نظمها وألهم نضالها حزب البلاشفة ، اخذت ترفع صوتها اعلى فاعلى معلنة حقوقها ومطاليبها . وشملت اضرابات الاحتجاج على مذبحة نهر لينا ، التى عمت البلاد فى ابريل عام ١٩١٢ ، زهاء ٣٠٠ الف شخص . ودشن الاول من مايو عام ١٩١٢ موجة اشد فى نضالات البروليتاريا : ففى هذا اليوم وحده جرى اكثر من الف اضراب عن العمل فى ٥٠ محافظة ، وهذا يفوق ما حصل فى الاول من مايو عام ١٩٠٥ . جاء فى «تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى» : «غدت احداث نهر لينا دافعا لتحول المزاج الثورى للجماهير الى هجوم جماهيرى ضد القيصرية والرأسماليين . . . ومن الآن يحدد حجم وطابع الحركة الاضرابية تطور النهوض الثورى عموما . الا ان ذلك لا يعنى العودة الى عام ١٩٠٥ . فالتاريخ لا يعيد نفسه . بدأ عام ١٩٠٥ بمسيرة الى «جلالته القيصر» . اما اضرابات ابريل - مايو عام ١٩١٢ فقد اعلنت : «لتسقط الحكومة القيصرية !» . وهذا الشعار طرحه الحزب البلشفى» .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٦ ، ص ٢٩ ، ٢٤٠-٢٤١ .

وفيما بعد لوحظ تعزز نفوذ حزب البلاشفة بين جماهير الشغيلة فى كل مكان . وفى عام ١٩١٣ غطى نشاط المنظمات البلشفية جميع مناطق البلاد الصناعية الرئيسية ، حيث جرت نضالات العمال ، كقاعدة عامة ، تحت قيادة البلاشفة وبمبادرة منهم . وقد اشار تقرير اعدته دائرة البوليس القيصرى بعنوان «حول الوضع الراهن فى حزب العمال الاشتراكى-الديمقراطى فى روسيا» ، الى ان : «العنصر والمنظمات والاشخاص الملتفين حول لينين هم العنصر الاكثر حيوية ونشاطا وقدرة على النضال العنيد والمقاومة والتنظيم الدائم . . . والمنظمة الوحيدة ، من بين جميع المنظمات الثورية الموجودة فى روسيا وخارجها ، التى استطاعت رص صفوفها وتثبيت شعاراتها وصلاتها بما فيه الكفاية . . . — هى المجموعة البلشفية لحزب العمال الاشتراكى-الديمقراطى فى روسيا» .

وحسب تعبير لينين ، كانت البلاد آنذاك تعيش «حالة **حرب اهلية** سيئة التمويه . . . الحكومة لا تدير شؤون البلاد ، بل تحارب» * .

اتسم الوضع تلك الاعوام بكون وزير الداخلية ماكلاكوف رفع رسالة الى نيقولاى الثانى حول «امزجة العاملين فى المعامل والمصانع» طرح فيها خطة لاعلان العاصمة منطقة ذات حماية استثنائية بهدف قمع «الفتنة» الوشيكة . ووافق نيقولاى الثانى على هذه الخطة ، الا ان اعتراض رئيس الحكومة كوكوفتسوف اعاق تحقيقها . اما مدى قلق الحكومة القيصرية من جراء الوضع عشية الحرب العالمية الاولى فيبينه واقع ان العدد الاجمالى للمضربين فى روسيا حتى صيف عام ١٩١٤ فاق مستوى عام ١٩٠٥ . ففى ٧ يونيو ، يوم وصول الرئيس الفرنسى بوانكاره الى بطرسبورج لاجراء مباحثات مع نيقولاى الثانى ، توقفت عن العمل فى العاصمة جميع المعامل والمصانع ، واغلقت المحلات وتعطلت حركة الترام ، وذلك من جراء الاضراب الذى اشترك فيه ١٣٠ الف شخص . وسارت فى المدينة طوابير المتظاهرين رافعة الاعلام الحمراء ومنشدة الاغانى الثورية . وجرت صدامات بين العمال والبوليس . وظهرت فى بطرسبورج المتاريس لاول مرة بعد عام ١٩٠٥ .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٥ ، ص ٦٥ .

واجتاحت موجة الانتفاضات الثورية فى تلك الايام مدن البلاد الاخرى : اعلن الاضراب ٥٥ الف شخص فى موسكو ، و٥٤ الفا فى ريغا ، و٢٠ الفا فى وارشو ، و١٢ الفا فى كل من خاركوف وتفليس . قال عضو مجلس الدوما ، البلشفى بادايف فيما بعد : يمكن الافتراض انه «لو لم تقع الحرب ، لكان الهجوم النهائى على القيصرية هو المرحلة التالية التى حلت بسرعة بعد يونيو» .

غدا شغيلة روسيا اكثر حزما تحت راية الثورة الآتية . وعزز البلاشفة تلاحمهم فى الكفاح المشترك ضد العدو الطبقى . كتب لينين : «ان وقوع الثورة او عدم وقوعها امر **لا** يتوقف علينا فقط . ولكننا سنقوم بما يترتب علينا ، ولن يذهب هذا العمل سدى بالمرة . انه سيغرس عميقا فى الجماهير بذور الديمقراطية والاستقلال البروليتارى ، ولا بد وان تعطى هذه **البذور** نبتات ، سواء غدا فى الثورة الديمقراطية ، او بعد غد فى الثورة الاشتراكية» * .

ولوحظ فى الاعوام التى سبقت الحرب ايضا الاحتدام المتصاعد بسرعة للصراع الطبقى فى الريف (احدى عواقب اصلاح ستوليبين الزراعى) ، وكذلك تعمق المزاج الثورى فى الجيش (اضطرابات الجنود والبحارة) . واخذت جماهير روسيا الكادحة ، بقيادة الطبقة العاملة تنتقل اكثر فاكثر من طرح المطالب الجزئية الى الاعمال السياسية تحت شعار اسقاط النظام القيصرى المطلق .

بعد فترة ركود قصيرة فى النصف الثانى من عام ١٩١٤ ، استعر من جديد نضال الطبقة العاملة ضد نير القيصرية ، بالرغم من ظروف حالة الحرب . وجرى فى عام ١٩١٥ فى روسيا ١٠٦٣ اضرابا ، اى اكثر بخمسة عشر ضعفا مما فى الاشهر الستة الاولى من الحرب . وارتفع عدد المضربين الى ٥٦٩ الفا ، اى بزيادة ١٥ مرة . جاء فى احد منشورات عمال مصانع النسيج فى ايفانوفو-فوزنيسينسك : «ان نموت خلف المتاريس فى سبيل السلم الدائم والحرية ، افضل من ان نموت من اجل اعدائنا» . وفى تلك الايام التى كان يوزع فيها هذا المنشور نظم البوليس مذبحة وحشية ضد بروليتاريا ايفانوفو-فوزنيسينسك راح فيها العشرات من القتلى والجرحى ضحية لحملة التنكيل التى قامت بها السلطات القيصرية فى شوارع المدينة .

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٢٢ ، ص ١٧٣ .

ولكن حتى اشد حملات الانتقام ضراوة لم تستطع اعاقة نهوض الكفاح الطبقى . ورغم نظام حالة الحرب ، كانت الازمة الثورية تنضج فى البلاد على نحو جامح . وقد جرت فى عامي ١٩١٥-١٩١٦ فعاليات جماهيرية فى المراكز الصناعية الكبرى ، وفى اهمها طبعا - بيتروجراد وموسكو . ومن هنا ، من مراكز الحركة العمالية امتد الاستياء الثورى فى سنى الحرب الى الريف (تحطيم وحرق املاك الاقطاعيين ، «انتفاضات القرويات» ، استباحة حقول ومزارع الملاكين) ، والى الاطراف القومية (انتفاضة كازاخستان) ، والى الجيش (تآخى الجنود مع المضربين والمتظاهرين ، الانتفاضات المعادية للحرب فى الحاميات والوحدات العسكرية وفى القوات الروسية المرابطة فى فرنسا واليونان) . تميزت نهاية عام ١٩١٦ بالنضال الحاد الذى خاضه الحزب من اجل اعداد الجماهير للثورة . كتب بلاشفة ايكاتيرينبورج فى احد منشوراتهم : «كفى صبرا ! حان الوقت لنضع بانفسنا نهاية لهذه الحرب العديمة المعنى» . وتوجه بلاشفة روستوف الى الشغيلة بنداء ورد فيه : «استعدوا للمعركة الحاسمة مع مضطهديكم» .

اجتاحت موجة من الاستياء والسخط الشعبى البلاد على نطاق واسع . وكانت موسكو وبيتروجراد ، طبعا ، مركزى العاصفة الداهمة . وتشكلت فى عاصمتى البلاد هاتين القوى الضاربة المحركة للثورة الزاحفة . وكانت هاتان المنطقتان ، اللتان تمركز فيهما اكثر من ٤٠ بالمائة من المجموع الكلى للطبقة العاملة الروسية ، بؤرتين لغالبية الاضرابات التى حدثت فى اعوام الحرب . فمدينة بيتروجراد وحدها اعطت ، حتى ديسمبر عام ١٩١٦ زهاء ٣٠ بالمائة من عدد المشاركين فى الاضرابات عموما و٧٥ بالمائة من المشاركين فى الاضرابات السياسية . لقد كانت الاضرابات والمظاهرات فى بيتروجراد التى اندلعت فى مطلع شهر يناير ١٩١٧ ، فى الذكرى الثانية عشرة ليوم الاحد الدامى (٩ يناير ١٩٠٥ - **المحرر**) ، بداية للاضطرابات الشعبية التى تحولت الى ثورة فبراير (شباط) .

كان نيقولاى الثانى يخشى اكثر ما يخشى من مثل خاتمة المطاف هذه بالذات : تحطيم سلطته وعرشه بضربة جديدة لا مثيل لها توجهها موجة ثورية-ديمقراطية جديدة . وبعد ان امَّن على

نفسه بـ«حلف مقدس» مع الرايخ الالماني ، كان يريد ، بضربة واحدة والى الابد ، «شل روسيا بحيث لا تستطيع العيش» . انه يتمسك بمثله الاعلى الذى ظل مخلصا له حتى النهاية على امتداد الاعوام الثلاثة والعشرين من حكمه ، وهو ان يرى روسيا راقدة رقود الموتى .

ان الرغبة المستمرة او الصريحة فى الصلح مع الامبراطور الالمانى باسم هذا المبدأ قد ترددت على شفاه مختلف شخصيات القصر ، ومنها على سبيل المثال :

اندرونيكوف ، امير : علينا الا ننسى ايها السادة عام ١٩٠٥ . بالنسبة لى من الافضل ان يقطع الالمان ذيلنا من ان يقطع فلاحونا راسنا .

راسبوتين : افضل المانيا على الثورة . . . يجب الا نخاطر بالصراع مع المانيا ، فهى قوية جدا بالنسبة لنا . بالاضافة الى انها لا تضمر لنا الا الخير .

بربيف ، احد زعماء الملكيين : التحالف الفرنسي-الروسى غلطة تعيسة ، كالصداقة بين الصقر والدب : واحد فى السماوات والآخر فى الغابات ، ولا يحتاج احدهما للآخر مطلقا . . . وكان من صالحنا اكثر عقد الصداقة مع الامبراطورية الالمانية – صداقة لا تتزعزع كالصخر ، كالحديد .

بوتكينا ، ابنة طبيب القيصر : قالوا فى القصر ان روسيا يجب الا تدخل ، باى حال من الاحوال ، فى صراع مع المانيا ، لان المانيا حصن للملكية . . . لهذا السبب ولاسباب اقتصادية ، علينا ان ندخل فى حلف معها .

موسولوف ، رئيس سابق لمكتب وزارة البلاط : كان فريديريكس يعتقد انه ينبغى لصالح مبدأ الملكية فى روسيا اقامة اوثق علاقات الصداقة مع المانيا . كانت بروسيا ، حسب رأيه ، آخر معقل للملكية والرجعية فى اوربا ، وهى ، فى هذه الحالة ، بحاجة الينا بقدر ما نحن بحاجة اليها . . . وقال لى فريديريكس ذات مرة ، لا فرنسا ، ولا حتى انجلترا لن تدافعا عن سلالتنا الملكية . انهما تعرفان مصير شمشون بعد ان قصت دليله شعره .

فوييكوف ، القومندان السابق للقصر الملكى : لقد جرمتنى السلطات الثورية لاننى ، فى اللحظة التى سمع فيها القيصر بنبأ قيام الثورة ، قلت له : «يا صاحب الجلالة ! لم يبق بعد الآن الا فتح جبهة مينسك امام الالمان . دع الجيوش الالمانية تدخل لتروض هؤلاء الاوغاد» .

كان الارستقراطيون من طينة اندرونيكوف والخدم من امثال فوييكوف يؤكدون بحزم : «لا تنسوا عام ١٩٠٥» . بيد ان الاحداث

التى وقعت فى مطلع القرن لم تعد معيارا . فحساب الشعب مع نيقولاى الثانى كان فى ازدياد منذ عام ١٩٠٥ حتى الآن . ففى خلال عامين ونصف العام فقط من الحرب تحمل الجيش الروسى خسائر بشرية تعادل ما خسرته جيوش الحلفاء مجتمعة .

لم يتصاعد الاحتجاج الشعبى ضد الحرب فى روسيا وحدها . لقد نما الاستياء ايضا فى بقاع اخرى من اوربا ، فى بلدان كلا الحلفين . غير ان المستقبل كان ينذر اسرة رومانوف بمصاعب خاصة .

الفصل العاشر

بين القصر ومقر القيادة

نقل مقر القيادة الى موجيليف

منذ خريف عام ١٩١٤ شرع القيصر يجوب انحاء البلاد ويتفقد منطقة الجبهة . قال قومندان القصر فيما بعد ان القطار الامبراطورى السماوى اللون قطع حتى فبراير عام ١٩١٧ (مع قطار الحاشية الذى كان يتبعه) اكثر من مائة الف كيلومتر .

كان خط سيره الرئيسى يمتد بين القصر ومقر القيادة العامة الذى كان فى عهد القائد العام الاعلى نيقولاى نيقولايفيتش يقع فى بارانوفيتشى . وقد ذهب القيصر الى هناك لاول مرة فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩١٤ . وأخفى قطاره فى حرش الحور المجاور على خط للسكك الحديدية مدد خصيصا .

كان القيصر يحضر الى مقر القيادة صباح كل يوم فى تمام الساعة العاشرة . وفى حضرة القائد العام الاعلى يقدم رئيس الاركان يانوشكيفيتش (او الجنرال دانيلوف) امام القيصر تقريرا عن الوضع فى الجبهات . وبمثل هذه المراعاة الدقيقة للوقت كان القيصر يحضر ايضا جلسات المجلس العسكرى التى كان يقودها عادة يانوشكيفيتش او الامير الكبير . وكان يحب ان يجلس جنبه القس شافيلسكى كبير قساوسة الجيش والاسطول فى روسيا .

كان القيصر يجلس فى هذه الاجتماعات بتواضع ملتزما الصمت فى الغالب . فهو يمتنع عن التدخل فى المناقشات ، ولا يعيق عمه الامير الكبير ، ويحرص على هيبته امام الجنرالات ، بحيث بدا بالقرب منهم وكأنه ضيف الشرف .

وبالمناسبة ، فقد كان عدم تدخل القيصر فى هذه الشؤون ظاهريا . كانت تدور خلف ظهر القائد العام الاعلى نيقولاى نيقولايفيتش لعبة فظيعة ، حيث كانت تحفر تحته حاشية البلاط التى يتزعمها راسبوتين وتلهمها القيصرة . ان نيقولاى نيقولايفيتش لا يروق للقيصرة بطبعه الجامح ولا بميله الواضح نحو دول الائتلاف ، ولا باحتقاره المتعمد لـ«حثالة المجتمع» الملتفة حولها .

كانت هناك كل المسوغات لان يضني الندم نيقولاى نيقولايفيتش . فهو بالذات الذى مكن قبل عشر سنوات الافاق السيبيرى راسبوتين من النفاذ الى القصر القيصرى . يقول باليولوج انه منذ الايام الاولى لظهور راسبوتين فى بطرسبورج «كان الاميران الكبيران نيقولاى وشقيقه بيتر وقرينتاهما اناستاسيا وميليتسا اكثر المعجبين به حماسة» . وهم الذين قدموه فى عام ١٩٠٣ الى القيصرة الكسندرا فيودوروفنا . ولكن كان الاوان قد فات ، حين اتضح لهم ان راسبوتين الواقع تحت وصايتهم شرع يؤدى دورا مستقلا واستطاع بسهولة كبيرة السيطرة على الوضع بحيث وصلت به الوقاحة حدا يخاطب فيه صاحبى الجلالة القيصر والقيصرة بصيغة المفرد . وعبثا ناشد العم ابن اخيه القيصر ان «يطرد الفلاح العفن» . ولم يكتف صاحب الجلالة بعدم الاصغاء الى هذه النصيحة ، بل واعتبر من الواجب اشعار راسبوتين مفصلا بمطامع عمه البغيضة . وكما يشير باليولوج فان «فكرة الانتقام لم تفارق راسبوتين منذ ذلك الحين» .

وما ان حلت الفرصة الملائمة لذلك - الاخفاقات على الجبهات ، الانعطاف فى ميول القصر لصالح عقد صلح منفرد مع المانيا كان يقف ضده القائد العام الاعلى - حتى انقض راسبوتين على الامير الكبير نيقولاى وانتقم منه . فقد توجت هذه المشاحنة الحامية الوطيس التى تداخلت فيها الاتجاهات السياسية المتضاربة والعداوات الشخصية المتبادلة ، بعزل القيصر لعمه من منصبه فى ٢٣ اغسطس عام ١٩١٥ وتعيين نفسه بدلا منه قائدا عاما اعلى للجيش ، وذلك نزولا عند وصايا راسبوتين اللجوجة المدعومة من القيصرة .

وهكذا لم يقدر لنيقولاى نيقولايفيتش تحقيق حلمه المنشود الذى شاطر ضباط الاركان العامة اياه منذ نهاية عام ١٩١٤ . وهذا الحلم هو رؤية راسبوتين ولو مرة واحدة فى مقر القيادة ، او فى اى مكان آخر من خط الجبهة والقبض عليه وشنقه على اول غصن شجرة ، ثم يُبعث بعدها باعتذار الى القيصر والقيصرة عن الخطأ الحاصل من جراء ظروف حالة الحرب . وقد اكد الجنرال دينيكين فى مذكراته وجود مثل هذه النية : «ان محاولة راسبوتين الوصول الى مقر القيادة دفعت نيقولاى نيقولايفيتش الى التهديد

بشنقه . وهدد بالشيء نفسه رئيس الاركان الكسييف الذى كان لا يرتاح الى راسبوتين» .

كان ثمة دور ايضا لحسابات القيصر الخاصة الخفية تجاه عمه فى قضية عزله وتعيين نفسه بدلا منه . اذ لم يكن القيصر يثق تمام الثقة بولائه الشخصى له ، وكان ينظر بشك الى عادة حب الترفع لدى قريبه صاحب الطبع الصارم ، والعسكرى المحترف الذى كان يمسك بقبضته الفولاذية الجيش الروسى ، الذى يضم ١٢—١٥ مليون فرد ، محولا كل انتصار لهذا الجيش ، مهما كان صغيرا ، الى مجد لشخصه . وبالاضافة الى ذلك ، اخذ القيصر ، بايحاء من مدبرى الدسائس والوشاة فى القصر ، يشتبه فى ان لعمه مخططات سرية للاستيلاء على العرش . وكان اعداء الامير الكبير من اعوان راسبوتين يهمسون فى اروقة القصر متحدثين عن مثل هذا الخطر المحدق بالقيصر . ونحو ربيع عام ١٩١٥ شرعوا ، كما يكتب موسولوف ، "يكثفون جهودهم فى ترويج الشائعات حول «دكتاتورية نيقولاى نيقولايفيتش القادمة ، او ربما عن ارتقائه العرش . . . وهذا تعرفه المخابرات ، ولا بد وان يعرفه القيصر . اما هل وقعت فى ايدى القيصر بعض الاثباتات ؟ فلست اعرف . ولكن منذ هذا الوقت اخذت تتخلل مراسلات القيصر والقيصرة نبرات الفزع من التأثير المتعاظم للامير الكبير . . .» .

كان القيصر مترددا بعض الشيء حين اتخذ قراره بتعيين نفسه محل عمه الامير (احمر وجهه حين اعرب لاول مرة فى مجلس ضيق عن نيته هذه) ، اما بالنسبة للوزراء ، فقد تركت هذه الخطوة لديهم انطباعا خاصا .

فى ٦ اغسطس عام ١٩١٥ اجتمع مجلس الوزراء برئاسة جوريميكين رئيس الحكومة . واعطيت الكلمة لوزير الحربية بوليفانوف الذى كان قد عاد لتوه من تسارسكويه سيلو ، حيث يقيم القيصر .

بوليفانوف : ايها السادة ، مهما كان ما يجرى الآن فى جبهات القتال رهيبا ، فان هناك حدثا آخر فى طور النضج ، ولربما سيكون اخطر ما هدد روسيا حتى الآن . فى اثناء وجودى اليوم عند القيصر لالقاء التقرير الصباحى عن الوضع العسكرى اخبرنى جلالته بعزل الامير الكبير نيقولاى من منصبه كقائد عام اعلى .

اصوات : ومن يا ترى سيحل مكانه ؟
بوليفانوف : أليس هذا واضحا لكم ايها السادة ؟
جوريميكين : من ؟
بوليفانوف : جلالة القيصر ذاته .
وقد ورد في محضر الجلسة ان «**هذا النبأ اثار بين الوزراء اعنف الهيجان**» .

وفي ٩ اغسطس اجتمع مجلس الوزراء مرة اخرى ، وأخذ وزير الحربية الكلمة .

بوليفانوف : ايها السادة ، يجب ان اقول لكم بصراحة : لقد استقبلني القيصر ثانية ، وعندما كنت عنده شعرت بانه لم يعد من حقي الصمت فتحدثت اليه بشأن العواقب المحتملة اذا لم تؤد قيادة جلالته للجيش الى تحسين الوضع في الجبهة . . . وكم هو فظيع التفكير في ما سيحدث لو اضطر الامبراطور نفسه ، مثلا ، لاصدار الامر بالجلاء عن بيتروجراد او عن موسكو ، لا سامح الله . لكن جلالته اصغى اليّ ثم قال ان قراره نهائي .

سازونوف : الحديث يجري عن مصير روسيا . ولو كنا نعرف سابقا لوقفنا ضد قرار القيصر هذا ، الذي لا يمكنني وصفه الا بالوخيم . . .

جوريميكين : انا لا ادين القيصر . فالوضع في الجبهة يكاد يكون فاجعا . وهو يرى من واجبه المقدس كقيصر ان يكون بين جنوده ، فاما ان ينتصر او يستشهد معهم . . . ولم يبق امامنا الا الاذعان لمشيئته وتقديم المساعدة له .

سازونوف : كلا ! فقليل من يثق بثبات طبع الامبراطور . . . وكل هذا امر فظيع . . . انهم يدفعون بروسيا نحو الهاوية . . .

كريفوشيين : علينا ان نحتج ، نتوسل ، نلح ، نرجو . . . يجب ثني جلالته عن هذه الخطوة . . . فمنذ حادثة خودينكا والحملة اليابانية يعتبر الشعب الامبراطور قيصرا منحوسا وسيئ الطالع . . .

شيرباتوف : ما من شك ان قرار الامبراطور هذا سيفسَّر كنتيجة لتاثير راسبوتين السيئ الصيت . . .

سامارين : يلزم الذهاب الى القيصر والركوع امامه والتضرع اليه . . .

في اليوم التالي انعقد اجتماع آخر . ساد صمت متوتر ، ونهض رئيس الوزراء جوريميكين : «ايها السادة ، اسمحوا لي اعلامكم بان وزير الحربية سافر بتكليف من جلالة القيصر الى مقر القيادة لكي يهيئ لانتقال مقاليد القيادة العليا الى يد جلالته .

لم تكن هناك موافقة بالاجماع حتى بين انصار راسبوتين . ومنهم ، مثلا ، الكونت فريديريكس ، ولكن «حينما اخبره القيصر

بقراره (حول استلامه القيادة العامة العليا) احتج فورا» . والآخرون ايضا «حذروه من هذه الخطوة الخطرة وكانت الدوافع هى : أ - صعوبة الجمع بين ادارة البلاد وقيادة الجيش ، ب - المجازفة بتحمل المسؤولية عن الجيش فى الظروف العصيبة التى يمر بها» . وكانت هناك مخاوف اخرى من ان «قلة معارف وتجربة القائد العام الاعلى ستزيد من تعقد الوضع العسكرى» . وفى واقع الامر ، كان «الجميع يعرف بضعف اعداد الامبراطور الذى لم يحز فى الخدمة العسكرية الا رتبة بسيطة وهى رتبة عقيد فى احد افواج الحرس» . ومن الطبيعى ان تعيينه قوبل ، كقاعدة عامة ، بـ«الريبة والجفاء» . والشىء الرئيسى هنا هو ان «مجمل سماته الداخلية قلما كان يتناسب مع المقاييس الجبارة لهذه الحرب» .

وعلى الرغم من ذلك تم تبديل القيادة . وفى ٢٠ اغسطس عام ١٩١٥ أمر نيقولاى الثانى بنقل مقر القيادة من بارانوفيتشى الى موجيليف ، وبعد فترة قصيرة سافر هو نفسه الى هناك .

فى ٢٣ اغسطس عام ١٩١٥ وصل قطار الامبراطور الى رصيف محطة موجيليف . كان تمتد خلف المحطة مدينة صغيرة نسبيا ، وكان يحكمها حتى ذلك الوقت المحافظ بيلتس . ترجل القائد العام الاعلى الجديد من عربة القطار برفقة الجنرال الكسييف ، رئيس اركان القيادة المعين حديثا (مكان يانوشكيفيتش) ، والذى كان فى الماضى القريب يقود الجبهة الشمالية-الغربية .

فى هذه المدينة الهادئة ذات الارصفة البالية وسكك الترام الضيقة ، خصص لمقر القائد العام الاعلى وسط البيوت المتينة والحدائق المريحة عدد من البنايات المسيجة التى نصب فوق سطوحها ١٨ مدفعا رشاشا لاغراض الدفاع ضد الطائرات . وقام بحماية هذه الابنية من الداخل والخارج الف وخمسمائة جندى . وفى بيت متكون من طابقين كان القيصر يشغل غرفتين : واحدة لمكتبه واخرى لمنامه . وفيما بعد امر القيصر بوضع سرير اضافى الى جانب سريره من اجل ابنه - ولى العهد ، الذى اعتاد على اخذه معه الى الجبهة لعرضه امام القوات . هناك فى الجبهة تمرن القيصر طيلة سنة ونصف بمساعدة الكسييف على النشاط الحربى-الستراتيجى العالى ، الى أن قامت ثورة فبراير عام ١٩١٧ ووضعت حدا لهذا النشاط .

ان راسبوتين اذ دبر المكائد ضد الامير الكبير نيقولاى ، كان يدرك غرضه ويرى هدفه . واعتبارا من اغسطس عام ١٩١٥ بدأت التغيرات لا فى جهاز القيادة العسكرية فحسب ، وانما ايضا فى النظام الادارى العام . وتزحزح مركز الثقل فى آلية ادارة البلاد من مكانه . اشار الكسندر بلوك بدقة متناهية الى جوهر التغيير : «بعد ما اضحى الامبراطور قائدا عاما اعلى ، فقد بذلك وضعه المركزى ، وتفرقت السلطة العليا نهائيا فى ايدى الكسندرا فيودوروفنا واولئك الذين يقفون خلفها» .

منذ ذلك الربيع عانت البلاد وعانى الجيش الكثير من المحن . فقد نشبت معارك ضارية ، ذيقت فى خلالها مرارة الخسائر التى لا مثيل لها . اما فى المؤخرة ، فى زوايا القصور الهادئة ، فاستمر اصحابها على منوالهم فى ضفر شبكة المكيدة الكبرى التى يكمن جوهرها فى الصلح مع الامبراطور الالمانى وهدفها فى انقاذ كلا العرشين الروسى والالمانى .

وخفت نشاط الجيش لظروف اخرى ايضا . الا ان هذه المكائد اضطلعت بدور لا يستهان به ، وكانت خيوطها تمتد الى القيصرة ، واحيانا بعلم القيصر .

كان صاحب الجلالة يحارب ، غير ان رغبته فى مواصلة الحرب اخذت تقل اكثر فاكثر . وتدنت بشكل ملحوظ حماسته فى مشاركة دول الائتلاف فى حربها . وضعف تدريجيا ايمانه بالنهاية الموفقة لهذه الحرب ، وقلت ثقته باولئك الذين كان عليهم ان يموتوا وعلى شفاههم اسم القيصر . فى احدى المرات ، وعندما كان السفير الانجليزى بيوكينين يقدم للقيصر التهانى مضيفا عليها بعض العبارات المألوفة عن ثقة الشعب بصاحب الجلالة الامبراطور ، اعترض عليه نيقولاى الثانى قائلا بلغة انجليزية سليمة : «انتم تتحدثون ، ايها السفير العزيز ، عن ثقة الشعب بى . ولكن أما كان من الاحرى بشعبى ان يفكر قبل كل شيء فى ثقتى به ؟» .

كان يساوره الشك فى استعداد روسيا للموت فى سبيل الحفاظ على عرش اجداده . وكان على الشعب الروسى ان يبرهن للقيصر على انه اهل لهذا الشرف الرفيع . وفى اثناء حديثه مع السفير بدا وكأنه يفكر بينه وبين نفسه فى ما اذا كانت هناك فائدة من مواصلة الحرب او لا . ولكن من حيث الجوهر ، عندما اخذت تتضح

اكثر فاكثر ملامح الخطر على حياته شخصيا وحياة عائلته ، لم يتوان عن احاطة اقربائه حكام برلين علما - بحذر شديد - انه لا يريد عموما الاستمرار فى الحرب .

ان العديد من افراد الحرس الابيض والملكيين والمختصين الغربيين فى الشؤون السوفييتية وانصارهم ينكرون هذه الصفحة الختامية من تاريخ القيصرية الروسية . لعلهم لا يجادلون فى صحة اية مكيدة خفية تعود لذلك العهد بمثل الحماسة التى يجادلون بها فى واقع محاولة القيصر الروسى والامبراطور الالمانى فى اوج الحرب العالمية الاولى عقد صفقة عائلية ودية بينهما على اكداس جثث ضحاياهما .

فى مطلع العشرينات قام المدعى العام السيئ الصيت رودنيف بعملية دفاع من هذا الطراز عن طريق دار «النسر ذو الراسين» وبمساعدة من تالبيرج وجارانين . لقد استدعى كيرينسكى يوما المدعى العام رودنيف من ايكاتيرينوسلاف الى بيتروجراد وضمه الى قوام لجنة التحقيق الاستثنائية فى القضايا المتعلقة بجرائم النظام القيصرى . ظل رودنيف يعمل فى اللجنة لمدة نصف عام لكى يثبت وجود «قوى سوداء» فى القصر كانت «تغازل العدو بنذالة» من خلف ظهر الجيش الذى «ينزف دما» . هكذا صرح لمراسل صحيفة «دين» الصادرة فى ٢٧ يونيو عام ١٩١٧ . ولكن ما ان وجد نفسه فى المهجر سوية مع البيض حتى انبرى يبرهن العكس تماما : لم تكن هناك ، على حد زعمه ، اية قوى سوداء فى اوساط بيتروجراد المتنفذة ، كما «لم يقم اى جهاز من اجهزة السلطة العليا باية لعبة مزدوجة مع الجيش الروسى ومع خصمه فى الحرب فى آن واحد» . ولخدمة هذا المنطق بالذات خصص رودنيف كتابه الذى اصدره بالاشتراك مع اثنين من المؤلفين الآخرين .

التعاويذ والخرابيش

كان راسبوتين حركا للغاية ، لم يهدأ له بال حتى الليلة الاخيرة من عمره فى قصر الامير يوسوبوف . كان كثير الاشغال والهموم يبذل جهوده دائما حتى آخر نفس . وهو فى سعيه هذا ينطلق مرة من الاخلاص لحامييه القيصر والقيصرة ، واخرى ، من

اجل خدماته المدفوعة الثمن ، وثالثة ، لمجرد انفعال يغمره من جراء عادة الاستمرار على حرية التصرف غير المحدود التى اكتسبها وتمتع بها بالقرب من العرش القيصرى . ولم ينقطع راسبوتين ، حتى لساعة واحدة ، عن نشاطه السياسى-الستراتيجى العاصف والميال للمشاحنات ، واستمر يوزع الاوامر والتعليمات ذات اليمين وذات اليسار ويبعث الرسائل والبرقيات الى كل حدب وصوب .

اصاب الكثيرين العجب من صيغة رسائل راسبوتين الشخصية . فقد ادهش بورتسيف بـ«سخافة عباراته» وشولجين بـ«قابليته على الشعوذة» ورودنيف بـ«قدرته على اخفاء اسراره» . اما وزير البريد والتلغراف بوخفيسنيف الذى كان يطلع على جميع برقيات راسبوتين المرسلة للقيصر والقيصرة فى الفترة من عام ١٩١٣ وحتى عام ١٩١٦ فقد اصيب بدهشة من «قدرته على الهذيان» . فى القصر فقط لم يثر راسبوتين استغراب احد . اما القيصرة فقد اوقعها فى شباك الهيام وخلجات التبجيل ، اذ كان غموض شخصيته يبعث فيها الانبهار الى حد الهستيريا .

وبالمناسبة ، فالنوبات الهستيرية حالة تكاد تكون معتادة لدى القيصرة . فعلى امتداد ٢٣ سنة من حياتها كامبراطورة وحتى ساعة سقوط القيصرية كانت الهستيريا تتخلل كل نشاطها فى مجال السياسة والدين والحياة اليومية . كانت هستيرية فى كل شىء ، فى خوفها ، فى فرحها ، فى حزنها ، وحتى فى حبها . ولم تكن لتعرف تقريبا الاعتدال وضبط النفس والاحتكام الى العقل السليم . كانت فى صداقاتها وعداواتها رهينة النوبات التى تعتريها ، وحتى ان نيقولاى الثانى ابدى اهتماما بخلفية الوضع الصحى لزوجته وطلب من طبيب القصر وضع تقرير طبى بهذا الشأن . وقد عثرت القيصرة فى منضدة زوجها على هذا التقرير وطردت الطبيب المنحوس شر طردة .

حاولت الكسندرا فيودوروفنا عن طريق التعاويذ والادعية ايقاف خطر الثورة الزاحف . اما موقفها من الشعب الروسى الذى كانت تتهمه على الدوام بالعصيان والتمرد ، فلم تكن تستطيع الاعراب عنه الا بما تكن له من الازدراء .

وكتبت لزوجها نيقولاى الثانى عشيـة ثورة فبراير : «عزيزى ، كن صلبا ، بيّن لهم قوة سلطتك ، فهذا ما يحتاجه الروس . . . دعهم بعد الآن يشعرون بقبضتك . فهم انفسهم يريدون ذلك — فقد قال لى الكثيرون قبـل مدة : نحن نحتاج الى السياط . وهذا امر غريب . ولكن هذا هو الطبـع السلافى — اعلى درجات الحزم ، وحتى القسوة الى جانب الحب الحار» . ثم تعطى زوجها درسا : «وانا اعرف بشكل جيد كيف تتصرف الجموع الصاخبة ، حين تكون انت قريبا . فهى ما زالت تهابك . ولكن يجب ان تهابك اكثر ، بحيث تمتلكها الرجفة ذاتها اينما كنت انت» .

فمن يشك بعـد هذا فى قرابـة الدم التى تربط بين الكسندرا فيودوروفنا وولهيلم الثانى ؟ فهنا صوته ، لغته ، طراز تفكيره : «القبضة» و«السوط» — «هذا ما يلزم الروس» . وبهذا الاسلوب القاطع تصف الجميع ، حتى اولئك الذين يقفون منها موقفا حسنا .

وكتبت لزوجها ايضا : «فى مجلس الدوما كلهم اغبياء ، القيادة العامة تغص بالبلهاء ، ليس فى السينودوس الاقدس غير الحيوانـات ، الوزراء انذال ، يجب شنق دبلوماسيينا . اطرد الجميع ، وعين لجوريميكين وزراء جددا . . . ارجوك يا صديقى ان تعمل هذا بسرعة ، وعجل فى اغلاق مجلس الدوما قبل ان يطرحوا استجواباتهـم . الصحف متذمرة من كل شىء ، لتذهب الى الشيطان . عليك بحل الدوما ، اجعلهم يرتجفون . يجب عليهم جميعا ان يتعلموا الرجف امامك . اما آن الاوان لتدق بيدك على الطاولة وتصرخ ؟ يجب ان يخافوا منك . بيّن لهم انك السيد هنا ، فانت الحاكم والسيد فى روسيا ، تذكر ذلك . ليست دولتنا دستورية والحمد لله ، فكن ليثا فى الصراع ضد الحفنة الصغيرة من الاوغاد والجمهوريين ، كن مثـل بطرس الاكبر وايفان الرهيب وبافل الاول ، اقصم ظهور الجميع» .

كانت الكساندرا فيودوروفنا شريكة لراسبوتين عـن جدارة .
ان التوفيق بين ما هو شخصى وماهو حكومى يمكن ان يتراءى لها على النحو التالى .

فى صيف عام ١٩١٥ قررت القيادة العليا دعوة المقاتلين الشعبيين من الصنف الثانى بهدف تعزيز قوام الفيالق التى تكبدت خسائر كبيرة بالارواح اثناء معارك جاليتسيا . وهنا يعترض راسبوتين . تستنـد القيصرة الى رأيه وتكتب الى زوجها فى مقر القيادة : «فيما يخص دعوة الصنف الثانى : ابلغ ن . (نيقولاى نقولايفيتش) ان من الضرورى التريث ، وانك ضد هذا الاجراء» . تدرك القيصرة مسبقا ان ن . لن يوافق ، ولهذا تؤلب زوجها : «لا تقبل ايا من اعذاره» .فلماذا هذه الشدة ؟ لان هذا الاجراء «يمكن ان يكون وخيما ، وهذا ما يحذر (راسبوتين) منه مسبقا» . وبعد بعض الوقت

تكتب مرة اخرى : «يؤرقنى تحذير **صديقنا** . واذا لم يؤخذ له حساب فستكون العواقب وخيمة بالنسبة لنا وللبلاد . . . ارجوك يا ملاكى عدم دعوة الصنف الثانى . . . ومن الافضل دعوة مجندى العام التالى . ارجوك الاستماع الى **نصائحه** ، طالما **انه** يتحدث بمثل هذه الجدية . . . قد ندفع ثمن هذه الغلطة غاليا» .

ولكن لماذا «من الافضل دعوة مجندى العام التالى» ؟ لقد تبين ان ابن راسبوتين من بين مقاتلى الصنف الثانى . ويكمن سر المعارضة الخفية لدعوة المقاتلين الشعبيين فى برقية راسبوتين المرسلة فى يونيو عام ١٩١٥ من منطقة تيومين الى تسارسكويه سيلو : «آنا فيروبوفا ، علمت بانهم سيأخذون ولدى . وقد قلت فى قلبى هل انا ابراهيم حقا . مرت عصور وعندى ابن واحد ومعيل . آمل فى ان يعيش بكنفى كما لو فى كنف الملوك القدامى . ساعدينى . جريجورى» . ولما لم يستلم ردا فى الحال ، بعث ببرقية اكثر دقة الى العنوان نفسه : «استعلمى اولا عن استدعاء المقاتلين الشعبيين واعرفى بالضبط متى سيصل الدور الى محافظتنا» . وبالمناسبة ، فهو يطعّم هذه الرسالة ايضا بالتمتمات المجازية : «انها ارادة الرب ، آخر اطفالى ، نيقولا الرحيم ، صاحب العالم كله وصاحب المعجزات» . يريد راسبوتين هنا القول ان المدعو نيقولا يستطيع اتخاذ القرار الذى يستجيب تماما لرغبته .

وتنتقل الكسندرا فيودوروفنا هى الاخرى من التحذيرات والتهديدات المبهمة حول العواقب الوخيمة «بالنسبة لنا وللبلاد» الى قضية تخليص ابن راسبوتين من الجبهة : «واذكرك ، بان **صديقنا** فى ياس من جراء دعوة **ابنه** الى الجيش . **فهو** ابنه الوحيد الذى يدير شؤون البيت عند غياب الاب . . . يا حبيبى ،ماذايمكن العمل من اجله ؟» . وتكتب فى الرسالة التالية : «الا تستطيع يا حبيبى معرفة المدة المحددة لدعوة المقاتلين فى **محافظته** واعلامى حول ذلك مباشرة ؟ انا اعتقد بان هذه المدة محددة بالضبط فى مقر قيادتك . هل يمكن ان تشمل هذه الدعوة **ابنه** الذى لا يعتبر حتى مقاتلا شعبيا ؟ ارجوك ، اجبنى بسرعة» .

اما برقيات راسبوتين فيتضح منها ان من الضرورى انقاذ ابنه بصفته واحدا من المقاتلين الشعبيين ، اما القيصرة فقد اختلط عليها الامر لشدة مغالاتها فى جهودها . ومهما كان الامر ، تم التوصل الى النتيجة المرجوة فى ايام معدودات : خرج المقاتلون

الشعبيون من محافظة توبولسك متوجهين الى الجبهة دون ان يكون بينهم دميتري ولد راسبوتين . فقد عين ممرضا في القطار الناقل للمرضى .

وفي تلك الايام تقريبا تكتب الكسندرا فيودوروفنا الى زوجها : «وعندما كنت اتصفح الجرائد قرأت خبر مقتل ليتسكـــه (الضابط في الفوج الذي ترعاه) فتكدرت جدا . . . يا الاهي ، اية خسائر هذه . . . بيد ان **صديقنا** قال انهم (شهداء الحرب) — قناديل تضيء عرش الرب ، وهذا بالطبـــع يستحق الثناء : يا لها من ميتة رائعة» . ثم تقول : «ولكن لا يجوز التفكير في ذلك اكثر مما ينبغي ، فهذا ما يعصر قلوبنا ألما» .

اما كم كان «الالم» يعصر قلبها في الواقع ، فامر يعسر الحكم عليه . لقد نزلت بالشعب في اعوام الحرب مآس وآلام لا تحصى . لكن من المعروف جيدا ان ما لم يمس مباشرة المصالح الشخصية لاسرة رومانوف ، ظل بهذا القدر او ذاك شيئا لا يهمها ولا تكترث به . وحتى راسبوتين ، هذا المتهور ، كان يعجب من عدم مبالاة آل رومانوف بما تجري حولهم من مأساة دامية . وكان يوحي لهم بان جفاف قلوبهم امام احتراق الملايين من «القناديل» امر محفوف بالمخاطر ، وبأن عليهم ، اخفاء عدم اكتراثهم قدر المستطاع .

ومنذ نهاية عام ١٩١٤ شرعت العائلة القيصرية تعرض عـــلى الملأ شفقتها على «المحاربين الجرحى والمشوهين» . وجرى تنظيم القطارات الطبية التي تحمل اسماء القيصرة وبناتهـــا ، واقيمت في القصور ورشات لخياطة ملابس الجنود الداخلية ، وشاركت الاميرات في حملات جمع الملابس الشتويـــــة الى الجنود . وقامت القيصرة بزيارات لاجنحة الجرحى في المستشفيات العسكرية ووزعت عليهم الايقونات الصغيرة وكتب الصلوات والحلويات . واخذت الصحافة الرخيصة ، التي دأبت على تصوير الكسندرا فيودوروفنـــا بمظهر «المعذبة» من جراء وطنيتها الروسية وانسانيتها ، تنسج من هذا كله اسطورة . فقد صورت الامر وكأنه تم بفضل جهود القيصرة بالذات تحويل احد القصور القيصرية — قصر ايكاتيرينا الكبير — الى مستشفى عسكري ، وكأنها وضعت تحت حمايتها الشخصيـــة جميع المستشفيات العسكرية الخمسة والثمانين الواقعة في منطقة بيتروجراد ، وكيف انها «بعد ان انهت دورة تمريضية لمدة شهرين سارت على رأس طابور من الممرضات الى مركـز استلام دبلوم

الصليب الاحمر» ، ثم اخذت بعدها تساعد الاطباء الجراحين فى اثناء العمليات ، وكانت «تسرع حاملة الادوات الطبية المعقمة . . . وقد تلطخت يداها بدم الجرحى الذين كانت تعتنى بهم فى غرف العمليات وفى ردهات المستشفيات» .

فى هذا الجانب او ذاك شيء من الحقيقة ، ولكنه مبالغ فيه . والمهم هو ان الجنود الروس لم يتأثروا بهذا الحب الانسانى كله ، الذى كان متصنعا اكثر مما هو واقعـــى ، وكانوا يشعرون بان التفاتات القيصرة ما هي الا امر مفتعل . وبدت العلاقة مصطنعـة وضعيفة للغاية بين طبيعة اخلاقها وتصرفاتها وبين جميع ادعاءاتها للتقرب من «الفلاحين» و«الجنود» وعقد الصلات شبه الروحية بهم .

ومن هنا يأتى فقر المشاهـــد العاطفيـــة التى مثلـــت فى المستشفيات ، بما فى ذلك تلك التى ساهم فيها مرارا ولى العهد الشاب خلافا لارادته وتصوره . وقد بدت احدى زياراته التى قام بها مع والدته القيصرة الى المستشفى الذى يديره بوتكين بالشكل التالى :

ظهرت القيصرة مع ابنها بين الجرحى . وقد قام احدهم بتشغيل جهاز الحاكى فانطلق نشيد «يا رب ، احفظ القيصر» . توقف ولى العهد رافضا السير . كان ممتعضا . جلس الجرحى فى اسرتهم ، بعضهم فى رداء المرضى وبعضهم فى اللباس الداخلى ، والبعض الآخر يلعب بالورق . تقدمت القيصرة من احد الاسرة وسألت عن لعبة الورق التى كان الجنود الجرحـــى يلعبون بها . فاتاها الجواب . اقتربت من احد الجرحى الذى كان له من العمر ٣٥ سنة ولكنه منهوك الى درجة يبدو وكانه فى الخامسة والسبعين . كان يقرأ الانجيل الذى كانت القيصرة قد بعثته الى المستشفى . لم يدرك الجندى من الذى يتحدث اليه . «وماذا تقرأ ؟» — سألت القيصرة منحنية . «وكلا ساقاى يؤلماننى» — اجاب الجندى اجابة لا تمت بصلة للسؤال . تبسمت الضيفة وطرحت سؤالا آخر ، غير ان الحديث ظل بلا معنى . بعد ان ودعت الجرحى خرجت الى قاعة المدخل . قالت القيصرة عند مرورها ، مشيرة الى جزمات اللباد المصطفة فى القاعة : «انتم تتهيئون للشتاء منذ الآن ؟» ثم خرجت واومات براسها الى الاطباء والممرضات وجلست مع ابنها فى السيارة . . .

تردى الامر الى درجة ان مجلس الدولة الذى يعتبر السنـــد الدائم للعرش ومثال الوداعة طلب من القيصر فى منتصف ديسمبر عام ١٩١٦ عزل بروتوبوبوف - الموالى لراسبوتين - عن مجلس الوزراء .

كان راسبوتين يستطيع فى الحالات الجدية الانتقال من لغـــة الاستغراق فى التأملات الالهية الى لغة العمل . اجتمـــع راسبوتين وبروتوبوبوف على انفراد فى الشقة الواقعة بشارع جوروخوفايـــا وحررا برقية غامضة الى القيصر :

«لا توافقوا على تنحية المدير-الادارى . فبعد هذا التنازل سيطالبون بتنحية الادارة كلها . وعندما ستتلاشى الشركـــة المساهمة ، سيفقد حتى المساهم الرئيسى فيها منصبه» .

لم يكن صاحبا البرقية يخمنان مدى نجاح برقيتهما وصحـــــة تنبؤهما . لم تمض ثلاثة اشهر حتى فقد «المساهم الرئيسى» منصبه ، وتوقفت عن العمل فى الوقت نفسه «الشركة المساهمة» التى تراسها تحت حماية النسر ذى الرأسين – شعار القيصرية .

الفصل الحادى عشر

الانكسار

بداية النهاية

فى موجيليف ، عام ١٩١٦ ، وفى صباح عابس من شهر ديسمبر ، اجتمع المجلس العسكرى على ضوء الشمعدان فى قاعة المؤتمرات التابعة للاركان العامة . وقد ناقش الجنرالات برئاسة رئيس اركان القيادة العامة الكسييف خطة الحملة المقبلة فى ربيع وصيف عام ١٩١٧ .

تابع القيصر حديث المتكلمين باهتمام ، وكان يطرح من حين الى آخر الملاحظات او الاسئلة ، ويواصل التدخين . وفجأة اطل على الباب القومندان فوييكوف بجسمه الضخم . تردد قليلا ، ثم اتجه بحزم الى القائد العام الاعلى وسلمه برقية تحمل هذه الملاحظة : «من تسارسكويه سيلو» . قرأ نيقولاى ، واحمر وجهه . لقد قتل راسبوتين . . . كانت لهجة البرقية هستيرية : «وجد فى الماء . الصلوات والخواطر سوية . فعطفك يا رب علينا . الكسندرا» . نهض القيصر وغادر القاعة . امر فوييكوف بان يجهز القطار للسفر . وقبل الرحيل افلح فى الاطلاع على تفاصيل الحادث عن طريق المعلومات الموازية التى تصل الى الكسييف من رئيس قسم المباحث الجنرال جلوباتشيف .

قتل راسبوتين ليلة ١٦ على ١٧ ديسمبر فى قصر يوسوبوف ، الواقع فى مويكا . والمشاركون فى عملية القتل هم يوسوبوف ، بوريشكيفيتش والامير الكبير دميترى بافلوفيتش (لم يعرف رئيس المباحث آنذاك بان هناك مشاركين آخرين ، وهما الملازم سوخوتين والطبيب العسكرى لازافيرت) . وفيما بعد قام المتآمرون الرئيسيون فى المهجر بالكتابة والنشر حول بواعث القتل وملابساته .

ينبغى تفسير عبارة «وجد فى الماء» بالشكل التالى : نقلت جثة راسبوتين ليلا الى نهر مالايا نيفكا ورمى بها من على الجسر . وقد فتش الغواصون قعر النهر بالقرب من جسر بطرس ولم يعثروا على اى شىء . الا ان احد رجال البوليس لاحظ كم معطف راسبوتين المصنوع من فرو القندس متجمدا عند حافة فتحة الجليد . وتم

اخراج الجثة . وطوقت القوات منطقـــة الجسر . ووصل الى مكان الحادث وزير الداخلية بروتوبوبوف ، ووزير العدل ماكاروف وبقية اعضاء الحكومة ، ورئيس المباحث جلوباتشيف ، وكبار موظفـــي الادعاء العام ، وقائد منطقة بيتروجراد العسكرية . وسرى خبر اللقية فى المدينة ، فجاءت عربات وسيارات الفضوليين الى هناك من جميع اطراف المدينة . غير ان السلطات اغلقت الطرق المؤدية الى منطقة بيتروجرادسكايا ستورونا .

وضعت الجثة فى سقيفة على ضفة النهر ، وبعد ان لفت بالقماش نقلت الى مصلى كنيسة تشيسما الواقعة على الطريق بين بيتروجراد وتسارسكويه سيلو . وقد اعربت ابنتاه ماتريونا وفارفارا وخطيب الاخيرة الملازم بخاكادزه عن رغبتهم فى نقل جثة الراحل الى شارع جوروخوفايا ، ٦٤ ، الا ان السلطات لم تسمح بذلك .

وفيما بعد تم التوصل الى ان راسبوتين رمى فى النهر وهو لا يزال على قيد الحياة . وواصل تحت الجليد الصراع من اجل البقاء حيث استطاع فك الحبال التى قيد بها ساعده الايمن وابرز قبضته المضمومة بقوة . لقد سقى السم وجرح بالرصاص مرتين جرحـــا مميتا فى صدره وعنقه ، واصيبت جمجمته بكسرين ، واغرق ايضا فى النهر .

حين خرج القيصر بعد مرور يوم واحد الى محطـــة القطار فى تسارسكويه سيلو شاهد بناته وزوجته وابنـــه ، وقد تجمعوا بحزن وكآبة . وفى الطريق الى القصر ابلغته الكسندرا فيودوروفنا انها ، اولا ، امرت بغلق التحقيق الذى شرع فيه وذلك من اجل «تلافى فضيحة منكرة يثيرها الاعداء ضد الاسرة القيصرية» ، ثانيا ، طلبت من بروتوبوبوف تحويل مسكن راسبوتين الى متحف ، وكلفت احد اشهر المعماريين فى بيتروجراد بتخطيط وتشييد ضريح مـــن المرمر فى تسارسكويه سيلو يجب ان تنقل اليه رفات جريجورى قبل انتهاء صيف عام ١٩١٨ . وحتى هذا الوقت تقرر ان يدفن فى تسارسكويه سيلو ، غير بعيـــد عن القصور القيصريـــة ، خلف المتنزه .

بعد الظهر ذهبت عائلة القيصر كلها (عدا البنت الكبرى اولغا) للمشاركة فى مراسم الدفن . سجل نيقولاى الثانى فى دفتر يومياته : «استمعنا الى صلاة الاب فاسيلى وعدنا الى البيت» .

كان افراد الاسرة يزورون قبر راسبوتين كل يوم ، ويقفون طويلا على الرابية التى شيد فوقها مصلى خشبى صغير ويصلون . ان القيصرة «تضع فوق القبر زهورا بيضاء ، وقد اصفر وجهها بحيث كانت على وشك الانفجار بالبكاء فى اية لحظة ، الا انها تحاول ضبط عواطفها» . وهى نفسها تكتب فى تلك الايام : «تشع الشمس ساطعة . . . وانا اشعر بالطمأنينة والسلام عند قبره العزيز . لقد مات لينقذنا» . ولكن لم يكن الجميع يشاطر الكسندرا فيودوروفنا هذا الشعور . وبالادق لا يشاطرها احد من خارج جماعة راسبوتين المتيتمة . وهذا ما انعكس بشكل ما على وضع قبر راسبوتين منذ الليلة الاولى بعد صلات الاب فاسيلى ، حين دحرجت مجموعة من الضباط برميلا من البراز نحو المصلى وافرغته فوق رابية القبر . وبعد ثلاثة اشهر ، فى فبراير ، قام الجنود باخراج الجثة وحرقها ، وبهدم المصلى ، اما القبر فقد سووه بالارض .

استقبلت بعض الصحف المخلصة للنظام القيصرى العام الجديد بتفاؤل . كتبت صحيفة «موسكوفسكيه فيدوموستى» فى ٣٠ ديسمبر : ندخل عام ١٩١٧ وهناك العديد من البشائر الطيبة . اما السفير الفرنسى باليولوج فدون فى مفكرته تنبؤا مغايرا : «تشير ابراج السماء الروسية الى ان العام الجديد ينذر بالشؤم . انا اشاهد القلق والكآبة فى كل مكان هنا . . . لم يعودوا يثقون بالنصر . . . وهم ينتظرون بخضوع ما سيحدث من اهوال» .

ان استنتاج السفير بشأن «الخضوع» لا يشم بقوة الملاحظة . ولكن فيما يخص «القلق» و«الكآبة» لم يكن بعيدا عن الصواب . . . كانت البلاد تعانى فواجع جسيمة . وقد اشار بلوك المطلع على الاحداث ، انه فى نهاية عام ١٩١٦ «كانت كل اعضاء جسم الدولة الروسية مصابة بمرض لا يمكنه ان يزول من تلقاء نفسه ، ولا يمكن شفاؤه بالعلاج التقليدى» .

انهارت فى الخنادق قوى ملايين العمال والفلاحين الذين اقتيدوا للحرب . وتدهورت اكثر فاكثر ظروف الحياة فى المؤخرة . احدق الخراب – نتيجة عجز القيصرية عن تجاوز صعوبات زمن الحرب . ولم يستطع النقل تحمل الاعباء المناطة به . ومن جراء النقص الحاد فى الايدى العاملة والوقود والمواد الخام قلص بعض المعامل والمصانع انتاجه وتوقف البعض الآخر عن العمل تماما . ونفد

احتياطى الخبز فى المدن . ولم يبق فى بيتروجراد من الدقيق الا ما يكفى لمدة ١٠ ايام او ١٢ يوما فقط . وارتفع الغلاء بشكل جامح . وخيم خطر الجوع على المراكز الصناعية . واتخذت ظواهر المضاربة والفساد الادارى والكسب المالى على حساب التجهيزات العسكرية والتلاعب فى البورصة مقاييس لم يعهد لها نظير . وامتدت فى الوقت نفسه طوابير طويلة عند ابواب المخابز والحوانيت .

يفرد المختصون فى الشؤون السوفييتية لهذه الطوابير دورا حاسما عند الحديث عن السقوط «المفاجئ» للقيصرية فى فبراير عام ١٩١٧ . ويتحدث كينان عنها بالتفصيل ، ويؤكد وجودها ريدكى مستندا الى القادة المهاجرين الذين يدعون ان الجوع هو الذى «رمى» عمال بيتروجراد الى الشارع فى فبراير عام ١٩١٧ . ويرى مورهيد ان «الرغبة فى الحصول على الطعام كانت تسود عقول ابناء بيتروجراد البسطاء» . يتوق اعداء الشيوعية لتصوير جماهير روسيا الشعبية فى تلك الايام «مجردة من روح المواطنة وغارقة فى مصالحها الذاتية المباشرة» ولهذا اذعنت لوسوسة العنف الشيطانية التى اوحت بها الطوابير . . . حقا ، لقد تجمع آنذاك فى طوابير الخبز ، كما فى الخنادق المغمورة بالثلج ، غير قليل من غضب الناس البسطاء . بيد ان القيصرية لم تنهزم من جراء الاختناقات الغذائية ، مهما بلغت خطورتها . فقد كانت احداث مطلع عام ١٩١٧ الحلقة الاخيرة فى عملية طويلة للنضال ضد الحكم المطلق الذى خاضه الشعب على امتداد عدة اجيال ، باتساع واصرار لم يعهد لهما نظير من قبل — منذ مطلع القرن العشرين .

لم تظهر الحركة العمالية والتحررية فى روسيا عام ١٩١٧ ، وانما قبل ذلك بكثير . وقد تطورت تحت القيادة الصلبة والمباشرة للحزب البلشفى — طليعة الطبقة العاملة . وانها لمتهافتة محاولات المؤرخين البرجوازيين الرامية الى التقليل من حجم الحركة وفى دور هذه القيادة . ويكفى القول ان مقاييس الحركة الاضرابية فى روسيا فى النصف الاول من عام ١٩١٤ فاقت مقاييس عام ١٩٠٥ الثورى كله . وهذا النهوض المدهش للحركة العمالية الروسية عشية الحرب العالمية الاولى لا ينفصل عن واقع ذى اهمية حاسمة ، وهو ان البلاشفة استطاعوا فى ذلك الوقت توحيد اربعة اخماس عمال روسيا الواعين ، وان الغالبية العظمى من الطبقة العاملة الروسية

كانت فى اعوام ١٩١٢-١٩١٤ تسير خلف الحزب البلشفى . اما فى اعوام الحرب ، فعلى الرغم من ظروف الارهاب البوليسى القاسية واصلت المنظمات البلشفية نشاطها فى اكثر من ٢٠٠ مدينة من مدن البلاد . وعملت هذه المنظمات داخل القوات المسلحة ايضا : فى الجبهتين الشمالية والغربية فقط كان عددها يربو على ١١٠ منظمات .

يمكن القول بثقة انه لم يكن هناك فى ظروف العمل الثورى السرى حزب اكثر تراصا وقوة وهيبة من الحزب البلشفى . وكانت صلة الحزب بمكتب اللجنة المركزية فى الخارج بقيادة لينين منتظمة ولم تنقطع ، كما استمر بلا انقطاع عمل المكتب الروسى للجنة المركزية بالرغم من الملاحقات والخسائر الدائمة (نتيجة الاعتقالات) . وقد ادركت السلطات القيصرية تماما مدى الخطر على النظام الذى كان يشكله نشاط البلاشفة وسط الشعب وبين الجنود والبحارة . وتشهد على ذلك طائفة واسعة من الوثائق التى اخرجت بعد الثورة من ارشيفات المباحث والبوليس ودوائر الدرك المركزية والمحلية ، والتى كشفت عنها الصحافة السوفييتية الدورية جزئيا فى اوقات مختلفة . ان نتائج هذا العمل الصعب المديد والعنيد والمفعم بالبطولة غالبا وسط الجماهير قد تجسدت تماما فى فبراير عام ١٩١٧ عندما دقت ساعة المعركة المسلحة بين الشعب والقيصرية .

وحسب تعبير لينين المحكم فان «عربة ملكية آل رومانوف الملطخة بالدم والوحل» انقلبت «**دفعة واحدة**» عند المنعطف التاريخى الحاد جدا فى فبراير عام ١٩١٧ . وكان من الضرورى لحدوث ذلك تضافر طائفة كاملة من الظروف ذات الاهمية التاريخية العالمية الشاملة ، واقتضى الامر كذلك تعجيلا خارقا للتاريخ العالمى . كانت الحرب العالمية الاولى مخرجا عظيما وجبارا وقديرا للثورة حث ، من جهة ، مسيرة التاريخ العالمى على نطاق ضخم ، وخلق من الجهة الاخرى «ازمات عامة اقتصادية وسياسية ، وطنية وعالمية ، ذات شدة لم يسبق لها نظير» * .

ونتيجة لهذه العملية انهارت فى روسيا ، فى خلال ثمانية ايام ،

---

* لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٦ ، ص ٢٦٥ ، دار «التقدم» ، بالعربية .

الملكية التى سادت قرونـــا . وبدا هذا التطور السريع للاحداث «معجزة» لبعض الساسة البرجوازيين . بيد انه لم يكـن «معجزة» اذا اخذنا فى الاعتبار النضال الثورى الطويـــــل الذى سبق ثورة فبراير ، والطريق الشاق والصعب الحافل بالبطولة والتضحية الذى اجتازه شعب روسيا الكادح نحو انتصاره على القيصرية .

قبل ١٢ سنة من انهيار الحكـم المطلق ، عندما كانت الثورة الروسية الاولى فى بدايتها ، اشار لينين فى صدد الوضع فى روسيا الى ان «تخلف البناء السياسى الفوقـــى عن التحول الحاصـــــل فى العلاقات الاجتماعية يجعل من انهيار البناء الفوقى امرا حتميا» ، ثم اكد ان «من الجائز تماما وتمامـــا ان يحصل الانهيار فورا ، **دفعة واحدة** ، لان «الثورة الشعبية» فى روسيا وجهت الى القيصرية حتى الآن مئات الضربات ، وليس معروفا اذا كانت ستجهز عليها الضربة الاولى او العاشرة بعد المائة» * .

كانت ثورة ١٩٠٥–١٩٠٧ واحدة من هذه «الضربات المائـــة» واشدها قوة هزت دعائـــم القيصرية . وقد عبر لينين فى السطور التالية عن اهميتها بالنسبة لما جرى لاحقا فى فبراير : «لولا تلك السنوات الثلاث من المعارك الطبقية العظيمة والطاقـــة الثوريـــة للبروليتاريا الروسية (اعوام ١٩٠٥–١٩٠٧) لما كان بالامكان ان تقع الثورة الثانية بمثل هذه السرعة ، من حيث انجاز مرحلتهـــا الاولى فى ايام معدودات» . واضاف : «ان ثورة الايام الثمانية هذه قد تم «اخراجها» – اذا جاز استخدام هذا التعبير المجازى – كأنما بعد نحو عشرة من التمارين الجزئية والعامـــة ؛ وكان «الممثلون» يعرفون بعضهم البعض ، ويعرفون ادوارهم وامكنتهم ، ويعرفون ديكوراتهم طولا وعرضا ومن طرف الى آخر حتى اضعف تلوين فى الاتجاهات السياسية واساليب العمل» ** .

اطل عام ١٩١٧ . . . ولم يعد لراسبوتين وجـــود . طمـرت الرياح الثلجية الطريق الى قبره فى الحقل الواقع خلف منتزه القصر . واضحى اعيان روسيا ورجال الاعمال فيها عاجزين عن تحميله جريرة اخطائهم واخفاقاتهـــم . لقد عيل صبر الشعب وبلـغ السيـــل الزبى . . .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٩ ، ص ٢٥٨–٢٥٩ .

** لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٦ ، ص ٢٦٥ .

منذ نهاية عام ١٩١٦ طرح المكتب الروسى للجنة المركزية لحزب البلاشفة على منظمتيه فى بيتروجراد وموسكو الشروع فى التهيؤ لاضراب شامل والانتقال الى النضال فى الشوارع بشكل اوسع . ووجهت قيادة الحزب هاتين المنظمتين نحو التحول من الاضرابات المتفرقة ذات الطابع الاقتصادى الى النضال الجماهيرى السياسى ، وجذب الجنود الى الحركة الثورية ، والاستعداد للانتفاضة المسلحة . وقررت المنظمتان البلشفيتان لكلتا العاصمتين توقيت توسيع النضال فى الشوارع فى ٩ يناير — الذكرى السنوية الخامسة ليوم الاحد الدامى . وفى ذلك اليوم اضرب فى بيتروجراد زهاء ١٥٠ الف عامل ، واضربوا ايضا فى موسكو ونيجنى نوفجورود ، وفى المدن الكبيرة الاخرى .

عمت الاضرابات البلاد فى خلال شهر يناير كله ، وكان الجزء الاعظم منها ذا طابع سياسى . وغدت العاصمة ميدانا للتحركات الشعبية المتواصلة الموجهة ضد الحرب والحكم المطلق . وتصدرت صفوف الثورة المتصاعدة بروليتاريا بيتروجراد التى بلغ عددها فى مطلع عام ١٩١٧ زهاء ٤٠٠ الف شخص . ولما كان البلاشفة اقوى حزب ثورى سرى له جذوره العميقة فى البروليتاريا ، فقد اسبغوا التنظيم على الحركة وزودوها بالشعارات الكفاحية واشاروا الى الافق الثورى وعززوا تحالف العمال والجنود . وعلى النقيض من المناشفة-انصار الدفاع ، الذين دعوا الى حماية دوما الدولة وساروا خلف البرجوازية الليبرالية ، دعا البلاشفة البروليتاريا الى الاضرابات والمظاهرات ، الى الشارع ، الى الكفاح المكشوف ضد الحكم المطلق . وهذه الدعوة اخذت فى الاعتبار الوضع الثورى الناضج فى البلاد ، وكانت تستجيب لمزاج بروليتاريا بيتروجراد المندفعة الى المعركة . كما انها حررت الطاقة الثورية للبروليتاريا ووجهتها نحو المعارك الحاسمة ضد القيصرية .

قضى القيصر شهرين فى قصر الكساندروفسكى ليستعيد توازنه النفسى بعد دفن راسبوتين . من جراء الحزن على راسبوتين بدا كما لو نسيت جبهة الحرب الممتدة زهاء ٣ آلاف كيلومتر ، حيث يقبع فى الخنادق بين الثلوج والاوحال وتحت وابل القذائف الالمانية اثنا عشر مليون جندى يتحكم برقابهم امبراطور عموم روسيا ، باعتباره قائدهم العام الاعلى . ولكن حان وقت الذهاب الى موجيليف . فى

٢٢ فبراير رنت اجراس كاتدرائية فيودور مودعة الامبراطور حسب التقليد الى محطة الكساندروفسكايا ، حيث كان على القطار القيصرى ان يتوجه من هناك الى سكة حديـــد نيقولايفسكايا . وبرفقـــة فريديريكس (وزير البلاط) وناريشكين (رئيس الديوان العسكرى المتنقل) وفوييكوف (قومندان القصر) وجرابـــه (رئيس الحرس) وفيودوروف (طبيـــب القصر الخاص) والامير ليختينبيرجسكـــى وموردفينوف وبعض الآخرين ذهب من جديد الى مقر القيادة لكـــى يستأنف هناك نشاطه العسكرى-الستراتيجى .

لقد فات الاوان . كان الزمن الذى وهبه التاريخ لحكم اسرة رومانوف فى أفول . وكان هزيم الرعد الثورى القادم من بيتروجراد يدوى فى اعقاب القطار القيصرى السماوى اللون . لم يكن ليخطر على بال نيقولاى الثانى انه سيعود من سفرته هذه بعد ١٦ يوما لا اكثر مخلوعا ومعتقلا وانه لن يرى الحرية حتى آخر ايام حياته التى لم يبق منها الا القليل .

فى مساء يوم ٢٣ فبراير وصـــل القطـــار الامبراطورى الى موجيليف . استقبله عند رصيف المحطة الكسييف الذى عاد توا من القرم (كان القيصر قد اعطاه اجازة للاستراحة فى سيباستوبول من ٨ نوفمبر عام ١٩١٦ حتى ٢٢ فبراير ١٩١٧ ، وادار مقر القيادة فى هذه الفترة الجنرال جوركو نيابة عن الكسييف ونيقولاى الثانى) .

ما كاد الكسييف وجوركو يفرشان الخارطة على الطاولة لكـــى يشرحا للقائد العام الاعلى الوضع فى الجبهة ، حتى انهالت على الطاولة نفسها برقيات الاعيان ورجال الدوما حول الوضـــع فى المؤخرة . وتوالت الاخبار كل منها يبعث على القلق اكثر من الآخر : الاضرابات الشعبية تهز العاصمة . يبدو ان ثورة بدأت .

يؤكد المدافعون عن نيقولاى الثانى فى الغرب بصوت واحـــد تقريبا ان هذه البرقيات انهالت كالصاعقة عليه وهو لـــم يكـــن يعرف اى شيء . ويزعمون ان الثورة اندلعت على حين غرة ولم يكن يتوقعها او يتنبأ بها احد حتى القيصر .

لم تجر الامور تماما بهذا الشكل ، كما يؤكد من اعماق الزمن الجنرال جلوباتشيف – رئيس قسم المباحث . كان يؤخذ عليه : «عدم توقعه» لثورة فبراير والفشل الذريع للمخابرات السريـــة

القيصرية التى لم تستطع فى الوقت المناسب التنبؤ بالاحداث ولا الاخبار عنها . ولكن اى شىء هنا غير متوقع ؟

كان جلوباتشيف قد حذر الحكومة فى تقرير فى الخامس من يناير عام ١٩١٧ : «ان مزاج الناس فى العاصمة يبعث على القلق بشكل استثنائى» ، اللحظة السياسية الحالية تذكر بعشية عام ١٩٠٥ . . . وفى ١٩ يناير ابلغ هو بالذات بصورة سرية للغاية ان «السكان ينتقدون جهارا كل الاجراءات الحكومية باسلوب حاد غير مسموح به» ، وعلاوة على ذلك تسمع منهم كلمات «تمس حتى شخصية الامبراطور المقدسة» . ربما سيتأتى على الحكومة «الا تصارع حفنة ضئيلة . . . من اعضاء مجلس الدوما ، وانما روسيا برمتها» . دق جلوباتشيف ناقوس الخطر فى ٢٦ و٣١ يناير و١ و٣ و٤ و٥ و٧ و٨ و٩ و١٠ و١٣ فبراير واختتم سلسلة تقاريره السرية للحكومة بالتحذير من مغبة ان يغدو تذمر السكان المتصاعد «مرحلة اخيرة على الطريق نحو بداية حوادث مروعة لاكثر الثورات هولا» .

هرعت زوجة القيصر ايضا الى ابلاغه بالاضرابات التى اندلعت فى العاصمة . وقد فعلت ذلك ، والحق يقال ، باسلوبها الخاص ووفق فطنتها المميزة : تقول ان الاحداث فى بيتروجراد ما هى الا «حركة اشقياء» ، يخرج فى خلالها «الصبيان والبنات الى شوارع المدينة صارخين انهم بلا خبز لمجرد اثارة الآخرين . . . ولو كان الجو باردا لجلسوا فى بيوتهم» . ويعتقد كينان وريدكى انه لو كانت فى مخابز بيتروجراد وفرة من الخبز لما حصل الانقلاب . اما الكسندرا فيودوروفنا فتعتقد ان الثورة ما كانت لتحدث لو ان الجو كان اكثر برودة . ولكن ثمة تأكيد مغاير : «كان المحرار يهبط احيانا الى ٤٠ درجة تحت الصفر . . . وعند مشارف العاصمة تجمد على خطوط السكك الحديدية ، كالصخر ٢٠٠ قطار محمل بالاغذية . . . وفرغت محلات بيع الخبز» .

ان «الرعاع» ، وقد انفلتوا من عقالهم ، حسب تعبير هاركييف ، شرعوا يطاردون رجال البوليس «المساكين» ويقتلونهم دون ان يعرفوا لماذا ومن اجل اى شىء ؛ فليس لدى «الرعاع» شعارات ولا برنامج ولا قادة . لقد تمادوا فى غيهم من جراء عدم معاقبتهم ، وها هم يعربدون هائجين . اما السلطات فاسقط فى يدها ، والامبراطور ذاته فى موجيليف لا يستطيع عمل اى شىء . يكتب هاركييف : «ان

هذه الازمة التى واجهتها اسرة رومانوف ، لم يعدها او يخطط لها احد ، وكانت محلية ، وغير مأساوية بالمرة فى بدايتها ، ومع ذلك كانت – الامر الذى لا يكـاد يصدق – الاخيرة بالنسبـة لاسرة رومانوف» .

وهكذا ، فمـا الذى يكمن فى اساس الاحداث ؟ الاحـداث العارضة . سوء الطبع . المصادفة . تقلبات الجو . توافه مشؤومة وهراء مميت . القيصر لم يتنبأ باى شىء ، ولم يراوده الشك ازاء اى شىء . بوغت وكأنما على حين غرة .

كلا . كان القيصر يعرف كل شىء . وقد أبلغ وحذر فى الوقت المناسب . كان رئيس البوليس السرى يدق له ناقوس الخطر عند الضرورة ويزوده بالمعلومات بكل نزاهة . وحل الاسبوع التاريخى فى شهرى فبراير ومارس ، اسبوع سقوط الحكم المطلق . اليكم كيف تصرف نيقولاى الثانى فى خلال هذه الايام الثمانية ، مـن الخميس الى الخميس ، بوقتـه وبمصيره وبالمعطيات المتوفرة لديه .

الايام الاربعة الاولى

الخميس ، ٢٣ فبراير (٨ مارس)

دعا القيصر للغداء فى موجيليف رؤساء البعثات العسكرية لدول الائتلاف .

وفى بيتروجراد خرج الى الشوارع ١٢٨ الفا من المضربين عـن العمل ، وهم يرددون : «السلم والخبز !» وظهرت الاعلام الحمـراء واللافتات التى كتب عليها : «لتسقط الحرب !» ، «لتعش الثورة !» . وبمناسبة يوم المرأة العالمى ساهمت بنشاط عشرات الآلاف من العاملات فى الاجتماعات والمظاهرات . وسمع نشيد «المارسيليز» * فى مختلف انحاء المدينة .

بقى البوليس حتى منتصف النهار يسيطر على الوضع عموما . لكن منذ الساعة الثانية بعد الظهر ، كما ذكر تقرير البوليس ،

* المقصود «المارسيليز العمالى» – النشيد الثورى للبروليتاريـا الروسية . كلمات لافروف ، لحن «المارسيليز» . – **الناشر** .

«اخذت السلطات العسكرية على عاتقها مهمـــة الحفاظ على النظام والامن فى العاصمة» .

وفى المساء ، عقد فى شقة العامل الكساندروف اجتماع طارئ لقيادة بلاشفة بيتروجراد بمشاركة ممثلى المكتب الروسى للجنـــة المركزية . واقر الاجتماع مواصلة الاضراب وتوسيعـــــه والقيام بمظاهرات فى جادة نيفسكى وتعزيز الدعاية بين الجنود والشروع فى تسليح العمال . وحدد شعاران رئيسيان للحركة ، وهما اسقاط الحكم القيصرى ووقف الحرب .

وفى المساء ذاته ، اتخذت لجنة الحزب البلشفى فى حى نارفا قرارا حول جذب الجنود العاملين فى مصنع بوتيلوفسكى للنضال الى جانب الطبقة العاملة .

شد سكان العاصمة الحزم على البطون . كان احتياطى الطحين يبلغ ٥٠٠ الف بود . وهذا لا يكفى الا لمدة ١٠ ايام او ١٢ يوما فقط ، فى حالة صرف الحد الادنى يوميا اى ٤٠ الف بود .

الجمعة ، ٢٤ فبراير

سجل القيصر فى دفتر يومياته انه قلد الوسام البلجيكـــى «Croix de Guerre» . ابلغته الكسندرا فيودوروفنا برقيـــا من تسارسكويه سيلو ان الابن والبنتين اصيبوا بمرض الحصبـــة . غدت القيصرة الآن مقيدة الى أسرة الاطفال .

وصل عدد المضربين فى بيتروجراد الى ٢٠٠ الف . وانضـــم الطلاب الى العمال فى جزيرة فاسيلييفسكى . وقد اندفع المتظاهرون للوصول الى مركز المدينة ، وظهروا عند جادة نيفسكى . وحاول البوليس ، ومعه وحدات المشاة والخيالـــة ، التى كانت لا تزال تساهم فى عمليات القمع ، تفريقهم مستخدمـــة الضرب بالسياط واعقاب البنادق والسيوف . ونحو منتصف النهار ملأ المتظاهرون ساحة زنامينسكايا . قوبلت شرطة الخيالة ، التى حاولت عرقلة سير المظاهرات ، بالصفير وصراخ الاحتجاج وبوابل من قطع الاخشاب وشظايا الجليـــد . . . وحتى وقت متأخر من المســـاء استمرت الاجتماعات فى شارع نيفسكى ، ودوت الخطب الحماسية . وشعار «الخبز !» الذى ساد فى السابق ، غرق الآن بين الرايات التى كتب عليها «تسقط القيصرية ! تسقط الحرب !» .

في ذلك اليوم قرر المكتب الروسى للجنة المركزية لحـــزب البلاشفة تطوير الحركة لاحقا بشكـــل نشيط لتتحول الى اضراب سياسى شامل ، وتنشيط الدعاية بين الجنود . وتقرر ايضا اعلام «المدن القريبة من العاصمة» ومنظمـــة الحزب فى موسكو بمجرى الاحداث على نطاق واسع .

اصدر القيصر فى موجيليف امرا الى الكسييف بان يبلغ تلغرافيا قائد منطقة بيتروجراد العسكريـــة الجنرال خابالوف بانه كلف بقيادة جميع العمليات التأديبية فى العاصمة .

عقد مجلس الوزراء ، شأنه عادة فى كل يوم جمعة ، اجتماعا فى قصر مارييسكى . وعندما خرج الوزراء من الاجتماع تبين لهـــم بدهشة انهم لا يقدرون على الوصول الى بيوتهم ، ولم يستطـــع رئيس الوزراء جوليتسين ، مثلا ، بلوغ بيته فى موخوفايا التى سد المتظاهرون الطريق اليها .

فيما بعد ، أخذ المختصون الغربيون فى الشؤون السوفييتيـة يلومون الحكومة القيصرية بحدة على تساهلها فى هذا اليوم الثانى مع الاضطرابات الجماهيرية . وفى رأيهم انه «كان لا يزال بالامكان انقاذ الكثير» . ان ميسى وفرينكليند وهاركييف قد وصموا وزير الداخلية بروتوبوبوف وقائد منطقة بيتروجراد العسكرية خابالوف بتهمة «انعدام الكفاءة» . وهم يعتبرون انهما «لم يتخذا اية اجراءات احترازية ، وما اتخذاه كان مشوشا ومشتتا . . . فقد طوق بعض مناطق المدينة وبقى البعض الآخر مفتوحا» . اى انهما «لم يبديـــا تلك المواصفات التى يقتضيها منصباهما فى مثل هذه اللحظات» . وكان خابالوف «يفتقر لملكة تقييم الوضع ولخطـة السيطرة عـــلى الفوضى الجماعية وللقدرة على منع التجمعات الصغيرة من الاتحاد مع الكبيرة ». اما بروتوبوبوف ، فانه «اخذ يفقد اعصابه عند اولى علائم العصيان المنظم» . واتضح انه «حتى اولئـــك الناس الذين سماهم القيصر عام ١٩٠٥ دجاجات جبانة يمكن اعتبارهـــم نسورا مقدامة قياسا الى هذين الاثنين» .

يحاول حملة السلاح الروحيون لممارسى القمع المعاصرين من ولايتى لويزيانا والاباما العودة الى الوراء واعطاء درس لرجال الدرك القيصرى حول الطريقة التى كان ينبغى عليهم اتباعهـا فى شوارع

بيتروجراد فى فبراير عام ١٩١٧ ، حين بلغت الامور حدا لم يكن معه بمقدور اى شىء تلافى سقوط الحكم المطلق .

السبت ، ٢٥ فبراير

تطورت الحركة فى هذا اليوم الى اضراب سياسى شامل اشترك فيه اكثر من ٣٠٠ الف شخص . تدفقت سيول الناس بشكل جامح من الاحياء العمالية الى مركز المدينة . ونمت صفوف المتظاهرين . فقد خرجت الى الشوارع الغالبية العظمى من سكان العاصمة . وغدا المنتفضون سادة الشوارع الحقيقيين . وهربت قوات البوليس من الضواحى العمالية وتجمعت فى مركز المدينة محاولة خلق حاجز هناك فى وجه الجماهير الهائجـــة . طوقت الجسور واغلقت حتى ممرات الجليد على نهر نيفا . دوت الطلقات الاولى ضد المتظاهرين العزل وسقط اوائل القتلى والجرحى . لقد بدأت المعارك الضاريـــة بين العمال والبوليس .

اجتمع منذ الصباح ممثلو مكتب اللجنة المركزيـــة ولجنـــة بيتروجراد للحزب البلشفى . وتقرر التوسيع اللاحـق للعمليات الهجومية ، واقامـــــة المتاريس والدعوة لتآخى العمال والجنود . واتخذت الاجراءات من اجل جعل حركة بروليتاريا بيتروجراد تحظى بصدى فى البلاد كلها . واعتبر كسب جماهير الجنود الى جانب الثورة قضية ذات اهمية خاصة . ووزعت لجنـــة بيتروجراد للحـــزب الاشتراكي-الديمقراطى (البلشفى) فى روسيا منشورا موجهـــا الى «الاخوة الجنود» . وفى هذا اليوم خاطر البلاشفة بارواحهم ، حيث دخلوا الثكنات العسكريـــة وناقشوا الجنود او نظموا المظاهرات بالقرب من الثكنات وطرحوا الشعارات الثوريـــة . وباختصار ، استغلوا كل لحظة مواتية لكى يدعوا الجنود الى الاتحاد مع العمال .

بعث خابالوف برقية الى الكسييف فى مقر القيادة يخبره فيهـــا بان «المتظاهرين غنوا الاناشيد الثورية» ورفعوا اعلاما حمراء كتب عليها «لتسقط الحرب» . هرع فصيل الخيالـــة وفتح النار عـــلى الجماهير ، فقتل اثنان وجرح عشرة من العمال . وفى ذلك اليـــوم قال بيلايف وزير الحربية لخابالوف : «سيكون هناك انطباع فظيع لدى حلفائنا عندما ستتفرق الجماهير وتظل الجثث مطروحة فى شارع نيفسكى» .

ارسل بروتوبوبوف برقية الى فوييكوف فى مقر القيادة ينبئه فيها بمقتل رئيس مركز البوليس كريلوف ، وبان الجماهير انزلت من على ظهر الحصان عقيد البوليس شالفييف وانهالت عليه ضربا . وتضيف البرقية انه يلاحظ اكثر فاكثر تعاطف الجنود مع المتظاهرين . فحين يفر «الفراعنة» امام العمال يأخذ الجنود بالضحك .

اعلن خابالوف : اذا لم يعد العمال الى اعمالهم حتى يوم الثلاثاء فان جميع المجندين الجدد المدعوين للخدمة فى اعوام ١٩١٧ و١٩١٨ و١٩١٩ ، الذين اجلت دعوتهم سيساقون الى الجيش ويرسلون الى الجبهة .

عقد الوزراء اجتماعا استثنائيا فى شقة جوليتسين فى موخوفايا . بالرغم من ان رئيس الوزراء طلب عدة مرات من خابالوف تخصيص حماية له شخصيا ، فاكد خابالوف له بانه ارسل لهذا الغرض سرية احاطت بموخوفايا من كلا الجانبين ، الا انه لم يلاحظ فى الواقع وجود مثل هذه الحماية . وفى الاجتماع اصر الوزراء بيلايف ودوبروفولسكى وريتيخ على ضرورة قمع الاضطرابات بالقوة المسلحة . قال جوليتسين فيما بعد ان خابالوف فى هذه الجلسة بدا له «خاملا جدا وشحيح المعارف وبطيء التفكير ، واما تقريره فمشوش» .

ظل القيصر فى مقر القيادة هادئا ومتمسكا بجدول العمل اليومى المعتاد : من ٩,٣٠ الى ١٢,٣٠ – العمل مع رئيس الاركان الكسييف ، ثم الفطور ، وفى الثانية ظهرا – جولة فى السيارة ، وفى الخامسة – شرب الشاى ، وفى ٧,٣٠ مساء – الغداء . . . وكان رئيس مجلس الدوما رودزيانكو يزعجه بالتقارير المقلقة ، التى يحذر فيها من الكارثة المحدقة ، وينذر ويطالب . بماذا ؟ بالتنازلات . بالتسهيلات . بتشكيل حكومة «الثقة الاجتماعية» البرجوازية التى بامكانها ان تخوض الحرب بشكل افضل ، وان تكون مسؤولة عن تصرفاتها امام مجلس الدوما . العاصفة قادمة يا صاحب الجلالة ، عجلوا بالمناورات ، والا فسيهتز كل شيء وينهار .

ولكنه ، شأنه سابقا ، عندما كان يجلس على ظهر مركبه ، لا يرغب . ولن تكون هناك تنازلات .

حسب اعتقاد القيصر ، كان من اللازم آنذاك ايضا ، فى عام ١٩٠٥ ، المضى فى الدفاع حتى النهاية . ولكنه الآن عالم بمثل هذه القضايا . فلن يخدع . ولن تكون هناك تارجحات .

وكما قبل اثنى عشر عاما ، يمد يده الى السوط ، فى حركة اعتاد عليها .

بعد ما خرج الامبراطور من مكتبه مساء ليزور دار السينما التابعة للقيادة توقف فى الطريق لعدة دقائق عند خط الهاتف المباشر واملى برقية على خابالوف : «آمر بان يوقف غدا الاخلال بالنظام فى العاصمة الذى لا يمكن السكوت عنه فى هذا الوقت العصيب من الحرب مع المانيا والنمسا . نيقولاى» .

لا ينجم عن هذه البرقية ، طبعا ، ان صاحبها كان يعتبر الاخلال بالنظام امرا «يمكن السكوت عنه» قبل «زمن الحرب العصيب» . لكنه فى الاوقات الاخرى لم يكن يضع للمنكلين مثل هذه المواعيد القاسية . ليس امام خابالوف الآن سوى يوم واحد . ويريد العسكرى القديم خابالوف ، الذى هو نسخة طبق الاصل لنظيره الموسكوفى دوباسوف ، تنفيذ الامر فى الوقت المحدد .

لم تمض الا ثلاثة اسابيع حتى مثل خابالوف امام لجنة التحقيق الاستثنائية وجرى بينه وبين رئيسها هذا الحوار :

خابالوف : حوالى الساعة العاشرة تلقيت برقية موقعة من جلالته تقول : «آمر بان يوقف غدا الاخلال بالنظام فى العاصمة» .

الرئيس : اين هذه البرقية الآن ، يا جنرال ؟

خابالوف : لا استطيع ان اقول لكم . فقد اوصلتها الى رئيس الاركان . . . ربما اعادها الىّ ، ولكن لا اتذكر الآن ذلك . . .

الرئيس . وماذا جرى بعد ذلك ؟

خابالوف : هذه البرقية . . . ماذا اقول لكم ؟ . . انها صعقتنى . . . كيف استطيع غدا وقف الاخلال بالنظام ؟ حين قالوا «اعطونا خبزا» ـ اعطينا الخبز وانتهى الامر . ولكن حين يسجل فوق الرايات شعار «ليسقط الحكم المطلق» — فاى خبز هنا يهدئ الامر ؟ ما العمل اذا ؟ القيصر أمر ، وهذا يعنى ضرورة اطلاق النار . . .

وتابع خابالوف قائلا انه بعد ساعة على استلام هذه البرقية جمع فى مكتبه رؤساء اقسام البوليس وقادتها العسكريين .

الرئيس : كان ذلك فى ٢٥ فبراير ؟

خابالوف : بالضبط تماما . . . وعندما اجتمعوا قرأت عليهم البرقية .

الرئيس : وماذا بعد ؟

خابالوف : وعندها اعلنت لهم : ايها السادة ! لقد امر القيصر . . . انها الوسيلة الاخيرة ويجب استخدامها . . . اذا كانت الجمهرة صغيرة ومن دون رايات – استخدموا ضدها الخيالة وفرقوها بالسياط . . . اما اذا كانت الجمهرة ذات مزاج عدوانى وتحمل الرايات فافتحوا عليها النار بعد توجيه اشارة الانذار ثلاث مرات !

الرئيس : الم يصبكم الاعياء ايها الجنرال ؟ لربما احتجتم لقدح من الماء ؟

خابالوف : كلا ، اشكركم . . . انا هادئ الاعصاب تماما .

الاحد ، ٢٦ فبراير

دخل الامر القيصرى حيز التنفيذ . وحين اراد المضربون والمتظاهرون الاندفاع من جديد نحو مركز المدينة اصدر خابالوف وبروتوبوبوف أمرا بمواجهتهم بالرصاص . اضحت بيتروجراد اشبه بمعسكر . واخذ رجال البوليس المسلحون مواقع لهم فوق السطوح وجملونات البنايات العالية ، وعلى قباب الاجراس وابراج المطافئ . ومن هذه المواقع المرتفعة فتحوا النار على العمال . اطلق البوليس عيارات المدافع الرشاشة على طول شارع نيفسكى ، وغطى بنيرانه الشوارع المحاذية له وانهال بحممه على الجسور . وهاجمت فصائل خيالة الجندرمة المتظاهرين فى كل مكان ، تقطع اوصالهم بالسيوف وترميهم بالرصاص عن كثب . وسقط ٤٠ قتيلا فى ساحة زنامينسكايا وحدها .

لم يبق امام الشعب غير حمل السلاح والدخول فى معركة ضد اعوان الحكم المطلق . وبقرار من قيادة حزب البلاشفة فى بيتروجراد أخذ الاضراب السياسى الشامل يتحول الى انتفاضة مسلحة .

غير ان الخصم كان قد استعد هو الآخر .

كان الصراع المسلح مع النظام القديم معقدا ، صعبا ومحفوفا بالمخاطر . ولم تكن النتيجة الممكنة لهذا الصراع واضحة ابدا فى الايام الاولى . كانت الثورة لا تشبه ابدا نزهة المتظاهرين المرحين والجذلين ذوى الاشرطة الحمراء ، كما يصورها المختصون المعاصرون بالشؤون السوفييتية . كانت تتطلب من ابطالها الشجاعة والرجولة . وقد تأتى على العديد منهم ملاقاة الموت وجها لوجه . فى المرحلة الاولى ، وخاصة قبل انتقال الجنود الى جانب الشعب الثائر ، كان تفوق السلطات فى الافراد عاليا فى العديد من

احياء المدينة . يتضح من معطيات المسؤولين فى المدينة ان القوات التى خصصت فى البدء لقمع الثورة كانت تحوى على ٥٥ سرية مشاة ، و٢٣ فصيلا من القوزاق وسرية خيالة واحدة ، اى اكثر من ٢٠ كتيبة . ووقفت الى جانبهم (قبل الانضمام للانتفاضة) حامية بيتروجراد البالغ عدد افرادها ١٨٠ الف عسكرى . ويجب ان نضيف الى ذلك ٨٠ الفا من افراد بوليس بيتروجراد ومن ضمنهم ٥ آلاف تدربوا خصيصا على «مكافحة التجمعات فى الشوارع» . وبمساعدة هذه القوى جميعها ، كانت السلطات تنوى ، كما ذكر بروتوبوبوف فى التحقيق بعد ثورة فبراير ، قمع اى تحرك ثورى فى بيتروجراد فى خلال اربعة ايام كحد اقصى . وقد اعدت مسبقا خطة استخدام هذه القوى وخارطة تقسيم المدينة الى «وحدات» ، و«الوحدات» الى «مناطق» ، وتوزيع اكثر من ٢٥٠ الف مسلح على هذه الاماكن .

كانت نداءات الحزب البلشفى الموجهة الى الجنود تدوى اكثر فاكثر . يبدأ المنشور الذى وزعته لجنة بيتروجراد لحزب البلاشفة على الجنود ذلك اليوم بهذه الكلمات : «الى الاخوة الجنود ! لليوم الثالث ندعو علنا ، نحن عمال بيتروجراد ، للقضاء على الحكم المطلق المسؤول عن اراقة دم الشعب وعن الجوع فى البلاد ، والذى حكم بالموت على نسائكم واطفالكم ، امهاتكم واشقائكم . . .» .

اعطى العمل الذى قام به الحزب لفترة طويلة بين الجنود ثماره . ففى ذلك اليوم ثار جنود السرية الرابعة من كتيبة الاحتياط فى فوج بافلوفسكى المتذمرون من مشاركة الهيئة التدريسية للفوج فى فتح النار على العمال . وقد خرجوا من ثكناتهم واطلقوا الرصاص على فصائل خيالة البوليس . وكان ذلك اول انتقال لوحدة عسكرية برمتها الى جانب الثورة .

جرى اجتماع خاص فى موخوفايا عند جوليتسين . كان بروتوبوبوف فى حالة ارتباك شديد بحيث انه اخذ يطالب باختطاف رودزيانكو . يعلق دوبينسكى فى مذكراته قائلا : «اول ما كان يجب عمله – هو التخلص من بروتوبوبوف نفسه» . لاحظ الوزراء بدهشة ان يدى خابالوف ترتعشان ، وقد فقد توازنه . وتبين

انه تمادى فى صرف الخراطيش بحيث لن يجد قريبا ما يواجه به المتظاهرين . وكان قد طلب من كرونشتادت اقراضه بعض الذخيرة . غير ان الرؤساء هناك كانوا انفسهم يخشون من اندلاع الانتفاضة ويحرصون على احتياطياتهم . وعلاوة على ذلك ، لم يكن خابالوف يستطيع تأمين عدد من المدرعات التى كان فى امس الحاجة اليها . طلب من مصنع بوتيلوفسكى فلم يعطه ، وتوجه الى قائد المدرعات الجنرال سيكريتوف ، ولكن بلا نتيجة ايضا . ولما كان ارتباك خابالوف واضحا تماما ، تقرر ارسال رئيس الاركان العامة الجنرال زانكيفيتش للقيام بمساعدته .

وفى هذا الاجتماع تقرر كذلك اعلان حالة الطوارىء فى بيتروجراد . صدر الامر الى خابالوف باعداد الاعلان . حاول خابالوف لاحقا طبع الف نسخة من هذا الاعلان فى مطبعة ادارة المدينة الا ان المسؤولين هناك رفضوا استلام طلبه . ولكنه استطاع اخيرا بشكل ما طبع الاعلان فى مطبعة الادميرالية . اتضح فيما بعد انه لا يمكن لصق الاعلانات على جدران المدينة ، فقد قال رئيس المدينة بالك انه يفتقر الى ما يلزم للقيام بهذا العمل ، اذ ليس لديه عمال ولا فراش ولا صمغ . عندها دعا خابالوف اثنين من رجال البوليس وامرهما شخصيا بتعليق ولو عدد من الاعلانات على سياج حديقة الكساندروفسكى . ذهبا لتنفيذ الامر ، ولكن ما ان حل المساء حتى وجدت هذه الاعلانات مرمية فى ساحة الادميرالية امام بناية رئاسة المدينة .

قامت السلطات بمحاولة تهدف الى حرمان الحركة من قيادتها ، فشنت حملة اعتقالات فى جميع الاحياء ضد البلاشفة ، بمن فى ذلك اعضاء لجنة الحزب فى بيتروجراد .

وعند اواخر النهار اصدر مكتب الحزب الاشتراكى-الديمقراطى (البلشفى) فى روسيا بيانا جاء فيه : «تدوى رشقات الرصاص على طول شارع نيفسكى ، وعند ساحة زنامينسكايا ، وفى اماكن اخرى . انهم يطلقون النار من الرشاشات ، وهناك العديد من القتلى والجرحى» .

من اليوم الخامس الى الثامن

الاثنين ، ٢٧ فبراير

بلغت الانتفاضة المسلحة التي دعا اليها البلاشفة ذروتها . وصدر بيان اللجنة المركزية لحزب البلاشفة «الى جميع مواطني روسيا» ، الذي يعتبر احدى اهم الوثائق السياسية لتلك الفترة . دعا البيان الى تشكيل حكومة ثورية مؤقتة تلتزم باعلان الجمهورية ، وطالب بجعل يوم العمل من ٨ ساعات ، وبمصادرة اراضي الاقطاعيين وتوزيعها على الشعب ، وبوقف الحرب الامبريالية وضمان سلم ديمقراطي . وهذا يدل ، كما يكتب الاكاديمي مينتس ، على ان حزب البلاشفة كان «الاول والوحيد من بين الاحزاب ، الذي اعلن ، حتى قبل الانتصار النهائي للثورة ، برنامجه وشعاراته الثورية وقدم اقتراحات ملموسة بشأن التطور اللاحق للثورة» .

اقتحم العمال مستودع السلاح الرئيسي واستولوا عليه واخذوا منه ٤٠ الف بندقية و٣٠ الف مسدس . وساعد الجنود العمال في التسلح . لقد حدث انعطاف نهائي في مزاج جنود الحامية . فكانوا يلتحقون بالعمال وحدة اثر اخرى . وتوجه جنود فوج فولينسكي الثائرون نحو ثكن الفوجين المجاورين – ليتوفسكي وبريوبراجينسكي – واخرجوا الجنود الى الشارع ، ثم اتجهوا جميعا الى ثكن فوج موسكوفسكي الذي اعلن بدوره الانضمام الى الشعب . اذا كان عدد الجنود الذين انضموا الى الثورة صباح هذا اليوم بلغ ١٠٢٠٠ جندي ، فقد وصل في منتصف النهار الى ٢٥٧٠٠ ، وفي المساء الى ٦٦٧٠٠ ، اما في نهاية اليوم التالي فبلغ ١٢٧ الفا . وخاض العمال يدعمهم الجنود المعارك من اجل تطهير المدينة من «الفراعنة» حيا بعد حي وشارعا بعد شارع .

بيد ان المدافعين عن العرش بقيادة خابالوف واصلوا مقاومتهم منفذين اوامر القيصر . وقد ابرق الى القيادة مخبرا بان المعارك تدور الآن في مختلف احياء المدينة وبالاخص في ليجوفكا وساحة زنامينسكايا وعند تقاطع شارع نيفسكي مع شارع فلاديميرسكي وشارع سادوفايا ، وانه وقع قتلى وجرحى «اخذتهم الجماهير معها اثناء تفرقها» .

زج بالفصيل الذى يقوده العقيد كوتيبوف ، والمكون من ست سرايا مشاة وسرية ونصف من الخيالــة المسلحين بخمسة عشر مدفعا رشاشا ، فى هجوم على منطقة قصر تافريدا . ولكن ما لبث كوتيبوف ان ابلغ القيادة بانه لا يستطيع التقدم ابعد من شارعى كيروتشنايا وسباسكايا . ان «قبضة كوتيبوف» هذه التى بلغ عدد افرادها عند خروجهم من ساحة القصر ١٥٠٠ من جنود التنكيــل المدججين بالسلاح «تلاشت بلا اثر» خلف شارع كيروتشنايا حتى دون ان تقترب من الهدف . وبعد ذلك وصل خبر الى خابالوف مفاده ان الجماهير المتدفقة من شارع سامسونيفسكى استطاعت تحطيــم سرية الرشاشات المسؤولة عن حماية جسر ليتيينى مــن جهـــة فيبورجسكايا ستورونا .

تلفن رودزيانكو الى بيلايف ونصحه بتفريق الجماهير بميــاه خراطيم الاطفاء . ابلغ بيلايف هذا الامر بالتلفون لخابالوف ، الا ان الاخير اعترض قائلا ان «الرش بالمياه لا يؤدى الا الى رد فعل معاكس ، اى انه يثير الجماهير اكثر» . اضافة الى ذلك ، مــن الواضح من امر جلالته انه يلـــزم رش المنتفضين بالرصاص لا بالماء . . .

سار رودزيانكو على الكورنيش ، مراقبا العمال وهم يسيرون على جليد نهر نيفا الى مركز المدينة متجنبين الجسور المغلقة . وعند عودته الى البيت وجد امامه امرا قيصريا يقول : «بناء على المادة ٩٩ من القوانين الاساسية نأمر بايقاف مناقشات دوما الدولـــة اعتبارا من ٢٦ فبراير من العام الجارى وتعيين موعد استئنافها فى شهر ابريل عام ١٩١٧ كحد اقصى . . . نيقولاى» . هرع رودزيانكو الى قصر تافريدا حيث مرر من خلال مجلس الشيوخ قرارا ينص على الخضوع لامر القيصر ، ولكن لا يجوز الخروج من القصر ، بل يجب على الجميع البقاء فى اماكنهم فى مختلف القاعات .

فى ذلك اليوم بالذات بدأ سوفييت بتروجراد لنواب العمال والجنود نشاطه فى قصر تافريدا . وبجهود جماعة رودزيانكـــو شكلت هناك ايضا وفى الوقت نفسه لجنة دوما الدولة المؤقتة . وبهذا الشكل بدا وكأن الثورة قسمت قصر تافريدا الى قسمين : حط فى احدهما سوفييت العمال والجنود ، وفى الآخر — ممثلــو المجموعات السياسية البرجوازية التى وجهت جهودها منذ الساعات

الاولى للثورة نحو انقاذ القيصرية ولابقاء على سلالـة رومانوف فى السلطة .

بتشكيل سوفييت العمال والجنود «احبطت بروليتاريا بيتروجراد محاولة لجنة دوما الدولة المؤقتة الرامية الى اقامة سلطة البرجوازية المطلقة بعد انتصار الثورة . . . غير ان السوفييت ايضا لم يصبح السلطة الوحيدة فى البلاد . فقد تكون تداخل فريد الى اقصى حـد بين سلطتين ، بين دكتاتوريتين - دكتاتورية البرجوازية فى شخص الحكومة المؤقتة ودكتاتوريـة البروليتاريا والفلاحين الثوريـة-الديمقراطية فى شخص سوفييت بيتروجراد» .

كان قادة المناشفة لا يزالون فى تلك الايام مهيمنين عـلى السوفييت . وقد ارعبهم نطاق الحركة فراحـوا يحاولون مـع الاشتراكيين-الثوريين توجيه السيل الثورى نحو المجرى الهادئ لنظام برلمانى برجوازى «طبيعى» . ولما كان المناشفة لا يؤمنون بالامكانات الابداعية لدى البروليتاريا ولا يفهمون مغزى اجهـزة السلطة الجديدة التى شكلتها ، خافوا الانفصال عن البرجوازيـة الليبرالية والوقوف ضدها . كانوا بالاقوال لا مع الديمقراطيـة فحسب ، وانما مع الاشتراكية ايضا ، اما فى الواقع فكانوا يميلون الى الطريق البرجوازى-الديمقراطى لتطور البلاد . وبالنتيجة تشكل فى قيادة سوفييت بيتروجراد تحالف بين المناشفة والاشتراكيين-الثوريين ، انتهج خط التسليم الطوعى للسلطة الى البرجوازية ، بدلا من النضال فى سبيل التطوير اللاحق للثورة . وهرع الساسة البرجوازيون الى استغلال ذلك .

فى الوقت الذى كان فيه التوفيقيـون يحاولـون اقناع نواب السوفييت بان البرجوازية تساعد على تثبيـت منجزات الثورة ، كانت لجنة دوما الدولة المؤقتة تبذل كل ما فى وسعها لاستغلال الثورة من اجل اهدافها التى تخدم القيصرية ، ومن اجل ربح الوقت ، وارغام نيقولاى الثانى على التنازل «لان ذلك فى مصلحته» . كانـت البرجوازية فى شخص مجموعة رودزيانكو تتطلع الى الاستئثـار بقيادة الثورة لكى تخمدها وتكبح سيرها وتبعد الضربات عن اسرة رومانوف ، ويمكن فى اقصى الحالات ، التضحية بنيقولاى من اجـل ذلك .

واصل رودزيانكو فى هذا اليوم اغراق نيقولاى الثانى بالرسائل العاجلة . وما انفك يقنعه بابداء المرونــة وتقديـم التنازلات ، وينصحه بالغاء قرار حل دوما الدولة ، ويطلب منه تشكيل حكومة «ذات مسؤولية» . غير ان رودزيانكو وزملاءه دقوا الناقوس ، ولم يكن ذلك لظمئهم الى «التجديد الديمقراطى» بقدر خوفهم من الثورة ورغبتهم فى قمعها فورا . وبهذا المعنى ، لم يكونوا اقل حماســة من القيصر نفسه فى الدفاع عن القيصرية . قد يخيل للبعض انهـم كانوا يقودون نضالات الجماهير وهذا الوهم بالذات هو ما ارادوا ترويجه . وفى الواقع ، كانوا ، خشية من الجماهير ، يتطلعون الى انقاذ القيصرية عن طريق الضغط على القيصر . ومن هنا تاتى تلك العدوانية الغريبة وذلك الحنق الضارى اللذان واجه بهما رودزيانكو القيصر فى تلك الايام . جاء فى احدى برقياته : «الوضع يسير نحو الاسوأ ، يجب اتخاذ اجراءات حالا ، والا فات الاوان غدا . لقد حلت الساعة الاخيرة التى يتقرر فيها مصير الوطن والسلالة القيصرية» . وتدعو برقية اخرى : «اوقفوا ارسال الجيوش ،لانها لن تفعل شيئا ضد الشعب» . وجاء فى برقية ثالثة : «الوضع خطير . . . الحكومة مشلولة . . . فى الشوارع تطلق النار بشكل عشوائى . . . مـــن الضرورى ان يكلف فورا شخص يتمتع بثقة البلاد بتشكيل حكومة جديدة . . . ان اى توان يعنى الموت» . ارسلت نســـخ من هذا النداء الى قادة الجبهات مع رجاء بدعم ما جاء فيه امـام القيصر . استجاب بروسيلوف وروزسكى للنداء . وكان رد نيقولاى الثانـى (فى حديث مع فريديريكس) كما يلى : «مرة اخرى كتـــب لى هذا السمين رودزيانكو شتى الترهات التى لن اكلف نفسى حتى باجابتـه عنها ».

غير ان الآخرين ايضا كانوا يمطرونه بمثل هذه «الترهات ». اخوه ميخائيل نصحه بالرضوخ للدوما ، ووزير الحربية بيلايـــف اوصاه بالمرونـــــة . والامـيـر لفوف اوحـى لـه بالمساومـة . وجوليتسين ، آخر رئيس وزراء قيصرى ، طلب الاستقالة : انـه على استعداد للتنازل عن منصبه طوعا لكل من يستطيع التفاهم مع مجلس الدوما ، المهم ان يسوى ويهدأ كل شىء . . . واخيرا رفع خابالوف عقيرته ايضا : «بلغت الفوضى حدا لا يطاق» ، واتضح انها اسفرت عما لا يمكن السيطرة عليه «غدا» ولا «بعد غـــد»

ولا فى المستقبل المنظور عموما ؛ ولكى يحافظ الجنرال على مواقعه الحربية الاخيرة فى بهو واروقة الادميرالية البحرية كان يلزمه وعد بالتسهيلات الليبرالية من القيصر يستخدمه للالتفاف على العدو من الخلف .

اخذ العرش بالتصدع والاهتزاز . الا ان القيصر لم يلاحظ ذلك . لقد جبن الآخرون ، فراحوا يترنحون كالمجانين . اما القيصر فليس مثلهم ، انه هادئ واثق بنفسه ويعرف ماذا يعمل . والتنازل للعصاة – ليس من طبعه . فى جعبته وسيلة جربت فى الممارسة مرارا ، انها الحملة التأديبية .

دعى الجنرال نيقولاى يهوذوفيتش ايفانوف الى مكتب القيصر . وهو رجل دحداح ، ذو صوت اجش ولحية عريضة وعينين ضيقتين تنمان عن الحيلة والمكر ، وانف كمنقار البطة عليه ثؤلولة . ولقد انحدر من الفئات الانيا . وما زالت الاقاويل الغامضة والسيئة تدور حوله منذ عام ١٩٠٥ : على يده القاسية قمعت آنذاك انتفاضة البحارة الثوريين فى كرونشتادت . كما وان له ميزتين اخريين : اولا – انه عراب ولى العهد ، وثانيا – ان القيصر مدين له بالحصول على وسام صليب جيورجى الذى يعتبر مكافأة حربية رفيعة جدا فى نظر الجيش * .

– نيقولاى يهوذوفيتش ، هل تقارعون بيتروجراد من اجل ابنكم فى العماد ، ومن اجل مستقبله ؟

– اقارعها ، يا صاحب الجلالة . ولكن باى شيء ، ان سمحتم لى بالسؤال ؟

أخذ القيصر يعدد القطعات والوحدات التى ستكون تحت امرته .

– وهل ستكون هناك رشاشات من طراز «كولت» ؟

– فصيلة كاملة من حاملى هذه الرشاشات .

---

* فى خريف عام ١٩١٥ زار نيقولاى الثانى مع ابنه الجبهة وتفقد المواقع الامامية بالقرب من محطة كليفين . وبعد هذه الزيارة اتخذ الحائزون وسام القديس جيورجى فى الجبهة الجنوبية-الغربية هذا القرار : «من خلال اقدم حائز لوسام جيورجى ، الجنرال ايفانوف ، نتوسل راكعين عند اقدام القيصر لكى يشملنا برحمته ويحمل وسام جيورجى من الدرجة الرابعة» (فوييكوف . «مع القيصر وبدونه» . مذكرات آخر قومندان لقصر الامبراطور نيقولاى الثانى . جيلسينجفورس ، ١٩٣٦ ، ص ١٤٥) .

– سمعا وطاعة ، يا صاحب الجلالة .
– هل ستقمعون بيتروجراد ، يا نيقولاى يهوذوفيتش ؟
– اقمعها مهما كلف الامر ، يا صاحب الجلالة .

بعد ان تحدث القيصر الى الكسييف عين ايفانوف قائدا لمنطقة بيتروجراد العسكرية (بدلا من خابالوف) ، وامره بالتوجه فورا الى بيتروجراد حال تشكيل قواته . فى الوثيقة الشخصية ذات الرقم ٣٧١٦ التى تحمل توقيعى الكسييف والجنرال المناوب كوندزيروفسكى التكليف القيصرى لايفانوف بان «يعيد النظام التام الى العاصمة وضواحيها» . وقد انيطت بالجنرال صلاحيات مطلقة . وحالما سيدخل الى بيتروجراد سيخضع له خضوعا تاما جميع الوزراء والشخصيات الرسمية الرفيعة الاخرى .

يفضل المؤلفون الغربيون الذين يكتبون عن ثورة فبراير اما السكوت المطبق عن حملة ايفانوف التأديبية ، واما الحديث عنها بشكل غامض وغير مفهوم وعلى عجل بحيث يبدو وكأن الامر يخص قضية تافهة لا تستحق الاهتمام . وهم يريدون خلق انطباع يوحى بان القيصر لم يعتزم القيام بأى شيء جدى ، وان موافقة ايفانوف على قيادة الحملة تعود فقط الى كونه قد حصل من القيصر على وعد بنشر الليبرالية فى الدولة والمجتمع . فى حين ان القيصر لم يعد بشيء من هذا القبيل ، وايفانوف لم يسأله ذلك . واذا كان الجنرال طلب شيئا ، فهو المزيد من الجيوش والعتاد . وهذا ما حصل عليه .

بأمر شخصى من القيصر نيقولاى الثانى وضعت تحت تصرف ايفانوف قوات غير قليلة . من الجبهة الشمالية : الافواج ٦٧ ، ٦٨ (مشاة) ، و١٥ و٣ (خيالة) . ومن الجبهة الغربية : الفوجان ٣٤ ، ٣٦ (مشاة) ، والفوج الثانى لقوزاق الدون – والفوج الثانى لفرسان بافلوجراد مع بطاريتى مدفعية . وكان من المفروض ان تصل لاحقا وحدات من الجبهة الجنوبية-الغربية . وضم القيصر الى قوام قوات التنكيل كتيبتى حملة اوسمة القديس جيورجى من حرسه الشخصى فى مقر القيادة ، بالاضافة الى عدد من وحدات المدفعية . وكان على هذه الجيوش جميعها ان تتمركز فى اقرب وقت فى منطقة تسارسكويه سيلو ومحطة الكساندروفسكايا القريبة منها لكى تبدأ من هناك هجومها على العاصمة .

فى الوقت الذى كان فيه ايفانوف يستعد لحملته ، اقتربت عمليات خابالوف من نهايتها . وفى آخر هذا اليوم (٢٧ فبراير) سيطر العمال والجنود الثائرون على بيتروجراد . انتقلت الى ايدى الشعب جميع المواقع الستراتيجية - الجسور ، محطات القطارات ، دائرة البريد المركزى ، التلغراف ، مستودع الذخيرة الرئيسى واهم المبانى الحكومية . ولم تثمر عن اى شىء محاولة خابالوف لدعوة الجيش من ضواحى بيتروجراد . فقد اخذ الجنود فى كل مكان ينتقلون الى جانب الشعب . الا ان وزير الحربية بيلايف ، وقائد المنطقة العسكرية خابالوف ، ورئيس الاركان العامة زانكيفيتش كانوا لا يزالون يجلسون فى الادميرالية محتفظين بخط الدفاع الاخير . وكان معهم الامير الكبير ميخائيل - شقيق القيصر . كان بحوزتهم ١٥٠٠ جندى ، و١٥ رشاشا ، ومدفعان . وقد اتخذوا مواقع لهم على طول واجهة البناية وفى زواياها بحيث اضحت تحت رقابتهم شوارع نيفسكى وفوزنيسينسكى وجوروخوفايا ، اى مداخل المدينة من جهة محطات القطار الثلاث . كانوا لا يزالون يعولون على قدوم ايفانوف . جلس خلف الرشاش عند النافذة المطلة على جادة نيفسكى الجنرالان تياجيلنيكوف وميخايليتشينكو . كان يصلهما صوت بيلايف من الغرفة المجاورة وهو يملى برقية موجهة الى رئيس اركان القيادة (نسخة الى قومندان القصر) : «ننتظر وصول الجيش باسرع وقت» .

فى تلك الساعات ، وكان الدم لا يزال يسيل فى شوارع العاصمة ، كتب القيصر فى دفتر يومياته : «كتبت الى أليكس (الكسندرا) وذهبت الى الكنيسة على طريق بوبرويسك وتنزهت هناك . . . بعد شرب الشاى قرأت ثم استقبلت السناتور تريجوبوف قبل الغداء . فى المساء لعبت الدومينو» .

لعب مع الجنرال فويكوف الدومينو ، ولعب مع رودزيانكو - غيابيا - لعبة الغميضة . . . والآن بقى عليه ان يلعب مع ايفانوف . ولكن لعبه بكل اشكاله يشارف عموما على الانتهاء .

الثلاثاء ، ٢٨ فبراير

بعث ايفانوف ، عشية البدء بحملته بالرسالتين التاليتين :

الى رئيس اركان القيادة
٢٨ فبراير عام ١٩١٧ ، الرقم ١
امر جلالته الامبراطور بابلاغكم ان تحيطوا رئيس مجلس الوزراء علما بان على جميع الوزراء تنفيذ كل ما يطلبه الجنرال ايفانوف دون اعتراض .
ايفانوف

الى قومندان تسارسكويه سيلو
٢٨ فبراير عام ١٩١٧ ، الرقم ٤

ارجو تهيئة اماكن لعسكرة ١٣ كتيبة و١٦ سرية للخيالة و٤ بطاريات ، واعلامي بالنتيجة غدا ، الاول من مارس في محطة تسارسكويه سيلو .
ايفانوف

وقبيل ذلك كان بينكيندورف قد تلفن الى مقر القيادة بتكليف من القيصرة واخبرهم بانه لما كان من «المتوقع ان يتحرك الجمهور الثائر من بيتروجراد الى تسارسكويه سيلو فان القيصرة تنوي الذهاب مع اطفالها الى موجيليف . وبناء على امر القيصر رد فوييكوف على بينكيندورف بانه ينبغي عدم سفر القيصرة لان «جلالته سيحضر بنفسه الى تسارسكويه سيلو» .

ان نيقولاي ، وقد منح ايفانوف كل صلاحيات الدكتاتور والمنكل ، امر باعداد قطاره الخاص . في الساعتين الرابعة والخامسة صباحا تحرك كلا القطارين الخاصين (القطار الامبراطوري وقطار الحاشية المرافق له) على خط اورشا – فيازما – ليخوسلافل – توسنو . وعلى اثر ذلك بعث فوييكوف برقية بالشيفرة يحيط فيها بروتوبوبوف علما بان نيقولاي سيصل الى تسارسكويه سيلو في يوم الاربعاء ، الاول من مارس في الساعة الثالثة والنصف نهارا» .

يعتبر بعض الكتاب الغربيين ، وعلى الاخص رئيس البعثة العسكرية البريطانية السابق في موجيليف جون هينبرى-وليمز ، ان مغادرة القيصر لمقر القيادة كانت «الخطوة الاولى المتهورة والجنونية تقريبا التي قام بها وأدت الى هلاكه وهلاك عائلته» . الا ان بعض المحيطين بنيقولاي الثاني (مثل فوييكوف) يبرر تماما فعلته هذه : كان القيصر محقا حين عقد الامل على قرب المسافة بين تسارسكويه سيلو وبيتروجراد وعلى انه بمساعدة ايفانوف سيستطيع من هناك استعادة سيطرته المفقودة على العاصمة . ويعتبر آخرون (هينبرى-

وليمز ، فرينكلنيند ، الميدينجين ، الكساندروف) ان قرار القيصر بترك موجيليف «كان آخر اخطائه واكثرها حماقـــة فى خلال فترة حكمه كلها» . اذ طالما كان «مختفيا» وسط الجيش المتعدد الملايين فانه كان صعب المنال شخصيا وكان تحت تصرفه ما لا يحصى مـن الوسائل للصراع من اجل استعادة سلطته . «وحينما غادر ملجأه الآمن انخرط فى مغامرة لا معنى لها» .

يتظاهر الكتاب المذكورون كما لو انهم لا يعرفون بان حاميـة بيتروجراد انتقلت كلها تقريبا الى جانب الشعب ، وان الجنرالات فى موجيليف كانوا يتوقعون بخوف مكتوم ومن ساعـــة الى اخرى انتقال التشكيلات العسكرية فى الجبهة ايضا الى جانـب الثورة . استطاع العمال الثائرون ، بعزيمتهم واصرارهم على خوض النضال ، ان يستنهضوا جماهير الجيش ويقودوها خلفهم مدخلين التنظيـــم البروليتارى فى وسط الجنـود والفلاحين . ووجـــد الجنـــود فى البروليتاريا قائدة لهم ، فمضوا خلفها . وفى تلك الايام حطم الجنود مع العمال الطليعيين وتحت قيادتهم مخافر البوليس وكسروا ابواب السجون وقاموا باعتقال وجهـاء النظـام وبتجريـــد افراد الدرك والبوليس من سلاحهم . اتحدت جماهير العمال والجنـــود فى تيار الثورة الشعبية الواحد ، الامر الذى اسبـــغ عـلى الثورة قوة لا تقهر .

كان القواد فى اركان الجبهات والاساطيل ينتظرون من ساعة لاخرى تفجر الوضع فى الجيوش والسفن الواقعة تحت امرتهم . كان يكفى ان تنطلق الشرارة واما انتظارها فلن يكون طويلا على مـا يبدو . . .

دعا القائد العام لجيش القفقاس الامير الكبير نيقولاى قائـــد اسطول البحـــر الاســـود الادميرال كولتشــاك للقدوم الى باتوم لمناقشة الاعمال المشتركة الممكنة . وصل الادميرال على ظهـــر مدمرة . وعند عودة كولتشاك الى السفينة بعد انتهـــاء الاجتماع استلم من رئيس اركانه سميرنوف برقية بالشيفرة من بيتروجراد جاء فيها : «تعم الفوضى العاصمـة . المدينـة فى يد المتمردين . انتقلت الحامية الى جانبهم» . امر كولتشاك بالتلفون قومندان قلعة سيباستوبول : «اقطع كل اتصال فورا ، بما فى ذلك الاتصـــال التلغرافى والبريدى ، بين شبه جزيرة القرم وبقية اجزاء روسيا» .

وصدرت ايضا اوامر كهذه عن القواد العامين الآخرين كل الى جبهته .

عندما كان الراكب الرئيسى للقطار الامبراطورى القادم من موجيليف يجلس على مقعده الوثير غارقا فى قراءة مذكرات يوليوس قيصر ، كانت عجلة مصيره تغذ السير .

فى ذلك الوقت تحركت فصيلة ايفانوف نحو تسارسكويه سيلو على الطريق القصير عبر دنو . ومن اجل تعزيز قواته توجه من الجبهة الشمالية الى تسارسكويه سيلو ، حيث نقطة تجمع قوات القمع ، فوج تاروتينسكى السابع والستون وفوج بورودينسكى الثامن والستون ومن الجبهة الغربية - فوجا مشاة وفوجا خيالة ووحدة رشاشات .

ما ان وصل ايفانوف الى فيتيبسك فى الساعة الخامسة ، حتى اصطدم باولى المصاعب : فقد رفض العمال السماح له بالمضى قدما . . .

فى الساعة الثانية وعشرين دقيقة نهارا بعث بيلايف برقية بالشيفرة الى الكسييف فى مقر القيادة يخبره فيها بان مقر الادميرالية اخلى فى زهاء الساعة الثانية عشرة ظهرا من القطعات التى ظلت مخلصة للحكومة من اجل تلافى تحطيمه . وفى الساعة الرابعة نهارا اكتشف الجنود الثائرون الجنرال خابالوف فى بناية الادميرالية الخالية واعتقلوه . . .

كان القطار القيصرى لا يزال يمضى دون عائق ، وكان يستقبله رؤساء المحافظات وكبار قادة البوليس . فى الطريق انهمك القيصر فى مطالعة كتاب «حرب الغال» ولكنه لم يترك فرصة لتوزيع اوامره على هذا وذاك .

بعث من فيازما برقية لقرينته يطمئنها فيها : «آمل فى انكم تشعرون بالصحة الجيدة والاطمئنان . لقد ارسلت جيوش كثيرة من الجبهة» (فهو لا يعرف بانه يجرى الآن صد ايفانوف) . ومرة اخرى يعلم جوليتسين برقيا بانه غير موافق على اية تغييرات فى الحكومة (فهو لا يعرف ان الحكومة لم يعد لها وجود) ، ويبرق لخابالوف يخبره بان ايفانوف قادم لمساعدته (جاهلا مصير خابالوف) .

اما بم انتهت «ملحمة» خابالوف ، فهذا ما يتضح من محاضر لجنة التحقيق الاستثنائية ذاتها :

خابالوف : كنا نتصور فى الادميرالية ان ناخذ مواقع دفاعية ولهذا الغرض احتللنا الواجهة المطلة على شارع نيفسكى . وقد نصبت المدفعية فى فناء البناية ، وانتشرت قوات المشاة فى الطابق الثانى ، وكذلك وحدات الرشاشات التى وزعت على الزوايا الصالحة للتسديد نحو الهدف . . . بيد أن الاحداث ما لبثت ان بينت عقم دفاعنا .

الرئيس : لماذا ؟

خابالوف : لم تكن لدينا خراطيش ، كما نفدت القذائف تقريبا . وعدا ذلك ، لم يعد لدينا ما ناكله من الطعام .

الرئيس : كم من القوات كان بحوزتكم ؟

خابالوف : اعتقد الف وخمسمائة عسكرى .

الرئيس : وماذا جرى بعد ؟

خابالوف : قررنا اخلاء الادميرالية . وكان القرار : وضع جميع الاسلحة هنا . . .

الرئيس : ألم يستسلم الفصيل ؟

خابالوف : تفرق الجميع بالتدريج بعد ان تركوا سلاحهم . . . لم تكن هناك عملية استسلام . لمن نستسلم ؟ . . لم يكن هناك من نستسلم له . . .

الرئيس : ومن اوقفكم ، ايها الجنرال ؟

خابالوف : اوقفنى حشد من الرتب الدنيا كان يفتش هذه البناية . . .

لم يكن القيصر يعرف بنهاية خابالوف ، بل ولم يكن قد خمن بعد ان طريقه الى تسارسكويه سيلو قد اغلق هو الآخر .

الاربعاء ، الاول من مارس

فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل اقترب قطار القيصر من محطة مالايا فيشيرا . دق فوييكوف الباب على القيصر وايقظه قائلا انه لا يمكن السير ابعد من ذلك : هناك خطر والطريق مقطوع . اتضح ان القطارين الخاصين لا يستطيعان بعد الآن تجاوز مالايا فيشيرا ، اذ اصبحت توسنو ولوبان تحت سيطرة القوات الثائرة . وعدا ذلك ، صدر عن قصر تافريدا امر بالتلفون بعدم السماح لقطار القيصر بدخول تسارسكويه سيلو .

رجع القطاران . وبينما كانت القاطرة فى محطة ستارايا روسا تتزود بالمياه ، تسنى لفوييكوف ان يعرف فى التلغراف ان ايفانوف مر بدنو اليوم فقط . قال فوييكوف فيما بعد : «كان لهذا الخبر الذى ابلغت القيصر به وقع سيئ عليه . وقد سألنى جلالته فى الحال : «لماذا يتحرك بمثل هذا البطء ؟»» .

وصل قطار القيصر الى مدينة بسكوف نحو الساعة العاشرة مساء . وقد توجه الجنرال روزسكى الى عربة القيصر ، وما ان صعد اليها حتى التفت الى افراد الحاشية المتسمرين على رصيف المحطة ، الذين وصلوا مع القيصر ، وقال بسخرية لا تكاد تلحظ :

– ايها السادة ، يبدو انه يتأتى علينا الاستسلام لرحمة المنتصر .

لم يبق لنيقولاى الثانى الا ان يسمح بوضع قطاره فى عطفة مسدودة ، فى خطوط غير منارة . . . وينتظر الاخبار . . . ينتظر ويصبر . يصبر حتى على سماع المواعظ عن رجاحة العقل التى يلقيها بوقاحة هذا الجنرال الذى لم يكن ابدا اول جنرالاته والذى وجد القيصر نفسه الآن بين يديه .

قال روزسكى له ان اهم شيء حاليا عدم السماح بانهيار الجيش . ومن اجل هذا الهدف تجوز التضحية بكل شيء . واذا لم يقم هو ، نيقولاى ، بتطويق الانتفاضة فى حدود بيتروجراد عن طريق الاتفاق مع مجلس الدوما فستضيع الفرصة الاخيرة لانقاذ القدرة القتالية للقوات . وما من خيار آخر غير دفع الاتاوة للمنتصر ، وهذه الاتاوة ربما لا تكون فظيعة جدا : الموافقة على تشكيل وزارة مسؤولة .

ورد القيصر على قائد الجبهة الشمالية ان الصباح رباح . وسنرى ما سيكون عليه الوضع غدا . وهذا يعنى انه كان يود انتظار الاخبار عن تقدم ايفانوف نحو بيتروجراد . اذ كان لا زال يعقد الامل على نجاح الحملة التنكيلية . ولكن عبثا ، فالخيط ينقطع .

لم يكن يعرف بعد ان القطار كله ، بكتيبة حملة اوسمة جيورجى ، اعيد الى الخلف ، الى فيريتسا ، وان جنود الافواج التى كانت تحت امرة ايفانوف رفضوا فى مكان ما بين لوجا وجاتشينا ، اطاعة الاوامر واعلنوا انهم لن يتوجهوا الى بيتروجراد ، وان اللواء الذى سحب من الجبهة الغربية قد شق عصا الطاعة هو الآخر . ولم يكن نيقولاى يعرف كذلك ان قائد احدى الكتيبتين المكلفتين بحمايته الشخصية ، الجنرال بوجارسكى ، قال اليوم لضباطه فى القطار : لن نطلق النار على الشعب ولو امر بذلك ايفانوف ، وحتى الامبراطور نفسه .

ان ايفانوف ، وقد بقي دون مرؤوسيه ، قرر المضي وحده الى الامام . ان لم يكن نحو قصر الشتاء ، فنحو قصر الكساندروفسكي . . . بعد ان اوقف مع ارتاله قرب بيتروجراد رجا بوبليكوف * السماح له بالمضي الى تسارسكويه سيلو ولو . . . بعربته لوحدها مربوطة بقاطرة خاصة او حتى بالقطار المحلي . توجه بوبليكوف الى مجلس الدوما يستشيره في الامر . وقرر اعضاء الدوما : باسم مبادئ الديموقراطية السامية «يسمح بالمرور» للمرشح الى منصب جلاد الديمقراطية . وبالاضافة الى ذلك ، ان من المستحسن لو تبذل محاولة للتأثير في ايفانوف بالكلام الليبرالي الطيب . وبعثوا للقائه في تسارسكويه سيلو دومانيفسكي وتيلي ، اللذين سلماه توصية تحريرية من رئيس الاركان العامة زانكيفيتش لايفانوف بان يمد يد السلام الى لجنة الدوما المؤقتة وحدثاه عن الوضع في العاصمة : يصعب ، كما قالا له ، عقد الامل على اعادة النظام السابق بالقوة ، والصراع المسلح سيعقد الوضع فقط . من الاسهل اعادة النظام عن طريق الاتفاق مع الحكومة المؤقتة .

ما ان انتهى الجنرال ايفانوف من الاستماع الى مواعظ مبعوثي ديمقراطية فبراير ، وهي بالنسبة له عبارات فارغة ، حتى اخذ يحسب من بقي تحت امرته لكي ينفذ ما كلفه به صاحب الجلالة ، اي خنق التمرد . لا احد تقريبا . فلم ينزل في محطة الكساندروفسكايا سوى فوج تاروتينسكي الذي انتقل القسم الاعظم منه على الفور الى جانب حامية تسارسكويه سيلو التي التحقت بالثورة . هرع ايفانوف الى كتيبة حملة وسام جيورجي في فيريتسا . انه لم يقطع الامل بعد في التحرك الى بيتروجراد ولو مع جنود هذه الكتيبة . حاول التقدم بارتاله الى الامام ، فشن في الطريق حملة اعتقالات واعدامات . ولكن عبثا ، فقد سد عليه عمال السكك الحديدية الطريق نحو العاصمة بحواجز لا يمكن اجتيازها . وهكذا ، لم توقف ايفانوف العبارات الليبرالية ، بل اوقفته الافعال الحقيقية للطبقة العاملة . فاصبح مشلولا ، واسبل

---

* كان في ذلك الوقت مفوض لجنة دوما الدولة المؤقتة في وزارة المواصلات ، ومن ثم اصبح وزيرا للمواصلات في الحكومة المؤقتة .

يديه . قرر العودة الى موجيليف . وفى الخامس من مارس ظهر من جديد فى مقر القيادة ، فى مكانه السابق .ولم يمض سوى ٣ او ٤ اسابيع حتى شرع يبرر اعماله على الملأ فى مواجهة الثورة المنتصرة ، مبرهنا على انه لم يعرف ولم ير اى شيء ، ولم تكن توجد اية حملة بالمرة ، وان وجدت فليس هو قائدها .

فى ذلك اليوم قدم ممثلو الافواج المنتقلة الى جانب الشعب هذا الطلب الى سوفييت بيتروجراد : اتخاذ الاجراءات لتعزيز المنجزات الثورية لجماهير الجنود وتحديد العلاقات المتبادلة بين الجنود والضباط على نحو جديد واساس ديمقراطى . وظهر كنتيجة لعمل اللجنة الخاصة فى قصر تافريدا ما عرف فى تاريخ ثورة فبراير بالامر رقم ١ . كان وثيقة ذات قوة ثورية كبيرة – «ميثاق انعتاق» للجنود من نوع خاص . ان الامر رقم ١ «ساعد على الاشاعة المطردة للروح الثورية فى الجيش وشل محاولات البرجوازية لنزع سلاح الثورة» .

ان بعض المختصين الغربيين فى الشؤون السوفييتية ، اذ ينوحون على هذا اليوم ايضا ، يؤكدون انه كشف عن القطيعة النهائية بين روسيا «ورأسها وسيدها» السابق .

الخميس ، ٢ مارس

اليوم الاخير من حكم سلالة رومانوف . فى هذا اليوم ، بعد مرور ٣٠٤ سنوات على تتويج ميخائيل رومانوف البالغ من العمر ١٦ عاما (فى ٢١ فبراير عام ١٦١٣) قيصرا على روسيا ، ستجرى محاولة لوضع التاج على رأس ميخائيل رومانوف آخر ، الامير الكبير البالغ من العمر ٣٩ عاما اخى نيقولاى الثانى .

فى الصباح ، فى عطفة مسدودة قرب محطة بسكوف ، اخبر الجنرال روزسكى القيصر بان المهمة التى انيطت بايفانوف لم تنجح . وفشلت ايضا الاجراءات الاخرى للبحث عن قوى مخلصة للدفاع عن العرش كما كانت تعتبر ، مثلا ، مدارس الضباط ، ومن بينها الموجودة هناك ، فى بسكوف .

الآن ، حين شعر نيقولاى بان السلطة أفلتت من يديه ، وان قطاره السماوى اللون لا يستطيع التحرك من مكانه بدون اذن من قصر تافريدا ، وانه خاضع حاليا حتى لهذا الجنرال النكرة ،

دخلت وعيه كلمة «التنازل» المعلقة فى الهواء .

وكذلك شاخت وشطبت الافكار حول تشكيل «وزارة جديدة مسؤولة» ، ودعوة مجلس الدوما للانعقاد ، وشتى التنازلات والامتيازات الدستورية . واتضحت ضرورة التخلص من نيقولاى الثانى مرة واحدة والى الابد - «هذا ما يلزم الروس» . هذا ما اعلنه رودزيانكو للجنرال روزسكى بعد ان ناداه الى الخط المباشر . لقد قطعت الاحداث فى العاصمة شوطا بعيدا بحيث انتفت الحاجة للجدل بشأن الوزارة المسؤولة ، ولا يمكن ان يجرى الحديث الآن الا عن تنازل الامبراطور عن العرش ، وهو ما يجب على قائد الجبهة ان يبلغ به صاحب الجلالة ، ويبذل محاولة ، من جانبه ، لاستمالة القيصر الى اتخاذ مثل هذا القرار .

تنازل عن العرش

ترددت كلمة «التنازل» لاول مرة فى عربة القيصر فى الساعة العاشرة من صباح ٢ مارس . وقد تفوه بها الجنرال روزسكى الذى ظهر هناك لالقاء تقرير عن الوضع .

كان التقرير قصيرا . واستمع القيصر اليه بهدوء . فلم تصعقه كلمة «التنازل» ، ولم تهزه ، بل ويبدو انها لم تدهشه جدا . وقال بعد سماعه التقرير ، بانه ليست هناك من حيث المبدأ اعتراضات على القرار الموصى به . ولكن بوده معرفة رأى قادة الجبهات بهذا الصدد .

توجه روزسكى الى تلغراف الاركان وابرق الى الكسييف فى موجيليف : يرغب القيصر فى استطلاع رأى القادة . وزع رئيس اركان القيادة بدوره نص الاستطلاع على الجبهات . ويتضمن ما يلى :

لقد حلت واحدة من افظع الثورات . . . ولا يمكن مواصلة الحرب الا فى حالة تنفيذ المطالب المرفوعة الخاصة بالتنازل عن العرش لصالح الابن ، تحت وصاية ميخائيل الكساندروفيتش . . .

اذا كنتم ترون هذا الرأى ، تفضلوا وابرقوا بالتماسكم المخلص الى صاحب الجلالة . . .

على الجيش ان يحارب الاعداء الخارجيين بكل قواه . ويجب ابعاده عن وسوسة المشاركة في الانقلاب الذي سيجرى بالم اقل عند صدور قرار من الاعلى .

الكسييف

وفي خلال ساعة ونصف او ساعتين رد بالايجاب على السؤال عما اذا كان التنازل مرغوبا فيه كل من :

الامير الكبير نيقولاي (جبهة القفقاس)
الجنرال بروسيلوف (الجبهة الجنوبية-الغربية)
الجنرال ايفيرت (الجبهة الغربية)
الجنرال ساخاروف (الجبهة الرومانية)
الجنرال روزسكي (الجبهة الشمالية)
الادميرال نيبينين (قائد اسطول البلطيق) .

امتنع قائد اسطول البحر الاسود الادميرال كولتشاك عن ارسال برقية لنيقولاي الثاني ، ولكنه «قبل بلا تحفظ» اقتراحي الكسييف ورودزيانكو .

وكان رئيس اركان القيادة الجنرال الكسييف موافقا ايضا .

ان البعض قد سحقهم الاسى ، والحق يقال . كانوا يلعنون اليوم والساعة اللذين وجدوا انفسهم فيهما امام هذا الخيار . كانت تنقصهم الكلمات للتعبير عن تعاطفهم مع القيصر ، وعن حقدهم على الثورة ، واشمئزازهم من اعضاء الدوما الذين يدفعون صاحب الجلالة الى مثل هذه الخطوة . ولكن اذ كان اولئك يدفعون ، فقد يكون على هؤلاء ان يدفعوا ايضا . انهم سيحتفظون حتى الممات بذكرى الامتنان للعاهل المحبوب ، ولكن كان ربما من الافضل له ، في الواقع ، التنازل عن العرش . وقد ورد هذا الموقف بشكل مؤثر في البرقية الجوابية التي بعثها الجنرال ساخاروف . فهو يصف اقتراح مجلس الدوما حول التنازل بانه «اجرامي وشائن» ، ولا يمكن ، حسب رأيه ، ان يفكر في «شناعة» كهذه الا «حفنة من القراصنة استغلت غدرا الفرصة الملائمة لتحقيق اهدافها الاجرامية» . كل شيء واضح . تصرف الدوما غير جائز . و«الحب المتأجج» الذي يكنه لجلالته لا يسمح له بالسكوت على مثل هذه الاشياء . وساخاروف على ثقة بان ليست للشعب الروسي اية

علاقة بهذه القضية . ولو 'خير الجيش «لهب» بلا تردد الى جانب قائده المعظم» .

فما هو السر اذا ؟ لماذا لم يهب ؟ كلا ، لعله لم يكن ليهب . حسنا ، ما دام الامر هكذا . . . «فانني ، وانا انتقل الى منطق العقل . . . وانتحب . . . مضطر الى القول بان المخرج الاقل الما هو القرار بتلبية الشروط المطروحة» .

يثير استطلاع رأى الجنرالات هذا ، الذى جرى فى صباح الثانى من مارس عام ١٩١٧ ، غيظ الخبراء الغربيين المختصين فى شؤون الاتحاد السوفييتى والكرملين الذين لا همّ لهم سوى التنديد بالثورة الروسية . وهم يصورون التنازل عن العرش فى الثانى من مارس كنتيجة لتمرد الجنرالات على القيصر ، ويقولون انه على القيصر الا يربط قراره بأية استطلاعات كانت . اما اذا اراد القيصر بتنازله ، كما يؤكدون ، تجنيب البلاد والجيش الصراعات الدموية ، فانه لم يحرز اى شىء ، بل على العكس ، فبتخليه عن العرش بالذات تعم البلبلة والفوضى والنزاعات روسيا .

ويوجهون اللوم لنيقولاى بعد مماته زاعمين انه لم يدرك ان التنكيل الجماعى فى شوارع بيتروجراد كان اصلح له من التنازل عن العرش . بيد ان هذا القول غير عادل : فنيقولاى لم يبخل بالجهود حين حاول بمساعدة خابالوف وايفانوف الحفاظ على العرش ، ولم يتقزز من «حتمية اراقة الدماء» . اما ان اوامره لم تنفذ ، لاسباب خارجة عن ارادته ، فهذا امر آخر .

فى الساعة الواحدة نهار الثانى من مارس توجه روزسكى برفقة رئيس اركانه دانيلوف والجنرال سافيتش الى نيقولاى الثانى فى العربة واخبره عن نتائج استطلاع رأى قادة الجبهات ، وكذلك عن رأى الكسييف ورأيه هو . وعلاوة على ذلك التمس الاستماع الى رأى الجنرالين اللذين جاءا برفقته . وفى الحال اعربا باختصار عن تأييدهما لطروحات روزسكى . قال دانيلوف : «ان قادة الجبهات على حق . . . واذا طاب لكم ان تشاطرونا الرأى فانكم يا صاحب الجلالة ستقدمون هذه التضحية ايضا من اجل الوطن» . نعم ، لقد طاب خاطره . اذ تركه الجميع ، حتى اخلص الجنرالات . . .

حرر نصا برقيتين حول استعداد القيصر للتنازل عن العرش لارسالهما الى رودزيانكو والكسييف .

الى رئيس دوما الدولة

ما من ضحية ابخل فى تقديمها قربانا من اجل الخير الفعلى لروسيا-الام وفى سبيل انقاذها . ولهذا فانا على استعداد للتنازل عن العرش لصالح ابنى . على ان يبقى معى لحين بلوغه سن الرشد ، وان يكون اخى الامير الكبير ميخائيل وصيا عليه .

نيقولاى

الى رئيس اركان القائد العام ، مقر القيادة

مستعد من اجل خير وامان وخلاص روسيا المحبوبة ، للتنازل عن العرش لصالح ابنى . ارجو الجميع خدمته بصدق واخلاص .

نيقولاى

لم تأت صيغة التنازل ولا توقيت ارسال البرقيتين اعتباطا ، وذلك ، كما كتب فيما بعد الجنرال دوبينسكى ، «لكى لا يتم التخلى عن العرش بضغط من ممثلى مجلس الدوما جوتشكوف وشولجين» ، اللذين كان عليهما ، كما تبين فى مقر قيادة الجبهة ، ان يصلا الى هناك فى منتصف النهار .

انطلق روزسكى الى جهاز التلغراف . يبدو الآن ان كل شىء قد انتهى .

كلا ، ليس تماما .

ما ان ذهب روزسكى ، حتى دخل الوجهاء على نيقولاى هائجين . اعلن فويبكوف ، مثلا : «حسب اعتقادى لا يمكن اتخاذ اى قرار الا بعد ان تستمعوا الى جوتشكوف وشولجين اللذين فى طريقهما الى هنا» .

سأله نيقولاى :

– أتعتقدون اننى تسرعت ؟

ومن جديد اجتاحت القيصر موجة من الاحتدام . انه لا يرغب فى التخلى عن الحكم . أمر نيقولاى ناريشكين بالذهاب الى روزسكى لاسترجاع استمارتى البرقيتين . قال روزسكى ان البرقيتين ليستا عنده ، وانه سلمهما الى العاملين فى التلغراف .

عندما عاد ناريشكين الى صالون نيقولاى وتحدث عن ذلك ، صاح جميع الحاضرين بصوت واحد «انتهى كل شىء !» .

بانتظار مبعوثى الدوما ، استدعى نيقولاى البروفيسور فيودوروف وطلب منه الاجابة بصراحة عن هذا السؤال : ما هى

افاق صحة الكسى فى المستقبل ؟ اجاب الطبيب : اخشى الا يعيش الا الى سن السادسة عشرة . قال نيقولاى بعد تفكير قصير بانه يود لو يقضى بقية حياته فى روسيا «انسانا بسيطا» وانه لا يفكر «فى اية دسائس» وانه يرغب فى «العيش قرب الكسى وتربيتـــــه» . اعترض فيودوروف قائلا انه من غير المحتمل ان تسمح السلطـــة الجديدة للقيصر الصغير بالبقاء مع ابيه . فقال نيقولاى : فى هذه الحالة سأتخلى عن العرش لصالح ميخائيل ، لا الكسى .

لم يصل مبعوثا مجلس الدوما فى الساعة الرابعة او الخامســـة نهارا ، كما كان متوقعا ، بل فى الساعة التاسعة والنصف مساء . كان كل منهما لا يمثل الا نفسه : لم يخولهما احــــد بالقيام بهذه المهمة غير رودزيانكو ، وهما لا يمثلان احدا . اما لماذا قدما الى هنا ، فواضح من مجرد انهما حاولا الاتصال فى طريقهما بايفانوف . وتبدو هذه الواقعة على الشكل التالى كما رواها شولجين :

«لا اتذكـــــر فى ايـــة محطـــة امنوا لنا الاتصـــال المباشر بالجنرال ايفانوف . . . فقد تحرك بامر من القيصر فى اتجاه بيتروجراد ليخمــــــد العصيان . واستطاع الوصول الى جاتشينا ، ولكن احدا ما فكك قضبـــــان السكك الحديدية . . . واضحى ايفانوف عاجزا عن عمل اى شىء ، وذلك لان المحرضين ظهروا هناك وانتقل الجنود الى جانبهم . . . واصبح الاعتماد عليهم مستحيلا . . . اذ انهم لم يعودوا يطيعون الاوامر .

كان علينا ان نسرع . . . ولم نستطع عمل اى شىء سوى هذه المكالمة التلغرافية . . . » .

ولما لم يكن لدى ايفانوف ما يتباهى به ، واصل مبعوثا الدوما طريقهما . لقد كانت عندهما ، كما يعتقد المختص الامريكــــــى فى الشؤون السوفييتية هاركيف ، المسوغات ليعتبرا انه اذا ما تخلى نيقولاى عن العرش ، فانه فى الحال «سيقبض ميخائيـــــل على زمام السلطة بصفته وصيا على العرش ، وسيعود النظام السابق ، ويتم بهذه الصورة انقاذ السلالة الملكية» .

توقف القطار . خرج مبعوثا الدوما الى رصيف المحطة . ووقف بعيدا بعض الشىء قطار مضاء آخر ، وهو قطار القيصر . اقترب العقيد موردفينوف من المبعوثين على الفور .

— جلالته بانتظاركم . . . — وقاد جوتشكوف وشولجين عبر قضبان السكك الحديدية .

«سرنا ، كما يسير الناس الى ارهب ما فى الوجود - دون ان ندرك تماما الوضع . . . والا لما سرنا . . .» .

العاهل لا يرغب فى التنازل عن العرش ، وخابالوف وايفانوف ، وشولجين وجوتشكوف ضد التنازل فى قرارة انفسهم ، ولكن ما العمل اذا كان ايفانوف لم يتمكن من السيطرة علـى اعمـدة شوارع بيتروجراد لكى يشنق عليها «المتمردين» . «والنتيجة . . . ننقذ الملكية عبر التنازل عن العرش» .

تجمع حشد على الخطوط يرحب بمبعوثى الدوما ويهتف «هورا» . امتعض الموظفون على الرصيف من هذه «النزوة» . سمع فوييكوف الفريق اوشاكوف القومندان العسكرى لبسكوف حينما التفت اليهم وقال ساخرا : «آن الاوان ايها السادة لكى تتعودوا . . . فقد حلت عهود اخرى» .

فى عربة القيصر استقبل فريديريكس وناريشكين مبعوثـى الدوما وبعد مضى عدة دقائق دخل نيقولاى الثانى . جلس عنـد منضدة صغيرة رباعية مغطاة بقماش حرير اخضر ، واومأ للجميـع بالجلوس . اخرج ناريشكين مفكرته ليسجل فيها المحادثات . امر فوييكوف قومندان القطار جومزين بالوقوف خلف الباب من جهـة المطعم لكى يمنع الغرباء من التصنت ، اما هو فوقف عند المدخل الآخر من جهة الفسحة لكى يسمع ويرى ما كان يدور فى الاجتماع .

استقبل نيقولاى المبعوثين بهدوء ولباقة وحتى بدا وكأنه يكن لهما المودة . سألهما عن هدف زيارتهما . قال جوتشكوف بصوت منخفض متغلبا بمشقة على اضطرابه ان بوده تقديم النصيحة حول كيفية اخراج البلاد من الوضع الصعب . فبيتروجراد «قد اضحت كلها بيد الحركة» ، وان اية قطعة عسكرية ترسل للتهدئة تنتقل الى جانب الحركة «حالما تستنشـق هواء بيتروجراد» . واختتـم جوتشكوف حديثه قائلا : ولهذا فان «اية مقاومة من جانبكم لا فائدة منها . وتتلخص نصيحتنا لكم فى وجوب تنازلكم عن العرش» .

جلس القيصر بلا حراك . اخذ ينظر الى الامام بهدوء وصمت . لـم يكن ينم وجهه الا عن شىء واحد : «ان هذه الخطبة الطويلة لا لزوم لها . . .» .

كان روزسكى يجلس خلف شولجين فاحنى عليه وقال لـه بصوت لا يكاد يسمع :

– فى الطريق تتجـــه من بيتروجراد الى هنـــا شاحنات مسلحة . . . أمن المعقول انها لكم ؟ لدوما الدولة ؟

التفت مبعوث «ديمقراطية فبراير» بحدة الى الجنرال وقد أهينت اعز عواطفه بهذه الفرضية :

– عجبا ، كيف يمكنكم تخيل مثل هذا . . .

– آه ، حمدا للرب ، ارجو المعذرة . . . لقد امرت بايقاف الشاحنات .

واصل جوتشكوف حديثه فى غضون ذلـــك : «انا اعرف يا صاحب الجلالة اننى اطرح عليكم قرارا ذا اهمية عظيمة . واذا كنتم تودون التفكير قليلا فى هذه الخطوة ، فانا على استعداد للخروج من العربة والانتظار . . . ولكن كل ذلك يجب ان يتم ، باى حال من الاحوال ، قبل حلول مساء اليوم» . اجاب نيقولاى : «لقد فكرت فى هذه القضية وقررت التخلى عن العرش» . وحذره جوتشكوف من ان عليه الافتراق عن ابنه لانه «ليس هناك من يجرؤ على تسليمه مصير وتربية القيصر القادم» واعلن نيقولاى للنائبين ما لم يكونـــا يتوقعانه : «لقد اتخذت فى الساعة الثالثـــة من نهار اليوم قرارا بالتخلى عن العرش لصالح ابنى . بيد اننى بعد ان فكرت استنتجت اننى لا استطيع الفراق عنـــه ، وسأتنازل عن العرش لاخـــى ميخائيل» .

يشير شولجين ، الى ان نيقولاى قال ذلك « «بهدوء ، وببساطة ودقة ، سوى ان نبرته كانت غريبة بعض الشيء كنبرة ضابط» . واضاف قائلا بهدوء : «آمل انكم ستفهمون شعور الاب» .

وافق المبعوثان ، بالرغم من انه كان بودهما الاعتراض : انه يستطيع التخلى عن العرش ، ولكنه لا يستطيع «نقله» او «اهداءه» الى من يشاء . انها مناورة مشكوك فيها . فهذا الآخر قد «يتخلى عن العرش» كذلك . ولكن لا وقت للجدل «فكل لحظة ثمينة الآن . ليس فقط بسبب تحرك الشاحنات المسلحة التى . . . تطلعوا اليها مليا فى بيتروجراد . . . والتى امر بايقافها الجنرال روزسكى (ولكن هل سيقفونها ؟)» . بل كذلـــك وبشكل اساسى ، لان مطالب الثورة «ستتصاعد . ولربما لا يزال يمكن الآن انقاذ القيصرية . . .» . ان رودزيانكو وافراد مجموعتـــه مستعدون عنـــد الضرورة القصوى للتضحية بنيقولاى فى سبيل الحفاظ على النظام القيصرى والسلالة

القيصرية . حتى وان لم يكن يحق للقيصر التنازل عن العرش لاخيه ، فالمهم «كسب الوقت بهذا . . . يحكم ميخائيل مدة من الزمـــن ، وبعدئذ ، حين تهدأ الامور ، ويتضح فجأة انه لا يستطيع الحكم ، يؤول العرش الى الكسى نيقولايفيتش . . .» .

فليكن كذلك . اعلن المبعوثان رغبتهما فى الذهاب بعد ساعـة او ساعة ونصف : يجب عليهما ان يكونا فى بيتروجراد قبل حلول صباح الغد ، ومع وثيقة التنازل ، ولهذا السبب يطالبان بالشروع فورا فى صياغة الوثيقة . هناك مسودة للنص اعدها شولجين ، وهما لا يفرضانها وانما يقترحانها كاساس فقط .

أخذ نيقولاى ورقة وخرج . عاد بعد ساعة وسلم مبعوثى الدوما نصا مطبوعا على الآلة الكاتبة يحمل توقيع : **نيقولاى** * .

هل انتهى كل شيء ايها السادة ؟ أيمكن الانصراف ؟

كلا ، ثمة رغبة اخرى لدى ممثلى دوما الدولة . طلب شولجين تسجيل وقت توقيع الوثيقة قبل عدة ساعات من الآن – كما لو انها وقعت قبل وصول المبعوثين : «انا لا اريد ان يقول احد فى وقت من الاوقات بان بيان التخلى انتزع انتزاعـــا . . .» . ولما كان من الواضح ان ذلك «يتفق ورغبة جلالته» ، كتب نيقولاى : «الساعة ١٥,٠» رغم ان «الساعة كانت تشير الى بداية الثانية عشرة ليلا» .

ثمة مسألة اخرى . طالما ان القيصر تخلى عن العرش ، فيفقـد رئيس الحكومة منصبه ايضا . فمن يعين الرئيس الجديد ؟ وحيث انه لا يوجـــد من يقوم بهذا التعيين فى الوقت الحاضر ، فليعين جلالته ، القيصر السابق ، رئيس الوزراء الجديد . نظر نيقولاى الى مبعوثى الدوما من وراء طاولته بنظرة تنم عن التعب ، وسأل :

– من تقترحون ؟

اجاب مبعوثا الدوما : الامير لفوف .

«قال جلالة القيصر بنبرة خاصة – لا استطيع وصفها :

– آه ، لفوف ؟ حسنا – لفوف . . .

وفى الحال كتب ووقع أمرا الى مجلس الشيوخ الذى كان يقبض على زمام الحكم حينذاك بتعيين رئيس مجلس الوزراء» .

---

* هذه الوثيقة التى بقيت فى حالة جيدة توجد حاليا فى موسكو ، فى ارشيف الدولة المركزى لثورة اكتوبر .

ومسألة اخرى ايضا . لا بد من قائد عام اعلى جديد . فمن ذا الذي سيشغل هذا المنصب ؟ لا حاجـــة للتفكير طويلا . يجلس نيقولاى من جديد خلف الطاولة ويوقــع امرا بتعيين الامير الكبير نيقولاى فى هذا المنصب .

ليس الامر والحق يقال منطقيا تماما ، «لقد عين كلا من القائد العام الاعلى ورئيس الوزراء بعد مصادقته على وثيقة تخليه عـــن العرش» . تنازل عن السلطة – وفى الوقت ذاته يستخدمها مـــن جديد . «من اجل اضفاء الطابع القانونى على هاتين الوثيقتين سجـــل وقت اصدارهما قبل التنازل عن العرش بساعتين اى فى الساعـــة ١٣,٠» .

ودع المبعوثان الباقين وخرجا . تجمهر الناس عند عربة القطار فتوجه اليهم جوتشكوف من على درجة العربة قائلا : «ايها الروس ، عروا رؤوسكم ، صلبوا وصلوا الى الله . . . من اجل انقاذ روسيا تخلى الامبراطور عن العرش القيصرى . . . ان روسيا تسلك الآن طريقا جديدا» .

نعم ، الطريق جديد ، ولكن ليس كمــــا يتصوره جوتشكوف صاحب المصانع والمعامل فى موسكو وشولجين الاقطاعى من فولين .

• • •

استبد غول رومانوف بروسيا ثلثمائة عام . وفجأة لم يعـــد للغول وجود . اندثر ، ذاب ، تلاشى فى جو بيتروجراد الذى كان لا يزال قارسا والذى اخذ يعبق بأريج اطلالة الربيع . نزع مـــن واجهات القصور ما تبقى من النسور ذات الرأسين وجرت تحـــت السماء الصافية وعلى وقع خرير سواقى الثلوج الذائبة .

وحتى انه بدا للبعض ان الامر كان سهلا وبسيطا و . . . اعتياديا .

ومنذ ذلـــك الحين يتحـــدث المؤرخون المهاجرون والخبراء الغربيون المختصون فى الشؤون السوفييتية عن هذه «الاعتياديـــة» و«السهولة» و«البساطة» لما وقع فى فبراير عام ١٩١٧ . بعضهـــم يؤكد ان القيصرية لم يطح بها البتة . انها ، وقد تعفنت ، انهارت من تلقاء نفسها و«سقطت» . ويعتبر آخرون انه اذا كانت هناك اطاحة «ما» ، فقد اتضح انها «طفيفة وغير مؤلمة الى درجة تبعث على

الدهشة» .

ويعلن غيرهم «انعدام اية مقاومة» من جانب القيصرية فى ايام فبراير ، و«اضمحلالها» ، وانها ، على غرار «برج من ورق» ، مالت عند هبوب الريح الثورية ، وهوت ثم تناثرت ما ان مسها «الحشد المتمرد» .

ومهما كان الامر فان انتصار الثورة فى فبراير ، كما يقول الاختصاصيون فى الشؤون السوفييتية هؤلاء ، تم دون قتال تقريبا . سقطت سلطة القيصر من ذاتها ، وتنازل عنها دون مقاومة ، كما يزعمون .

هذه الاختلاقات تدحضها الشهادات الوثائقية . فسلطة القيصر لم «تسقط» البتة ، ومن باب اولى لم تسقط «من تلقاء نفسها» . لقد انتزع الشعب السلطة من القيصر ، اطاح بنيقولاى الثانى بعد ان تغلب على مقاومته الضارية ومقاومة الادارة القيصرية برمتها .

انتصر الشعب على الحكم المطلق فى معركة شاقة اقتضت بذل جهود وتضحيات بطولية ، وهذا لا يقلل بالمرة من مغزى واقع ان النظام المطلق افلس عشية انهياره . لقد تحقق طرح لينين القائل بان النظام القيصرى لا «يقع» من تلقاء نفسه حتى فى احرج الظروف ما لم «يسقطوه» .

اقتضى الامر من الشعب ابداء البسالة وتقديم التضحيات من اجل «اسقاط» نيقولاى الثانى من العرش وكل بطانته من بعده .

يشير البيان الرسمى الوارد فى جريدة «اخبار الحكومة المؤقتة» الصادرة فى ٢٥ مارس عام ١٩١٧ ، الى ان عدد الضحايا بين المنتفضين فى فبراير عام ١٩١٧ فى بيتروجراد بلغ ١٤٤٣ شخصا . ولكن مع تحفظ ينوه بان هذا الرقم غير كامل .

ويذكر مصدر آخر فى الفترة نفسها (جريدة «كشوف البورصة») رقما آخر ، وهو الفا شخص .

واوردت صحيفة «برافدا» البلشفية الرقم نفسه تقريبا .

اعتبر لينين من غير المشكوك فيه ان عدد ضحايا ثورة فبراير فى بيتروجراد تجاوز الالفين .

وعلينا الا ننسى ان الايام الثمانية من «معجزة» فبراير تشمل الاحداث فى بيتروجراد فقط . وخلافا للروايات الغربية فان الانقلاب فى بيتروجراد لم يكن اوتوماتيكيا بالمرة ولم يمتد بهدوء

الى بقية روسيا . فقد واصل خدم القيصرية فى المحافظات والاقضية التمسك بالسلطة باستماتة . الا ان الشعب حطم مقاومتهم هناك ايضا بحيث كان كثيرا ما يمضى مواجها النار والحراب دون ان يضن بحياته نفسهـا . لقد كتب لينين : «تصارع العمال كالاسود مع البوليس القيصرى والجندرمة وذلك الجزء الضئيل من الجيش الذى لم ينتقل فورا الى جانب الشعب . . . ودفع العمال الروس دمهم ثمنا لحرية بلادنا» * .

هذا هو الثمن الحقيقى ، وليس المفتعـل من قبل المختصين الغربيين فى الشؤون السوفييتية ، للانتصار الذى تحقق فى فبراير على القيصرية .

تنازل آخر

فى تلك اللحظة التى كان فيها مبعوثا الدوما يستعدان لمغادرة المكان ، وحين كان نيقولاى يشد على يد كل منهما مودعا ، وجه فجأة هذا السؤال :

— ما رأيكـم ، يا سادة ، الى اين يستحسن الذهاب — الى تسارسكويه ام الى موجيليف ؟

اجاب جوتشكوف :

— هذا ما لا نعرفه يا صاحب الجلالة . تصرفوا وفقا لما تمليه رغبتكم .

اما شولجين فقال على نحو ادق :

— يبدو لى ان من الافضل لكم قبـل كل شىء التوديـع فى موجيليف * * .

وفى الليلة ذاتهـا تفرق المشاركون فى لقاء بسكوف الى شتى انحاء البلاد : مبعوثا الدوما — الى بيتروجراد ، نيقولاى رومانوف — الى موجيليف ، حيث قضى هناك ١٨ شهرا مـن عمره فى الخدمـة العسكرية (ورد وصف هذه الخدمة فى العديد من المذكرات) .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣١ ، ص ٦٠ .

* * تعرض هذه الصورة وفقا للحديث الذى ادلى به شولجين لمؤلف هذا الكتاب (فى اغسطس عام ١٩٧٥ فى مدينة فلاديمير) .

وفى الطريق ، بعث القيصر من محطة سيروتينو بالبرقية التالية :

بيتروجراد . الى جلالة الامبراطور ميخائيل الثانى .

لقد اجبرتنى احداث الايام الاخيرة على اتخاذ قرار نهائى بشان هذه الخطوة الاستثنائية . ارجوك معذرتى اذا كنت قد كدرتك ولم استطع ابلاغك بالامر مسبقا . سابقى دوما اخاك الامين والمخلص . سابتهل الى الله بحرارة لكى يساعدك ويساعد وطنك .

نيقى

ما ان وصل جوتشكوف وشولجين الى بيتروجراد حتى اتضح لهما فى الحال ، كما يقول بمرارة المؤرخ الامريكى هاركييف ، «انهما بذلا جهودهما عبثا» . وحقا كان ذلك : فقد اثار خبر محاولة انقاذ الملكية ، عن طريق الاستعاضة عن نيقولاى باخيه ، استياء عارما لدى الشعب .

وكما كتب لينين ، فقد ادركت جماهير الشغيلة فورا ان السلطة الجديدة «**تعمل منذ الحين لاعادة الملكية القيصرية** ، وترشيح ميخائيل رومانوف ليكون قيصرا جديدا ، وتعنى بتعزيز عرشه وبالاستعاضة عن الملكية الشرعية (القانونية التى تستند الى القانون القديم) بملكية بونابرتية استفتائية (تستند الى استفتاء شعبى مزيف)» * . وكان واضحا تماما ان الحكومة الجديدة التى شكلها القادة البرجوازيون-الاقطاعيون «لا ترغب بقيام جمهورية ديمقراطية فى روسيا . وهى تريد فقط ان تنصب على العرش القيصر ميخائيل «الجيد» ، مكان القيصر السيئ نيقولاى الثانى . وهى تود لو ان السلطة فى روسيا لا تكون فى يد الشعب نفسه ، بل فى يد القيصر الجديد بالاشتراك مع البرجوازية» * * .

كان شولجين قد تلفن من المحطة الى قصر تافريدا ، واول ما سمعه من ميليوكوف ، زعيم حزب الكاديت ، الذى رفع سماعة التلفون ، الكلمات التالية :

— فاسيلى فيتاليفيتش ، ارجوك واتوسل اليك : لا تعلن وثيقة

* لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٦ ، ص ٢٧٤ .

* * لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣١ ، ص ٦٤ .

التنازل عن العرش . ان الشعب مستاء الى اقصى حد ومنذ ان ذهبتم ساء المزاج بشكل حاد . وهذا التنازل لا يحظى الآن برضى احد . . . فلا تتخذوا خطوات اخرى ، فلربما تحل مصيبة . . .

بيد ان جوتشكوف كان قد ارتكب خطأ . فمن محطة القطار جرته قدماه عن غير وعى الى ورشات التصليح المجاورة . وهنا فى الاجتماع الجماهيرى اعلن للعمال ان نيقولاى قد تنازل لصالح ميخائيل وتشكلت حكومة «ديموقراطية» برئاسة الامير لفوف .

– الامير ! . . – صاح احد العمال وقفز الى المنبر . – انتم ترون ، ايها الرفاق ، من اجل اى شىء قمنا بالثورة . . . فلقد تحملنا كل ما يصدر عن الامراء والنبلاء . . . والنتيجة ! وزير المالية ، كما سمعتم ، تيريشينكو . . . فمن هو يا ترى السيد تيريشينكو ؟ انه صاحب عشرة مصانع للسكر . . . ومئة الف هكتار من الاراضى ، وثلاثين مليون روبل .

هرع الى مخرج القاعة عدد آخر من العمال واخذوا يغلقون الباب . بدا وكأنه يحضر لعملية قصاص .

وانطلقت الاصوات من كل الجهات :

– هات الوثيقة ! مزقوها !

لم يعثروا على الوثيقة عند جوتشكوف . وقد استطاع بشكل ما التخلص منهم . واتضح فيما بعد انه عندما كان شولجين وجوتشكوف لا يزالان فى المحطة تمكنا خفية من دس وثيقة التنازل فى يد عضو مجلس الدوما ليبيديف الذى اوصلها بدوره الى لومونوسوف . تسلل لومونوسوف الى وزارة المواصلات وهناك سلم بوبليكوف الوثيقة . واخفاها الاخير بين اكداس الصحف الموضوعة على منضدة السكرتير .

وبالمناسبة ، فان شولجين ذاته تسرع فى الامر ايضا . فحالما وصل الى بيتروجراد القى خطابا امام نسق للوحدة العسكرية وجمهور غفير مختتما اياه بالهتاف التالى :

– عاش جلالة الامبراطور ميخائيل الثانى !

لم يتمكن مبعوثا رودزيانكو من التقاط انفاسهما بعد السفر الى بسكوف ، حتى وقعا فى نصب جديدة . فى الساعة العاشرة صباح الثالث من مارس افتتحت فى شقة الامير بوتياتين الواقعة فى شارع مليونايا مناقشة هذه المسألة : هل يستلم ميخائيل رومانوف

العرش العائد اليه او لا ، اى أيعلن نفسه امبراطورا ام لا يعلن ؟

حضر اللقاء قادة روسيا القديمة البارزون من البرجوازيين والاقطاعيين . وشارك فيه ، الى جانب ميخائيل رومانوف * رودزيانكو وكيرينسكى وميليوكوف ، وج . لفوف ، وف . لفوف ، وشولجين ، وجوتشكوف ، وتيريشينكو ، وجودنيف ، ويفريموف ، وكاراولوف ، ونيكراسوف . وقد ترك القلق والخوف اثرهما على وجوههم : فهم مجتمعون فى وسط مدينة شاسعة ، تغلى وتفور وتلفها الحماسة الملتهبة . وفى كل لحظة يمكن ان يحضر الى هنا العمال والجنود . ولم تكن هناك تقريبا حراسة للاجتماع . ووقف عند المدخل وعلى السلالم الداخلية على شكل مجموعات ضباط فوج بريوبراجينسكى الذين جىء بهم على عجل . جلس وسط القاعة ميخائيل واتخذ المدعوون اماكن لهم الى يساره ويمينه على شكل نصف دائرة جالسين على المقاعد والارائك . طلب ميخائيل منهم ابداء الآراء .

تحدث فى اللقاء الواحد تلو الآخر . قدموا النصائح الى ميخائيل بعدم استلام السلطة . والسبب : فى الوضع الراهن ، يمكن لخطوة كهذه ان تشكل خطرا كبيرا على حياة ميخائيل . فمنذ اللحظة الحاضرة يمكن لاى احد الدخول الى هنا عنوة . حتى وان استطاع ميخائيل تأمين مأوى ما لنفسه ، فما من مكان فى روسيا يستطيع ان يجد فيه الامن الحقيقى لحياته . وكما نصحه المستشارون ، ففى مثل هذا الظرف حين تبدى الجماهير الشعبية عداء متطرفا مباشرا وشرسا لفكرة الابقاء على الملكية ، فان محاولة ميخائيل للفوز بالعرش يمكن ان تكلفه رأسه .

قال كيرينسكى :

— ليس من حقى هنا ان اخفى عليكم ، مدى الاخطار التى ستتعرضون لها شخصيا فى حالة قراركم بقبول العرش . . . فانا لا اضمن حياة سموكم .

---

* هذه بعض المعلومات عنه : ولد فى ٢٢ نوفمبر عام ١٨٧٨ . اصغر من نيقولاى الثانى بعشر سنوات . وكان يعتبر رسميا وليا على العرش فى الفترة منذ وفاة اخيه جيورجى عام ١٨٩٩ (الابن الثانى لالكسندر الثالث) وحتى ولادة الكسى فى عام ١٩٠٤ . ومع بداية الحرب العالمية قاد وحدة الخيالة فى القفقاس التى شاركت فى المعارك .

اما ميليوكوف فيؤكد وهو منفعل بان ميخائيل ليس باستطاعته فحسب ، وانما يجب عليه ايضا ان يتبوء العرش .

– اذا رفضتم يا صاحب السمو حل بنا الفناء . . . لان روسيا عندئذ ستفقد محورها . . . فالملك هو المحور . . . والملكية هى المركز الوحيد الممكن قيامه فى روسيا . . . وهى الشىء الوحيد الذى يعرفه الجميع ، والمفهوم الوحيد عن السلطة . فاذا رفضتم فسيحدث امر فظيع . . .

استنادا الى ما هو متفق عليه ، فلكل واحد الحق فى الحديث مرة واحدة فقط . الا ان ميليوكوف ركب سورة الغضب ، فلم يكتف بالحديث مرة واحدة . وبعد القاء عدد من الخطباء كلماتهم طلب الكلمة مرة اخرى بالرغم من الاحتجاجات . واعلن : مع ان الذين ينطلقون من الاعتبارات المتعلقة بسلامة ميخائيل الشخصية على حق ، لكن المجازفة ضرورية . فخارج بيتروجراد هناك امكانية كبيرة لتجميع القوة العسكرية اللازمة للجم الغوغاء وحماية الامير الكبير .

ايد جوتشكوف ما قاله ميليوكوف . فهو متضامن معه تماما . ودعا ميخائيل ليقول «نعم» ، واعرب من جانبه عن اعتقاده انه «لا حياة لروسيا» بدون القيصر . وحاول جوتشكوف اقناع ميخائيل :

– اذا كنتم تخشون من تحمل اعباء العرش ، فاستلموا السلطة مؤقتا على الاقل كوصى على عرش الامبراطورية . . . عاهدوا الشعب بانكم ستسلمون السلطة للجمعية التأسيسية بمجرد انتهاء الحرب .

هؤلاء المدافعون الغيورون عن عرش آل رومانوف نعتهم منافسوهم جماعة المئة السود . . . بماذا ؟ يا للسماء ! بانهم ماسونيون . وحتى بانهم مخربون وقتلة للقيصر . واغاظ الملكيون ميليوكوف وجوتشكوف اللذين كانا من اكثر المتحمسين فى الدفاع عن القيصر فى فبراير . وقد ربطوا اسميهما ، وهما الاكثر صدقا واخلاصا للملكية ، باسم «يهوذا الخائن» . وقد اطلق هذه التسمية عليهما اولئك الذين اتخذوا فى المهجر موقفا على يمين العقل السليم ، والذين اعمى الحقد ابصارهم ، وذوو العقل المريض . وحتى ان احدهم ، وقد افقده الحنين الى القيصر عقله ،

اطلق النار مرة على ميليوكوف (واسمه نابوكوف ، اما صاحبه ، احد زعماء حزب الكاديت ، فقتل اثناء هذا الحادث عندما حمى صديقه بجسده) .

لم يتردد ميخائيل طويلا بقراره ، اذ اسعفته هنا رجاحة عقله . خرج من القاعة ، فكر ، وعاد على عجل معلنا قراره برفض قبــول العرش . كتب لينين «ادرك ميخائيل رومانوف ، حليف انصـــار جوتشكوف – ميليوكوف ، انه فى مثل هذا الوضع من الاسلم له ان يرفض الى ان تنتخبه الجمعية التأسيسية للعرش . . .» * .

نحو الساعة السادسة مساء وقعت الوثيقة التى حررها شولجين ، ونيكراسوف ، ونابوكوف . وعندمـــا تفرق المجتمعون عانــق رودزيانكو ميخائيل وسماه «انبل انسان» . وامطر كيرينسكى بدوره ايضا ميخائيل بعبارات المجاملة المنمقـــة قائلا «اعلن الآن امام الجميع انى احترم بعمق الامير الكبير ميخائيــل الكسندروفيتش ، وسأحترمه على الدوام» .

يعرب ايضا بعض المختصين الغربيين فى الشؤون السوفييتيـة فيما بعد عن الاحترام لشقيق آخر قياصرة روسيا ولو ان البعض منهم لا يكف عن وصمه بالجبن من جراء رفضـــه قبول العرش . والبعض الآخر يرفع عنه هذا اللوم ويقول «كان لديه من الرجولة ما يكفى ، ولكن كانت تنقصه الحمية اللازمة لقيادة المعركـــة» . وعموما ، حين تجعل الدعاية البرجوازية من ميخائيـــل رومانوف شخصا «نزيها» و«مخلصا» فمن المستبعد طبعا ان يكون لرأيهـــا هذا اساس جوهرى . . . فى مجرى احداث فبراير وجد ميخائيـــل نفسه منخرطـــا فى الصراع الحاد الى جانب قوى الثورة المضادة الملكية . وليس صحيحا ما يقال بانه لم يظهر فى بيتروجراد الا فى الثالث من مارس ، فى يوم الاجتماع الذى جرى فى شارع ميليونايا . فقد دعاه رودزيانكو من جاتشينا فى ٢٧ فبراير ، ومنذ ذلك التاريخ لم يغادر بيتروجراد ، حيث ظل فى قلب الاحداث حابكا فيما وراء الستار المكائد سوية مع خابالوف ورودزيانكو وبيوكينين .

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣١ ، ص ٧٠ .

كان يعطي الاول فى الادميرالية البحرية مباشرة التعليمات حول طرائق الصراع المسلح ، الامر الذى اشار اليه فيما بعد خابالوف نفسه .

وهو الذى استعلم من السفير البريطانى عن امكانية دعم دول الائتلاف للاجراءات الهادفة الى خنق الثورة ، وهذا ما تحدث عنه فيما بعد بيوكينين نفسه .

وبحث مع رودزيانكو احتمال اعلان نفسه دكتاتورا عسكريا ، وهو ما كشف عنه رودزيانكو بالذات . فبحضور عضوى دوما الدولة نيكراسوف ودميتريوكوف جرى الحديث عن ان ميخائيل «يجب عليه ، دون اخذ الاذن من احد ، فرض الدكتاتورية على بيتروجراد واجبار الحكومة القديمة على الاستقالة وتشكيل حكومة جديدة حسب هواه ، فى سبيل انقاذ السلالة القيصرية» .

وهناك معطيات تقول انه اثناء الاجتماع غير الرسمى لاعضاء الدوما فى ٢٧ فبراير عرض على ميخائيل رومانوف امر اعلان الدكتاتورية العسكرية .

بعد توقيع وثيقة التنازل عن العرش فى موجيليف توادع المشاركون فى الاجتماع وتفرقوا . وبعد وثيقة التنازل فى ميليونايا دعت مدام بوتياتينا جميع المشاركين الى مائدة طعام فخمة .

شغل الصراع على العرش عند نيقولاى ثمانية ايام ، من الخميس الى الخميس . اما ميخائيل فقد قام بهذه المهمة بيوم واحد – الجمعة ، من الساعة العاشرة صباحا وحتى السادسة مساء .

الفصل الثانى عشر

تحت الاقامة الجبرية فى قصر الكسندروفسكى

الاعتقال

بعد توقيع وثيقة التنازل عـــن العرش ارتدى نيقولاى معطف ضابط برتبة عقيد وخرج من صالة العربة الى الممر ، ثم نزل الى رصيف المحطة .

كان افراد الحرس قد اختفوا جميعا . ولم يتبعـــه الا الامير جيورجي ليختينبيرجسكى الذى كان واحدا من مرافقيه .

تجول القيصر المتنازل فترة طويلة على الرصيف وبين القضبان وراح يشكو مصيره واعوانـــه غير الاوفيـــاء . وتحـــدث الى ليختينبيرجسكى بكدر عما سيكون عليه موقفــه امام الحلفاء ، قائلا : «ساخجـــل حين ارى فى مقر القيادة احدا من الاجانب ، بل وستربكهم رؤيتى . . .» . كان يبتســم احيانا قبل توقيع الوثيقة ، ولكن ، كما قال دوبينسكى ، «تحجرت تقاسيم وجهه بعد التنازل ، وصار ينحنى ويمــد يده للجميع ، حتى انه مد يده الي ايضا . . .» .

وبعد بعض الوقت دعا موردفينوف الى النزهة ، وراح يشكو له ، فاخذ ذاك يواسيه قائلا : «لا بأس يا صاحب الجلالـــة ، لا تنفعل جدا ، فلست الذى سعى فى طلب العرش . . . ولينهضوا بالامور انفسهم اذا ارادوا . . . فلن تنال المحبة بالقوة» . عند هذه الكلمات توقف القيصر عن السير برهة وقال وهو يحرق الارم : «يا لها من ارادة الشعب هذه التى يدعونها . . .» .

سوف يقال الكثير فيما بعد عن تلك السلبيـــة الموهومـــة واللاابالية المدهشة اللتين تميز بهما نيقولاى لدى «تسليمـــه» مقاليد السلطة («وكأنه يسلم فصيلة فرسان») . ان الكاتب الساخر اركادى افيرتشينكو يصور نيقولاى فى صالة العربة فى بسكوف على النحو التالى : «كان جالسا يمسد شاربيه بقلم . . . ثم وقع وثيقة

التنازل بصمت ، واردف قائلا : «حسنا ، سأرحـــل الى ليفاديا ، واعتنى بزراعة الزهور» .

على ان زهور ليفاديا لم تكن بالذات ما شغل بال نيقولاى فى تلك الساعات . فهو لن يلبث ان يكتب فى ظلام الليل وتحت ايقاع عجلات القطار عن «الخيانة والجبن والغدر» التى راح هو ضحيتها ، كما كان يعتقد . اما احداث اليوم المنصرم (٢ آذار) فقد كانت ، كما وصفها ، على النحو التالى : «اتى روزسكى فى الصباح . . . المطلوب ان اتنازل . روزسكـــى نقل هذا الحديث الى القيادة ، والكسييف الى قادة الجبهات . حتى الساعة الثانية والنصف وصلت ردود الجميع . وكان فحواها ، أنه ينبغى الاقدام على هذه الخطوة من اجل انقاذ روسيا والحفاظ على الجيش فى الجبهة وعلى حالـــة الهدوء . وافقت . . . فى المساء وصل جوتشكوف وشولجين مـــن بيتروجراد . . . سلمتهما البيان الموقع . . . فى الساعـــة الواحدة غادرت بسكوف بشعور ثقيل مما عانيته . فالخيانة والجبن والغدر فى كل مكان» .

لقد استاء من عمه نيقولاى ومن ايفيرت وساخاروف لاستعجالهم فى ارسال موافقتهم الى الكسييف . واستـــاء من ضباط حاميـــة موجيليف الذين ما ان سمعوا نشيد «المارسيليز» حتى هرعوا الى الشارع حاملين الشارات الحمراء عـــلى صدورهـــم لينضموا الى المتظاهرين . وغضب اشد الغضب على الجنرال روزسكى .

كتب فى اليوم التالى (٣ آذار) : «استغرقت فى نوم عميق دام فترة طويلة . ولم استيقظ الا بعد ان تجاوزنا مدينة دفينســـك بعيـــدا . كان اليوم مشمســـا وباردا . . . قرأت عن يوليوس قيصر» . وفى الساعة نفسها من مساء ذلك اليوم التى نهض فيهـــا «ديمقراطيو فبراير» ميليوكوف وكيرينسكى وزملاؤهما ، من وراء مائدة الغداء التى اقامتها لهم فى بيتروجراد الاميرة بوتياتينـــا كان القطار الازرق يقترب من مدينـــة موجيليف . وكان فى استقبال القيصر المخلوع على الرصيف الكسييف وضباط القيادة العامة ، وقد علت مظاهر الحيرة على البعض والكآبة على الآخر . ترى ما الذى اتى به الى هنا ؟ هذا ما لم يكن حتى القيصر المخلوع نفسه يعرفه حق المعرفة .

فى الصباح شرب الشاى مع الكسييف ، وذهب بعد ذلـــك الى الاركان لكى يستمـــــع – وللمرة الاخيرة – لتقرير الكسييف عن الوضع فى الجبهات . ثم توجه الى المحطة لاستقبال امه القادمة من كييف . احتضنت ماريا فيودوروفنا ابنها على الرصيف . ومضت معه الى بناء خشبى فى جوار المحطة ، وهناك اختلت معـــه فترة طويلة . خرجت الامبراطورة الام من هناك بعينين بدت عليهما آثار البكاء . وقد شوهدت الام وابنها فى موجيليف عدة مرات فى وضع واحد : هى توبخه وهو يستمع دون جواب ، يدخن سيجارته بين حين وآخر ونظره شاخص الى الارض . (سوف يرد فيما بعد وصف العلاقات بين نيقولاى رومانوف وامه غير مرة) .

عند مجيئه الى مقر القيادة هذه المرة لم يحملوا اليه البريد ولا برقيات العملاء . كان العقيد المسؤول عن قسم الاعلام ، قد وعد ان يجلبها ، الا انه ما لبث ان «نسى» وعده فى اليوم نفسه .

وقد وردت من رودزيانكو برقية الى الكسييف حول الاجتماع فى شارع ميليونايا . فعلق نيقولاى قائلا : «اتضح ان ميخائيل قد تنازل . وبيانه ينتهى بوعد باجراء انتخاب الجمعية التأسيسية بعد ٦ اشهر . لا يعلم الا الله ما الذى اوحى له بكتابـــة مثل هذه الدناءات . انتهت الاضطرابات فى بيتروجراد – ليت ذلك يدوم فترة اطول» . وكتب فى ٧ مارس : «بعد الشاى بدأت بجمع حاجياتى . تناولت طعام الغداء مع امى ولعبت معها لعبة البزيك» .

لم يضن المختصون فى الشؤون السوفييتية وراء المحيط ، بكل ما يمكن ان يستدر العطف فى تصوير شخص نيقولاى رومانوف فى تلك الايام من شهرى فبراير ومارس . فالقيصر السابق البعيد عن زوجته واطفاله وعن مراكز السلطـــة ، والمخذول على بعد ٨٥٠ كيلومترا فى مدينة موجيليف النائية يتعرض ، على حد زعمهـــم ، للمطاردة ويجرى الاجهاز عليه كالطريد . كتب فرينكليند انـــه «بغض النظر عن مشاكل» نيقولاى ، بل «ومن دون اخذهـــا بعين الاعتبار» يشعر كانسان بالشفقة على القيصر «كشفقة اى شخص آخر على رجل مكفوف البصر دهسته سيارة اثناء تلمسه الطريـق عبـر الشارع» . اما فى كتاب الكسندروف فيصور القيصر المخلـــوع كشخص «فقد نفسه كليا ، ذى نظرات خابية يعلو الاصفرار وجهه الذى حفرته تجاعيد الشيخوخة» رجل سحقته الاحداث ، سهـــل

الانقياد ، تبرأ روحيا من كل شيء ، وبذلك حكم على نفسه بالعذاب سلفا» . وقد عُرف هذا المؤلف بالذات ببدعته المبتكرة (التى ما لبث ان تلقفها آخرون) ومفادهـــا ان نيقولاى رومانوف ما هو الا هاملت امير الدانمارك لا لانــــه بدلا مـــن التحرك فى موجيليف وبسكوف ، ظل اسير تردد لا ينتهى فى موضوع «ان يكون او لا يكون» ، وانما لان والدته فى الاصل ، اميرة دانماركية ، وعلى هذا النحو فان القيصر الاخير بمثابة حفيد لهاملت ، وبالتالى فان تردده هذا صفة موروثة ، الامر الذى لا يجوز تجاهله اذا ما اردنا ان نغوص فى اسرار الثورة الروسية . . .

ان نيقولاى ، كما يدعى هؤلاء السادة ، كان اولى بالعطف لانه الى جانب «قسوة الثوريين» و«غدر معاونيه» تعرض فى ساعة المحنة الى لاابالية اقربائه . فقد غدر به وخانه ضباط الاركان والاوساط الارستقراطية والحلفاء وافراد الاسرة المالكة . فهذا هو قريبـــه كيريل يأتى الى قصر تافريدا مزينـــا صدره بشارة حمراء ويعلن استعداده للامتثال للثورة .

هل ثمة حاجة الى البرهنة ان نيقولاى الذى «حرق الارم» كان بعيدا كل البعد عن ذلك الشخص الوديع السهل الانقياد الذى يمثل امامنا فى الاساطير الامريكية الممالئة لآل رومانوف . لم يكن وديعا ذلك الذى اصدر الاوامر الى خابالوف بقمع «التمرد» دون رحمة ، ولم يكن صنوا لهاملت ذلك الذى جهز حملة ايفانوف القمعية . اما ما يخص علاقة نيقولاى باقربائه فباستطاعتنا ان نقول هنا بانه هو الذى عودهم (ما عدا زوجته) ، من خلال تشبثـــــه المستميت بسلطته الفردية ، على نبذ حتى مجرد التفكير فى التأثير فى شؤونه ، بل وكان يحظر عليهم فى الحديث معه حتى التطرق الى اية مواضيع سياسية . وفى حالته هذه ايضا لم يبذل ، بالطبع ، اية محاولـــة للاتصال بهم وبحث هذه الخطوة البالغة الاهمية بالنسبـــة لهم . والامر هنا لا يكمن فى التشتت الجغرافى بقدر ما يتمثل فى تلك الحالة المزمنـــــة من الخصومات والمشاحنات التى استشرت داخل اسرة رومانوف . فنيقولاى لم يسألهم الرأى قبل ولا بعد تنازله ، وهم لم يحاولوا بدورهم درس الوضع الحرج الذى باتوا فيه مع احد او فيما بينهم . ولم يعرفوا بالتنازل الا بعد ان اصبح امرا واقعا . بالاضافة الى ذلك كانت اسرة رومانوف بحلول عهد افول السلالة

عبارة عن مجموعة من الشخصيات التافهة التى لا تجد بينها من يستحق المشورة . وكان العم نيقولاى الشخص الجاد الوحيد من بين كبار الامراء ، الذى لم يحرم ابن اخيه عن مشورته . فقد اوصاه دون تردد بالتنازل بعد ان استخرج رأيه .

فى ٢٠ مارس ، اى فى آخر يوم من وجود نيقولاى فى موجيليف حرر «نداء الى الجيش العامل» وكان نداء وداعيا . وقد جاء فيه : «اطيعوا الحكومة الجديدة وامتثلوا لرؤسائكم وليعنكم الرب على قيادة روسيا فى طريق المجد والازدهار» . وكان الكسييف قد ادرج النداء فى الامر رقم ٣٧١ المؤرخ فى ٢١ آذار ولكن ما ان عرف جوتشكوف بهذا حتى ارسل برقية يعز فيها على نحو قاطع باستبعاد نداء القيصر السابق من نص الامر المذكور .

ما ان حل اليوم الثانى من تنازل القيصر حتى قرر سوفييت بيتروجراد ، نزولا للمطالب التى طرحت فى الكثير من الاجتماعات واللقاءات ، اتخاذ الاجراءات لالقاء القبض على الزوجين رومانوف . بيد ان لفوف وكيرينسكى لم يردا على نداء السوفييت الذى يدعو الحكومة الموقتة الى القيام بهذه الخطوة معا . ولكن الحكومة الموقتة ما لبثت ان عادت بعد اقتناعها بان سوفييت بيتروجراد قادر بل ومصمم على تنفيذ هذه الاجراءات بمفرده ، واتخذت (فى ٧ مارس) القرار التالى : «اعتبار الامبراطور المتنازل نيقولاى الثانى وزوجته رهن الاعتقال ونقل الامبراطور المتنازل الى تسارسكويه سيلو» .

وعين لتنفيذ هذا الامر اربعة مفوضين حكوميين وهم : بوبليكوف وغريبونين وكالينين وفيرشينين (وجميعهم من اعضاء مجلس الدوما) . وقد اوصاهم وزير العدل قائلا : «لا تزعجوا القيصر السابق شخصيا . واكتفوا بالاتصال به عبر الجنرال الكسييف» .

وفى الساعة ١١ من صباح يوم ٧ مارس استقل المفوضون مع الامر الشكلى للحكومة الموقتة ، قطارا استثنائيا الى موجيليف . وفى اليوم التالى كانوا فى المكان المقصود ، حيث استقلوا السيارة من المحطة الى مقر القيادة ومثلوا امام الكسييف ورجوه ان يبلغ نيقولاى بانه رهن الاعتقال ، وان الحكومة تقترح عليه التوجه فورا الى اسرته فى تسارسكويه سيلو . وقد اخبر الكسييف

المفوضين بان قطار القيصر جاهز ، وبوسعه التحرك فى اللحظة التى يرونها مناسبة . وطلب المفوضون تزويدهم بقائمة كاملة باسماء الحاشية والخدم الذين سيرافقون نيقولاى . وقد تم تزويدهم بقائمة من ٤٧ شخصا .

كانت مأدبة الافطار التى اقيمت فى مطعم قطار ماريا فيودوروفنا آخر مناسبة تجمع الام وابنها . وفى اثناء هذه المأدبة بالذات ابلغ الكسييف نيقولاى بقرار الحكومة الموقتة ، وتم تحديد موعد الرحيل فى الساعة الخامسة عصرا (٨ مارس) .

وكان القطار الامبراطورى ، المتوجه فى آخر رحلة له ، مكونا كالعادة من ١٠ عربات ، وقد ربطت الى مؤخرته العربة المخصصة للمفوضين . وبامر من الكسييف شكلت وحدة الحراسة من جنود فوج السكك بقيادة ضابط الصف يروفييف . وقبيل الرحيل بدقائق عبر نيقولاى الرصيف الذى يفصل بين قطاره الخاص وقطار امه . سار رافعا يده بالتحية ، وهو فى نفس البزة التى يرتديها حرسه ، فى البشمليك ودون معطف فيما خيم الصمت على جميع ضباط القيادة الواقفين على الرصيف الذين ودعوه بالانظار فقط . لم تكن هناك اية هتافات - لا متعاطفة ولا معادية . سوى ان الادميرال نيلوف اندفع نحوه وامسك بيده وقبلها .

فى الساعة الرابعة بعد الظهر غادر محطة موجيليف قطار الامبراطورة الام اولا . وقد تابعه نيقولاى بشرود . وفى الساعة الرابعة و٤٥ دقيقة تحرك القطار الامبراطورى فى اتجاه معاكس . وعندما مرت عربة القيصر امام الجنرالات والضباط المودعين نزع الكسييف الذى تقدم المجموعة ، قبعته وانحنى بالتحية فى اثر القطار .

فى هذه الاثناء كانت الكسندرا فيودوروفنا تقبع فى قصر تسارسكويه سيلو فى حالة هستيرية . ذلك ان ادراكها لحقيقة عجزها التام قد افقدها صوابها . فهى ، على حد تعبيرها ، لو كانت موجودة فى الاسبوعين الماضيين بجانب زوجها وتمكنت من التأثير فى قراره لاظهر ، دون شك ، اصرارا وقسوة اكبر فى تمسكه بالسوط . ولكن مسافة ٨٥٠ كيلومتر تفصل بين الكسندرا

ونيقولاى . ان حقدها لتمديد وغيظها لا تحده حدود . ولكنهـــا اصبحت ضعيفة فى تبين الاحداث .

قال لها الحاجـــب فولكوف : «يبدو ان الثورة قد بدأت ، حتى القوزاق لم يعودوا اهلا للثقة» اجابت : «كلا ، ليس الامر كذلك . الثورة مستحيلة فى روسيا ، والقوزاق لن يخونونا . . .» .

لم تعلم بتنازل نيقولاى عن العرش الا مـــن الاميـــر بافـــــل الكسندروفيتش الذى حمل لها الصحيفة وقرأ عليها نص الوثيقة . ولكنها ردت عليه قائلة : «لا اصدق ، كل هذا كذب . تلفيقـات صحف . انا مؤمنة بالله والجيش . وهما لم ينبذانا بعد» .

وعندما اصطدمت بتعذر السفر الى نيقولاى تولاها قلق شديد . فراحت تبعث له البرقية تلو الاخرى ، مرة الى موجيليف واخرى الى بسكوف ، وضمنتها توصياتها ونداءاتها عبثـــا . وفى كل مرة كان المراسلون يوافونها فى قصر الكساندروفسكى باستمارات اعادتهـا دائرة التلغراف واشرت بالعبارة التالية : «المرسل اليـه مجهول الاقامة» .

واخيرا وصل الى تسارسكويه سيلو المرسل اليه نفســـــه . ودون ان يثير قطاره اى انتباه فى المحطات التى مر بها ، وصل فى الساعة الثانية ظهرا (٩ مارس) الى الجنـاح القيصرى فى محطـــــة الكساندروفسكايا . كان الرصيف خاليا باستثناء بضعة اشخاص . ووقفت جانبا مجموعة صغيرة من صحافيى بيتروجراد . قفز نيقولاى من باب العربة ومضى بسرعة نحو السيارة ، دون الالتفات الى احد . استقل السيارة معه الهوفمارشال دولجوروكوف . كان الذيـــن رافقوه ونزلوا معه الى الرصيف كثرة . ولكن ما ان غادر الرصيف حتى انطلق هؤلاء «هاربين فى مختلف الاتجاهات ، ملتفتين حولهـــم خشية ان يعرفهم احد كما يبدو» .

بعد ان وصلت السيارة الى قصر الكساندروفسكى ظل الجندى المناوب عند البوابة ينظر الى القيصر السابق دون اكتراث فتـــرة طويلة ويمتنع عن فتحها . واخيرا خرج من المبنى ضابط الخفـــر الذى صاح بالحارس من بعيد :

– افتح الباب للامبراطور السابق .

ترجل نيقولاى من السيارة . . . كان الضباط عند المدخـــــل يحملون على صدورهم شارات حمراء ويقفون وقد دسوا ايديهم فى جيوبهم بل وكانت السجائر تتدلى من افواه بعضهم . بادرهـــــم نيقولاى بالتحية ولكن لم يرد عليه احد منهم ولم يؤد له التحية» .
بعد عدة دقائق تناهى الى سمع نيقولاى صوت الباب يوصـــــد وراءه بالمزلاج . وبذلك اصبح رهن الاعتقال منذ الآن وحتى نهاية حياته . وفى الوقت نفسه فرضت الاقامة الجبرية على ميخائيـــــل رومانوف فى غاتشينا ، واعتبر شكليا «تحت رقابة الثورة» .
وقبيل ذلك اعلن عن وضع الكسندرا فيودوروفنا رهن الاعتقال ايضا . وبقرار من الحكومة الموقتة ، كلف الجنرال كورنيلوف الذى اعيد تعيينه قائدا لمنطقة بيتروجراد العسكرية ، بمهمة القيـــام بذلك . غير ان الجنرال الذى دعاه الحاجب بينكيندورف الى جنـاح القيصرة السابقة ، انحنى بكل احترام امامها وقال : «لقد كلفـت يا صاحبة الجلالة بمهمة مزعجة وهى ان ابلغكم بقرار مجلس الوزراء الذى ينص على مصادرة حريتكم ابتداء من اليوم الحالى» . امالـت القيصرة السابقة راسها وراحت تستمع ضاغطة على اسنانها بقوة . وصار الطفح الاحمر يكسو بالتدريج رقبتها ووجهها الرصين ظاهريا والخالى من اية تعابيره . وبعد بعض الصمت اقبل كورنيلـــوف يواسيها وراح يؤكد لها بانه ووزير العدل ، كيرينسكـــى الذى ارسله ، لن يسمحا بتعرضها لاى «انتقاص» او «مضايقــة» ، وان الهدف الوحيد من وراء قرار رئيس الوزراء لفوف القاضى «بمصادرة حريتها» (وليس الاعتقال) هو ضمان سلامة الاسرة ، وانه يمكـن اعتبار قومندان القصر الحالى كوتسيبو منفذا مثاليا لهذه المهمة ، وانه سترفع جميع القيود عن حريتها بمجرد استتباب الوضع .
وقد تأثرت الكسندرا فيودوروفنا بكياسة القائد الى حد كلفته معه بشرف اداء خدمة لها . الا تتكلم ايها الجنرال مع بناتى وابنى فى الموضوع هذا ؟ فكل الاشياء تبدو على لسانك واضحة وتحمـــل صبغة التفاؤل . نعم ، بالطبع . فى الحال . اذ يسرنـــى ان اقوم بخدمة لكم . ولم يتطلب منه عمله التوضيحى للاوانس ســـوى نصف ساعة ، ليتركهن بعدها مسحورات بجاذبية الديمقراطيـــة المظفرة . واما بخصوص ولى العهد فبعد التشاور السريع مع مربيه

جيليار * قرر انه من الاجدى لو كان المربى المذكور هو الذى يوضح الاحداث لولى العهد الكسى . ومن ثم دار الحديث التالى بين المربى وتلميذه :

— الكسى نيقولايفيتش ، اتدرى ان اباك عاد من موجيليف ولن يسافر الى هناك بعد الآن .

— لماذا ؟

— لانه لا يريد ان يبقى قائدا عاما اعلى .

ازعج هذا الخبر ولى العهد ، ذلك انه كان يحب السفر الى مقر القيادة .

بعد فترة من الصمت اضفت قائلا :

— الكسى نيقولايفيتش اتعلم ان اباك لا يريد الاحتفاظ بالعرش بعد الآن .

— كيف ؟ لماذا ؟

— لانه متعب للغاية ، وقاسى الكثير من المحن فى هذه الايام .

— آه ، نعم . لقد ذكرت لى امى انهم اوقفوا قطاره عندما كان متوجها الى هنا . ولكن ابى سيعود امبراطورا فيما بعد ؟

اوضحت له ان الامبراطور تنازل لصالح ميخائيل الكسندروفيتش الذى تنازل بدوره .

— فمن سيصبح امبراطورا اذا ؟

— لا ادرى . لا احد بعد الآن ، على ما يبدو .

احمر وجهه بشدة . . . وبعد عدة دقائق من الصمت عاد ليقول :

— اذا لم يكن هناك امبراطور ، فمن الذى سيسير شؤون روسيا ؟

كان يصعب على جيليار بالطبع الاجابة عن هذا السؤال . ومع ذلك فقد كان بوسعه ان يبين لهذا الغلام المحب الاطلاع انه اذا لم يعد فى روسيا امبراطور فذلك لا يعنى بالضرورة انه لم يعد هناك من يسير شؤونها . وبالمناسبة ، فان مستوى تفكير الكسى بشأن مستقبل روسيا لم يكن يختلف عن مستوى التفكير الذى كان

---

* بيير جيليار من اهالى جنيف ، فى عام ١٩٠٤ تخرج فى جامعة لوزان . وفى عام ١٩٠٥ دعاه الامير ليختينبيرجسكى ، قريب القيصر ، الى بيتروجراد لتدريس ابنه الصغير سيرجى اللغة الفرنسية . بعد عام واحد «تنازل» ليختينبيرجسكى عن السويسرى لصالح اسرة القيصر ، وصار يدرس اولغا وتاتيانا اللغة الفرنسية . وفى عام ١٩١٣ اصبح مدرسا ، بل ومربيا لالكسى البالغ من العمر تسع سنوات . وقد اقام مع اسرة رومانوف فى تسارسكويه سيلو حتى اغسطس عام ١٩١٧ ، وفى توبولسك حتى مايو عام ١٩١٨ ، حيث ودعهم لدى رحيلهم الى ايكاتيرينبورج .

يميز بعض كبار الساسة البرجوازيين ، الامر الذى يؤكده على الاقل ، خطابا ميليوكوف وجوتشكوف فى الاجتماع الذى عقد فى شقة بوتياتينا فى ٣ مارس عام ١٩١٧ . وكان الامبراطور السابق هو الآخر يعتبر نظامه وسلطته الاستبدادية وشخصه فريدة فى بابها ، وقد افصح عن هذا فى الساعات الاولى التى اعقبت تنازله عن العرش . وفى تلك النزهة مع مرافقه موردفينوف التى اتينا على ذكرها ، كان «يخنقه شيء فى داخله لا يمكنه كبته» . وكان هذا الشيء ، كما اتضح ، هو الضيم «الذى لحق به وبمركزه المنتزع» ومن ثم «الخوف على روسيا التى فقدت عمودها الفقرى ، وباتت تترنح بخطورة ، على ركيزة غير معروفة» . وعندها بالذات «حرق الارم» هو الآخر .

فى المكاتب والزنزانات

ما ان وجد نيقولاى والكسندرا نفسيهما تحت الاقامة الجبرية ، حتى سارع البعض من اعوانهما وخدمهما الى النجاة هربا .

وما كاد القيصر المخلوع يصل تسارسكويه سيلو حتى عجل اصحاب السعادة الى التخلى عنه بالسهولة نفسها التى تخلى بها الخدم . البعض اقدم على ذلك فى حضوره وبمجرد بلوغ محطة الكساندروفسكايا . وكان فى عداد هؤلاء بعض المقربين مثل ناريشكين – مدير قسم المكتب العسكرى القيصرى المتنقل ، وفون جرابى آمر الحرس الامبراطورى وسابلين احد مرافقى القيصر . كما هرب الاثنان اللذان صارحهما نيقولاى اثناء نزهته فى محطة السكك اثر تنازله عن العرش بما كان يعتمل فى صدره ، ونقصد الامير ليختينبيرجسكى والعقيد موردفينوف . وكان البعض يتراجع «بحذر واحتراس» والبعض الآخر دون ان يلتفتوا الى الوراء . كما كان قد اختفى قبل ذلك ، فى موجيليف ، كل من فريديريكس وفوييكوف . وبالمناسبة ، فقد تسنى بعد عدة ايام العثور والقبض على فريديريكس فى جوميل ، وعلى فوييكوف فى فيازما . وبات بوسع رودزيانكو فى تلك الايام ان يتشفى قائلا : «كانا اول من ترك القيصر فى ساعة المحنة . الامر الذى يؤكد ان القيصر لم يكن يحسن اختيار مقربيه» .

وقد فر البعض من القصر نفسه . وسجل القيصر السابق فى يومياته بأسى ان ٤٦ خادما قد تركوه وتخلوا عنه .

وكان هناك ايضا من اقدم طوعا على مقاسمته الاقامة الجبرية . وفى عدادهم دولجوروكـوف وبينكيندورف والوصيفتان بوكسجفدن وجندريكوفا والقارئـة شنيدر والطبيبان بوتكين وديريفينكـــو والمدرسان بيير جيليار وسيدني جيبس والوصيفتان فيروبوفـــا ودينى .

ولكن فى ٣ ابريل قدم بعض الجنود الى قصر الكساندروفسكى وقبضوا على فيروبوفا ونقلوها الى قلعة بطرس وبولس . وهناك وجدت فيروبوفا نفسها فى الزنزانة رقم ٧٠ بجوار الزنزانة رقم ٦٩ التى قبع فيها فوبيكوف بعد احضاره من فيازما .

وكانت هذه القلعة التى تقع على ضفاف نهر نيفا تعج فى ذلـك الوقت بالحركة . فقد جلبوا اليها من جميع الارجاء رجال النظـام الذى سقط . وكانت جميع الزنزانات مشغولـة . كان يزور هذه الزنزانات للتعرف بالمعتقلين والاستماع الى افادتهم احيانا ، اعضاء لجنة التحقيق الاستثنائية فى جرائم النظام القديـم التى شكلت فى مستهل شهر مارس فى قصر تافريدا .

كان فى عداد هذه المجموعة التى كانت تنتقل من زنزانة الى اخرى الحقوقى مورافيوف رئيس اللجنة ، وبجواره سكرتير اللجنة ذو الوجه المستطيل والشعر الاشقر والقميص العسكرى الملحوم بشدة من الوسط بحزام جلدى عريض من تجهيزات الجنود . وكانت عيناه الفاقعتان اللتان بدتا مصطبغتين بلـــون ازرق ، تنظران بكآبة ، وتتفحصان الموقوفين بسخرية لا تكاد تلحظ ، اما جبهته الوضاءة فتدل على استقامة الفكر ، والتجاعيد فى زاويتى الفم – على عبوس شخص منشغل . انه الشاعر الكسندر بلوك الذى ذاعت شهرته وسط جماهير القراء فى روسيا ونال محبتها .

استدعى بلوك فى ايام الحرب لاداء الخدمة فى الجيش العامل ، وقد خدم عاما ونصف العام فى فصيل البناء الهندسى ، الذى عمـل فى قطاع الجبهة ، وفى ٨ مايو عام ١٩١٧ اوفد بطلب من بيتروجراد للعمل فى لجنة التحقيق الاستثنائية . وطلب منـــه مورافيوف ان يكتب محاضر الجلسات ويحرر التسجيلات الاختزالية . وهكذا اصبح الشاعر شاهد عيان ومشاركا فعليا فى جميع التحقيقات مع كبـــار

الموظفين المعتقلين فى القلعة ومقر اللجنة فى قصر الشتاء . ومرت عبر يديه مواد ٤٨ تحقيقا مع ٣٣ شخصا طبعت فيما بعد فى سنى السلطة السوفييتية ، فى ٧ مجلدات . وحينذاك ايضا سجل الشاعر انطباعاته الخاصة لجلسات التحقيق والمعتقلين ، التى حولها قلمه فيما بعد الى صور حية لاعوان القيصر المخلوع * .

فيروبوفا . عند دخول اعضاء اللجنة الى زنزانتها كانت تقف بجوار السرير بهيئة مزرية وتستند الى عكاز . نظرت بتوسل ، لاسيما الى بلوك . يقول آمر القلعة انها لا تكف عن التشكي والتذمر . وانها تتمتع بكل ما يؤهلها لتكون «حسناء روسية» ولكن كل ذلك اصابه التشوه والابتذال منذ امد بعيد ودون رجعة» * * .

جوريميكين ، رئيس وزراء سابق . وسيد . . . اصيل . انف ضخم واذنان كبيرتان ، على بشرته بقع زرقاء فى بعض الاماكن ، ويداه حمراوان وعليهما كلف . جزمة طويلة لينة ذات نعل مطاطى مما يفضله المسنون . «عجوز ممتلىء الجسم . . . يتكلم بصوت هامس ، ويتذكر بشكل عفوى . . . كم هو هرم . فهو يبدو كانه على وشك ان يلفظ انفاسه الاخيرة» . وهو يقول : «نسيت الكثير ، لانى لم اعد احكم بذاكرتى . من الصعب التمييز بين ما هو شرعى وما غير شرعى . اذ ان ذلك يقبل مختلف التفسيرات» .

شتورمير ، رئيس وزراء سابق . «سافل» . اطلال كبيرة كئيبة ، لا تزال تحمل بدهاء (او غباء) نظارة على الانف اطارها من عظام السلحفاة . . .

بيليايف ، وزير حربية سابق : متذمر تنتابه تشنجات عصبية فى الحنجرة .

بيليتسكى ، مدير سابق لقسم البوليس . نظرة سوداء حادة من عينين منتفختين . اصابع قصيرة ويدان سمينتان ووجه املس . ضحكته صامتة وقصيرة . يقلص عينيه بعض الشىء احيانا ، لاستجماع افكاره . كثير الكلام ولكن يحسن التوقف فى الوقت المناسب وبشكل لا يثير الانتباه ، عندما لا يجد من يصغى له . . . قال ان نيقولاى الثانى كلفه «بتسليط الضوء» على المقربين وكذلك على حلقة الامير الثورى ميشيرسكى . «وعندما

---

* بلوك . مفكرات (١٩٠١–١٩٢٠) . موسكو ، ١٩٦٥ ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٥٠ ، ٣٧٨–٣٧٩ .

* * افرج عن فيروبوفا بامر من كيرينسكى فى ٢٤ يوليو عام ١٩١٧ . واقامت من بيتروجراد صلة بعائلة رومانوف فى سيبيريا والاورال . هاجرت الى فنلندا فى عام ١٩٢٠ ، حيث اقامت حتى وفاتها .

يتطرق الحديث الى موضوع الاخلاق والجريمة يكتسب وجه بيليتسكي مظهر اللامبالاة» .

دوبروفين ، رئيس سابق «اتحاد الشعب الروسي» . «وعينان مديئتان» . عند دخول اعضاء لجنة التحقيق شهق وارتمى يقبل يد مورافيوف ، ثم سقط على السرير ينتحب .

ماركوف ، زعيم سابق للمائة السود . عريض الوجه اسمره ، اسود العينين ، تنفرج شفتاه عن اسنان بيضاء . فودان ممشطان الى امام وتقاطيع وجه قاسية . صوت خفيض وموتور ونبرة وقحة . كان ، كما قال ، يتلقى معونة سرية من الحكومة قدرها ١٢-١٦ الفا في السنة .

ازدادت مظاهر التذبذب والازدواجية في تصرف رئيس لجنة التحقيق مورافيوف اثناء عملها . فردا على اعتراف بيليتسكي المرائي : «اني اشعر بتحول نفسي حاسم ، واني تفهمت الكثير» ، اجاب قائلا : «انك تجردنا من سلاحنا» . وقد علق الشاعر على ذلك بسخرية : «هكذا يجري تمييع الحديث . بيليتسكي يزداد يسارية ومورافيوف يمينية» .

ولكن نيقولاي والكسندرا رومانوف كانا بالطبع اهم المعتقلين . وقد انتقلا «يحرقان الارم» الى حياة يومية يسودها هدوء نسبي ولا تفتقر الى اسباب الراحة السابقة . لم تكن ظروف الاعتقال صارمة . كما لم تكن توجد تقييدات كثيرة . فقد ابقي في القصر على ١٥٠ شخصا لخدمة العائلة .

وكان رب الاسرة يكنس الثلج وينظف الممرات ويواظب على ممارسة عمله المحبب ، التحطيب . كما كان يقضي وقتا طويلا في غرفة ابنه ، حيث يلعب معه مختلف الالعاب ويقرأ له الكتب . وكان يؤشر مجرى العمليات الحربية على الخريطة . وقد سمح له بمطالعة كل الصحف . وحينما يخرج الى النزهة او يزاول هواية التحطيب كان يتبعه عن بعد او يراقبه عادة ضابط الخفر من فصيل الحراسة . كان ضباط وجنود اربعة افواج مشاة من حامية تسارسكويه سيلو يتناوبون على الحراسة . وقد ابلغ الجميع بعدم الامتثال لاية اوامر يصدرها الامبراطور السابق . وان لقب «صاحب الجلالة» قد الغي ، وان تجرى مخاطبته على النحو التالي : «السيد العقيد »» ، وتؤدى له التحية حسبما تقتضيه هذه الرتبة . وكان القيصر يركن عادة الى الراحة في وقت مبكر . في الساعة التاسعة مساء يودع نيقولاي اطفاله ، وفي العاشرة يخلد الجميع الى النوم ،

ولا يبقى ساهرا الا الحرس .

كان ذوو الرتب العالية جميعا يتسمون باللطف والحرص . على ان الوضع كان اسوأ بعض الشيء فيما يخص المراتـــب الدنيا . مثلا ، ان زوجة نيقولاى روت له بفزع بعد عودته من مقر القيادة ، ان الجنود قاموا فى احدى الليالى بسحل جثة راسبوتين التى اخرجت من القبر امام نوافذها ثم احرقوها . قالت وهى تلوى يديها : «كان ذلك عزيزنا جريجورى» . وكان واضحا ، على حد تعبير شهـــود العيان ، ان ذلك «قد هزها اكثر من خبر تنازل القيصر عن عرشه» . كان القيصر يعيش دقائق مرة احيانا بسبـــب صغار الضباط ، لاسيما ثلاثة من وحدة الحرس الداخلى . ذات مرة ، اثناء تبديـــل الحرس داخل القصر ، مد نيقولاى يده ليصافح واحدا منهم ولكـــن ذلك تراجع خطوة ولم يصافحه . وحاول نيقولاى الذى اذهلته هذه الواقعة ، ان يخفف من وطأة المشهد ، فاقترب منه ووضع يده على كتفه متسائلا : «لماذا يا صديقى ؟» فرد عليه الضابط قائلا : «انا من الشعب . عندما بسط الشعب لك يده رفضت ان تصافحها . وانا لن اصافحك بدورى» .

وبالمقابل ابدى الجنرال كورنيلوف وقومندان القصر العقيـــد كوروفيتشينكو ، وكذلك ، بعد تقاعد الاخير ، خلفه العقيـــــد كوبيلينسكى ، اكبر قدر من المجاملة . اما اسطع شعاع مـــن السلوى والامل الذى كان يضيئ من وقت لأخر حجرات القيصر فكان يتمثل فى وزير العدل كيرينسكى (٣٦ عاما) الذى كلفته الحكومـــة الموقتة بمهمة ضمان حراسة وامن وسلامة اسرة القيصر السابق .

وكانت الكسندرا فيودوروفنا التى ازعجتها الخطب الليبراليـــة والخالية من المجاملة فى الدوما ، قد طلبت من زوجها ، قبل تحولها من امبراطورة الى سجينة بقرابة اربعة اشهر فقط ان «يشنـــق كيرينسكى على كلمته الفظيعة» ، فمن شأن ذلك ، على حد قولها ، ان يكون «درسا مفيدا» للآخرين . ولكن كيرينسكى الذى كان وزيرا للعدل فى الحكومة الموقتة ما لبث ان اصبح مفيدا للغاية بالنسبة لاسرة رومانوف فى تأمين حراستها والقيام بخدمتها المباشرة . فى ٣ ابريل (عام ١٩١٧) وعندما ظهر لاول مرة فى قصر الكساندروفسكى بدور المندوب الحكومى للاشراف على المعتقلين ، بعثت الكسندرا فيودوروفنا لدى رؤيته الى فيروبوفا التى كانت فى جناح آخر مـــن

القصر رسالة تعبر عن اليأس : «عزيزتي أنا ، كيرينسكي هنا . . . كيرينسكي هذا يتفقد غرفنا . . . رحمتك يا رب» .

ولكن لم يقع شيء مما كانت تخافه . فقد اتضح ان كيرينسكي كان انسانا مجاملا على غير المتوقع ، مع انه بدا عصبيا بعض الشيء في الدقائق الاولى . واليكم ما قاله بينكيندورف في المهجر عن زيارات كيرينسكي لقصر الكساندروفسكي :

تمت زيارته التالية في ٩ ابريل . «اعلن ، وهو يدخل ، ان بوده التحدث مع نيقولاي الكسندروفيتش» . واكد في حديثه مع القيصر السابق ان «الانفعالات السياسية في بيتروجراد» تضطرم : «واليساريون المتطرفون يطالبون بزج القيصر في القلعة لابعاده عن تأثير الامبراطورة التي تدبر مؤامرة رجعية» . وان الحكومة الموقتة تريد تسوية هذا الامر ، ولذلك فمن الضروري عزل نيقولاي عن الكسندرا فيودوروفنا ، بنقلها الى جناح آخر من القصر ، بحيث لا يغدو لقاؤهما ممكنا الا في اثناء الصلاة وحول المائدة وبحضور ضابط الحرس دوما . . . وقد وافقا . كما اكد كيرينسكي للزوجين انه «حاميهما الوحيد» في الوقت الراهن ، وانه الوحيد «القادر على درء الخطر الذي يتهددهما» .

واليكم الاستنتاج العام الذي خرج به «والثوري المخيف» بخصوص شخص الامبراطور السابق : كان نيقولاي الثاني انسانا لا يخلو من الشعور الانساني . وعموما فان هذا الانسان ذا العينين الزرقاوين الساحرتين كان بالنسبة لي ، لغزا . ترى أكان يتعمد الاستعانة بجاذبيته التي ورثها عن اجداده ؟ وهل كان ممثلا ماهرا ، او داهية في كسب ود الآخرين ؟ بدا من غير المعقول ان يكون هذا الانسان البسيط والبطيء الحركة امبراطورا لعموم روسيا . . . ولم يكن يبدو عليه ما يوحي بان كلمة واحدة منه كان يتوقف عليها الكثير ، قبل شهر واحد لا غير» .

منذ يوم ٣ ابريل وحتى ١٣ اغسطس عام ١٩١٧ زار كيرينسكي بصفته وزيرا ورئيس وزراء قصر الكساندروفسكي ما يزيد على ١٠ مرات . وقد كفته فيما بعد الانطباعات التي تزود بها في القصر في خلال الاربعة اشهر ونصف هذه لنشر نفثات وجدانية عن نيقولاي الثاني على مدى نصف قرن . وعلينا ان نراعي هنا بالطبع الجانب التالي : ان كيرينسكي اذا كان قد اباح لنفسه في عام ١٩١٧ شن هجوم «ثوري» في احد الاجتماعات على السلالة المالكة ، فانه ما لبث ان اضطر في الغرب الى التكيف لآراء واذواق ذلك الوسط الرجعي الذي انضم اليه وبات مصيره متوقفا عليه . بل ان كيرينسكي

حتى فى سنواته الاخيرة يعود على صفحات مجلده الكبير الذى ضمنه مذكراته الى تكرار وصف نيقولاى ، لدى استعادة تفاصيل اختلاطه معه قبل نصف قرن ، «بالشخص المستقيم الذى لا يفتقر الى المشاعر الانسانية» و«المحدث ذى العينين الزرقاوين الرائعتين» ، و«الخلق الكريم ، الذى شوهته البيئة والتقاليد» .

اما موقف نيقولاى نحو كيرينسكي فكان اشبه بموقف المرء من ناظره الرئيسى . انه ، وقد اخذ على عاتقه فى ساعة المحنة ، قطاعا مهما من ادارة البلاد ، يتوجب عليه الحفاظ على سلامته نسبيا ، حتى لحظة عودة المالك الذى غاب لظروف خارجة عن ارادته . والآن اخذت الكسندرا فيودوروفنا التى لان طرفها ، تحدث بعض المقربين عن المرشح السابق لصعود المشنقة ، قائلة : «لا استطيع ان اشكوه ، فهو انسان نزيه ، ويمكن التحدث معه» .

«يمكن التحدث معه . . .» عم ؟ عمليا عن كل ما يزعج او يفزع او يضنى الزوجين . بل وعن التخلص من الاقامة الجبرية فى القصر .

محاولة هرب

ان آل رومانوف وقد فقدوا السلطة ، لم يفقدوا الامل فى استعادتها . كانت الكسندرا فيودوروفنا تقول لزوجها : «لا بد وان يأتى الوقت الذى سيدعونك فيه» . لذا يجب النجاة من قبضة الثورة . والهرب هو افضل الطرق للنجاة من قبضتها . الى اين ؟ بعيدا عنها وخارج منالها . والافضل الى خارج البلاد .

وكان هذا الامر يداعب مخيلة الزوجين رومانوف منذ الوقت الذى فرضت فيه عليهما الاقامة الجبرية . فقد كانت الرغبة الوحيدة التى تملكتهما ، ونحت الى المقام الثانى جميع الافكار والمشاغل الاخرى ، هى الخروج من روسيا والابتعاد عنها الى ابعد قدر ممكن ولبعض الوقت . الابتعاد من اجل ان يعاودا فى اللحظة المناسبة وبعد الاعداد اللائق ، القفز الى ظهرها من جديد .

ومع ان بعض الخدم كان قد هرب ، والبعض الآخر يقبع فى زنزانات قلعة بطرس وبولس ، حيث يدلون بافاداتهم الى لجنة

التحقيق الاستثنائية ، الا ان محلهم ما لبث ان شغلته مجموعة جديدة من الخدم الذين يمكن الركون اليهم ايضا ، وكانوا هؤلاء من المريدين والمدافعين ذوى النزعات الديمقراطية الليبرالية . وفي مقدمتهم اولئك الذين حرصوا كل الحرص على مستقبل السابقين – لفوف وميليوكوف وكيرينسكي . ان هذه المجموعة بالذات التي سيطرت في الحكومة الموقتة اقدمت على تقديم خدمات خاصة لنيقولاي والكسندرا : سخرت السلطة التي انتزعتها على موجة الثورة لانقاذهما من عقاب الثورة والتذرع برحمة الشعب لتدفع عنهما مسؤولية ما اقترفاه بحق الشعب . وليس الذنب ذنبها أن تعذر القيام بذلك . . .

كان الوقت ربيع عام ١٩١٧ ، ذلك الربيع العاصف الخالد ، وكان الشعب يحتفل بانتصاره وهو على يقين بان نضاله ضد الاستبداد القيصري قد تتوج بالنجاح . ذلك ان فبراير بعث الحركة في البلاد الشاسعة باكملها ، ودوى ناقوسه في جميع ارجائها . فحتى اولئك البسطاء وذوي الافق المحدود الذين كانوا بالامس ينفرون من مجرد سماع كلمة «الثورة» ، باتوا الآن يصغون باهتمام لانباء الاحداث الجارية في بيتروجراد وتسارسكويه سيلو وموجيليف . حتى البرجوازيون الوقر زينوا صدورهم بالشارات الحمراء . قد يظن المراقب الساذج في هذا الجو المفعم بالبهجة والسرور ان هدفا واحدا يوحد الجميع وان سلاما طبقيا شاملا قد عم روسيا باكملها . ولكن ذلك لم يكن الا وهما . اما في الواقع فقد «احتدم الصراع الطبقي بشدة اكبر بعد دخوله طوره الجديد» .

ومع ان مقاليد السلطة في الدولة قد باتت رسميا ، في ايدى الحكومة البرجوازية المؤقتة التي فرضت سيطرتها على جهاز الادارة القديم ، الا ان القوة الحقيقية والواقعية كانت مع ذلك الى جانب السوفييتات التي حازت تأييد الجيش وجماهير الشعب الثورية . فلم يكن بالمستطاع سن اى قانون دون موافقة سوفييت بيتروجراد . وخلف سوفييت العاصمة كانت تقف السوفييتات التي شكلت في جميع انحاء روسيا . وسوف يعترف لفوف اول رئيس للحكومة الموقتة ، فيما بعد ، بان هذه الحكومة كانت سلطة بلا قوة ، في الوقت الذى كان فيه سوفييت نواب العمال قوة بلا سلطة . والامر الذى لا شك فيه ان السوفييتات بتأييد الجيش والشعب كان باستطاعتها

الاستيلاء على مقاليد السلطة باكملها ، حتى دون الاحتكام الى السلاح من اجل ذلك . ولكن الفئات البرجوازية الصغيرة - بما فيها المناشفة والاشتراكيين-الثوريين ، التى كانت تتمتع آنذاك بالاغلبية فى السوفييت تنازلت طوعيا عن السلطة للحكومة المؤقتة البرجوازية ، وتحولت الى سند لسياستها الموجهة ضد المصالح الحيوية للشعب والثورة .

وكانت هذه المصالح تستوجب اعمالا نشيطة . فقد حل الدمار فى اقتصاد البلاد وعم الخراب فى مجال النقل واشتدت ازمة الوقود ، وتداعى النظام المالى . كان نصف عدد الذكور البالغين منصرفين عن الانتاج المادى ، وكانت الصناعة مسخرة لخدمة الحرب . وبذلك زجت البلاد فى دوامة لا مثيل لها من العوز والفاقة وتضاءلت كميات البضائع واستفحل الغلاء . اما الحرب فقد استمرت فى التهام الارواح والموارد الطائلة : كل يوم من العمليات الحربية كان يكلف روسيا ٥٠ مليون روبل ، فى الوقت الذى كانت فيه المؤسسات الرأسمالية تجنى الارباح من الامدادات العسكرية والمضاربة فى البورصة .

فى ذات الوقت لم تظهر الحكومة البرجوازية ما يوحى بعزمها على تقييد دخول الرأسماليين ، وانتشال البلاد من مستنقع الحرب . بل على العكس ، اقدمت على ربط السياسة الخارجية الروسية بشكل اوثق بدول الائتلاف ، والقت على كاهل الشعب الكادح والطبقة العاملة بالدرجة الاولى ، اعباء الضرائب الاضافية وارتفاع الاسعار وعملت على خفض مستوى الاجور . واستنادا الى تقديرات المديرية المالية كان ينبغى للضرائب الجديدة المفروضة على الشغيلة ان تعطى اكثر من مليار روبل فى عام ١٩١٧ .

وباتت السلطات المحلية تمطر وزارة الداخلية فى الحكومة المؤقتة باخبار من هذا القبيل : «لقد افضى انخفاض مستوى الاجور وظروف حياة وسكن العمال ، الى اصابة السكان بالوهن البدنى بكل معنى هذه الكلمة ، الامر الذى بات يسترعى الانتباه من النظرة الاولى» .

ان الطبقة العاملة - القوة الرائدة فى الثورة الروسية - كانت القوة الرئيسية فى حياة البلاد الاجتماعية ، وان الحركة الشعبية مدينة لبسالتها وحزمها بالانتصار على النظام القيصرى فى فبراير -

مارس ١٩١٧ . وتمكن العمال تحت قيادة الحزب البلشفى وبالاعتماد على منظماتهم الجماهيرية (النقابات ولجان المصانع والمعامل والسوفييتات) من صد محاولات البرجوازية الرامية الى بعث النظام الملكى من جديد .

على ان العناصر المعادية للشعب لم تهدأ . واخذت العناصر الرجعية اليمينية المتطرفة التى صعقتها الثورة تفرخ روعها . فهى ما كادت تفيق من ذهولها حتى دخلت فى تماس وتفاعل مع الاوساط البرجوازية التى تأبى نسيان فشل مخططاتها فى فبراير – مارس الرامية الى الحفاظ على النظام الملكى فى روسيا . وقد اجمعت كل هذه المجموعات – ابتداء من الليبراليين وحتى الذين كانوا ملكيين متطرفين الى وقت قريب ، على وجوب الحفاظ على حياة القيصر المخلوع «تحسبا للطوارئ» . وحددت هدفها العام العملى على النحو التالى : وقاية الزوجين الملكيين من المتاعب التى يمكن ان تعترضهما جراء وجودهما بالقرب من مدينة بيتروجراد المضطربة ، ودفع خطر العقاب الذى يتهددهما على الجرائم التى اقترفاها . وبعبارة اخرى تأمين امكانية العودة الى السلطة لآل رومانوف ، الامر الذى كان يعنى مساعدتهم على الهروب الى خارج البلاد ، حيث يمكنهم هناك انتظار الساعة المؤاتية .

كتب فى المهجر كارابتشيفسكى ، المحامى الشهير فى حينه ان كيرينسكى كان بعد ثورة فبراير ، على حد زعمه ، «حازما للغاية» فيما يخص القيصر (بمعنى محاسبته) . وان كيرينسكى اقترح عليه – على كارابتشيفسكى – ذات مرة ان يلتحق بوظيفة حكومية (ان يصبح سناتورا) .

يزعم كارابتشيفسكى انه اجابه قائلا :

– كلا ، يا الكسندر فيودوروفيتش ، فانا ارجوك ان تسمح لى بالبقاء محاميا كما انا : محام . سأكون نافعا كمحام .

سأل كيرينسكى :

– محام لمن ؟ ألنيقولاى رومانوف ؟

– نعم ، سوف ادافع عنه اذا اعتزمتم محاكمته .

استلقى كيرينسكى على ظهر المقعد ، وفكر لحظة وهو يمرر ابهام يده اليسرى على رقبته ، ثم رفعه بسرعة الى اعلى . وعندها ادركت انه يلمح بهذه الاشارة الى الشنق .

قال كيرينسكي وهو يجيل بصره الذي لا تدرى أهـــو مليء بالالغاز ام مصاب بقصر النظر :

– لا بد هنا من ضحيتين او ثلاث .

امسكت كتفه قائلا :

– كل شيء الا هذا . وعليك ان تنسى الثورة الفرنسية ، نحـن في القرن العشرين ومن الخجل ، بل من العبث ان نحذو حذوها . . .

كما روى فيكتـــور الكسندروف المختص السييء الصيت في الشؤون السوفييتية الذي زار كيرينسكي في نيويورك قبـــل فترة وجيزة من وفاته ، شيئا من هذا القبيل ، ومفاده ان كيرينسكـي اعتزم ان يطلب معاقبة القيصر على جرائمه قضائيا . «هذا العجوز الذي بلغ ٨٢ عاما من العمر والذي فقد نصف حدة بصره ومع ذلك لا يزال يحتفظ بقدر كبير من الحيوية استقبلني في شقته اللطيفة في شارع ٩٣ . . . سألته : «هل كانت لديكم في عهد الثورة ، في تلك الايام البعيدة ، خطط محددة بشأن اسرة رومانوف ؟»

فاجاب قائلا :

– آه ، نعم . نياتي كانت واضحة تماما . . .

– ترى ما الذي اردتم ؟

– اردت ان القـــي قدرا اكبر من الضوء على العصر واحداث العهد القيصري . . . وكنت ابغي بكل السبل الممكنة الى ان يمثل القيصر وزوجته امام محكمة ثورية ديمقراطيـــــة . ولهذا الغرض اشرت على العقيد كوروفيتشينكو ان يصادر جميع اوراق القيصر وان يعزله عن القيصرة ، وان يحث عمل لجنة التحقيق . . . تلك هـــي نياتي الحقيقية . ولكني ، للاسف ، لم اتمكن من اعلانها اثناء الحرب الفظيعة التي كانت تواصل تكبيلنا» .

ولكن ، هل كانت هذه فعلا «نياته الحقيقية» ؟

في اليوم الذي انطلق فيه اعضاء الدومـــا الاربعة الى موجيليف لالقاء القبض على نيقولاي ، تلقى الجنرال الكسييف برقية بتوقيع لفوف وكيرينسكي ، جاء فيها ان الحكومة المؤقتة تضمن للقيصر السابق العودة الى عائلته في تسارسكويه سيلو ، لكي يجري فيما بعد ارسالهم «الى انجلترا عبر مورمانسك» في وقت قريب . وقد اكد في المهجر الجنرال السابق لوكومسكي وصول هذه البرقيـــة : انه تلقاها شخصيا وحملها الى الكسييف . وافضى الى سوكولوف

قائلا : «ضمنت الحكومة المؤقتة للامبراطور حريته الشخصيـــة ، وامرت بترحيل اسرتـــه الى خارج البلاد» . وعلى حد تعبير شاهد آخر – وهو دوبينسكى ، فقد كان عنده انطباع واضح لوجود اتفاق بين كيرينسكـــى والكسييف «حول انتقال القيصر بحريـــة الى تسارسكويه سيلو ، واقامته هناك بحرية ، ورحيله الى الخارج عبر مورمانسك» .

كل هذا حدث بعد يومين او ثلاثة من تنازل نيقولاى . وهناك ادلة كافية على ان خطـة كيرينسكى بخصوص «مورمانسك» انبثقت اثر الانقلاب حالا . اولا ، ان نيقولاى شخصيا اكد ذلك : «قلبت كتبى وحاجياتي واخذت افرز كل ما اريد حمله معى ، اذا تعين عليّ الرحيل الى انجلترا . . .» . ثانيـــا ، افضى لفوف ، اول رئيس للحكومة المؤقتة ، الى سوكولوف بانه ووزير العدل كيرينسكـــى وبقية الشلة كلها ، «ارتأوا ان من الافضل لاسرة القيصر ان تغادر روسيا . واشاروا آنذاك الى انجلترا والدانمارك . . . وبحث هذه الامكانية وزير الخارجية ميليوكوف» . وقد اكد الاخير بدوره انه «ما ان انبثقت السلطة الثورية حتى قرر انه من المحبذ بل والضرورى ان يترك نيقولاى مع اسرته روسيا ويرحل الى الخارج ، علما ان البلد الذى اتجهت اليه انظارنا كان انجلترا . . . وارتأيت وقتئذ انه لزاما عليّ ان ابدأ المفاوضات مع بيوكينين فى هذا الموضوع» .

نستنتج من كل ما تقدم ان كيرينسكى وزملاءه اعتزموا من وراء ظهر الشعب الثائر ، وفى الوقت الذى جرت فيه مراسم دفن ابطال الثورة فى مارسوفو بوليه ، على فتح طريق الهرب الى خارج البلاد امام القيصر السابق . وان موافقتهم على اعتقاله (كانوا يتحاشون ذكر هذه الكلمة مفضلين التكلم حول «مصادرة حريتـــه») كانت مرتبطة بمخططهم الرامى الى ترحيله الى انجلترا . ولم تكن عملية الاعتقال الا محاولة لتهدئة السوفييت وتخدير يقظة العمال والجنود ، والعمل ، وهذا هو الاهم ، لضمان سلامة اسرة رومانوف حتى ذلك الوقت الذى يمكن فيه وضع البلاد امام الامر الواقع ، واقع ترحيل اسرة القيصر الى خارج روسيا .

وبما انه «ارتأى لزاما عليه» (امام من يا ترى ؟) فقـــد بدأ المفاوضات . وحملت هذه المفاوضات صبغة رسمية على الرغـــم من سريتها . سأل السفير جورج وليم بيوكينين حكومته المشورة .

وبعد ان بحثت حكومة لويد جورج الائتلافية طلب بيوكينين فى اقرب جلسة لها اتخذت القرار التالى : تلبية طلب ميليوكوف وكيرينسكى وتوجيه الدعوة الى نيقولاى وعائلته للاقامة فى انجلترا . وقد اتخذ هذا القرار بالاجماع ، اذ «لم يعارض هذا الاجراء الانسانى وهذه الحكمة السياسية ، احد من اعضاء الحكومة» . واستنادا الى التعاليم الصادرة من داونينغ ستريت وصل السفير فى الثانى من ابريل الى وزارة الخارجية الواقعة فى ساحة دفورتسوفايا وابلغ ميليوكوف رسميا بانه «يسر صاحب الجلالة وحكومته ان يمنحا الامبراطور الروسى حق الاقامة فى الجزر البريطانية» . واضاف بيوكينين ان الحكومة البريطانية مستعدة لتوفير سفينة حربية (طراد) من اجل نقل الاسرة من روسيا ، وسوف يجرى الايعاز اليها بالتوجه الى مورمانسك فى الموعد الذى تحدده حكومة بيتروجراد . وفى وقت لاحق اكد انه خصصت احدى البواخر البريطانية العاملة فى بحر الشمال لعائلة رومانوف . وعهدت الحكومة الموقتة الى كيرينسكى بمهمة تنظيم الانتقال من تسارسكويه سيلو الى مورمانسك .

كان يبدو وكأن المفاوضات ستسفر عن نتيجة . فقد نسق كيرينسكى وميليوكوف مع السفير البريطانى تفاصيل رحيل عائلة رومانوف ولم يبق الا جمع العفش . وكان نيقولاى قد جمع جزءا من عفشه فعلا . ولكن ما لبثت ان اعترضت الامر صعوبة لا يمكن ان نعتبرها مفاجئة .

اكتشف سوفييت بيتروجراد الامر . وعلى الرغم من ان قيادته كانت آنذاك فى ايدى المناشفة والاشتراكيين-الثوريين الا انه اضطر تحت ضغط الجماهير الى الاحتجاج . واحتراسا من مندوبى العمال فى كبريات مصانع المدينة الذين كانوا فى القاعة ، ارتأى تشخييدزه الذى ترأس احدى جلسات سوفييت بيتروجراد ، ضرورة اعلان تأييده للطلب الداعى الى حماية روسيا الجديدة من امكانية «عودة آل رومانوف الى الساحة التاريخية» .

يعترف بعض المؤلفين الغربيين فى معرض تطرقه الى هذه الصفحة من ثورة فبراير بان اعضاء السوفييت ما كانوا يضمرون فى الواقع «اية اجراءات قاسية للغاية ضد القيصر السابق» . وانما كانوا «يخشون رد فعل الشعب على تطور الاحداث» فقط . وكان هؤلاء الناس فى السوفييت والحكومة المؤقتة يحبذون ان يتفقوا فيما

بينهم على ان «يجابهوا وجها لوجه سخط وشبهات الجماهير الشعبية المستعدة على الدوام للتدفق الى مركز المدينة من الضواحـــى والاكواخ» .

وقد اثار ردا كهذا – «السخط والشبهات» – فى احياء بيتروجراد العمالية النبأ الذى ذاع بسرعة حول قيام الحكومـــة البرجوازيـــة بوضع خطة لترحيل اسرة رومانوف الى الخارج ومباشرة تنفيذها . وفى الوقت نفســـه انتشرت فى بيتروجراد الشائعات حول مؤامرة يدبرها انصار النظام القيصرى ، الذين يعدون العدة للهجوم عـــلى قصر الكسانذروفسكى ، بهدف تحرير اسرة القيصر واجلائها . وبات الكلام حول ضرورة قطع دابر هذه التحركات يدور فى الاجتماعات واللقاءات ولا تخلو منه جلسات السوفييت كافة . وشككت غالبية اعضاء السوفييت بحراســـة القيصر التى القيت مهمتها على عاتـــق كورنيلوف تحت رقابة كيرينسكى . ان وحدات الحراسة التى عهد بها الى العقيد كوروفيتشينكو (ومن ثم الى العقيد كوبيلينسكى) مشكوك فى امرها . فضلا عن انه لوحظت حول القصر تحركات مثيرة للشبهات .

وبالفعل ، كان من اليسير على كل من يتتبع الامر بانتباه ان يفطن الى ان اشخاصا مشبوهين باتوا يحومون حول القصر فرادى وجماعات . وكانوا يتصلون عبر الخدم ورئيس الحرس بالمعتقلين . ولسوف يتحدث ماركوف الثانى فى وقت لاحق فى المهجر ، عن كيفية قيامه فى مارس – ابريل عام ١٩١٧ فى بيتروجراد بتنظيم مجموعة من افراد الجندرمة والحرس السابقين من اجل تحرير الاسرة القيصرية بالقوة وتسفيرها عبر الحدود مع فنلندا . وان مساعـــده النقيب سيرجى ماركوف اعد عملا تخريبيـــا كان على اسرة رومانوف ان تستغله للهرب : قرر افتعال هجوم من «البلاشفة والفوضويين» على القصر وتفجير قنبلة فى الجناح الايمن من المبنى ، واستغلال الفوضى لنقل اسرة القيصر . وقد قام سيرجى ماركوف بتجهيز اتباعه من الخدم بكمية من الديناميت واقام منظومة الشارات وكلمات السر ، وعين الطريـــق حتى الحدود ، وتمكن من العثور على سيارات لهذا الغرض واعدادها . وفى الايام التى توصل فيها ميليوكوف وكيرينسكى الى اتفاق مع السفير الانجليزى اعلـم ماركوف الثانى نيقولاى بان «التحضير اشرف على نهايته» وان «الساعة باتت وشيكة» . امـــا نيقولاى فقد كلف بينكيندورف ان ينقل الى المتآمرين «شكره على

اخلاصهم» ، وكذلك رجاءه «بامهاله» . فقد ذكر انه لا بأس هنا من بعض الانتظار لكى نتبين ما الذى ستكون عليه الخطة الرسمية الاقل خطرا ، خطة سفره الى الخارج . فاذا تعذر على السلطات تنظيم سفره فعندئذ «نتكفل بذلك انفسنا» . وقد وافق المدعوان ماركوف على هذا التعديل ، ونقلا الى القصر عبر السيدة دين : «ليكن فى علمكم اننا على استعداد لكل شىء» .

ولكن اجراءات مضادة ما لبثت ان تلت ذلك . فقد اتخذ سوفييت بيتروجراد القرار التالى : الزام حامية تسارسكويه سيلو بضرورة ابداء اليقظة الثورية ودرء هجمة الملكيين . وثمة امر آخر وهو : عدم السماح لعملاء الحكومة بنقل عائلة القيصر الى مورمانسك ومقاومتهم بحزم . واعطيت الاوامر الى الفصائل المسلحة المخلصة للسوفييت بفرض سيطرتها على محطات ومفارق السكك الحديدية فى الشمال الغربى من روسيا . واوعز الى اجهزة السلطة المحلية والمنظمات الديمقراطية فى الاطراف بما يلى : فى حالة هروب اسرة رومانوف يجب العمل على التحرى عنها والقبض عليها مهما كلف الامر وباستخدام جميع الوسائل المتوفرة . وضرورة نقل القيصر السابق فى الوقت المناسب الى حصن تروبيتسكوى الواقع فى قلعة بطرس وبولس . وتقرر فضلا عن ذلك ارسال فصيلة الى تسارسكويه سيلو يتعين عليها اولا ، ان تتأكد من وجود المعتقلين ، وثانيا ان تتبين حالة الحراسة ، واخيرا ان تحدد ميدانيا الظروف التى يجب توفيرها لنقل اسرة رومانوف من القصر ، اذا ما ارتأى ذلك السوفييت .

لذلك ارجئت خطة «الهرب الى وراء البحر» .

مضت ٣ اشهر على بدء الثورة ، ولكن اهم المسائل التى طرحتها – حول السلام والارض والخبز – بقيت معلقة بينما شهدت البلاد ازدياد وقاحة البرجوازيين فى المدن والاقطاعيين فى الريف . وفى الجيش ، رفع الضباط رؤوسهم ، واعلنوا هدفهم «كبح الجنود» . وازداد الوضع الاقتصادى سوءا . فى هذا الجو من الاستياء الجماهيرى العام شهد يوم ١٨ يونيو فى بيتروجراد وكل انحاء البلاد تظاهرات احتجاج على تعسف الطبقات المستغلة . وقد دخل هذا اليوم فى تاريخ الثورة الروسية كاحد ايام انعطافها الحاد . ان

تظاهرات يونيو «كشفت مدى توتر الوضع السياسى وحدة الصراع الطبقى» . وهى ، اذ عجلت عملية تطور الثورة ، كشفت فى الوقت نفسه عن الوحدة المتنامية فى نشاط العمال والجنود ، وعن النفوذ المتعاظم الذى يتمتع به الحزب البلشفى وسط الجماهير ، كما أظهرت ، من جهة اخرى ، ضعف مواقع البرجوازية وعدم استقرار الحكومة المتكونة من عناصر تنتمى الى الكاديت والمنشفيين والاشتراكيين-الثوريين . وفى نفس تلك الايام بالضبط ، وفى ظل وضع يهدد بالانفجار انعقد فى بيتروجراد مؤتمر السوفييتات الاول لعموم روسيا . ومن منبره اعلن احد زعماء المناشفة تسيريتيلى : «فى الظرف الراهن لا يوجد فى روسيا حزب سياسى بمقدوره ان يقول : اعطونا السلطة وتنحوا ، لنحل مكانكم» . وهنا تناهى من القاعة صوت يقول بنبرة واثقة : «ان هذا الحزب موجود !» وكان لينين هو الذى تفوه بهذه العبارة باسم الحزب البلشفى .

وخوفا من الاحداث المقبلة وتحسبا لتصاعد المد الثورى اللاحق ، استأنف الساسة البرجوازيون فى الاسابيع الاولى من الصيف محاولتهم الرامية الى نقل اسرة رومانوف من منطقة بيتروجراد - تسارسكويه سيلو وفتح الطريق امامها الى الخارج . الا ان هذه المحاولة باءت هى الاخرى بالفشل .

كتب ميليوكوف فى الصحيفة التى اصدرها فى باريس ، ان المفاوضات مع بيوكينين جرت بادئ الامر «بشكل مريح» ولكن من ثم «ساد شعور بان الامر سيطول» . وعندها باتت ترتسم معالم صيغة اخرى وهى : امكانية حصول اسرة رومانوف على اللجوء فى اسبانيا . ولكن حيث ان الفونس الثالث عشر لم يقدم على توجيه دعوة رسمية ، بالاضافة الى وجود اتصال بانجلترا بهذا الشأن ، فقد ظل مركز ثقل المسألة كالسابق فى الحوار مع الانجليز . الا ان ميليوكوف كشف حقيقة ما جرى لسوكولوف : بعد ان «اعلنت حكومة لندن استعدادها لاستقبال الاسرة القيصرية» وبعد ان «ابلغنى بيوكينين بان بارجة يجب ان تصل لنقلها ، لم تصل اية بارجة ولم يتم السفر» . فقد وصل بيوكينين فجأة الى وزارة الخارجية وابلغ ميليوكوف بان «الحكومة البريطانية» لا تلح «بعد الآن على انتقال اسرة القيصر الى انجلترا» .

ويكمن سبب هذا الرفض فى مبدأ بالمرستون الذى يقول بانه لا يوجد لدى بريطانيا «اصدقاء دائمون ولا اعداء دائمون ، وانما لديها مصالح دائمة فقط» . فبعـــد التفكير جيدا فى آفاق وصول المهاجرين نيقولاى والكسندرا فيودوروفنا ، لا سيمـــا فى ضوء الاحداث العاصفة فى روسيا وتصاعد الغليان الثورى فى اوربـــا ، توصلوا فى داونينغ ستريت الى الاعتقاد بان اقامـــة عش لاسرة رومانوف داخل الجزر البريطانية لا يعد انجلترا باية منافع ، فى الوقت الذى يضمن لها المتاعب بالتأكيد .

وتمثلت الصعوبة الرئيسية على حد اعتراف فرينكليند ، وهو احد المختصين فى الشؤون السوفييتيـــة ، فى كون «مجىء القيصر السابق الى انجلترا كان عملا معاديـــا وقاومه الشعب الانجليزى عمليا» . ومع ان التقاليد التى سارت عليها الاوساط الحاكمة منذ القدم تقضى بمنـــح حق اللجوء الى الملـــوك والمطالبين بالعرش الفارين (يمكن الاشارة هنا الى لويس الثامن عشر ولويس-فيليـب ونابليون الثالث وغيرهم) ، فقد قرر الزعماء الانجليز فى عام ١٩١٧ الامتناع عن دعوة اسرة رومانوف الى البلاد ، ادراكا منهم ان العمال الانجليز لم ينسوا بعد يوم ٩ يناير ولا تدمير بريسنيا فى ديسمبر عام ١٩٠٥ ولا المذبحة فى لينا * عام ١٩١٢ ولا جرائـــم النظام القيصرى الاخرى .

ومع ذلك لم تكن هذه الظروف هى الحاسمة ، وانمـــا ظروف مغايرة اشد جسامة بكثير . وقد القت عليها الضوء فى وقت لاحق ابنة السفير البريطانى فى بيتروجراد ميريال بيوكينين ؟

حمل ساعى بريد السفارة من لندن رسالة الى ابى . ومـــا ان قرا نصها حتى امتقع وجهه وقال :

— الحكومة لم تعد ترغب فى مجىء القيصر الى بريطانيا .

— لماذا ؟

— انهم يخافون ، يخافون نشــوب اضطرابات فى البلاد . ويخافون اندلاع الاضرابات . . . الاضرابات يمكـن ان تندلـــع فى كـل مكان : فى الموانئ والمصانع الحربية والمؤسسات الاخرى والمناجم . . . بـــل ولا

---

* قيام القوات القيصرية باطلاق النار على المسيرة السلميـــة لعمال مناجم الذهب الذيـــن احتجـــوا على اعتقال اعضاء لجنـــة الاضراب . — **الناشر** .

يستبعد حتى خطر نشوب تمردات في بلادنا ، في حالة وصول اسرة رومانوف الى انجلترا . وهكذا فعلي ان ابلغ الحكومة الروسية بان اتفاقيتنا معها باتت لاغية .

ازاء هذه الاخطار لم يبق امام رئيس حكومة صاحب الجلالة الذي «اشتد عليه الخناق» ، الا ان يمارس الضغط على صاحب الجلالة . . . «لكي يكبت شعوره الحميد» .

على ان ذلك لم يكن بالامر الهين . فقد كان جورج يسعى بدأب من اجل نيقولاي * . وكان اول الاقرباء الذين ارسلوا الى نيقولاي برقية مواساة اثر تنازله عن العرش ، الامر الذي ذكر عنه ميليوكوف في المهجر قائلا : «في الايام الاولى بعد التنازل تم استلام برقية من جورج الخامس الى القيصر يعبر فيها الملك عن شعوره الشخصي . . . ولكن لما لم يعد هناك وجود للشخص الرسمي المعنونة اليه البرقية فقد قمت باعادتها الى بيوكينين» . على ان ذلك لم يفت في عزم سيد قصر بكنجهام . فقد انبرى يدافع عن نيقولاي امام رئيس وزرائه وحكومته عندما احتدم النقاش حول مسألة منحه حق اللجوء . وتذرع جورج في غضون ذلك بالاخص ، بانه قبل عام واحد لا غير ، في ١٦ فبراير عام ١٩١٦ على وجه التحديد قام الجنرال باجت واللورد بامبروك اللذان اوفدهما جورج الى موجيليف ، بتقليد نيقولاي الثاني عصا مارشال الجيش البريطاني . ورجا الجنرال باجت القيصر في كلمته الرسمية التي القيت آنذاك في مقر القيادة في موجيليف ان «يتقبل هذا اللقب والعصا كدليل على الصداقة والحب المخلصين» ، الامر الذي رد عليه نيقولاي بالثناء على «صاحب الجلالة الملك جورج . . . ابن الخالة والصديق والحليف العزيز» .

فهل يمكن نسيان ان نيقولاي الثاني يحمل لقب مارشال بريطاني لسبب واحد هو ان الرعاع خرجوا الى الشوارع في بيتروجراد كما سبق وحدث في لندن من قبل ؟ وتضامن مع الحجج التي اوردها الملك وزير الخارجية السير ارثر جيمس بلفور ، وان لم يدم هذا التضامن طويلا . انه احتج على رفض الدعوة ، ولاحظ انه ما دامت

* والدتا جورج الخامس ونيقولاي الثاني شقيقتان وهما ابنتا العاهل الدانماركي الملك خريستيان التاسع .

الدعوة قد قبلت ، فلا محال من حدوث «فضيحة مشينة» . ومع ذلك تمكن لويد جورج الذى كان يعرف ايضا باسم ثعلب ويلز ، من التغلب على رئيسه الاسمى ، وعلى الوزير الذى سانده . بل ولم يفت انتباه جورج الخامس ان منح انجلترا حق اللجوء لاسرة رومانوف سوف يجعل الرأى العام العالمى يتهمه ، هو الملك ، بالمحسوبية للاقارب ، وانه من «الاعقل له ألا يقبل على تشويه سمعة البيت الساكسوني-الكابورجي الانجليزى بالمغالاة فى دفاعه المستميت عن اسرة رومانوف التى تجسد الصلة العائلية والسياسية القديمة بالمانيا» . وبتكليف من الملك بعث سكرتيره اندريو تشيلفورد برسالة الى لويد جورج كانت تعنى الايذان بالتوقف : «ان صاحب الجلالة يعبر من جانبه عن شكوكه بمعقولية مجيء الاسرة القيصرية الى انجلترا ، ليس هذا انطلاقا من خطر السفر فى ايام الحرب فحسب ، بل ، وبقدر لا يقل عن ذلك ، من اعتبارات اوسع تتعلق بالامن الوطنى والامبراطورى» .

كان تيريشينكو قد توجه عبر الشخصية السياسية الدانماركية سكافينيوس الى الحكومة القيصرية الالمانية بالاستفسار السرى الآتى : هل يمكن للحكومة المؤقتة ان تعول على امن القيصر السابق وافراد اسرته فى حالة توجههم بحرا الى احد بلدان اوربا الغربية ؟ وردا على هذا الطلب وصل عبر كوبنهاجن الخبر التالى من بطانة ولهيلم الثانى : «ترى الحكومة الامبراطورية من واجبها ان تؤكد ان اية وحدة من الاسطول البحرى الالمانى لن تبيح لنفسها الهجوم على اية سفينة تحمل على متنها الامبراطور الروسى واسرته» .

ولكن هل كان لويد جورج الجهة الوحيدة التى يمكن اللجوء اليها ؟ وفى الواقع لم تكن انجلترا البلد الوحيد الذى حاول كيرينسكى ان يخبئ فيه اسرة رومانوف . ولكن الغريب فى الامر ، انه مع كثرة الحلفاء والمعارف لم تجد اسرة رومانوف بعد فبراير مكانا تلجأ اليه .

الدانمارك ؟ هناك ابن خالة نيقولاى – الملك خريستيان العاشر ، ولكن اتضح ان الدانمارك لا يمكنها استقبال القيصر السابق لروسيا المحاربة بحكم صفتها كبلد محايد . واليونان ؟ ان والدة الملك قسطنطين الاول ، الملكة الام اولغا الارملة حاليا ، تنحدر من اسرة رومانوف وتقيم فى روسيا ، ولكن لم يتمكن الملك

اليوناني الممالئ لالمانيا ولا الحكومة الممالئة لدول الائتلاف من الموافقة على مجيء اسرة رومانوف للسبب نفسه ، وهو حياد البلاد . واسبانيا ؟ الملكة يفجينيا هي ابنة خالة الكسندرا فيودوروفنا ، وكان الملك الفونس الثالث عشر يؤكد على الدوام تعاطفه الشديد مع نيقولاى الثاني ، ولكن ما ان جد الجد حتى اخذ هذان ايضا يتحججان بالحياد . والنروج ؟ انها محايدة . والبرتغال ؟ محايدة . وصربيا والجبل الاسود ؟ اشارتا الى وضعهما العصيب والى الاحتلال النمساوي . وفرنسا ؟ انها اكثر الحلفاء اخلاصا ، وبوسعها ان تعلن صراحة انها لا ترغب في ان تطأ قدما المستبد المخلوع ، وبالاخص زوجته الالمانية الاصل الارض الجمهورية . . .

احاديث على الاريكة

ان تدخل الاجانب (ولهيلم الثاني وجورج الخامس والفونس الثالث عشر ولويد جورج وبلفور وسكافينيوس وغيرهم) في الدسائس التي دبرت حول اسرة رومانوف قد زاد من حدة تخوفات الشعب عن وعي او غير وعي . ولم تخل خطة واحدة من الخطط الكثيرة التي رسمت لتحرير اسرة رومانوف من ضرورة الاعتماد على المساعدة الاجنبية . وقد باءت جميعها بالفشل لسبب واحد ، هو ان سكان البلاد والمنظمات الديمقراطية المحلية بل وحتى حرس الاسرة القيصرية كانوا جميعا يقفون ضدها . ولهذا بالذات فشل في المرحلة الاولى – مرحلة تسارسكويه سيلو – للدسائس الموالية للقيصر سواء المشروع الرسمي (كيرينسكي – ميليوكوف) او المشروع «غير الرسمي» (ماركوف الثاني) ، المتعلقان بخطط تسفير اسرة رومانوف الى الخارج . وكان واضحا ان اسرة رومانوف لن تهدأ اينما افضى بها الهرب ، ذلك لان عطشها الى الانتقام وحنينها الى السلطة المفقودة يضاعفان من نشاطها عشرات المرات . فلو تسنى لها التخلص من الاعتقال لاصبحت حتما راية للثورة المضادة ومركزا تلتف حوله اعتى عناصرها ، ولواصلت حتى ايامها الاخيرة محاولات العودة الى قصورها ، ولما اخلدت للهدوء ولعكرت صفو الحياة على روسيا والعالم بأسره .

بل وحتى السيد هوير الذى يواظب فى كتاباته اليوم على تصوير نيقولاى «وديعا» و«مستسلما» و«قانعا بمصيره المكتوب» ، يرفق تصويره الكيفـــى هذا بتحفظ يقول : «لعل القيصر المخلوع لم يستسلم كليا فى اعماق نفســه» . وعلى الارجـــح ان نيقولاى والكسندرا فيودوروفنا كانا «يأمـلان في ان صفحتهمـــا الاخيرة لم تطو بعـــد» . بل وان الكسندرا فيودوروفنا كانت «تنتظــر التحرير واثقة بانه سيأتي على هذا النحو او ذاك . وكانت تؤمـــن بوجود اناس مخلصين وضباط شجعان على استعداد لبذل ارواحهم فى سبيلهمـــا . وعلى الرغـــم من الرقابـــة التى فرضت على قصر الكساندروفسكى استمرت الاخبار التى كانت تصل سرا من الخارج فى تعزيز قناعة القيصرة بامكانية التحرير بل وقربـــه» . ان هذه التحفظات التى ارفق بها السيد هوير ادعاءاتـــه بشكل قد يبدو عفويا ، اكثر صدقا من ادعاءاته نفسها . بل هى تناقض بوضوح روايته العاطفية حول عودة نيقولاى الاخيرة من موجيليف الى قصر الكساندروفسكى (وقف امام زوجتـــه «حائرا» «مغرورق العينين» وكان كلاهما يشعر بنفسه فى تلك اللحظة «ضحيـــة عاجزة») . ويعترف هذا المختص فى الشؤون السوفييتية بانهما «كانا ضحية ، ولكن غير بريئة تمامـــا . فكما حدث مرارا مع ضعاف الناس فى التاريخ ، كان يستبد بنيقولاى تعطش شديد الى السلطة . ولعل الاخير لم يكن يعى ذلك تماما ، ولهذا كان يرى ان مـن سيطلــق سراحه ، لا يقوم الا بواجب عليه» .

ظل كيرينسكى وزير العدل سابقا ورئيس الوزراء فى تلـــك الفترة الملاك-الحارس لاسرة رومانوف . وهو وان ترقى وظيفيا الا ان امكاناته ضاقت . . . وبات نفسه فى وضع حرج الآن .

تميزت اواسط صيف عام ١٩١٧ بسعـــة نطاق التظاهرات المشتركة التى نظمهـــا العمال والفلاحون والجنود . فى هذا الوقت شهدت ميول الجماهير الشعبية تبدلات حادة نحو اليسار ، وباتجاه النضال الحازم ضد قوى الردة ، ونمو ثقة الشعب بالبلاشفة . وردا على ذلك نظمت البرجوازية فى العاصمة فى ٣-٥ يوليو حملة تنكيل جماعى بالطبقة العاملة وطليعتها البلشفية وبالعناصر الديمقراطية الاخرى من فئات السكان الكادحة .

ان التحليل العميق للاحداث مثل حملة الاعدامات والاضطهاد التى شنتها الحكومة المؤقتة فى يوليو بدعم مباشر من الاشتراكيين-الثوريين سوية مع المناشفة جعل لينين يستنتج ان فترة ازدواج السلطة قد انتهت وان الثورة المضادة قد انتظمت وامسكت فى ايديها بمقاليد السلطة الفعلية .

وكان عسف الرجعية يشتد حدة . ففى ٧ يوليو اعطيت الاوامر بتسريح الوحدات العسكرية التى شاركت فى تظاهرة يوليو فى بيتروجراد . وفى ٩ يوليو جرى فى بيتروجراد تحطيم مقرات عدد من المنظمات البلشفية والديمقراطية الاخرى . واعلن زعماء المناشفة والاشتراكيين-الثوريين الذين سلموا البرجوازية بشكل خيانى الموقع تلو الموقع ، ان الحكومة الموقتة هى «حكومة انقاذ الثورة» واعترفوا لها بصلاحيات غير محدودة لمواصلة حملات الاضطهاد .

وفى ١٢ يوليو ادخلت الحكومة الموقتة حكم الاعدام فى الجبهة . وفى هذه الايام بالذات جرى تدمير وغلق عدد من الصحف البلشفية . وفى ١٨ يوليو عين قائدا عاما للجيش الروسى الجنرال كورنيلوف الذى امر قبل كل شىء باستعمال السلاح فى تفريق اجتماعات الجنود .

قامت جبهة موحدة معادية للبلاشفة ضمت القوى الرئيسية فى الثورة المضادة : حزب الكاديت – قائد البرجوازية الروسية ، والطغمة العسكرية الرجعية التى ايدها امبرياليو دول الائتلاف الذين استوعبوا جيدا ممارسة التدخل الفظ فى شؤون روسيا الداخلية . وشنت حملة متكالبة من الافتراءات والمطاردات والارهاب ضد البلاشفة .

وقد جد فى ذلك كيرينسكى بالاخص ، حيث امر بوضع قوائم بأسماء المناضلين الثوريين الذين يجب اعتقالهم او بالاحرى تصفيتهم . وحظيت مساعى كيرينسكى الذى ابدى حرصه فى الوقت نفسه على امن الاسرة القيصرية وتهيئة اسباب الراحة لها ، بالتقدير اللائق ، سواء من جانب البرجوازية الروسية او ممثليات الدول الغربية فى بيتروجراد . وفى ٨ يوليو حل محل لفوف فى ترأس الحكومة ، محتفظا فى الوقت نفسه ، بوزارتى الحربية والبحرية .

وفى ٢٢ يوليو وقبل ٤ ايام من افتتاح المؤتمر السادس لحزب

العمال الاشتراكي-الديمقراطـــي (البلشفي) فى روسيـــا * ، دبر كيرينسكي امر النبأ الذى نشر فى الصحف تحت عنوان «من المدعى العام فى دائرة بيتروجراد القضائية» حول ما يسمى بالتحقيـــق فى احداث يوليو وتقديم لينين والشخصيات البلشفية البارزة الاخرى للمحاكمة بتهمة «الخيانة وتنظيم الانتفاضة المسلحة» . وقد تلقفت الصحف البرجوازية نبأ المدعى العام عن طيبة خاطر ، وراحت تروج الافتراءات عن الحزب الثورى وافضـــل المناضلين الثوريين . ان الجنرال بولوفتسيف قائد منطقة بيتروجراد العسكريـــة الذى دبر حملة الاعدامات فى يوليو قد نظم بمساعدة عملائه وبايعاز مــــن كيرينسكي ، مطاردة لينين بهدف التنكيـــل به . كتب الجنرال فى المهجر : «سألنى الضابط الذى توجه الى تريوكى بامل القبض عـلى لينين كيف ارغب ان استلم هذا السيـــد ، كاملا ام على شكـــل اشلاء . . . فاجبتـــه مبتسمـــا ان المعتقلين كثيرا ما يحاولون الهرب !» . وكان ذلك تلميحا مباشرا الى التكنيل بزعيم الثورة .

حاولت البرجوازية استغلال انتصارها الموقت فى ايام يوليو من اجل فرض ديكتاتورية عسكرية سافرة . وكان على ما يسمـــى باجتماع الدولة الذى جرى فى مبنى مسرح البولشوى فى موسكـــو واستغرق ٤ ايام ان يصبح استعراضا عاما لقوى الثورة المضادة . ولكن فى يوم الافتتاح اعلن ٤٠٠ الف عامل من عمال الاحياء الصناعية فى موسكو الاضراب عن العمـــل ، اضافـــة الى مئات آلاف العمال الآخرين فى المصانع المنتشرة فى المدن الروسية الكبيرة الاخرى . وقد احاطت السلطات مسرح البولشوى بثلاثة خطوط للحراسة من البوليس والجيش . وفى هذا الاجتماع توجه بنداء عنيف الى خنق الثورة واشاعة ممارسة الاعدام فى الجبهة والمؤخرة كل من القائد العام كورنيلوف وقائد قوات القوزاق كاليدين وزعيم حزب الكاديت

---

* اعتمد المؤتمر السادس لحزب العمال الاشتراكي-الديمقراطـــي (البلشفي) فى روسيا نهج الانتفاضة المسلحـــة ضد الحكومة الموقتـــة البرجوازية ، واكد ان الشرط الحاســم الذى لا بد منـــه لانتصار الثورة الاشتراكية يتمثل فى تحقيق تحالف الطبقة العاملة وافقر الفلاحين والصـد الحازم للآراء الانتهازية التى تدعى تعذر انتصار الثورة الاشتراكية فى روسيا دون مساعدة الثورات البروليتارية فى بلدان اوربا الغربية . — **الناشر** .

ميليوكوف ، اما رئيس الحكومة كيرينسكى فاكد للرجعية فى تلك الايام انه سيبذل كل ما فى وسعه من اجل سحق الحركة الثورية «بالدم والحديد» .

على ان رأى البرجوازية الروسية وحلفائها فى دول الائتلاف لم يكن قد استقر نهائيا بعد بشأن المرشح الملائـــم للقيام بدور البونابرت الروسى . وبـــدا ان كورنيلوف يتمتع بفرصـــة اكبر للنهوض بهذا الدور . ولكن بقى الامل هنا ايضا يداعب كيرينسكى الذى كان يتحين الفرص ليحاكى حركات نابليون بونابرت .

ولم يكن ينسى فى غضون صخبه ومساعيه ، ان يشمـــل اسرة رومانوف برعايته . وبقى كالسابق ملاكهم الحارس .

فى ٩ اغسطس وصل كيرينسكى فى سيارته الى مدخل القصر . وانطلق عبر السلم الى جناح الذين يرعاهم ، ليجلس مع القيصر السابق على الاريكة . وبعد اسئلة المجاملة عن صحة كل فرد من افراد العائلة على حدة ، وعن مزاج العائلة ككل ، يبادره قائلا :

– أتدرون ، يا نيقولاى الكسندروفيتش ، انه يتعين عليكم واسرتكم ان ترحلوا من هنا .

– لماذا ؟

– هذا ما قررته الحكومة امس . ولكن صدقونى انها لا تروم لكم الا الخير . وهذا يعنى الآن : ضمان اكبر قدر من الامن لكم .

– ولكن الى اين نرحل يا الكسندر فيودوروفيتش ؟

– المعذرة ، لا استطيع قول هذا الآن . . .

– بودى لو اذهب الى القرم ، الى ليفاديا . . .

– دعوكم من استباق الاحداث . فالاتجاه سيحدد بشكل ادق فى وقت لاحق .

وبعد برهة من الصمت اضاف :

– اذا كنتم ، كما آمل ، لا تعارضون ذلك من حيث المبدأ ، فبودى ان اطلب منكم الشروع فى الاستعداد فورا .

واردف بعد بعض التريث :

– ليست هناك اية قيود بالنسبة لكم ولا بالنسبة لصاحبة الجلالة القيصرة . بوسعكما ان تأخذوا من الحاجيات ما يطيب لكـم ومن تشاؤون من المرافقين .

الفصل الثالث عشر

الملجأ قبل الاخير : توبولسك

لماذا توبولسك ؟

خف الهرج الذى شهده القصر فى الربيع . وبدا كأن الهدوء بات يسود تدريجيا كل شيء هناك ولا يعكره الا صوت المنشار الرتيب عند تل من الحطب فى احدى زوايا الحديقة ، حيث يواظب نيقولاى رومانوف على ممارسة عمله المحبب . وكان يبدو هو الآخر وقد استعاد صفاءه النفسي .

وجد الكسندر بلوك ذلك الوضع غريبا . . . وفى ٢٥ مايو سجل فى مفكرته بضعة اسطر تدهش بفطنتها : «حول مائدة الافطار . . . روى قومندان تسارسكويه سيلو تفاصيل حياة الاسرة القيصرية . وقد استنتجت من هذا الحديث . . . ان المأساة لم تبدأ بعد ، وهى اما لن تبدأ ابدا (يلمح هنا الى احتمال رحيل اسرة رومانوف الى خارج البلاد – **المؤلف**) او انها ستكون مأساة فظيعة عندما يمثلون وجها لوجه امام الشعب الهائج . . .» .

على ان موعد «المأساة الفظيعة» التى تنبأ بها بلوك كان لا يزال بعيدا ، مع ان انفاسها كانت تنبعث من كلمة «توبولسك» بشكل يكاد لا يلاحظ . . . جاء بشأن هذه المدينة فى الادلة التى وضعت قبل الثورة : توبولسك مركز محافظة ، على الشاطئ الايمن من نهر ايرتيش ، وعلى مقربة من مصب نهر توبول فيه . اسسها دانيلا تشولكوف ، اتامان القوزاق ، فى عام ١٥٨٧ . كانت منذ عام ١٧٠٨ وحتى عام ١٨٢٤ مركز ادارة سيبيريا بأسرها . وفى زمن الاحداث المذكورة كانت المدينة قد فقدت اهميتها السابقة . تعداد السكان ٢٢ ألف نسمة . واهم المهن فيها هى صيد الاسماك والحرف . فى المدينة ٢٥ كنيسة وعدد من المصانع : ٦٠٠ عامل فقط . ومن اصل ٢٣٣٢ دارا هناك ٥٠ فقط مبنية من الآجر .

وقد قدر لواحد من هذه الدور الخمسين ان يصبح الملجأ قبل الاخير لاسرة رومانوف .

اتى كيرينسكي على ذكر توبولسك لاول مرة في احدى جلسات الحكومة المؤقتة . اما المناسبة فيصفها هو كالآتي :

كان تزايد احتدام الصراع مع البلاشفة السبب الذى حمل الحكومة على نقل اسرة رومانوف الى توبولسك . . . وكانت جماهير العمال والجنود تبدي حساسية كبيرة في هذا الموضوع . . . وبالنسبة لنا ، نحن الحكومة ، كانت تسارسكويه سيلو اضعف الحلقات . . . انهم (البلاشفة) قد مارسوا بنشاط بالغ الدعاية وسط الجنود الذين ينهضون بمهام الحراسة في تسارسكويه ، وافسدوهم . وقد علمت عند زيارتى الى تسارسكويه سيلو بهذه الاضطرابات ، وكان عليّ ان ارد ، وان الجا احيانا الى عبارات لاذعة . وكان الجنود في مزاج متوتر ومريب . ونشبت فضيحة عندما اكتشف الجنود ان الضابط المناوب يتلقى قنينة خمر يوميا من قبو القصر تمشيا مع التقاليد القديمة المتبعة في القصر . والاضرار التى الحقها احد السواق بسياج القصر نتيجة تهاونه في قيادة السيارة ، اثارت هي الاخرى شكوك الجنود بان البعض يعتزم تسفير القيصر . وكل ذلك . . . انتزع منا قوة فعلية وهي حامية تسارسكويه سيلو التى كنا نعتبرها سندنا ضد بيتروجراد التى تفشت فيها مظاهر الانحلال .

جلي هنا ان السبب الذى جعل توبولسك تستأثر باهتمام كيرينسكي هو ان احتدام الوضع السياسي في منطقة بيتروجراد استوجب نقل اسرة رومانوف الى مكان آخر اكثر امنا بالنسبة لها . ففشل الحسابات التى عولت على سفرها الى الخارج من جهة ، والصراع الضارى المتعاظم بين قوى الثورة والثورة المضادة البرجوازية ـ الاقطاعية من جهة اخرى كان يهدد بالانعكاس على وضع المعتقلين في تسارسكويه سيلو .

ويستطرد كيرينسكي قائلا :

وقد كلفت انا بالبحث لاسرة القيصر عن مكان آخر لسكناها وتسوية هذه المسألة . وبدأت فعلا بالتحرى عن هذا المكان . وكنت اعتزم نقلهم باديء الامر الى مكان ما في وسط روسيا ، وتوقفت على ضيعتي ميخائيل الكسندروفيتش ونيقولاى ميخائيلوفيتش (الاميران الكبيران — **المؤلف**) ولكنه اتضح لى استحالة القيام بذلك كليا . فقد كان من غير المعقول حتى مجرد التفكير بنقل القيصر الى هذين المكانين عبر روسيا العمالية الفلاحية. وكان مستحيلا ايضا نقلهم الى الجنوب . فقد اقام هناك بعض الامراء الكبار اضافة الى ماريا فيودوروفنا ، الامر الذى اثار المشاكل . وفي نهاية المطاف وقع اختيارى على توبولسك وذكرتها للوزراء . . .

لم يكن موقعها الجغرافي الخاص الناجم عن بعدها عن المركز يوحـــي باحتمال حدوث تجاوزات عفوية هناك . فضلا عن ذلك ، كنت اعلم بـان للمحافظ هناك دارا جيدة . وعلى هذه الدار توقفت بالذات . . . واتذكر انى اوفدت الى توبولسك لجنة لتقدير الموقف ضمت ، كمـا اعتقـــد ، فيرشينين وماكاروف . وقد عادا بانباء جيدة .

وساعد على هذا الاختيـــار المطران جيرموجين ، الشخصيـــة المتميزة . فقد كان في وقته نديما ومريدا لراسبوتين بل ومـــن المعتزين بصداقته . ولكنه ما لبث ان انقلب عدوا لدودا له . ولكن راسبوتين مات ، بينمـــا ظلت احوال جيرموجين في تحسن مستمر ، وقد تلقى في ظل «ديمقراطيـــة فبراير» من يد لفوف ، الرئيس «الثوري» للسينودوس الاقدس ، تعيينـــه مطرانـــا لتوبولسك . ومن سيبيريا تتبع هذا المطران باهتمام بالغ تطور الاحداث الجارية حول قصر الكساندروفسكي . وعندما بلغ علمه ان الحكومة المؤقتة تدرس مسألة اختيار مكان جديد لاقامة القيصر السابق ، قدم الى بيتروجراد شخصيا واقترح على كيرينسكي قائلا : اذا تقرر نقل اسرة رومانوف فمن الافضل ان يتـــم ذلـــك الى توبولسك .

وحاز الاقتراح الاعجاب . فالمدينة وان كانت مركز محافظة فهي صغيرة وهادئة وناعسة . والعمال فيها قلة ، اما غالبية سكانها فمن الحرفيين والبرجوازية الصغيرة ، اضافـــة الى ان تسلط التجار والموظفين فيهـــا كبير ، الى جانب كثرة رجال الدين ذوي النزعات الملكية في المدينة نفسها وحولها . وعلى رأس كل هذه الجحافـــل المظلمة يقف جيرموجين المشؤوم الذي لا يكل ولا يتعب . اما اقرب محطات السكك اليها – تيومين –فتقـــع على بعد ٢٤٠ كيلومترا تقريبا . في الصيف يجري التنقل بين المدينة والمحطة عبر طريق نهري ، وفي الشتاء بواسطة الزحافات .

تبدو هذه المدينة وسط رحاب التايجا والمستنقعات كأنهـــا مقطوعة عن البلاد ومنعزلة عن العالم الخارجي . ولكن لو امعنا النظر فسنجد في الواقع انها ترتبط بواسطة طريـــق مائي مباشر عبر ايرتيش واوب بالمحيط ، وفي الشتاء بواسطة طرق جيدة للزحافات باهم المدن السيبيرية . . . وفي توبولســـك يمكن العيش بهدوء

واطمئنان ، ولكن اذا ما حدث وفكر المنفيون بالهرب فسيمكنهم القيام بذلك دون صعوبة ومجازفة كبيرتين .

ألن يكون هناك ما يستدعى اللوم ؟ الامر لا يستحق التفكير . اولا ، من يدرى ما يخبئ لنا القدر . اذا تسنى التغلب على البلاشفة يمكن عندها تسفير القيصر علنا وليس سرا من توبولسك سواء الى انجلترا او اليابان ، بل وحتى الى القرم . ثم ان هذه المدينة النائية اشتهرت منذ القدم بسمعة مكان مهلك كان النظام القيصرى يسوق اليه آلاف المناضلين الثوريين فى سبيل الحرية (اغلبهم مرورا لمتابعة الطريق فيما بعد الى سيبيريا الشرقية) . ولهذا اعتقد كيرينسكى ان نقل اسرة رومانوف الى هذا المكان لن يلقى معارضة من الشعب . وقد اشار السيد هوير الى ذكاء هذا الاختيار فقال : «ان توبولسك ظلت بعيدة عن الثورة والغليان الذى عم الشطر الاوربى من روسيا . وكان بوسع نيقولاى الثانى واسرته الاقامة هناك بعيدا عن الانظار . ومن ثم اخذت ترتسم آفاق نقلهما الى الخارج ، الى اليابان مثلا . فضلا عن ذلك ظل كيرينسكى بعد توفيره هذه الامكانية ، بعيدا عن الشبهات ، ذلك ان الجميع كان يعرف ماذا تعنى سيبيريا آنذاك : المكان الكلاسيكى لنفى السجناء السياسيين وغير السياسيين . وبالتالى فلم يكن بمقدور احد ان ينحو باللائمة على كيرينسكى ، ويتهمه بانه خان الثورة بارساله اسرة رومانوف الى هناك» . ويفصح فيكتور الكسندروف عن الرأى نفسه قائلا : «لقد صاغ كيرينسكى موقفه فى هذه المرة كالمعتاد تحسبا للدفاع ضد اليمينيين واليساريين على حد سواء» .

وقد هيأ لنفسه فعلا ، موقعا ملائما : اذ اتاح له ذلك امكانية مواصلة التظاهر بالديمقراطية من جهة ، والاحتفاظ بالقيصر المخلوع فى جعبة الثورة المضادة ، من جهة اخرى . وجلبت له عملية توبولسك ثناء البعض وتوبيخ الآخرين . اما عملية النقل الى وراء نهر ايرتيش التى لم تفلح شأن عملية النقل الى البحر الابيض ، فقد اصبحت موضوع نقاش فيما بعد . اذ حمل اللوردات على كيرينسكى لعجزه عن نقل نيقولاى الى البارجة البريطانية ، ولامه رجال الحرس الابيض على اجلاء اسرة رومانوف الى الشمال وليس الى الجنوب .

على ان كيرينسكى ما ان تأكد بحلول اواسط الصيف من ان اسرة رومانوف ستعانى «المشاكـل» فى الجنوب ايضـا ، حتى قرر التعجيل فى ارسالها الى سيبيريا . واثر ابلاغ نيقولاى (٩ اغسطس) بالرحيل المزمع ، توجه الى مقر حراسة تسارسكويه سيلو ، حيث استدعى منذ الصباح اعضاء سوفييت المدينة والعقيد كوبيلينسكى وعددا من ضباط وضباط صف الافواج المرابطة فى تسارسكويه سيلو ، وفى عدادهم رئيس لجنة الجنود فى الحامية الملازم يفيموف . وقد افتتح الاجتماع كيرينسكى قائلا : «قبل ان افاتحكم باى شيء يجب ان تتعهدوا لى بان كل ما سيحدث عما قريب ، وكل ما سنتفق عليه الآن سيبقى الى حين سرا حريزا بيننا . . . وبعد ان تلقى هذه التعهدات واصل قائلا : ليكن فى علم الحاضرين انه سيجرى ، تنفيذا لقرار الحكومة ، نقل الاسرة القيصرية الى توبولسك . امـا المطلوب هنا فهو ان نقرر كيف ينبغى لنا القيام بذلك .

وفى سياق هذا الاجتماع تم وضع خطة ، تقضى باعداد قطارين : احدهما للاسرة والمرافقين المباشرين ، والثانى للبقية ، بما فى ذلك الحرس . اما قوام الوحدة العسكريـة (الفوج) التى ستقوم بمهام المرافقة فيبلغ ٣٥٠ شخصـا . على ان يجرى اختيار الجنود و٦ ضباط من ملاك افواج الحرس الاول والثانى والرابع المرابطة حول القصر . وتعهد قيادة هذه الوحدة ومسؤولية الحفاظ على النظام فى القطارين الى العقيد كوبيلينسكى . ويترأس البعثة مفوضا الحكومة الخاصان اللذان قاما مؤخرا بزيارة توبولسك : فيرشينين النائب فى الدوما وماكاروف مساعد مفوض اللجنة الحكوميـة لدى وزارة القصر (الصديق الشخصى لرئيس الوزراء) . أتوافقون ؟ فلتباشروا اذن .

كان كوبيلينسكى شديد الحيوية . وكان يفيموف يقوم عـلى مساعدته . ولهذا فبحلول يوم ١٢ اغسطس كان قد تم الانتهاء من تشكيل الفصيل . وكان الجنود كلهم على غرار واحد ، من حملة وسام جيورجى ، الذين حاربوا زهاء ٣ سنوات . وقد تلقى الجميع بامر من رئيس الوزراء بدلات ومعاطف وبنادق جديدة . وخرج الحرس مفرزة اثر مفرزة الى ساحة العرضات حيث تفقدهم رئيس الوزراء وفتش صفوفهم وظل راضيا واعلن فى النهاية امام الجميع ان الجنود

والضباط سيتلقون فى خلال الرحلة المقبلة نفقات ايفاد ومكافآت عالية .

حينما كان يجرى تجهيز وتسليح الجنود عكف نيقولاى على اختيار مرافقيه . ولكنه لم يلق الاستجابة من الجميع – مثلا ، ان الجنرال ناريشكين الذى هرب فى ٢٢ مارس بمجرد وصوله الى رصيف المحطة استمهله ٢٤ ساعة للتفكير ولم يعد بعد ذلك . وقد تصرف البعض الآخر على هذا النحو . الا ان الكثير ، او حوالى ٤٠ شخصا وافقوا على مقاسمته منفاه . وفى عدادهم الجنرال تاتيشيف ودولجوروكوف والوصيفات والخادمات بوكسجفدن وجيدريكوفا وشنيدر وارسبيرج وتوتيلبرج وزانوتى والمدرسان المربيان سيدنى جيبس وبير جيليار والطبيبان بوتكين وديريفنكو ، طبيب ولى العهد . والحق بالبعثة لخدمة افراد العائلة ٦ فراشين و٣ خدم لولى العهد (العم ناجورنى وايفانوف وايفان سيدنيف الذى يبلغ العاشرة من العمر) و٣ طباخين و٥ خدم و٣ فتيات وكاتب وناظر مشلح وحلاق . كما عين خادم آخر للقيام بوظيفة «مدير القبو» وكان اثنان من المذكورين – جيبس والطباخ خاريتونوف – قد تأخرا فى بيتروجراد وسافرا الى توبولسك فى وقت لاحق . اما اوتكينا وروما نوفا خادمتا القيصرة فلم يأت ذكرهما فى القائمة ، ولم تصلا الى توبولسك الا بعد شهرين من ذلك ودون علم السلطات .

تحت العلم اليابانى

تقرر الرحيل فى وقت مبكر من صباح يوم ١٤ اغسطس . وكان كيرينسكى قد وصل الى تسارسكويه سيلو عشية ذلك . وبعد ان اوعز الى كوبيلينسكى بصف الحرس امام القصر ، عاد وفتشه من جديد وتفحص الجنود ، واتخذ من ثم وقفته المتصنعة وخاطبهم مودعا ، وقال بالمناسبة : «تذكروا ، يا جنود ، ان للاسير حرمته . وعليكم التصرف بادب ، لا وقاحة . ولا تنسوا انه قيصر سابق . ويجب ألا يشعر هو واسرته باى حرمان» .

بعد ٥ اشهر من الاقامة الجبرية خرج ٧ افراد من العائلة القيصرية بمعية كيرينسكى الى الباب الرئيسى لقصر الكساندروفسكى واستقلوا سيارتين توجهتا بمرافقة فرسان فوج البلطيق الثالث الى

محطة الكساندروفسكايا القريبة . وانطلق كيرينسكى بسيارته في اثر العائلة .

رفع قطار القيصر السابق العلم اليابانى . وعلقت على عربة النوم حيث احتلت الاسرة القيصرية المقصورات الوسطية الاربع يافطة كتب عليها «بعثة الصليب الاحمر اليابانى» . انطلق القطاران باقصى سرعة ممكنة دون التوقف في المدن والمحطات الكبيرة . وقد جرى الايعاز من بيتروجراد بما يلى : بمجرد وصول القطارين تحاط محطات التقاطع بالوحدات العسكرية ويجرى اخلاء المحطات والارصفة من الناس . ويجب الا يتوقف القطاران في المحطات الصغيرة فترة طويلة ، وانما فقط في الارض الخلاء حيث يغدو بوسع الركاب الاساسيين الخروج بمعية فيرشينين وماكاروف للقيام بنزهة على الاقدام احيانا . اما البقية فقد حظر عليهم ترك اماكنهم .

بدا وكأن السفرة عبر «روسيا العمالية-الفلاحية» تجرى على ما يرام ، اذا ما تغاضينا عما حدث في محطة زفانكا وفي بيرم . ففى الحالة الاولى طالب عمال السكك ،وفي الثانية ، ممثلو السوفييت المحلى ، بابراز الوثائق والكشف على الركاب والاحمال . وفي كلتا الحالتين استطاع فيرشينين وماكاروف بتفويضهما الموقع بامضاء رئيس الوزراء ، ان يتركا انطباعا جيدا ، ويحصلا على تصريح يسمح للقطارين بمواصلة سيرهما .

وفى فجر يوم ١٧ اغسطس ، مر القطاران بايكاتيرينبورج ببطء بالغ . وقف نيقولاى والكسندرا (لم يستطيعا النوم) عند نافذة في الممر ، وتفرجا على احياء المدينة الاورالية العريقة التى تمر امامهما ، دون ان يخطر في بالهما انه قد كتب عليهما ان يعودا الى هنا مرة اخرى – ولسوف يكون ذلك طريقهما الاخير – في الربيع القادم .

قبيل انبلاجة فجر يوم ١٧ اغسطس وصل القطاران الى رصيف محطة تيومين بفاصل زمنى قدره ٣٠ دقيقة . وبواسطة السيارات التى ارسلها الى المحطة مجلس الدوما في المدينة ، نقل المفوضان افراد الاسرة الى المرفأ النهرى . وكانت ترسى في المرفأ ٣ سفن ، وهى «روس» و«كورميليتس» والقاطرة «تيومين» . وقد استقلت اسرة رومانوف السفينة «روس» بينما استقل افراد الحاشية والخدم

ومعهم الامتعــــة وغيرها من الاحمال التى تبعت الاسرة ، السفينتين «كورميليتس» و«تيومين» . فى حين تـــوزع الحرس عـــلى السفن الثلاث . وبعد انتهاء اعمال التحميل انطلقت السفن متجهـــــة الى توبولسك فى ساعة مبكرة من صباح ١٨ اغسطس .

وفى ظهر يوم ١٩ اغسطس اقتربت القافلـــــة من مدينــــة توبولسك . ولكن الدار المخصصة لسكن اسرة رومانوف كانت ، كما اتضح ، لا تزال قيد الترميم ، وغير جاهزة لاستقبال ساكنيها ، الامر الذي اضطر الاسرة الى قضاء ٧ ايام اخرى على متن الباخرة . كان الجو دافئا ومشمسا كايام الصيف . وفى نهاية المطاف ، عندما اخذ الضجر يستبد بالجميـع قرر المفوضان الترويـح عـــن اسرة رومانوف ، فنظما لها نزهة نهرية الى دير ابالاكسكى . وكانت رحلة صاخبة وزاهية . ان اسرة رومانوف التى احاط بها وحاصرها مـــن جميع الجهات ، حشد من المتعبدات والراهبات اللواتى تصاعـــد نشيجهن وانينهن ، وزوجات وبنات التجار والموظفين والاقطاعيين اللواتي اوغر صدورهن العيش فى هذه المناطق النائية ، تجولت بصحبة المفوضين فى الصوامع وشاركت فى اداء الصلوات وابتهلت الى الله عز وجل ألا يحرمها من رحمته وحمايته . . .

فى ٢٦ اغسطس بدئ بتفريغ السفن على مرأى الآلاف مـــن سكان مدينة توبولسك الذين هرعوا الى الضفـــة . ومن رصيف المرفأ الذى تعالى صريره ، سار باتجاه المدينة موكب زاه يتصدره رب العائلة الذى كان يمشى بهدوء بل وبثقة ، محافظا على قيافته . سوى ان تشنجات الكتف باتت اشد من السابق ، وبدت مظاهر التعب والارهاق فى نظراته . كان يرتدى ثوبا عسكريا بلون الخاكى عليه كتافيتان ذهبيتان برتبة عقيد ، وسروالا سوى فى حذاء طويل الرقبة .

تبعه بخطى سريعة اقرب الى الهرولـة غلام لطيف المظهر ، ذو شعر مصفف بدقة ، وقامة فارعة الى حد ما . كان وجه الغلام وسيما ولكنه شاحب للغاية بالنسبة لصبى فى مثل عمره ، وعيناه واسعتان تشعان بالحيوية ولا تكلان عن تفحص كل ما يحيط بهما بفضـــول ، وكان هو الآخر فى بدلة ضباط ، هى نسخة طبق الاصل من بدلة ابيه : ثوب بكتافيتين ذهبيتين وسروال وجزمة من الكروم ، نظفها

(العم ناجورني) حتى اللمعان * .

جلست امه في عربة مكشوفة . كان كل ما فيها ينم عن الاستعلاء والكآبة والازدراء القاتل بكل ما تقع عليه نظرتها الباردة .

وخلف العربة سارت الاميرات الاربع بتنانيرهن الطويلة . ماريا مليحة القسمات . والاخريات يبدين خاليات من التعابير والملامح تقريبا ، ولا يشبهن احدا تقريبا ، لا الاب ولا الام .

لعبة التريك-تراك ومسرح الهواة

دار كأية دار . وهي ذات شرفة ومشيدة بحجر ليسكنها المحافظ . تفصل بينها وبين الشارع حديقة . والعزبة كلها مع ابنية الخدمات والحديقة محاطة بسياج من خشب . وفي زوايا السياج وعند البوابات وضعت اكشاك للحرس . كان الشارع قبل وصول اسرة رومانوف يسمى بشارع النبلاء (دفوريانسكايا) ، وفي يوم وصولهم علقت لوحات جديدة كتب عليها : شارع الحرية .

غرف الدار كبيرة ، ومصممة حسب نظام الممرات . ويبلغ عددها ١٨ غرفة . والدار مجهزة بالكهرباء وانابيب المياه . نزلت

---

* الفت الاساطير حول هذا الغلام وهو لا يزال على قيد الحياة . وكرست له كتب ذات طباعة فاخرة . الا انه على حد وصف الذين عرفوه جيدا «كان كسولا ، ولا يحب مطالعة الكتب . . . ولم يكن يطيع احدا سوى ابيه» . وكان المرض قد خلف عليه بصمات قاسية . وهو بخيل كامه . . . دأب على جمع الاشياء التي انتفت الحاجة اليها ، مثل المسامير والاوراق المذهبة والخيوط وغيرها . وكان يكلم اباه بالروسية وامه الانجليزية (ن . أ . «مقتل الاسرة القيصرية» . برلين ، عام ١٩٢٥ ، ص ٥٣) . وشرع منذ الثانية عشرة في تدوين مذكراته . فكان يسجل ، عادة ، موعد استيقاظه وركونه الى النوم وحالة الجو ، واللعب التي مارسها ، الا انه لم يكن يأتي تقريبا على ذكر الدروس ولا عناوين الكتب التي قرأها ، ولا اى شيء عن علاقته بمعلميه . وهذه نماذج من الاحداث التي كان يراها جديرة بالتسجيل : «تلقيت مدالية فرنسية» ؛ «نظفت الحربة» ؛ «عض الكلب احدهم» ؛ «سرقوا محفظة (العم) ناجورني مع ٩٠ روبلا» ؛ وتجولت في متاجر شارع نيفسكي و«اشتريت لوحة حساب ومملحة وقداحة» . (مذكرات الكسي رومانوف ، عام ١٩١٦) .

الاسرة فى الطابق العلوى حيث مكتب نيقولاى وحجرة الكسى واربع حجر للنساء وقاعة استقبال واخرى للطعام . وكان الاثاث ممتازا ، فقد بقى بعض الاشياء من عهد المحافظ وجلب الكثير من تسارسكويه سيلو : الارائك والمقاعد والسجاد والجبلين والسجف والاغطية الحريرية والمخملية والستائر على النوافذ والابواب بل وحتى ازياء وزينة الخدم .

كان الطابق العلوى ارحب نسبيا ، اما الطابق الاول الذى خصص للخدم ووحدات الحرس فاكتظ بالناس . فضلا عن ذلك كان هناك طابق ارضى وآخر اشبه بالقبو ، حيث المطبخ ومخازن الاغذية . ولكن الوضع هناك كان اسوأ . فقد اسكن كوبيلينسكى الخدم بغير انتظام وفى ظروف غير صحية . وكان العاملون فى المطبخ يفترشون الارض بين لوازم الطهى . ويعود ضيق المكان ايضا الى كثرة الامتعة التى جلبت . كانت الحقائب تملأ غرف وممرات الطابقين الاول والارضى حتى السقف ، وكثيرا ما كان يتعذر اخراج الحاجيات المطلوبة ، على الرغم من ان كل خادم كان ينهض بواجبات محددة : واحد للملابس التحتانية وثان للبدلات وثالث للاحذية وهلمجرا . كانت هناك حقائب مليئة بالغلايين واخرى بالمظلات والعصى وسواها . وكانت مفاتيح الحقائب وحدها تزن ٢٠ رطلا .

ونظرا لضيق المكان فى دار المحافظ ، انزل البعض من افراد الحاشية والخدم فى بيت مجاور يتكون من طابقين هو الآخر ويعود الى التاجر كورنيلوف . وفى الطرف المقابل من الشارع اقام كلا المفوضين فى شقة خاصة . ومع ان التعليمات كانت تحظر على المرافقين الاقامة فى شقق خاصة ، الا انهم خالفوها منذ الايام الاولى .

وعموما كان مزاج نزلاء دار المحافظ رائقا ومتفائلا . والوضع مقبول رغم الاقامة الجبرية . فالجميع فى دفء وراحة وهدوء . واستتب هنا سكون يبعث على الاطمئنان وجو من الصفاء وعدم التكلف بدلا من ذلك التوتر المشحون بالقلق الذى عم قصر الكساندروفسكى . فقد كان المفوضان بشوشين ولبقين ، وكوبيلينسكى فى منتهى الاهتمام والحرص . ودأبت الاسرة نهارا على التوجه بكامل افرادها عبر الشارع والساحة الى الكنيسة للصلاة ، فيتجمهر السكان على الجانبين للتفرج عليهم .

وانتدب من الكنيسة المذكورة الكاهن الكسى بيلايف ليكون وصيا روحيا على العائلة القيصرية . كان يتخذ فى الامسية مجلسا فى قاعة الاستقبال ، متحدثا ومتقبلا ابتسامات التشجيع . كما كان يأتى افراد الحاشيـــة من دار كورنيلوف لشرب الشاى مع افراد العائلة القيصرية وقضاء الوقت فى لعبـــة البيزيك والتريك-تراك وتبادل الاخبار المقتضبة .

بعيدا عن هذا المكان كانت البلاد تفور وتغلى وموجات الاحداث المنقطعة النظير تتعالى اكثر فاكثر ، بينما قبع هنا ، وسط رحـــاب سيبيريا النائية ، وفى اقليم المستنقعات وغابات التايغا الشاسعـة الزوجان الملكيان اللذان كانا الى وقت قريب يتمتعان بسلطـــة مطلقة ، وكأن روسيا اغفلتهما والجميع نسيهما . على انه ما لبثت ان حلت الامسية الخريفية الطويلة ، وغرقت المدينة فى بحر من الضباب والعتمة . كان الناظر من نوافـــذ الطابق العلوى يرى فى المساء غلالة رطبة من الضياء تلف النهر ، ويتناهى الى سمعـــه احيانا صفير يعكر هدوء المكان ، اشبه بصفير بواخر ضلت طريقها . على ان هذا الهدوء كان خادعا . ففى العتمة حول البيت كان يحوم اشخاص غرباء . وينظرون الى النوافذ ويعطون الشارات ويدسون الرسائل فى الشقوق ، ويسارعون الى الاختباء فى الظلام بمجرد رؤية احد من الضباط .

لم يمر سوى اسبوعين على اقامة اسرة رومانوف فى هذه الدار حتى وصل من المركز خبر حادث مريع حل بالبلاد : تمرد كورنيلوف الجنرال القيصرى القريب العهد ، والقائد العام حاليا .

ان نشاط جماهير الشعب والنمو السريع لثقتها بالبلاشفة كانا يدلان على ان المد الثورى الجديد بات وشيكا . وعزم كيرينسكى على تدمير الحزب البلشفى وتصفية السوفييتات واستنزاف الطبقة العاملة وتكبيل الثورة .

فى ٢٥ اغسطس حرك كورنيلوف فيلق الخيالة الثالث بقيادة الجنرال كريموف ضد بيتروجراد ، معلنا انـــه يصبو الى «انقاذ الوطن ». وشارك كيرينسكى هو الآخر فى المؤامرة بادئ الامر . ولكن ما ان بدأ التحرك حتى سارع الى اعلان كورنيلوف متمردا على الحكومة المؤقتة . ودعت اللجنة المركزية لحزب البلاشفة العمال والجنود الى الصد المسلح ، وعدم التوقف ، فى الوقت نفسه ، عن

فضح حقيقة السياسة المعادية للشعب التى تنهجها الحكومة الموقتة واتباعها من حزبى المناشفة والاشتراكيين-الثوريين ، كما طالب لينين .

لقد اثار الخطر الرهيب حمية الجماهير الشعبية . واصبح الحزب البلشفى فى تلك الايام الحرجة بمثابة المركز القيادى الذى تلتف حوله القوى الثورية . وتسلح العمال . وازداد عدد افراد فصائل الحرس الاحمر فى تلك الايام مرات عديدة . وتم ارسال المحرضين للقاء افواج كورنيلوف والتحدث الى الجنود وكسبهم . ولم يحل اليوم الرابع من اعلان التمرد حتى رفض الجنود الزحف على بيتروجراد الثورية . وبذلك تم القضاء على تمرد كورنيلوف . وانتحر الجنرال كريموف باطلاق الرصاص على نفسه . والقى القبض على كورنيلوف واتباعه – وفى عدادهم دينيكين ولوكومسكى ، وارسلوا الى بيخوف (حيث هربوا من هناك فى وقت لاحق) .

عند وصول نبأ القضاء على تمرد كورنيلوف الى توبولسك ، قالت الكسندرا فيودوروفنا لوصيفتها بوكسجيفدن بيأس ان «الدنيا قد اظلمت من جديد» فى عينيها . ولكن الهدوء لا يزال يسود المدينة ، والسكون والنعاس يعمان كل مكان .

وعلى الرغم من ان سلطة السوفييتات ترسخت فى بداية ذلك الشتاء فى غالبية المدن الروسية النائية ، الا ان السلطة فى توبولسك كانت حتى مستهل عام ١٩١٨ لا تزال بيد مجلس الدوما فى المدينة ، وليست بيد السوفييت الذى كان يترأسه المناشفة والاشتراكيون-الثوريون آنذاك . وعلى الرغم من تمتعهم بالاغلبية الساحقة فى السوفييت الا انهم لم يكونوا يملكون السلطة ولا الهيبة ليدخلوا دار المحافظ ، ولم يكن يسمح لهم حتى بالاقتراب من بابها .

ولكن جيرموجين واتباعه عقدوا صلة وثيقة بدار المحافظ . كان الاب الكسى يقوم بدور الوسيط الرئيسى بين مقر اسرة رومانوف وقوى الردة المؤيدة للنظام الملكى . كانت ابواب الدار مفتوحة امامه باعتباره الوصى الروحى ، وساعدت الكاهن فى مواصلة هذه العلاقة الخادمتان اوتكينا ورومانوفا اللتان وصلتا الى توبولسك بعد شهرين ، واقامتا هناك بشكل شخصى ، الامر الذى يسر عليهما المشاركة فى تدبير الدسائس . وبفضل المساعى التى بذلها

جيرموجين تيسرت سبل الاتصال بالاسرة القيصرية لاولئك الذيـــن شاركوا فى التحضير لتحريرها . علما ان التحضير كان جاريا منذ الايام الاولى لوصول اسرة رومانوف .

كان جيرموجين فى سياق تقديره لميزان القوى فى رحاب سيبيريا المحيطة بمدينة توبولسك يعلـــــق آمالا كبيرة على الاديرة حيث تتمركز الموارد المادية والبشرية التى فى عهدته : دير ابالاكسكى للرجال ودير زنامينسكى الذى كان مقرا للمطارنة ويقع داخــــل توبولسك ، ودير ايفانوفسكى للنساء . . . وهى ممتلكات واسعة ومدن كاملة بخزائنها وحقولها وورشاتها وفنادقها . وانضمت الجبهة العلمانية الى الجبهة الكنيسية . وقد تمثل ذلـــك بادئ الامر فى «اتحاد المحاربين» ، وهى منظمـــة للضباط وضباط الصف الذين ينحدرون من الفئات البرجوازية والاقطاعية المحلية . ترأس هذا «الاتحاد» نقيب ركن يدعـــى فاسيلى ليبيلين الذى زعم انـه سجين سياسى سابق ، فى حين ان ماضيه مشبوه ، وقد اشترى ذمتـــه جيرموجين منذ شهر ديسمبر عام ١٩١٧ ، عن طريق تخصيص جراية شهرية قدرها ١٢ الف روبل له ولمنظمته .

كان ليبيلين يشكل خطرا كبيرا فى توبولسك ، بالنظر لتحول منظمته ، مع حلول الخريف ، الى قوة مسلحة كبيرة . وكان هو شخصيا يهدد صراحة باعتقال اعضاء اللجنة التنفيذية فى المدينـــة وحل السوفييت وتدبير مذبحة دموية لمؤيديه – ولكن البلاشفـــة تمكنوا فى شهر ديسمبر من تجريد عصابة ليبيلين من السلاح داخل الحامية المحلية . فضلا عن ذلك استطاع البلاشفة العثور فى ارشيف المحافظة على وثائق تثبت ماضى ليبيلين الاجرامى ، ونشروهـــا . وبالتالى القى القبض عليه واقتيد الى المحكمة الثورية فى اومسك . ولكن افرج عنه هناك لسبب مجهول ، فعاد الى توبولسك . وقد شوهد ليبيلين فى وقت لاحق عند كابيل واونغرن-شتيرنبرج (اى بين قادة الثورة المضادة) ، حيث شارك فى اعدام مؤيدى السلطة السوفييتية فى سيبيريا الشرقية .

كانت سفينة «القديسة ماريا» تختبئ مطفئة الاضواء عند احد شواطئ نهر ايرتيتش المقفرة الواقعة على مقربة من المدينة . ترى لمن تعود هذه السفينة وما الغرض من وجودها هناك ، ومن ستقل والى اين ستتجـــه ؟ تناقلت الالسن فى المدينـــة ان المطران

جيرموجين سينهض بواسطة هذه السفينة الشراعية بعمل تاريخى عظيم فى اول فرصـــة تسنـــح له فى غضون الخريف الحالى (عام ١٩١٧) ، واذا تعذر عليه ذلك قبل حلول موسم الصقيع ، فبمجرد افتتاح الملاحة فى النهر فى بداية الربيع المقبل . اى انه سيقوم من هنا بتسفير من ينبغى تسفيره بطريق مباشر الى المحيط بحيث يتعذر بعد ذلك العثور على السفينـــة الشراعيـــة او ادراكها او اعتراضها . . . اما كوبيلينسكى فكان يتظاهر بانـــه لا يرى ما يحدث . فهو على علاقة جيدة بمفوضى الحكومة اللذين حانـــت عودتهما الى بيتروجراد .

وصل ، كما وعد كيرينسكى ، مفوض جديـــد ، وهو فاسيلى بانكراتوف . كانت حياة هذا الشخص غريبة . فقد كان فى شبابـــه يعمل خراطا فى احد مصانع بطرسبورج . انضم الى المنظمة الثورية «ارادة الشعب» . حوكـــم ، وقضى فى الحبس الانفرادى فى سجن شليسلبورج ١٤ سنة ، ومن ثم جرى نفيه الى فيلويســـك فى سيبيريا . وبعودته فى عام ١٩٠٥ شارك فى الحركات الثوريـــة فى موسكو . فى عام ١٩٠٧ القى القبض عليه من جديد ونفى . منذ عام ١٩١٢ وضع تحت مراقبة البوليس فى بطرسبورج . وفى عـــام ١٩١٧ كرم الاشتراكيـــون-الثوريـــون ، هذا الخراط السابـــق الذى عاد من جديد الى معترك النشاط السياسى كأحد رواد وابطال الحزب . وقد ارسله كيرينسكى شخصيا ليحـــل محل فيرشينين وماكاروف . وقام كيرينسكى بتوديع نزيل شليسلبورج السابـــق باحترام بالغ ، بل واستقبله ٣ مرات فى قصر الشتاء حيث قضى معه فترة طويلة يزوده بالتعليمات . وفضلا عن ذلك ارسله فى طلب المشورة الى بريشكو-بريشكوفسكايا التى لقبها الاشتراكيون-الثوريون اكراما لها «جـدة الثورة الروســـة» ، وقد ودعتـــه بالعبارة التالية : «لا تنس يا بانكراتوف انك عانيت كل ذلـــك بنفسك ، فافهم محنتهم . انهم بشر مثلك» .

وهكذا رحل نزيل شليسلبورج السابـــق من بيتروجراد الى توبولسك فى سبتمبر عام ١٩١٧ محملا بتوصيات هذه الجدة التى ساوت فى المحن بين اسرة رومانوف وبين ضحاياهم – الافواج التى لا تعد ولا تحصى من الذين صعدوا الى اعواد المشانق وفنوا زهرة

شبابهم فى الاعمال الشاقة . واصطحب بانكراتوف معـــه المدعو نيكولسكى كنائب له ، وحمل فى جيبه التكليف رقم ٣٠١٩ ، الذى جاء فيه :

عينت الحكومة المؤقتة حامله فاسيلى بانكراتوف مفوضا لها فى حراسة القيصر السابق نيقولاى رومانوف المقيم فى مدينة توبولسك واسرته .
رئيس الوزراء
الكسندر كيرينسكى

وعلى حد وصف المفوض الجديد ، كانت الزيارة الاولى التى قام بها لدار المحافظ على النحو التالى : حرصا منى على ألا اخل بالاصول اعلنت للحاجب عن رغبتى فى رؤية القيصر السابق . وقد قام الحاجب بالواجب وفتح لى باب مكتبه .

بعد الانتهاء من تبادل التحيات ، سمع المفوض مـــن القيصر السؤال التالى :

– كيف صحة الكسندر كيرينسكى ؟

وكانت تنبعث من هذا السؤال نبرة صادقة مقرونة بشعور من التعاطف بل والامتنان . . . قلت له : – بودى ان اتعرف بافراد اسرتك .

– تفضل . . . ارجو ان تنتظرنى لحظة . . . – اجاب القيصر السابق ، وخرج من المكتب ، تاركنى وحدى لعدة دقائق . ومن ثم عاد ليقول : – تفضل ايها السيد المفوض .

دخلت قاعة كبيرة ورأيت بهلع المشهد التالى : جميع افراد الاسرة يقفون فى صف منتظـــم واحد فى حالـــة استعداد . كانت الكسندرا فيودوروفنا اقربهم الى المدخل وبجوارها الكسى ومن ثـم الاميرتان .

ما هذا ؟ أهى تظاهرة مفتعلة ؟ – خطر فى بالى هذه التساؤلات . لكننى ما لبثت ان طردت هذه الفكرة فى الحال ورحت احييهم . . .

انه امر مؤسف بالطبــــع ، كون المفوض الاشتراكى-الثورى استعجل فى «طرد هذه الفكرة اللازبة» . فهى كانت تظاهرة فعــلا . ولم يفطن بانكراتوف آنذاك ولا من بعد الى انه فى الوقت الذى اقبل فيه على تحية اسرة رومانوف وراح يغدق عليهـــم رعايته ،

حماية لهم من الحرس الذين «استهتروا» ، كانوا فى غيابه يلقبونه فى مذكراتهم «بالدنىء» و«التافه» . اما نيقولاى فلم يكن يسميه امام افراد الاسرة الا «بهذا القزم»(كان المفوض قصير القامة) .

كان نيقولاى قد رجا بانكراتوف تزويدهم بالصحف والمجلات الاجنبية . وبعد ان سمحت بيتروجراد بذلك راح القائد العام الاعلى السابق يتابع مجريات الحرب العالمية من خلال اخبار الصحف الاجنبية . كان فى النهار يقوم بنزهة طويلة فى باحة الدار بمفرده او بصحبة بناته ، ويعمل على ازالة الثلوج المتراكمة وتنظيف الممرات منها . وكان يواظب على نزهته هذه فى جميع الاحوال الجوية ، ويعكف فترة طويلة على ممارسة العمل البدنى فى العراء ، حيث يقوم بقطع الحطب وتصفيفه . ومذكراته فى تلك الايام تزخر بذكر ذلك . وكان يتخذ فى عمله هذا رفيقا له ، هو فى العادة ، تاتيشيف او دولجوروكوف او واحدة من بناته ، ولكن لا يلبث الارهاق ان يصيب الجميع واحدا تلو الآخر ، اما هو فبمقدوره ان يعمل ساعات متواصلة . وقد سأله بانكراتوف ذات مرة ألا يحسن اقامة ورشة نجارة له ، فاجابه ان لا حاجة لذلك لانه لا يهوى النجارة .

واستمر تعليم الاطفال . وكان قد تم احضار بعض المعلمين من بيتروجراد . وقد افضت معلمة الجغرافية بيتنر بعد بدء الدراسة بشجونها لبنكراتوف قائلة : «لم اتوقع ما وجدته هنا بتاتا : اطفال كبار ولكنهم لا يعرفون الا النزر القليل من الادب الروسى ، وهم على مستوى متدن من التطور . فهم لم يقرأوا لبوشكين الا القليل . واقل من ذلك لليرمنتوف . اما نيكراسوف فلم يسمعوا باسمه من قبل . . . وفيما يخص الكسى فلديه فكرة غامضة عن جغرافية روسيا» . ونزولا لتوصية بانكراتوف خصصت بيتنر درسا لقراءة قصيدة نيكراسوف «النساء الروسيات» . واخبرته فيما بعد : «انطباعاتى كانت مدهشة . فقد قالت الاميرات : كيف حدث ان احدا لم يشر لنا من قبل الى وجود هذا الشاعر الرائع لدينا» .

فى ذلك الوقت (خريف عام ١٩١٧) شهدت توبولسك شأن المدن الروسية الاخرى تنظيم حملة تبرعات لصالح الجيش المحارب . وقد ارسلت المنظمات الاجتماعية عبر تاتيشيف وكوبيلينسكى قسائم الاكتتاب الى دار المحافظ ، فدونوا هناك

الرقم التالى : ٣٠٠ روبل ، الامر الذى اثار امتعاض سكان توبولسك الذين طالبوا باعادة هذا المبلغ الزهيد الى اسرة رومانوف («فى حين لم يبخلوا على راسبوتين») . وامتعض بانكراتوف ايضا : «لقـــد اذهلتني هذه الدرجة من البخل . عائلة من ٧ اشخاص لا تتبرع الا بثلاثمئة روبل ، على الرغم من امتلاكهـــا مائة مليون فى البنوك الروسية وحدها» . وبعد ان تبين ان الكسندرا فيودوروفنا هـــى التى سجلت هذا الرقم ، اضاف قائلا : «نعم ، ان أليسا كانت بخيلة على روسيا . وكانت لا تتورع عن التحالف مع كل الذين هم عـــلى استعداد للتضحية بروسيا . فالجميـــع يعرف حقيقة تبرعاتهـــا للصليب الاحمر الالمانى اثناء الحرب» .

لم تكن اسرة رومانوف تشعر باى نقص فى الموارد فى اثنـــاء الاشهر الاولى من اقامتها فى توبولسك . فقد دأبت على شراء المواد الغذائية بكميات كبيرة فى متاجر المدينة واسواقها ، الامر الذى ادى الى ارتفاع الاسعار وشحة التشكيلات المعروضة ، مما افضى بدوره الى انتشار التذمر وسط السكان . وفى الواقع كانوا فى الفترة الاولى يتمتعون بمصدر آخر للتموين ، وكان وفيرا الى حـــد ما ، وهو التبرعات الخيرية المحلية . ذكر شاهد عيان قائلا : «كانت المواد الغذائية لاسرة رومانوف تشترى فى السوق . وحينما كانت تنعدم بعض المواد الغذائيـــة فى السوق ، مثل السكر ، كانت تبرعات الراهبات مـــن الاديرة المجاورة تعوض مـــن هذا النقص . كانت الراهبات يحملن لقاء شرف شرب فنجان من القهوة فى مطبخ القيصر السابق ، كميات لا تعد ولا تحصى من السكر والزبدة والقشطـــة والبيض وغيرها من المواد الغذائية على شكل هدايا ، لا يصح حتى مجرد الاشارة الى ضرورة دفع اثمانها» .

ومع ذلك لم تكن الهدايا كافية ، وكان لا بد من الاموال التى كانت ، حسب العادة القديمة ، تنفق بسهولة ، الامر الذى ادى فى نهاية المطاف ، الى نقص فى النقود . قال فى المهجر رئيس الحكومة المؤقتة السابق لفوف : «كما عالجنا مسألة توفير الموارد المالية للاسرة القيصرية . كان عليهـــا ، طبعا ، ان تعيش على اموالهـــا الخاصة . ولم تلتزم الحكومة الا بالنفقات المترتبة على الخطوات التى اتخذتها ازاء الاسرة» . والآن تشكك الصحافة الغربية بصحة هذا التأكيد . وهى فى غضون ذلك تستشهد بتصريح لكيرينسكى ادلى

به فى المهجر ايضا ويقول فيه ان «الحكومة المؤقتة اخذت على عاتقها مسألة اعالة اسرة القيصر السابق» . وتأكيدا لذلك تجرى الاشارة الى قول كوبيلينسكى التالى : ذكر لى كيرينسكى قبل سفرنا الى توبولسك : «ان القيصر السابق تحت وصايتك ، وانه واسرته يجب ألا يشعر باى نقص» .

وبعد هذه التلميحات يعبر المختصون فى الشؤون السوفييتية من «دى فيلت» عن استيائهم لان «الحكومة المؤقتة نكثت وعودها وتنصلت من التزاماتها ، وتركت الاسرة المسكينة التى فقدت حريتها دون ذنب ، بلا مورد للرزق» . وفحوى هذا اللوم هو : لقد نقلتم اسرة رومانوف ، وكان عليكم اطعامها ايضا . ولكن «عبثا يكتب كوبيلينسكى الى بيتروجراد — فجميع رسائله تبقى دون جواب . . . ولا يبقى امام العقيد كوبيلينسكى الا التوجه الى المدينة بحثا عن قروض من اجل اطعام الاسرة التى اوكلت اليه» .

اما امر القروض فهو على النحو التالى : تعاطف تجار توبولسك فى الاونة الاولى عموما مع اسرة رومانوف . وكانوا يعتبرون شرفا كبيرا لهم بيع المواد الغذائية والبضائع لعائلة القيصر السابق بالدين . ولكن ما ان اتضح ان اسرة رومانوف تعانى (منذ عهد الحكومة المؤقتة) ضائقة مالية حتى فتر اهتمام المجهزين المحليين بالزبائن الملكيين ، وعاملوهم ببخل وتعنت . وصار الطباخ خاريتونوف الذى كان يطوف المتاجر والسوق لاحضار المواد الغذائية ، يعود اكثر فاكثر بسلال شبه فارغة ، ويبلغ كوبيلينسكى بان التجار «لم يعودوا يصدقونه» و«سيمتنعون عما قريب عن بيعه بالدين» . وعندئذ توجه القومندان الى المدينة بحثا عن قروض (سرح ، فى البداية ، عددا من الخدم لاعتبارات اقتصادية) . وقد حرر للدائنين صكوكا موقعة بامضائه وامضاء تاتيشيف ودولجوروكوف .

على ان هذا لم يكن يعنى ان اسرة رومانوف كانت تفتقر الى المال . فقد كانت تتمتع بموارد كبيرة . اذ كما ذكر لفوف وكيرينسكى فى المهجر ، تأكد للحكومة المؤقتة ان حساب اسرة رومانوف فى البنوك الاجنبية لا يقل عن ١٤ مليون روبل ، وحسب مصادر اخرى يربو على المبلغ المذكور قرابة ٢٠ ضعفا . ولكن تعذر عليها استخدام هذه الاموال لاستحالة سحبها من البنوك الالمانية

والانجليزية . غير انها كانت تتلقى من وقت لآخر مساعدات مالية من الملكيين فى المركز : فقد تلقت ، مثلا ، مبالغ غير قليلة من ياروشمينسكى وفيروبوفا . وفى ٢٥ مارس عام ١٩١٨ سجل نيقولاى فى مذكراته النص التالى : «قدم من موسكو فلاديمير شتين ثانية حاملا لنا من هناك مبلغا كبيرا من المعارف الطيبين» .

وفى ٢٣ فبراير عام ١٩١٨ تلقى كوبيلينسكى برقية رسمية من بيتروجراد تبلغه انه «ليست عند الشعب موارد لاعالة الاسرة القيصرية» . وكانت البرقية بتوقيع مفوض الشعب لشؤون الممتلكات العامة كاريلين الذى كان واحدا من منظمى وزعماء حزب الاشتراكيين-الثوريين اليساريين (دخل بعد ثورة اكتوبر ، اضافة الى ماريا سبيريدونوفا وعدد من الشخصيات الاخرى من الحزب المذكور - لفترة غير طويلة - فى الحكومة السوفييتية) . وقال كاريلين ان الدولة لا يمكنها ان تتعهد الا بالنفقات المتعلقة بمسألة توفير السكن والتدفئة والاضاءة ، وكذلك تزويد افراد الاسرة بجرايات الجنود . وان على اسرة رومانوف ان تعتمد فى الامور المتبقية على مواردها الخاصة ، وانه يسمح بصرف مبلغ ٦٠٠ روبل فى الشهر للشخص الواحد او ٤٢٠٠ روبل فى الشهر للاسرة باجمعها .

على ان بعض الكتاب الغربيين لا يفتر عن الاستشهاد بالضائقة المالية التى جابهت الاسرة للبرهنة على الادعاء الذى يزعم ان اسرة رومانوف كانت مستعدة ، انطلاقا من مشاعر وطنية ، لتحمل جميع الصعوبات من اجل «البقاء على ارض الوطن فى روسيا» وان الحرمان الذى عانته يؤكد عظمة قرارها القاضى برفض اللجوء الى مكان آخر لاسيما خارج البلاد . وان كامل الفترة التى قضتها فى مدينة توبولسك اتسمت ، على حد هذه المزاعم ، بالوداعة والانقياد للقدر» . وانها ، على حد زعم الصحافة الغربية ، «لم تزمع ابدا ترك الاراضى الروسية . . . وان القيصرة كانت تردد فى توبولسك ما سبق وقالته فى تسارسكويه سيلو : لا شىء بمقدوره اجبارى على مغادرة روسيا» . والامر نفسه ، بالمناسبة ، حاول اثباته المهاجرون البيض ، ومن بينهم ميلنيك-بوتكينا التى قالت : «كان يكفى التلميح بكلمة واحدة ليضمن لها الامبراطور ولهيلم حياة هادئة مطمئنة فى وطن جلالته . ولكن على الرغم من اقامتها الجبرية

فى توبولسك الباردة ، ومعاناتها مختلف القيود والمضايقات كانت جلالتها تردد : «افضل ان اعمل كناسة ولكن فى روسيا» . قلما نجد من يكن ذلك القدر من الحب المتقد والايمان العميق نحو الانسان الروسى ، الذى كانت تكنه صاحبة الجلالة القيصرة ، على الرغم من انها لم تر من جانبنا ، نحن الروس ، الا التهم والاهانات» .

كل هذه الادعاءات وامثالها ما هى الا مزاعم داهية على اقل تقدير . فمنذ الاسابيع الاولى التى اعقبت انهيار صرح النظام القيصرى سعت اسرة رومانوف الى مغادرة روسيا ، وحماية نفسها من المتاعب التى تتهددها ، وبالتالى تهيئة امكانية استعادة ما فقدته فى اية فرصة سانحة . وفى غضون ذلك ، وضعت فى حسبانها واقع ان الهرب خفية محفوف بخطر اكبر من السفر العلنى فى ظل تغاضى السلطات البرجوازية ومساعدة الملكيين . وفى خلال الاشهر الاولى من اقامة اسرة رومانوف فى توبولسك لم تكن تميل كثيرا الى فكرة الهرب المغامر : انها لم تشأ الاستعاضة «عن الاكيد بما هو غير مؤكد» ، كما بدا لها . ولم تراهن على «غير المؤكد» الا بعد ان اكتشفت ان انتظار «الاكيد» بات عبثا ، ولكن الوقت كان قد فات ، رغم انها لم تعتبر يوما ان وقت الهرب قد ولى .

كان نيقولاى يعد بترقب ولهفة الايام والاسابيع حتى حلول ذلك اليوم الذى سيدشن انعطافا حادا فى مصيره . وكان يقضى الوقت فى المطالعة واخراج المسرحيات . وترد من صفحة الى صفحة فى دفتره الاقوال التالية : «مثلنا بالفة بالغة مسرحية صغيرة . . . واثارت ضحكا شديدا . قبل الغداء مثلنا مسرحيتنا بجد . . . وشعرنا ان كل شىء مر بخفة وعلى ما يرام . فى المساء قدمنا عرضا . . . كل شىء مر بشكل جيد ومرح . فى المساء مثلنا مسرحية . . . كانت الانفعالات كثيرة فى بداية العرض ، ولكن كل شىء انتهى بخير على ما يبدو» .

الفصل الرابع عشر

الطريق الاخير : الى ايكاتيرينبورج

اخبار من بيتروجراد

كان القيصر المخلوع يتابع الاحداث الجارية فى مركز البلاد من خلال الصحف التى كان يزوده بها بانكراتوف باستمرار ، وكذلك عبر الرسائل وأحاديث القادمين . كتب فى يومياته بتاريخ ٧ اكتوبر : «جاء المستر جيبس وقص علينا كثيرا من الاخبار الهامة عن الحياة فى بيتروجراد» ، وقبل ذلك بقليل (٢٢ سبتمبر) وصل حاملا مثل هذه المعلومات «المثيرة» «البارون الطبيب بوده» (الذى جلب ، بالمناسبة ، «مواد اضافية لشؤون المنزل وبعض أشيائنا من تسارسكويه سيلو») . وتبعث الرسائل مع مختلف المعلومات اخته كسينيا (١٠ اكتوبر) والام (١٢ اكتوبر) وغيرهما . ومع الوقت تصبح الرسائل المتعلقة بالموقف السياسى العام مظلمة ومقلقة .

ويذكر القيصر التأخر غير العادى فى وصول المعلومات : «ها قد مر يومان دون وصول برقيات المخبرين» . ويعتقد ان «احداثا سيئة تجرى فى المدن الكبرى» (٤ نوفمبر) . «منذ فترة طويلة لم تأت الصحف من بيتروجراد ، وكذلك البرقيات . ان ذلك لفظيع جدا فى هذا الزمن العصيب» (١١ نوفمبر) .

لم يكن يعرف بعد انه فى تلك الايام بالذات تم أعظم انقلاب فى التاريخ البشرى ، وانه بدأ عهد جديد فى تاريخ روسيا ، وعلى صفحات هذا التاريخ لن يكون بعد الآن مكان له او للمدافعين عنه ولا لذلك العالم عموما ، الذى كان يحلم بالعودة اليه . وهذه «الاحداث المؤسفة» هى انتصار الانتفاضة المسلحة للعمال والجنود فى بيتروجراد واعتقال الحكومة المؤقتة وهرب كيرينسكى .

كانت جماهير الشغيلة فى روسيا حتى خريف عام ١٩١٧ قد سئمت بشكل نهائى من سياسة المجموعات الحاكمة ، ووقفت عن وعى ، وبكامل ارادتها ، الى جانب البلاشفة . كتب لينين واصفا هذه

المرحلة : «لقد انتقل العمال والجنود فى سبتمبر وبداية اكتوبر الى جانبنا بغالبيتهم العظمى» * .

لقد اوجد الحزب البلشفى فى خلال فترة وجيزة بشكل لم يعهد له مثيل جيشا سياسيا للثورة الاشتراكية سارت غالبية الشعب وراءه . ان افكار لينين حول النضال من أجل السلطة الشعبية استولت على الجماهير واصبحت قوة مادية فعالة . وبذلت الطبقة العاملة – طليعة الثورة – طاقة جبارة ، فأصبحت قوة حاسمة فى السوفيتات ، وعززت مواقع النقابات وشكلت الحرس الاحمر . وكان الهدف الرئيسى ، الذى يربط كل اشكال الحركة البروليتارية ربطا محكما ، هو استيلاء السوفييتات على السلطة .

فى الساعة التاسعة واربعين دقيقة من مساء ٢٥ اكتوبر عام ١٩١٧ اعلن الطراد «افرورا» بدء عهد جديد فى تاريخ البشرية ، عهد ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى . فى تلك الليلة استولى العمال والجنود والبحارة الثوريون على قصر الشتاء بهجوم عاصف .

وفى المؤتمر الثانى لسوفييتات عموم روسيا الذى بدأ عمله فى ٢٥ اكتوبر فى سمولنى اعلن انتقال كل السلطة الى السوفييتات ، واقر مرسوما «السلام» و«الارض» ، وشكلت اول حكومة سوفييتية – مجلس مفوضى الشعب – برئاسة لينين .

وبعد ان انتهى المؤتمر توجه المندوبون الى مناطقهم كى يتحدثوا الى الشعب عن انتصار السوفييتات فى بيتروجراد ، ويساهموا فى اقامة السلطة السوفييتية فى كل البلاد .

لقد خطت بيتروجراد خطوتها الحاسمة . ونهضت بعدها البلاد بأسرها . وفى فبراير عام ١٩١٨ كانت السلطة السوفييتية قد انتشرت فى كل روسيا . وصف لينين هذا بمثابة «مسيرة مظفرة» . فى هذه الفترة أرسلت اللجنة المركزية لحزب البلاشفة واللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا ** آلاف وآلاف المناضلين

---

* لينين المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٥ ، ص ٣٤٩ .

** اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا – الجهاز التشريعى والادارى والرقابى الاعلى فى مرحلة ما بين مؤتمرين للسوفييتات ، وقد ظلت تعمل من عام ١٩١٧ الى عام ١٩٣٧ . وهى اعلى جهاز للسلطة فى جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية .

الصلبين الى كل أرجاء البلاد لتثبيت النظام الجديد . وقد ارسلت بيتروجراد وحدها خمسة عشر الف نشيط لتعزيز التأثير البلشفي في الجماهير .

ساعدت الجهود المشتركة لمبعوثي الحزب هؤلاء وللكادر الثوري المحلي على انتصار المسيرة المظفرة للسلطة السوفييتية في المنطقتين الصناعيتين الكبيرتين سيبيريا والاورال . لقد كان تمركز البروليتاريا في هاتين المنطقتين كبيرا جدا ، وكانتا تقليديا نقطتي ارتكاز قويتين للبلاشفة . وهذه الخصوصية انعكست هنا على وتيرة تسارع الاحداث بعد ٢٥ اكتوبر عام ١٩١٧ . قامت السلطة السوفييتية في ايكاتيرينبورج ، المركز السياسي للاورال ، في اليوم الثاني بعد انتصار الانتفاضة المسلحة في بيتروجراد ، اما في المدن الاورالية الاخرى فقامت في يومي ٢٦ و٢٧ اكتوبر . وفي اوائل سبتمبر اعلن المؤتمر الثالث للسوفييتات في اومسك السلطة السوفييتية في منطقة سيبيريا الغربية ولكن لاسباب مختلفة «اقيمت السلطة السوفييتية في محافظة توبولسك بعد ذلك بامد طويل» . وفي مدن هذه المحافظة انتقلت السلطة الى ايدي السوفييتات في الفترة من يناير الى مارس عام ١٩١٨ .

لم تصل الاخبار الواضحة ، بهذا الشكل او ذاك ، الى مدينة توبولسك الا في النصف الثاني من نوفمبر . وقد كتب نيقولاي في دفتر يومياته : «من المقرف قراءة ما تصوره الصحف عما حدث قبل اسبوعين في بيتروجراد وموسكو . ذلك اسوأ واخزى من أحداث عهد الفتنة (١٧ نوفمبر)» . كتب بانكراتوف في ذكرياته عن تصور نيقولاي لاحداث اكتوبر في بيتروجراد :

سألني (نيقولاي) بعصبية :

– أيعقل ان كيرينسكي لا يستطيع ايقاف هذه النزوة ؟

– يبدو انه لا يستطيع . . .

قال القيصر المخلوع بغضب :

– كيف ذلك ؟ الشعب هو الذي وضع الكسندر فيودوروفيتش . وعلى الشعب أن ينصاع له . . . ان يتصرف على هواه . . . فكيرينسكي محبوب الجنود !

وبعد ان صمت قليلا قال :

– ولماذا ينهب القصر ؟ لماذا لا يوقف الجمهور ؟ لماذا يسمح بالسرقة واتلاف الثروات ؟

نطق الكلمات الاخيرة بصوت متهدج ، واصفر وجهه ، ولمعت فى عينيه شرارات الغضب .

اما نيقولاى نفسه ، فلا علاقة له بالامر ، ويعتبر انه غير مذنب وهذا لا يمسه وينظر الى ما يجرى فى روسيا نظرة مراقب . وهو ، اذ يصف كيرينسكى بانه «محبوب الجنود» يتهمه بعدم القدرة على «اخضاع الجمهور» . وكأنما لم يحاول هو نفسه منذ ثمانية اشهر بمعونة خابالوف وايفانوف عمل الشىء نفسه مع «الجمهور» دون فائدة .

يقول فى كتابات لاحقة : «ثمة نبأ لا يصدق ، وهو ان ثلاثة من مندوبى الجيش الخامس ذهبوا الى الالمان قرب دفينسك ووقعوا معهم شروط الصلح الاولى . لم اكن اتوقع بالمرة مثل هذا الكابوس» . وبعد ذلك يعلم ان المفاوضات قد قطعت : «حسب البرقيات ، تجددت الحرب مع المانيا ، ذلك لان فترة الهدنة انتهت . لكن ، على ما يبدو ، ليس عندنا فى الجبهات شىء ، الجيش مسرح ، والمعدات والذخائر متروكة لعبث القدر والعدو المهاجم . يا للعار ويا للفظاعة» (٧ فبراير) . ومع ذلك تم التوصل الى اتفاق . وتظهر فى يومياته هذه العبارات : «اليوم وصلت برقيات تفيد بان البلاشفة او مجلس مفوضى الشعب كما يسمون انفسهم سيوافقون على السلام مع الحكومة الالمانية بشروط مهينة ، نظرا لان القوات المعادية تتقدم نحو الامام ولا شىء يوقفها . يا للفظاعة !» (١٢ فبراير) .

يشتم صاحب المذكرات البلاشفة على مفاوضاتهم مع الالمان ، ناسيا أنه قبل ثلاث سنوات – ولكن لاهداف مغايرة تماما – تمخض نفسه عن «الحلم المنشود باقتراح عقد صلح مع العدو» . حينذاك تراسل القيصر والقيصرة سرا مع ايرنى وارسلا بروتوبوبوف الى فون فاربورج دون أن يسألا فى خلال ذلك عن «رأى الشعب» . . . ونسى ايضا كم مرة خلف نيمان وفيستول والكاربات – وخاصة فى جاليتسيا عام ١٩١٥ – كانت «المعدات والذخائر متروكة للقدر» وكم مرة فى خلال اعوام الحرب كان على روسيا ان ترى برعب فعلا كيف تتقدم الجيوش المعادية دون عائق و«لا شىء يوقفها» .

كيرينسكى غير موجود ، بانكراتوف فى مكانه

تعقدت الحياة فى دار المحافظ . واصبحت المأدبـــة أفقر . وسرح عدد من الخدم ، ولاحت فى الافق تقليصات جديدة . واخذ يسيطر على اصحاب الدار السأم والملـــل فى اثناء اللعب . ليس الانتظار والامل سهلا فى توبولسك ، الكئيبة والمنسيـــة فى اقاصى التايجا . وحول دار المحافظ تعمل قوى الخلاص بشكل خفى . وعلى الجانب الآخر من الامبراطورية السابقـــة ، فى الجنوب ، يجمـــع كورنيلوف والكسييف فلول انصار القيصرية ، ويبدأ كاليديـــن وكراسنوف بالمعارك . وفى توبولسك تجرى اعمال شريرة .

فى كنيسة توبولسك وامام كثرة من الحاضرين المتجمهرين حول الاسرة القيصرية رتل الشماس يفدوكيمـوف «العمر المديد لاسرة رومانوف الحاكمة» ، وذكر وفق صيغة النظام القديم «جلالة القيصر» و«جلالة القيصرة» و«ولى العهـــد» والاميرات الكبيرات كل واحدة باسمها والقابها . وكان فى الكنيسة جنود من الحرس ، يرافقون الاسرة عادة لتأدية الطقوس الدينية . اقترب رئيس المرافقين من يفدوكيموف وسأله : «ماذا نفهم من قولك ؟» فاوضح الشماس انه ليس بمقدوره الخوض فى هذه التفاصيل ، وقد تصرف هكذا كما امره الاب الكسى القائم على الكنيسة . بعد ذلك جاء من السوفييت مندوبون — بضعة عمال وجنود — وأعلنوا اعتقال الشماس والقس واقتادوهما . فى خلال التحقيـــق ابدى الاثنان وقاحـــة ، وقال يفدوكيموف مهددا : «حكمكم موقت وستأتى قريبـــا الحمايـــة القيصرية ، انتظروا قليلا وستنالون عقابكم بالكامل !» .

اما جيرموجين ، الذى اعتبر نفسه شخصية ذات حصانة ولا يمكن أن تمس (لم يقدموا فعلا على المساس به) ، فقـــد دافع امام السوفييت عن مرؤوسيـــه ، اللذين دفعهمـــا الى هذا العمـــل الاستفزازى ، واستطاع اخراجهما من غرفة التوقيف ، ثم اوصلهما الى الدير . ولما سأله نواب السوفييت ، كيف تجرأ فى روسيـــا الثورية وتحرض على الهتاف بالعمر المديد للقيصر المخلوع ، أجاب خطيا (تجنب الحضور بشخصه) انه ، أولا «ليست روسيا جمهورية من الناحية القانونية ولم يعلنها احد هكذا ، ولا يحق لاحد اعلانها هكذا غير الجمعية التأسيسية» ، وثانيـا ، «حسب معطيات الكتاب

المقدس ، وقانون الدولة ، والاحكام الكنسية وقانون الشريعة وكذلك بموجب معطيات التاريخ ، فان القياصرة والاباطرة والملوك السابقين الذين لا يقومون بادارة بلدانهم لا يحرمون من ألقابهم» ، ولذلك لا يرى فى تصرف الاب الكسى «ما يدان عليه» .

حذر المندوبون والجنود الغاضبون جيرموجين من أنه اذا لم تتوقف الاستفزازات ، فستكون نهايته سيئة * . وابلغوا افراد اسرة رومانوف عبر بانكراتوف وكوبيلينسكى ان ذهابهم الى الكنيسة ممنوع ، واذا ارادوا الصلاة فليصلوا فى البيت . اما القائم على الكنيسة فبدا وكأنه اختفى عن الانظار ، لكنه عاد مع ذلك الى دوره السابق كصلة وصل بين دار المحافظ ومقر المطران ، غير انه أخذ يعمل بحذر .

احيانا كان القيصر السابق يفكر كثيرا فى الجمعية التأسيسية : هل ستكون ومتى ؟ فقد علق عليها آمالا غامضة معتقدا انها ، كما تشير بعض الدلائل ، ستحرره مع أسرته من الاقامة الجبرية وستسمح له بالعيش فى روسيا بحرية او مغادرتها الى الخارج . وحسب مذكرات بانكراتوف ، كان نيقولاى فى تلك الايام يسأله فى كل لقاء تقريبا : «متى ستفتتح اخيرا الجمعية التأسيسية ؟» . اما بانكراتوف ، فكان ، باعتباره اشتراكيا ـ ثوريا راسخا ، على احر من الجمر لسماع خبر انعقاد الجمعية التأسيسية ، ولهذا كان يرد بحيوية على القيصر الموضوع تحت رقابته : «قريبا ، يا نيقولاى الكسندروفيتش ، لن يطول الانتظار بعد الآن» . ولكن عندما حلت الجمعية التأسيسية فى بداية يناير عام ١٩١٨ ، بعد انعقاد جلستها الوحيدة ، كان عليه للمرة الاخيرة ان يرضى فضول القيصر السابق بشكل آخر : «أخشى ، يا نيقولاى الكسندروفيتش من انه لن تقوم لها قائمة ابدا» . وبعد ذلك بعدة ايام عزل بانكراتوف من منصبه .

لم تستسلم الرجعية الملكية امام واقع خلع آل رومانوف ، وصارت تستجمع قواها منتظرة الانتقال الى الهجوم فى اللحظة المناسبة . واخذت عناصر المئة السود ترفع راسها فى تلك المدينة الهادئة الناعسة . ونشط حول المدينة بتحريض من جيرموجين

* اعتقل جيرموجين وابعد من توبولسك فى ٢٨ ابريل عام ١٩١٨ بعد رحيل نيقولاى رومانوف .

الكولاك (الفلاحون الاغنياء) ورجال الدين من الدير والريف . وكان يتوافـــد من بيتروجراد وموسكو ومناطـــق جنوب البلاد (الدون وكوبان) ، افرادا وجماعات ، بوثائق مزورة وأسماء مختلقـــة ، اشخاص من الامراء والبارونات وحاشية القيصر وانصار راسبوتين وضباط على غرار كورنيلوف ونشطاء الحلقات والمجموعات الملكية المعاديـــة للثورة التى نزلت الى العمـــل السرى ، ويستقرون فى توبولسك وتيومين . وقد كتبت ميلنيك-بوتكينا فيما بعد : «علينا انصاف ملكيينا ، اذ انهم شحذوا كل طاقاتهم من أجل انقاذ صاحبى الجلالة . فقد أرسلت منظمتا بيتروجراد وموسكو كثيرا من اعضائهما الى توبولسك وتيومين ، فعاشـوا هناك واستعدوا شهورا مختبئين تحت اسماء مستعارة . . .» .

ظهر فى تيومين الامير لفوف ، رئيس الحكومة المؤقتة السابق . ولما استدعـــاه السوفييت المحلى ، قال انه قدم لاجل «شؤون صناعة الاخشاب» ، وبعد ذلك اطلق سراحه فاختفى عـلى الفور . وظهر فى توبولسك ممثلو البعثات الدبلوماسية الغربيـــة وطلبوا السماح لهم بدخول دار المحافظ . وأقاموا عبر الاب الكسى نفسه وبمساعدة تاتيشيف ودولجوروكوف وكوبيلينسكى صلات سرية بأسرة رومانوف واوصلوا لها الرسائل والنقود . واتسع نشاط التحريض الملكى ، فى البداية بشكل حذر ثم على المكشوف . وكان الضباط المتنكرون والرهبان من الاديرة المجاورة يسرعـــون فى شوارع توبولســـك ويوزعون او يدسون فى ايدى المارة مناشير تدعو الى «انقاذ الاب القيصر» . واستخدم خروج اسرة رومانوف (قبل منعها من ذلك) لاثارة الجمهور . اذ كان يعلو فى المدينة قرع اجراس الكنائس الخمس والعشرين من لحظـــة خروج الاسرة الى الشارع وحتى دخولها الكنيسة (وكذلك اثناء عودتها الى الدار) .

ولما اشتبه السوفييت المحلى فى ان هذه الاستفزازات وغيرها من تدبير جيرموجين فتش شقته ، باصرار من المندوبين البلاشفة وعثر فى مخبأ فى مكتب المطران على رسائل ووثائق تبين صلـــة جيرموجين بالمنظمات السرية فى بيتروجراد وموسكو واصبح واضحا انه هو الذى يقود المجموعات التخريبية التى باتت تستجمع قواها فى تيومين . وعثر فى خلال التفتيش على رسالة من القرم من ماريا فيودوروفنا ، تطلب فيها بيأس البدء بعمليات فعليـــة . كتبت

تقول : «ياصاحب القداسة ، انت تحمل اسم القديس جيرموجين الذى ناضل فى سبيل روسيا . وهذا الاسم مقدر له ان يكون كذلك . لقد حان الآن دورك فى انقاذ الوطن ، فكل روسيا تعرفك ، لذا اطلق دعوتك ، واصرخ ، وافضح . فليتمجد اسمك فى انقاذ روسيـــا الشقية» .

لكن مصير «روسيا الشقية» الحالى كان أقرب الى عمال وجنود توبولسك منه الى ماريا فيودورفنا . كان كل ما يجرى حول دار المحافظ لا يروق لهـــم . مصالـــح الحراس والمحروسين ليست واحدة . كانت اسرة رومانوف تعد العدة للهروب الى خارج البلاد او العودة للحكم على بساط الثورة المضادة . الا ان عمال توبولسك وكذلك جنود الحراسة فيها ، المرتدين معاطف الجيش القيصرى ، ظلوا أبناء بررة لشعبهم وقرروا منع حدوث ذلك .

فى المذكرات التى نشرتها الصحافة السوفييتيـــة فى العشرينات لافديف ، احد المشاركين فى الاحداث ، ألصق بالحرس تهمة المزاج المعادى للسوفييت والانحلال الخلقى والعمالة والولاء للملكيـــة والاستعداد لدعـــم التخريب من اجـــل تحرير القيصر المخلوع وتسفيره . وبالمناسبة فان افدييف ، وقد وصـــم «كل» الحرس بمعاداة الثورة فى احدى الصفحات ، اعترف فى صفحة اخرى بانـــه «كان يوجد كذلك بينه (الحرس) مزاج ديمقراطى قوى» .

كان الحرس قلقا من التحركات المشبوهة حول الدار . لذا دعت مجموعة مبادرة ، باصرار من البلاشفة المحليين ، الى اجتماع عام لفصيل الحراسة ، وانتخبت لجنة جنود . وذهب رئيس هذه اللجنة الملازم ماتفييف الى سوفييت توبولسك وشاطـــر النواب البلاشفة شكوكه وقلقه . فنصحوه ورفاقـــه باليقظة والحذر ، ووعدوه بالمساعدة والاهتمام ، وقالوا انهم سيبلغون بكل ذلـــك مدينة اومسك ، التى تتبع لها توبولسك . اما الآن فعلى لجنة الفصيل ان تجمع الجنود ليناقشوا الوضع بانفسهم ،اذ ينبغى الاصغاء الى ما يقوله الجنود .

اجتمع الجنود ، ودعوا المفوض ، وطلبوا منه توضيح موقفه . واعلن بانكراتوف ان الجنود «يتدخلون بما لا يعنيهم وان كل ما يجرى فوق امكانياتهم العقلية» . وارتفع الضجيج . واحتج الجنود .

واتخذ الفصيل باقتراح من ماتفييف قرارا : وضع المعتقلين تحت حراسة اشد ، واجبار افراد الحاشية ، الذين سكنوا فى كل احياء المدينة ، على الانتقال الى دار كورنيلوف ، وزيادة عدد الحراس فى داخل وخارج دار المحافظ ، ووضع مخافر اضافية فى الليل ، والقيام بالحراسة فى الاحياء المجاورة للمبنى على مدار اليوم ، وضرب سياج حول الدار ، وتسييج الساحة التى يمكن للمعتقلين الخروج اليهـا بنزهة فى ساعات محددة ، وحظر التجول فى المدينة على جميع افراد الحاشية والخدم . وقيل لتاتيشيف ودولجوروكوف بعد الاجتماع ان يتوقفا عن الهمس فى المدينة والا «سينالان نصيبهما» .

استاء العقيد كوبيلينسكى بدلا منهما وحذر ماتفييف مـن ان «مشاكل كبيرة» فى انتظار الفصيل . وسأله ماتفييف : «لماذا ؟» فاجاب العقيد : «من جراء التصرف الكيفى والزعرنة» . «من قبـل من ؟» هذا ما لم يجب عليه كوبيلينسكى بالتحديد ، مكتفيـا بتخويف الجنود بقصص عن «الامبراطـور الالمانى» و«الملـك الانجليزى» اللذين ، كما قال ، سيبحثان اجلا ام عاجلا عمن اهـان قريبهما القيصر السابق . . . لكن من الصعب اخافة من حارب فى الجبهة وراى الموت بام عينه مرارا .

فى يناير سافر الى بيتروجراد وتسارسكويه سيلو وفد مـن فصيل الحراسة . وفى سمولنى استقبل سفيردلوف (رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا) الجنود فحدثوه عن الوضع حول دار المحافظ ، ووضعوا امامه على الطاولة حزمة من الصحف الصادرة فى توبولسك .

استمع سفيردلوف باهتمام الى الوفد واستعرض الجرائد ، ثم قال :

— شكرا لكم ، ايها الرفاق ، على اخلاصكم لقضية الشعـب وخدمتكم للثورة . اعلموا وبلغوا رفقاءكم فى توبولسك ان السلطة السوفييتية تثق بكم . وتكلفكم فى المستقبل ايضا بحراسة القيصر السابق بيقظة وانتباه حتى اللحظة التى يمثل فيها امام محكمـة الشعب بأسره .

اخذت المجموعات الملكية المدفوعة بالسر من دار المحافظ بالتحضير للحركة . وتضاعف نشاطها فى توبولسك ولا سيما فى اواخر عام ١٩١٧ وبداية عام ١٩١٨ . فى تلك السنة اصبحت فى يد الملكيين فى سيبيريا الغربية اموال طائلة وكوادر عسكرية (بشكل رئيسى من الضباط والجندرمة السابقين ، ونشطاء التنظيمات المنحلة للمئة السود) . ووجدوا لهم دعما وسط الشرائح الرجعية من السكان المحليين – الفلاحين الاغنياء والتجار والموظفين . ولم يكن ساعد السلطة السوفييتية فى هذه المناطق قد اشتد بعد ، وفى بعض المناطق لم تقم فورا . واذا كانت الحكومة المؤقتة قد سقطت فى مركز البلاد ، فان اجهزتها المحلية وعملاءها استمروا بالعمل . فى تيومين ، مثلاً ، كان يوجد فى شارع واحد مركزان : احدهما للتطوع فى الحرس الاحمر ، والآخر لتنظيم انخراط المرتزقة فى عصابات البيض . كان المناشفة والاشتراكيون-الثوريون الذين يشكلون الاكثرية فى سوفييتى توبولسك وتيومين يعرقلون صد قوى الثورة المضادة المركزة فى المقاطعة .

تسنى للمتآمرين التغلغل فى فصيل حراسة دار المحافظ عن طريق كوبيلينسكى . فقد اشتروا بعض الخدم والجنود وماليشيف واتفقوا معهم على ان يفتحوا باشارة معينة البوابات والمداخل للمهاجمين و«يساعدوا المعتقلين فى الخروج بسلام» . وظهرت فى الدار عميلة للمخابرات الالمانية هى صوفيا بوكسجفدن ، قريبة الزعيم المعروف «لاتحاد الشعب الروسى» ومنظم العمليات الارهابية للمئة السود فى عامى ١٩٠٥–١٩٠٦ . وكانت المعلومات تصل الى السفير الالمانى فى موسكو عن طريق هذه المرأة بشكل اساسى . ولا تخلو من الاساس الافتراضات التى اعرب عنها فى العشرينات ومفادها ان كوبيلينسكى مخبر لميرباخ وريتسلر .

كان المتآمرون عدة مجموعات ، منها : مجموعة ماركوف الثانى فى بيتروجراد (وكان سيرغى ماركوف عميلها الرئيسى فى تيومين) ، ومجموعة «منظمة انصار الملكية لنيدجاردت فى موسكو (أرسلت الى توبولسك كريفوشيين ايام الحكومة المؤقتة فاستقر هناك على نحو سرى) ، ومجموعة انصار راسبوتين (فى المركز فيروبوفا

وياروشينسكي ، وممثلها في تيومين سولوفيوف) ، ومجموعة انصار جيرموجين (والاصح مجموعة بيلياييف) المرتبطة بام القيصر المخلوع ، ومجموعة الضباط «اتحاد الخيالة الثقيلة» (منذ نهاية العام ١٩١٧ ، مركزها في برلين ، ولها فرعان في بيتروجراد وكييف) وغيرها . وكانت كل واحدة منها تدعي الاضطلاع بدور المخلص الوحيد لاسرة رومانوف ، الامر الذي ساعد كثيرا على فشل مخططاتها ، في المرحلة الاولى من اقامة الاسرة في توبولسك على الاقل حين كان افراد الحاشية والخدم يتنقلون بحرية في المدينة ، ولم تكن هناك حراسة مشددة بحيث كان يمكن بمساعدة كوبيلينسكي تهريب الاسرة لا في الليل فحسب ، بل حتى في النهار .

كانت الخيوط تمتد من كل هذه المجموعات الى الاعلى الى مركزين للتنسيق في موسكو وبيتروجراد . الاول «المركز اليميني» ، وهو منظمة سرية معادية للسلطة السوفييتية ذات توجه الماني ، عمل حتى ربيع عام ١٩١٨ . والثاني «المركز القومي» الذي وسع نشاطه منذ مايو من العام نفسه وهو موال لانجلترا وفرنسا . وامتدت الخيوط من المجموعات في توبولسك ايضا الى بعض المنظمات المعادية للسلطة السوفييتية مثل «اتحاد الدفاع عن الوطن والحرية» السيئ الصيت . وكانت هذه المجموعات والاتحادات لا تختلف الا ببعض الشكليات في العلاقة باحد الحلفين الامبرياليين . اما بالنسبة للموقف من السلطة السوفييتية ، فكان عند الجميع واحدا لا يتغير : عداء وحقد مميت ، وتخطيط للتدمير والانتقام . وكان حقدها على السوفييتات يتنامى كلما تكشفت النجاحات الاولى للسلطة الشعبية على طريق تهديم العالم القديم ، وبناء الحياة الجديدة .

استطاعت الجمهورية السوفييتية الفتية رغم المصاعب التي لا تعد عمل الكثير في اشهرها الاولى ، من خريف عام ١٩١٧ الى ربيع ١٩١٨ .

اممت المصانع والمعامل والمناجم ومحطات توليد الكهرباء والبنوك والمواصلات . وتحولت الارض الى ملكية للشعب . وشكل المجلس الاعلى للاقتصاد الوطني . والغيت القروض الاجنبية المجحفة الموقعة في عهد نيقولاي الثاني والحكومة المؤقتة . والغيت المراتب واعلنت مساواة جميع القوميات القاطنة في روسيا ، واعلنت مساواة

المرأة ، وفصل الدين عن الدولة والمدرسة عن الدين . واتخذت الخطوات الاولى الحاسمة نحو تحسين ظروف حياة وعمل الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين * .

كما قضى على الاضراب التخريبي للموظفين القيصريين والبرجوازية في المركز والاطراف ، والغيت الوزارات والدوائر القديمة ، وتشكل بدلا منها جهاز عمالي-فلاحي جديد لادارة الدولة . وبدأ يتكون الجيش الاحمر والاسطول الاحمر . وشكلت اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا لمحاربة أعداء الثورة والتخريب . وحلت الجمعية التأسيسية التي كانت قد انتخبت حسب جداول مسبقة للمرشحين وضعت قبل ثورة اكتوبر ، اي تحت اشراف وضغط البرجوازية ، والتي امتنعت بعد ثورة اكتوبر عن المصادقة على قرارات المؤتمر الثاني للسوفييتات . وقامت الحكومة السوفييتية ، نزولا عند ارادة الشعب ، باخراج روسيا من الحرب الامبريالية منفذة بذلك نهجها ازاء تلك المسألة : بدأت المفاوضات في ٣ ديسمبر ١٩١٧ في بريست-ليتوفسك ، ووقعت معاهدة الصلح في ٣ مارس ١٩١٨ .

اثارت الخطوات الاولى للثورة البروليتارية حنق الثورة المضادة . ونشطت المجموعات الملكية السرية سواء في المركز او في سيبيريا ، حيث وضعت هدفا لها انقاذ الاسرة القيصرية . وكانت لكل من هذه المجموعات خصائصها . مثلا ، تميزت مجموعة فيروبوفا بعلاقتها الشخصية بالكسندرا فيودوروفنا وكذلك بامكانياتها المالية (جمع ياروشينسكي لشراء السلاح وتحضير تهريب الاسرة القيصرية اكثر من مليون روبل) . اما مجموعة ماركوف الثاني فتميزت بشيء آخر : بخبرة الصلات السرية ببطانة الامبراطور المخلوع منذ فترة الاعتقال في تسارسكويه سيلو ، وتوجهها الالماني وصلاتها بالقيادة الالمانية في اراضي روسيا المحتلة ، وأخيرا بوجود عصابة كبيرة من الكولاك والضباط في سيبيريا مارست النشاط السري ورص صفوفها سيرغي ماركوف

---

* لاول مرة في تاريخ روسيا ضمنت الدولة السوفييتية للعمال والمستخدمين بشكل قانوني يوم عمل من ٨ ساعات واجازة سنوية مدفوعة الاجر . واتخذت مراسيم في مسائل الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية وتحسين شروط السكن للشغيلة وغير ذلك . — **الناشر** .

المبعوث لهذه الغاية من بيتروجراد . وكان هذا الضابط قد سجل فى صفحته السوداء واحدة من اولى الجرائم الدموية التى ارتكبت فى تلك المناطق : هجم ماركوف واذنابه فى قرية جولوبوتوفسكويه على مجموعة من عمال ايكاتيرينبورج ، كانوا ذاهبين الى توبولسك لطلب المساعدة من السوفييت ، وقتل الجميع علنا على مرأى من الفلاحين المتجمهرين ، وبوحشية فظيعة .

الآن ، عندما ظهرت أولى علائم الخطر المباشر ، اصبحت لجنة الجنود اكثر حزما وشدة . واقسم الجنود فى اجتماع الفصيل الذى دعت له اللجنة بحضور رئيسى السوفييت المحلى ومنظمة البلاشفة المحلية حراسة اسرة نيقولاى رومانوف وعدم السماح لها بالهرب مهما حصل . واخذت اللجنة بيدها مراقبة كل الصلات بين دار المحافظ والعالم الخارجى . والغيت الامتيازات والتسهيلات التى كان بانكراتوف قد سمح بها . ونقل جميع افراد الحاشية من منزل كورنيلوف الى دار المحافظ ووضعوا تحت الحراسة . واعلن للخدم والتابعين فى الدار ان نظام الاعتقال ينطبق عليهم ايضا (الا ان سيدنى جيبس ظل يصر بعناد على حقوقه الخاصة كمواطن انجليزى ، لذا سمحت له اللجنة لوقت ما التجوال فى المدينة) . وجرى تفتيش غرف اسرة رومانوف وسحب السلاح الابيض منها .

كان سكان دار المحافظ يزدادون عصبية . وامتلأت جميع ايامهم واعيادهم بانتظار متوتر . وكانوا يدفعون انصارهم سرا ويرفعون من معنوياتهم ويقوون عزيمتهم ، ويحاولون مساعدتهم فى اختيار اللحظة المناسبة . عبثا يحاول السيد هوير ان يعزو الى نيقولاى «التجاهل الساذج للواقع القاسى» ، و«التأمل بلا اكتراث فى الاخطار المحدقة به من جميع الجوانب» . يتساءل هوير ببساطة مفتعلة : «كيف تحمل نيقولاى الثانى ازدياد سوء وضعه ؟ وهل حاول شراء الجنود والضباط من فصيل الحراسة ، كى يساعدوه فى الهرب ؟ وهل اقام علاقات سرية من اجل هذه الغاية ؟» ويجيب على نفسه بنفسه : «لا شىء من هذا القبيل . لقد استسلم لقسمته بسلبية لا تصدق وقدرية تصل الى حد تدمير الذات» . صدق او لا تصدق .

ولكن كانت هناك فى الواقع عمليات لشراء الذمم وصلات سرية ، وخطط للهرب ، وعصابات لتنفيذ هذه الخطط . . .

وكانت هناك تفاصيل يود السيد هوير لو يطمسها : امتدت الخيوط من بطانة نيقولاى الى مخابرات الغرب ، وقيادة اعمال انقاذ اسرة رومانوف من معسكر الامبريالية العالمية . وهذا ما يكتب عنه زملاء هوير بصراحة : «عبر القيصر والقيصرة مرارا لمن يثقان بهم عن املهما وثقتهما بان المخلصين الاوفياء سيساعدونهما على الفرار . . . وشاطرتهما هذا الامل البطانة المباشرة للقيصر السابق . لقد الحوا على القيصر بان يكون على اهبة الاستعداد لكل الاحتمالات» و«لم تفقد خطط الفرار آفاق نجاحها حتى بداية ربيع عام ١٩١٨» .

وهذا ما يؤكده جيليار ، شاهد العيان والمشارك فى تلك الاحداث : «كان الامبراطور على اتم استعداد لاستغلال اية فرصة سانحة» . وها هو القيصر نفسه يكتب فى يومياته بتاريخ ١٧ مارس ١٩١٨ : «لم تكن الظروف ابدا ملائمة للهرب مثلما هى الآن . . . اذ انه من خلال مشاركة العقيد كوبيلينسكى ، الذى يمكن الاعتماد عليه بثقة ، يسهل خداع سجانينا . . . يكفى لذلك بعض الاشخاص المقاديم الرابطى الجأش ، الذين بامكانهم القيام بالعملية من الخارج» . وبعد ذلك بعدة ايام (٢٦ مارس) رأت الكسندرا فيودوروفنا عبر النافذة فصيل خيالة يدخل المدينة ، فصاحت من شدة الفرح : «انظروا ، انظروا ، ها هم قادمون . . انهم روس حقيقيون !» . لقد بدا لها ان الداخلين الى توبولسك هم من الحرس الابيض . توهمت رغم انهم كانوا فعلا روسا حقيقيين : فصيل من الحرس الاحمر بقيادة العامل ديميانوف قدم من اومسك لمساعدة عمال توبولسك . فى ذلك اليوم كتب جيليار : «يبدو ان املنا بالخلاص اخذ يتلاشى» .

كان هذا الاجنبى افضل من يعرف الموقف فى دار المحافظ .

شارفت على الانتهاء فترة ثمانية اشهر من اقامة الاسرة الجبرية ولكن هذه الاقامة لم تنته وما كان لها ان تنتهى ، كما توقعوا .

أولا ، اعاق ذلك جنود الحراسة وسكان توبولسك . فى توبولسك ، كما فى تسارسكويه سيلو ربيع عام ١٩١٧ ، منع المواطنون البسطاء والناس الشغيلة فى روسيا الثورية هرب اسرة رومانوف . لولا يقظتهم وحزمهم لاختفت اسرة رومانوف آجلا او عاجلا . وليس بالضرورة ليلا ، بل ربما فى وضح النهار . ليصبح

ذلك ممكنا بذل المستحيل كل من فيرشينين وماركوف وبانكراتوف ونيكولسكى ، وخاصة كوبيلينسكى .

ثانيا ، لم تكن الوحدة متوفرة بين الملكيين ، وكانوا يتخاصمون ويتعاركون . كان فرسان الحكم المطلق يحملون ، حتى بعد سقوطه ، وسمة انحطاطه . بعضهم حاول الاغتناء على حساب سجن معبوده ، فحوّل قضية تحريره الى سوق للمزايدة ضاربا عرض الحائط بالتعليمات والتنسيق وجوهر «القضية المقدسة» نفسها ركضا وراء الربح .

ثالثا ، عندما اشتد خطر هجوم الثورة المضادة فى منطقة تيومين - توبولسك تدخلت بروليتاريا اقرب المراكز الصناعية الكبرى فى الاحداث . كان ظهور فصائل الخيالة فى شارع الحرية بقيادة ديميانوف ثم بوسياتسكى وزينتسوف يعنى ان عمال اومسك وايكاتيرينبورج وأوفا وضعوا مصير اسرة رومانوف بأيديهم بشكل اقوى . ولذلك بالذات قوم مربى ولى العهد جيليار ظهور الحرس الاحمر على انه انهيار لامل آخر . . .

تحضير عملية النقل

كانت السلطة السوفييتية فى شهرها الرابع امام ضرورة اتخاذ قرارين : ابعاد اسرة رومانوف عن المنطقة التى يمكن للحرس الابيض ان يحتلها ، وكذلك تقرير مصير الاسرة القيصرية .

حل الربيع ، وجاء معه ذوبان الجليد فى انهار سيبيريا الواسعة . وظهر خطر واقعى : استغلال الملكيين لانفتاح الملاحة النهرية ، اذ يمكن ان يستولوا على دار المحافظ ذات الحراسة الضعيفة ويأخذوا أسرة القيصر الى خليج اوب ومن هناك الى الخارج .

ومما اقلق البلاشفة المحليين حادثة ، بدت بسيطة فى ظاهرها . فى حديث جرى بين العامل لوجينوف من ايكاتيرينوبورج وأحد جنود الحراسة فى توبولسك . اوغل الاخير فى الثرثرة فقال : لقد حذر العقيد كوبيلينسكى بعض الافراد فى الفصيل من ان جنود الحراسة سيذهبون الى بيوتهم عندما يزول الجليد ويصبح بامكان

المركب «ماريا» التحرك من مكانه ، ولن يبقى من يحرس . . . لان المحروسين ايضا سيذهبون . . . ولن يلحق بهم احد . . . أخبر لوجينوف السوفييت بما سمعه . واصبح واضحا انه ينبغى نقل اسرة رومانوف من توبولسك وبسرعة .

يتضح من مذكرات قدامى الثوريين فى توبولسك ان : المخاوف والقلق وصلا احيانا الى حد ان البعض كان ينهض فى الليل ويركض فجأة نحو دار المحافظ للتأكد من ان «المعتقلين ما زالوا تحت الحراسة» . وانتشر خبر الوضع الخطر فى توبولسك فى كل انحاء البلاد . ولقى صدى قويا بشكل خاص فى منطقة الاورال المجاورة .

كان عمال اومسك وايكاتيرينبورج منذ اواخر عام ١٩١٧ يعلمون بان قوى الرجعية الملكية تحشد قواها بين تيومين وتوبولسك ، وان مؤامرة شريرة تحاك حول دار المحافظ . وفى بداية الربيع تحدث اعضاء سوفييت الاورال مباشرة عن «عدم وجود رقابة فعلية» على اسرة رومانوف ، وعن ضرورة نقلها الى مكان آخر ، اكثر امانا . ومن كان احق بالتدخل من الاوراليين . . . وقرروا مساعدة رفاقهم فى توبولسك على نسف المؤامرة الملكية التى أخذت تنضج .

ذهب سكرتير لجنة مقاطعة الحزب فى الاورال ، جولوشيكين ، الى موسكو فى بداية مارس . وفى اجتماع هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا اوجز باختصار رأى رفقائه فى ايكاتيرينبورج . وقررت هيئة الرئاسة باقتراح من سفيردلوف ما يلى : اولا ، الاعداد لبدء محاكمة علنية تنظر فى جرائم القيصر المخلوع امام البلاد والشعب ، ثانيا ، نقل اسرة رومانوف من توبولسك الى ايكاتيرينبورج ، ثالثا ، تكليف مفوض خاص من اللجنة التنفيذية المركزية من اجل تنظيم عملية النقل هذه بالتعاون مع سوفييت الاورال وتحت اشرافه . وكان على سوفييت الاورال ، من جانبه ، ان يبعث الى توبولسك انسانا موثوقا به .

وسرعان ما اتضح اسم المفوض الخاص من قبل اللجنة التنفيذية المركزية وهو فاسيلى ياكوفليف . وسمى سوفييت ايكاتيرينبورج ممثله الموفد الى توبولسك وهو بافل خوخرياكوف .

لم يسمع احد بشيء بارز عن اشتراك الاول فى الثورة بينما كان اسم الثانى معروفا جيدا سواء فى بيتروجراد او فى ايكاتيرينبورج ناهيك عن كرونشتادت .

هذا الشاب ، الطويل العريض المنكبين ، ذو النظرة الثاقبة والساذجة بعض الشيء من عينين رماديتين مشعتين والبسمة الطفولية ، بمعطف اسود وقبعة بدون حافة دخل تاريخ الثورة كاحدى اساطيرها الرومانسية . كان بافل خوخرياكوف ، البحار على ظهر البارجة «فجر الحرية» («الكسندر الثانى» سابقا) -- قد استقبل لينين فى الرابع من ابريل عام ١٩١٧ فى محطة فنلندا بعد عودته من المهجر . وارسلته بعد ذلك بقليل اللجنة العسكرية التابعة للجنة المركزية للحزب الاشتراكي-الديمقراطى (البلشفى) فى روسيا الى الاورال .

فى اواخر فبراير عام ١٩١٨ أخذت تزحف الى الشمال الشرقى والشرق مجموعات وفصائل عمالية مسلحة هدفها العام حجز الطرقات من توبولسك . وانتقل احد الفصائل من تاديجدينسك باتجاه بيريوزوفو من اجل قطع طرق فرار الاسرة القيصرية المحتمل الى ابدورسك . وانطلق الآخر الى طريق توبولسك -- ايشيم . اما الثالث فالى طريق توبولسك -- تيومين . وسار خوخرياكوف على رأس مجموعة غير كبيرة باتجاه توبولسك مباشرة .

انه لخطر هذا الانتقال عبر تلك الاماكن التى تعج بالعصابات كانت تاتيانا نعوموفا -- ابنة المنطقة والتى تعيش امها فى توبولسك اول من وصل الى المدينة . ووصل بعدها الآخرون . وهكذا تمركزت فى توبولسك مجموعات قتالية اورالية ، مكونة بالاساس من عمال ايكاتيرينبورج وناديجدينسك بقيادة البلاشفة افدييف وزاسلافسكي ونعوموفا وتحت امرة خوخرياكوف . وسرعان ما وصل ايضا حراس حمر من المراكز الصناعية الكبيرة الاخرى . ومع ظهورهم شعر عمال توبولسك بمزيد من الثقة ، ونشطت المنظمات الديمقراطية ، واخذت تعمل بجرأة وحزم اكبر . وفى اجتماع حزبى عام شكلت منظمة توبولسك للحزب الاشتراكي-الديمقراطى (البلشفى) فى روسيا .

ما ان ظهرت اللجنة حتى شرعت فى امرين : قيادة تشكيل فصائل العمال المسلحة المحلية ودعوة شغيلة المدينة الى انتخاب سوفييت جديد . وجرت الانتخابات فى ٦ ابريل . وحصل البلاشفة على ٨٥ مقعدا من اصل ١٦٣ . وكانوا يشكلون حينذاك الى جانب المتعاطفين معهم والمستقلين اكثرية ساحقة فى السوفييت . وانتخب خوخرياكوف رئيسا للجنة السوفييت التنفيذية (فى ٩ ابريل) . ودخل فى اللجنة التنفيذية كوجانيتسكى (الذى اصبح رئيسا لتحرير صحيفة «ازفيستيا» التوبولية الجديدة) .

وفى نفس ذلك اليوم اتخذت اللجنة التنفيذية قرارا ينص على «انتقال كل السلطة الاقتصادية والادارية والسياسية والعسكرية ، فى المدينة وفى المنطقة المحيطة بها الى السوفييت» . واعلنت اللجنة التنفيذية بعد ذلك حل مجلس دوما المدينة وجميع الادارات المحلية الاقطاعية-البرجوازية ، ومنع رجال الكنيسة والدين من ممارسة النشاط السياسى والتدخل فى شؤون الادارة واستفزاز هيئات السلطة بادعاءاتهم وتهديداتهم . واخيرا ، اخذ السوفييت على عاتقه الاشراف على دار المحافظ حيث تعتقل اسرة رومانوف . والزم المعتقلين والحراس بالخضوع الكامل لاوامر وتعليمات السوفييت . وبدأ الجو العام فى المدينة بالتبدل .

حينما كان خوخرياكوف ورفاقه يخوضون النضال فى توبولسك من اجل اقامة النظام الثورى ، اتخذ سوفييتا الاورال وسيبيريا الغربية اجراءات جديدة بهدف اقامة الحواجز المسلحة لسد الطريق على انصار القيصر . وسعى الاوراليون والاوميون للقضاء على اوكار عصابات الكولاك ، وتحييد الاديرة البعيدة الخطرة بامكانياتها وتحصيناتها ، وكذلك الاستيلاء على الطرق المؤدية من توبولسك الى الشمال والشرق والغرب (من الجنوب كانت تيومين) . وكانت تثير التخوف بشكل خاص الطرق المؤدية الى أبدورسك ، حيث يمكن لاسرة رومانوف فى حال نجاح الفرار ان تركب باخرة اجنبية وتذهب الى ايشيم ، وتهرب من هناك الى الشرق الاقصى .

واخذت العصابات الكولاكية-الملكية تجر الحراس الحمر الى صدامات مسلحة على مشارف التجمعات السكنية الكبيرة مثل بيريوزوفو . وبعد المعارك فى جولوبوتوفسكويه وبيريوزوفو ،

حيث قام الملكيون باعمال وحشية لا سابق لها ضد فصائل العمال اصبح واضحا انه ينبغى نقل المعتقلين من توبولسك حالا ، وان كل يوم ، بل كل ساعة ثمينة جدا .

ومن اجل تدارس الموقف بشكل عاجل وصياغة خطة التحركات السريعة التقى فى ايكاتيرينبورج جولوشيكين وبيلوبورودوف عن لجان الاورال الحزبية والسوفييتية ، ونيمتسوف وبيرمياكوف عن لجان تيومين ، وكوساريف رئيس اللجنة التنفيذية لمقاطعة سيبيريا الغربية الذى تم استدعاؤه من اومسك خصيصا لهذا الغرض ، وفاسيلى ياكوفليف القادم من موسكو بتفويض خاص من اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا .

وتبقى شخصية الاخير غامضة الى الآن . لننظر فى هذه الشخصية . ولد فى عام ١٨٨٥ تقريبا ، تشير بعض المعطيات الى ان اسمه الحقيقى قسطنطين مياتشين ، واصله من مدينة اوفا ، وهناك انضم فى صباه الى مجموعة كانت تمارس مصادرة الاموال وقام بهجوم على صندوق الخزينة ، وفر من السلطات القيصرية . وتشير معطيات اخرى ، الى ان اصله من كييف ، من اسرة تاجر غنى من آل موسكفين . ويدعم هذه الرواية جودينوف فى مذكراته . اما الرواية الثالثة فتقول بان اصله من ريغا ، من اسرة المهندس زارين ، الذى منح ابنه تعليما تخصصيا فى تكنيك الراديو (ميكانيك المعدات الكهربائية) .

بيد ان مختلف المصادر تتفق على ما يلى : دعى الشاب للخدمة فى سلاح البحرية وخدم فى بواخر اسطول البلطيق ، وبفضل اختصاصه النادر حصل على دعم وتشجيع وحياة يسيرة هانئة ودخل فى نهاية المطاف مدرسة الضباط الكهربائية التكنيكية فى سفيابورج . وانتسب هناك فى معمعان الاحداث الثورية سنة ١٩٠٥ الى حزب الاشتراكيين-الثوريين ، وشارك فى انتفاضة البحارة المسلحة ، وحكمت عليه المحكمة القيصرية غيابيا بالاعدام وفر الى الخارج . امضى فى المهجر اثنتى عشرة سنة فى المانيا ثم فى مقاطعة ساسكاتشيفان الكندية ، وعمل فى اختصاصه . واتقن اللغة الانجليزية اولا وحصل على جواز سفر كندى ، سافر به فى مارس عام ١٩١٧ الى روسيا عبر ستوكهولم . ولدهشة اللاجئين الاخرين من حزب الاشتراكيين-الثوريين المتسللين الى بيتروجراد «كانت

محفظة ياكوفليف مليئة بالاوراق النقدية» . ورغم ان السؤال كان يطرح نفسه : «من اين حصل على هذه النقود لهذه الرحلة المريحة ؟» فان ايا من رفاقه الاشتراكيين-الثوريين «لم يسأل هذا الجنتلمان المهذب» عم كان يعمل فى المانيا وكندا ولماذا تاخر فى ستوكهولم ، تلك المدينة التى كانت آنذاك المركز الرئيسى للتجسس والاستخبارات .

كان يمكن رؤيته فى تلك الاشهر من عام ١٩١٧ اما مع بوريس سافينكوف * ، واما قرب العقيد مورافيوف (الذى حاول فيما بعد فتح الجبهة الشرقية للبيض) . وبعد ثورة اكتوبر قرب مفوض الشعب لشؤون العدل الاشتراكى-الثورى اليسارى شتينبرج . ومن غير الواضح تماما باية طريقة اضحى ياكوفليف فى ربيع عام ١٩١٨ مفوضا ذا صلاحيات خاصة للجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا ، ولكن فى ذلك الوضع العاصف من تلك الفترة وبمساهمة اولئك السياسيين المغامرين امثال سبيريدونوفا ، وكامكوف ، وشتينبرج ، كان يحصل مثل هذا الركوب المصلحى للموجة الثورية واستطاع ايضا ياكوفليف – مياتشين – زارين ان يعتلى بتكليف من موكليه هامة هذه الموجة ويتسلل الى حيث امر . وتوجد معلومات تشير الى ان اللجنة المركزية لحزب الاشتراكيين-الثوريين اليساريين هى التى اصرت على تعيين ياكوفليف مفوضا خاصا من قبل اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا .

فى ايكاتيرينبورج ، فى اجتماع مجلس الاورال اتفق ياكوفليف بشكل نهائى على تفاصيل ترحيل اسرة رومانوف مع نيمتسوف وكوساريف وجولوشيكين ، الذين كانوا يتحملون امام موسكو المسؤولية الاساسية عن نجاح العملية او فشلها . وذكر جولوشيكين للمرة الاخيرة ياكوفليف بتعليمات المركز التى لا تقبل التاويل والقائلة بانه : يجب نقل اسرة رومانوف الى ايكاتيرينبورج . وسوف يوضع ، كما جرى الاتفاق تحت امرة ياكوفليف المباشرة فصيل عسكرى تقدمه اوفا . وسيقدم الاورال دعما عسكريا ، لكن فصيل اوفا سيكون الفصيل الاساسى .

---

* بوريس سافينكوف ، اشتراكى-ثورى ، كان فى الحكومة الموقتة نائبا لوزير الحربية ، وقائدا للمؤامرات والتمردات المضادة للثورة .

وصل ياكوفليف الى اوفا قادما من ايكاتيرينبورج ، وجاء الى بيتر زينتسوف ، رئيس اركان «المنظمات الحربية للتسليح الشعبي» . وكان زينتسوف مطلعا على مهمة ياكوفليف ، فاتخذ قرارا بوجود المفوض الخاص حول تشكيل الفصيل . كان هذا الحداد الاورالي والمحارب الثوري القديم منذ عام ١٩٠٥ دقيقا يتدفق حيوية . فرز الخيالة ، والمشاة ، وحملة الرشاشات ، والممرضات . وبايعاز من زينتسوف خصص سكرتير لجنة المنطقة الحزبية لشؤون سكك الحديد في مدينة اوفا للمفوض الخاص عامل التلغراف جالكين الذي كان يقف دائما الى جانب ياكوفليف من اجل الصلة بموسكو وايكاترينبورج عبر الخط المباشر . ويتضح من مذكرات جالكين انه قام ايضا بتكليف من ياكوفليف بتدوين مختلف الكلمات والمحادثات والخطب في اللقاءات والاجتماعات الخ .

وعين قائدا للفصيل دميتري تشودينوف ، عضو الحزب البلشفي المجرب (من عام ١٩٠٦) والمحارب الثوري القديم في الاورال . وعين لمساعدته جريجوري زينتسوف اخو رئيس الاركان . وفيما بعد ، في طريق عودة القافلة من توبولسك ، عين قائدا للفصيل البلشفي بيتر جوزاكوف من اوفا الذي خرج لملاقاة القافلة من تيومين على رأس مجموعة خيالة اضافية ، واصبح تشودينوف معاونه .

انطلق الفصيل من اوفا بعد ان تزود بالمؤن والعلف ما يكفي لمدة اسبوع . وابلغ ياكوفليف ايكاتيرينبورج عن طريق التلغراف ، بخروج انساق اوفا مذكرا انه فضلا عن فصائل الاورال واومسك التي تقدمت من قبل الى ما وراء توبول وايرتيش ، توجد قوة اضافية تدعم حملته ، مع العلم انه نوه بان جميع الفصائل وقادتها بمن فيهم خوخرياكوف ، وافدييف ، وبوزياتسكي ، وزاسلافسكي سيخضعون ، حسب الاتفاق ، لامرته هو . وتنفذ اوامره بالكامل ، لكي يستطيع اداء المهمة الملقاة على كاهله .

اصبح الوضع مقلقا في تيومين . وانتشرت شائعات حول عصابة الكولاك والضباط من الف فرد تقريبا تعد لخطف الاسرة القيصرية على الطريق بين توبولسك وتيومين . ولذلك ، كما ابلغ ياكوفليف في محطة القطار رئيس لجنة المحافظة الحزبية نيمتسوف ، زيد عدد

فصائل الاورال واومسك المتقدمة نحو توبولسك ومدت بسلاح اضافى . واتضح ان نيمتسوف اعد خطة واخذ ينفذها : على طول الطريق البالغة ٢٠٠ كيلومتر وضع فى كل محطة صغيرة (نقطة يمكن فيها تبديل الخيول او الراحة قليلا) خيالا واحدا من اجل مراقبة الاتصال والامن واعد فى كل محطة كبيرة حتى ٢٠ عربة باحصنتها بحيث يستطيع الجلوس فيها جميع ركاب القافلة فى ان واحد .

ما ان ابتعد الفصيل عن تيومين ٢٠-٢٥ كيلومترا حتى توقف : امر تشودينوف بفحص الرشاشات . وبعد ان اطلقوا عدة عيارات وتأكدوا من سلامتها تابعوا المسير .

ووصل الفصيل الى توبولسك فى ٢٢ ابريل . وسار فى شارع الحرية ، امام دار المحافظ ، حيث كان ينظر الى الفرسان رجل ربع القامة فى بدلة مدنية كان منذ عام فقط حاكما مطلقا للامبراطورية الروسية العملاقة .

اخذ ياكوفليف لنفسه غرفة فى بيت كورنيلوف ، وكان عامل التلغراف جالكين برفقته على الدوام . والى جواره فى الممر نفسه نزل تشودينوف وجريجورى زينتسوف . فى ذلك اليوم لم يظهر المفوض الخاص اى اهتمام بدار المحافظ . وذهب مع تشودينوف وزينتسوف الى سوفييت المدينة . قرأ خوخرياكوف بتمعن التفويض الموقع من سفيردلوف وكذلك سكرتير اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا افانيسوف ومفوض الشعب لشؤون العدل شتينبرج . والقى نظرة خاطفة على صاحب التفويض : كان طويلا ، نحيفا ، بوجه حليق مستطيل ، وبدلة شبه عسكرية ، نظيفة وانيقة بعض الشىء (بالرغم من الطريق الطويل) وقال : «لا يوجد اعتراض» . لكنه اضاف بتأن ، أنه يجب لامر كهذا ان يجلس الجميع ويتشاوروا . متى ؟ فليكن اليوم .

عقد الاجتماع مساء ، وكأنه اجتماع رفاقى ، ومع ذلك كان ينقصه شىء ما . وقد جاء مع خوخرياكوف مساعدوه افدييف وزاسلافسكى وبوسياتسكى . ومع ياكوفليف تشودينوف وزينتسوف . وحضر هذا اللقاء فى السوفييت المحلى آخرون ايضا . طلب ياكوفليف من خوخرياكوف ان يطلع الحاضرين على الوضع وقدم الاخير بايجاز تقريره عن الوضع سائلا بدوره ياكوفليف عن

نياته . اعلن ياكوفليف انه يتمتع بصلاحيات خاصة ويطلب من الهيئات المحلية الخضوع التام والمساعدة ، فهي منذ الآن تحت امرته وواجبها تنفيذ اوامره وتعليماته دون اعتراض . انه سينقل نيقولاي واسرته ، وكل المناقشات حول هذا الموضوع امر لا لزوم له وانتهى الاجتماع .

في صباح اليوم التالي ، ٢٣ ابريل ، توجه ياكوفليف برفقة افدييف الى دار المحافظ . واستقبله على البوابة كوبيلينسكي الذي أُعلم قبيل ذلك بالمهمة . وصعدوا سوية الى الطابق الثاني . في الممر طلب كوبيلينسكي من القادمين الانتظار : سيذهب الآن ليبلغ الامبراطور السابق وبعد دقائق دعيوا الى القاعة . كان نيقولاي واقفا في الوسط وخلفه بناته الاربع . ادلى كوبيلينسكي تقريره على الطريقة العسكرية (رافعا يده بالتحية) ، وقدم ياكوفليف بصفته «مفوضا خاصا للحكومة الحالية في روسيا ، التي اتخذت الكرملين مقرا لها» . صافح نيقولاي ياكوفليف ، واحنى الاخير رأسه تحية للاميرات ، فأجبنه بانحناءة احترام . سأل ياكوفليف ، ألا توجد شكوى على المعاملة ، على الوضع . كلا ، لا توجد . ولكن اين ولي العهد السابق الكسي ؟ وقع امس واصيب بجرح ، انه راقد في الفراش . عنده نزيف هيموفيلي ، على ما يبدو ، ولا يجوز له ان يتحرك . اراد ياكوفليف رؤيته ، وذهب برفقة نيقولاي وكوبيلينسكي وافدييف الى حجرة المريض ، ووقف بصمت قرب السرير ، انحنى ثم خرج . وبعد نصف ساعة عاد من جديد كي يقدم نفسه لالكسندرا فيودوروفنا ، التي تأخرت بدخول القاعة في المرة الاولى من ظهوره .

بعد يوم من ذلك ، في ٢٥ ابريل ، ظهر ياكوفليف من جديد في دار المحافظ . طلب ابلاغ نيقولاي الكسندروفيتش بانه يود لو يحادثه . عند الظهر قام القدمندان كوبيلينسكي وخادم الكسي فولكوف بايصال ياكوفليف الى غرفة في الطابق الاول ، حيث ينتظره الزوجان ، وبعد ان سلم عليهما ، اعلن انه يود الحديث مع نيقولاي الكسندروفيتش على انفراد . احتجت عقيلته : «انا ارغب في الحضور ايضا» . نزل ياكوفليف عند رغبتها ، ثم توجه الى نيقولاي : «نيقولاي الكسندروفيتش ، لي الشرف ان ابلغكم رسميا مرة أخرى بانني هنا مفوض مطلق الصلاحية من قبل السلطات

المركزية العليا ، وقد ارسلتني من موسكو هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا ، وصلاحياتي هنا تكمن في وجوب نقلكم وأسرتكم من هنا . ولكن بما ان الكسي نيقولايفيتش مريض ، فانني بعد ان تحدثت مع موسكو ، حصلت على امر بنقلكم لوحدكم» .
اعلن نيقولاي بحدة : «لن اذهب الى اي مكان» . فقال ياكوفليف : «ارجو الا تفعلوا ذلك (أي لا تعارضوا الرحيل) ، عليّ ان انفذ المهمة الملقاة على عاتقي . واذا مانعتم في السفر ، فسأضطر اما لاستخدام القوة ، واما للتخلي عن تنفيذ الامر الموكل اليّ . عندئذ يمكن ان يرسلوا بدلا مني شخصا آخر ، اقل انسانية مني . معي بامكانكم ان تكونوا على اطمئنان . فانا مسؤول عن حياتكم والا دفعت رأسي ثمنا لها . اذا كنتم لا تريدون الرحيل بمفردكم ، يمكنكم الرحيل مع من تشاؤون . سنذهب غدا في الساعة الرابعة» . ثم انحنى وخرج .

اوقفَ نيقولاي كوبيلينسكي وصعد معه ومع عقيلته الى الطابق الثاني . هناك كان ينتظرهم بقلق كل من تاتيشيف ودولجوروكوف وجيليار . اجتمع الستة للتشاور . وانصب اهتمام نيقولاي على هذا السؤال : الى اين يأخذه هذا الشخص ؟ لا أحد من الموجودين يعرف ذلك ، لكن كوبيلينسكي يسمح لنفسه بالاعراب عن توقعه : يبدو حسب بعض العبارات المتفرقة التي قالها ياكوفليف ، ان الحديث يجرى عن رحلة تستغرق من ٤ الى ٦ ايام . وبالتالي فان هذه الرحلة ستكون الى موسكو على الارجح . نعم ، بالطبع ، يريدون نقل جلالته الى موسكو ، او ربما الى بيتروجراد . ووافقت الكسندرا فيودوروفنا : الى موسكو ، على ما يبدو . ولكن لماذا ؟ وفجأة خمن احدهم : البلاشفة عقدوا صلح بريست ، وبدون توقيع القيصر لا تستطيع المانيا اعتباره سارى المفعول . لذا سيجبرون نيقولاي على وضع توقيعه على هذا الصلح . وتحمس نيقولاي : «ماذا تقولون ؟ لن أوقع ، من الافضا ان يقطعوا يدي اليمنى» . ويتدخل تاتيشيف : اى صلح هناك واى توقيع ؟ على ما يبدو ان الامبراطور الالماني نجح في تحريركم وستسافرون اليه . أمن المعقول ؟ الجميع يحدق بتاتيشيف . واغرورقت عينا الكسندرا فيودوروفنا بالدموع . قالت : «لعلها المرة الاولى في حياتي ، التي لا اعرف فيها ماذا افعل . . . ومع ذلك ، فانا اعرف ما العمل :

سأذهب معه» . هل يمكن لها ان تطمئن خلال غيابهما بان الموجودين سيهتمون بالكسى ؟ طبعا ، طبعا ، أيجدر السؤال عن ذلك ؟ وسرعان ما عاد فولكوف وقدم تقريره : المفوض هنا مرة اخرى ، فى الطابق الاول . يطلب النزول اليه .

يقف الزوجان وياكوفليف من جديد وجها لوجه . ويتوجه الى نيقولاى : «اسمح لنفسى ثانية بسؤالكم : هل تنوون تنفيذ التعليمات حول مغادرتكم توبولسك ؟» . ويجيب نيقولاى انه سينفذ . وقالت الكسندرا فيودوروفنا متقدمة خطوة الى الامام باضطراب : «انا ايضا سأسافر ، بدونى قد يرغمونه من جديد على عمل شىء ما ، كما فعلوا من قبل» . وخلال ذلك ذكرت شيئا ما عن رودزيانكو . انها ، دون شك ، لمحت الى وثيقة تنازل القيصر عن العرش . ثم سألت ، الى اين سيذهبان . فأجاب ياكوفليف : «الى موسكو» .

واذا اجاب ياكوفليف هكذا ، لم يكذب تماما . فهو فى جوهر الامر لم ينو نقل اسرة روماوف الى ايكاتيرينبورج . كما لم يكن فى نيته ايضا الذهاب معها الى موسكو ، فقد عرف وهو فى توبولسك انه سيقوم بمحاولة شق طريقه باتجاه موسكو او كييف . وكانت الفكرة ، على ما يبدو كالتالى : فى البداية الخروج الى الجهة الجنوبية الغربية او الجنوبية ، وهناك سيرى كيف تسير الامور ، المهم فقط ان يبقى على اقصر الخطوط المؤدية الى حدود المنطقة التى يحتلها الالمان .

بدأوا يجتمعون منذ الظهر .

واعلن ان رئيس سوفييت توبولسك خوخرياكوف سيكون المفوض (بالوكالة) فى دار المحافظ منذ الآن . وسيخضع له كوبيلينسكى بدءا من هذا اليوم . وسيؤمن رئيس السوفييت بأقصر فترة رحيل المجموعة الثانية من اسرة رومانوف من توبولسك .

طلب تشودينوف وزينتسوف من كوبيلينسكى التأكد بسرعة كم سيكون هناك من الخدم والمتاع لتوفير المواصلات . وبعد ساعة ابلغهما كوبيلينسكى : ستذهب الابنة ماريا و١٢ خادما ، والحمولة ٨-١٠ بودات .

حصل تشودينوف على قسم من الخيول وعربات النقل عن طريق مصادرتها من العائلات الميسورة ، والباقي بالأجرة من الحوذيين المحليين .

يجري قبيل الرحيل استبدال الحراس القدامى (الذين رافقوا القيصر من تسارسكويه سيلو) بحراس جدد (من ايكاتيرينبورج واومسك) .

فى فجر ٢٦ ابريل قدمت الى دار المحافظ العربات والزحافات ، لان الثلج فى بعض الاماكن لم يذب بعد ، وفى بعضها كانت الارض عارية . وكان عددها ٨ بحصانين و١١ بثلاثة احصنة بينها عربة مسقوفة للقيصرة السابقة .

كان من المقرر المغادرة قبل الساعة الخامسة صباحا ، لكن الكسندرا فيودوروفنا ، بعد ان خرجت من المنزل ، عصّبت حالا ، واخذ المسير يتأخر . فى البداية اكتشفت انه لن يذهب معها سوى خادمين وطالبت بأخذ الثالث . وبما ان الاماكن كانت محددة ولم يرغب ياكوفليف فى معارضتها ، لذا اضطر للركض على امتداد القافلة ناقلا هذا الراكب وحاشرا ذاك من اجل توفير مكان واحد . ثم اتضح ان الامتعة اكثر من المقرر ، فلم يتسع المكان لبعضها . ومن جديد تشتكى الكسندرا فيودوروفنا وتحتج . وبأمر من ياكوفليف دخل المقاتلون احد البيوت الغنية وصادروا عربة . وحُمل كل شيء ، وبدا انه يمكن الانطلاق ، واعطيت الاشارة ، لكن من جديد سمع صوت الكسندرا فيودوروفنا : تريد الجلوس مع عقيلها . فى هذه المرة رفض ياكوفليف بلطف ولكن باصرار ، لانه هو نفسه يجلس الى جانب نيقولاى ولا يمكن ان يترك هذا المكان .

ولدهشة الحراس اخذ ياكوفليف يستخدم تعابير «جلالتكم» و«سموكم» مع المعتقلين خلافا للقواعد المقررة . قالت ميلنيك بوتكينا : «رأيت من وراء ستائر النافذة كيف سار المفوض ياكوفليف فى الظلام الى جانب جلالته باتجاه العربة وكلمه عن شيء ما بوجل مادا يده الى قبعته من حين الى آخر» . وحدّثت بيتنر قائلة : «اذكر بشكل جيد كيف وقف ياكوفليف على جانب العربة وادى التحية لجلالته عندما جلس فى العربة» . واعترف فولكوف : «كان ياكوفليف يعامل جلالته بغاية الادب . عندما رأى جلالته يجلس فى معطف ولم يكن عنده شيء آخر ، سأله : «كيف ! فى هذا

فقط ، انتم مسافرون ؟» اجاب جلالة القيصر : «انا دائما اسافر هكذا» ، فعارضه ياكوفليف قائلا : «لا ، هكذا لا يجوز» . وامر احدهم فى خلال ذلك بان يعطى جلالة القيصر شيئا ما . فحملوا اليه معطفا آخر ووضعوه تحت المقعد» . وكان الآخرون ايضا يعاملون افراد اسرة القيصر بلطف وادب ، ولكن من بعض تصرفات ياكوفليف ادرك نيقولاى فى تلك الساعات ، كما سجل جيليار كلماته فيما بعد ، ان «هذا الانسان ليس ابدا بالانسان الذى يريد ان يتقمص شخصيته» .

الساعة السادسة . لا زال الظلام منتشرا ، وفى عتمة الصباح تكاد لا ترى ملامح الحراس الذين وزعهم تشودينوف على الطريق من دار المحافظ الى شاطئ ايرتيش . وخيم على توبولسك صمت المقابر ، فالمدينة نائمة . ونادرا ما كان يسمع نباح الكلاب فى الضواحى . الجميع فى مكانهم ، وكأنما يستمعون للسكون ، الذى تتخلله اصوات الفجر . واعطى الامر الاخير ، يمكن التحرك . جلس ياكوفليف الى جانب القيصر ، وفى العربة المسقوفة جلست بحرية الكسندرا فيودوروفنا وماريا على المقعد الوثير . وقد سافر من المقربين دولجوروكوف وبوتكن ، ومن الخدم تشيمودورروف ، وتروب ، وايفان سيدنيف ، وآنا ديميدوفا .

وقطعوا نهر ايرتيش على الجليد المغطى ببعض الماء . وظل ياكوفليف يدفع القافلة الى الامام دون توقف ، او التقاط النفس . فى المنحدرات كان لا يزال الثلج ، وفى الاماكن الاعلى كانت الارض عارية ، لذا كان التحرك بين صعب وسهل .

قضوا الليل (٢٦ على ٢٧ ابريل) فى قرية يفليفو ، قاطعين فى اليوم الاول ١٣٠ كيلومترا . وجلب الحراس لثلاثة من اعضاء العائلة اسرة مطوية ، اتوا بها معهم من توبولسك ، ووضعوها فى الطابق الثانى لبيت على جانب الطريق . فى الثامنة صباحا تناولوا الفطور ، وتابعوا سيرهم . وبصعوبة عبروا نهر توبول : اصبح الماء فى بعض الاماكن فوق الجليد . وامتنعت الكسندرا فيودوروفنا عن عبور النهر معلنة انها تخاف . فجلبوا لها من ضيعة مجاورة الواح خشبية ورصفوها فوق النهر . وسارت عليها الكسندرا فيودوروفنا وماريا بمعونة بوتكين ودولجوروكوف ثم قطعوا المسافة المتبقية على عوامة عبور . اما نيقولاى فقطع الجليد مباشرة

حتى العوامة . وكان طوال الطريق حيويا ، يتحدث مع ياكوفليف والمحيطين به . وقد قال الحوذي سيفاستيانوف فيما بعد ان القيصر «تحدث مع ياكوفليف طول الوقت وجادله في السياسة وغير ذلك ، وحشره بالحاح وتغلب عليه في الجدال» .

كانت الكسندرا فيودوروفنا ، خلافا لزوجها ، عابسة طوال الطريق ، فلم تتكلم تقريبا . اما ماريا فابدت الكثير من الود وثرثرت مع افراد الحرس عن طيبة خاطر . وكان ياكوفليف في المحطات يحوم حول السيدتين ويمطرهما بالنكات والقصص الفكاهية مصورا نفسه رجلا ارستقراطيا مهذبا .

هكذا انتقلوا من محطة الى محطة مغيرين الخيول والعربات في كل منها ، منطلقين باقصى السرعة بامر من ياكوفليف . وانضم الى القافلة في الطريق فصيل بيتر جوساكوف . وعين ياكوفليف جوساكوف قائدا للفصيل وتشودينوف معاونا له .

في القرى الممتدة على الطريق كان يعرف الجميع انهم ينقلون القيصر والقيصرة السابقين ، رغم ان منظمي العملية حاولوا عدم البوح بذلك . كانت الشوارع تكتظ بالناس اذا مروا في النهار او قبيل المساء . وصعد البعض ، ليرى بشكل افضل ، الى الاسطح او قبب الاجراس او الاشجار او اسوار البيوت . كان الناس يراقبون الوضع بصمت ، غير ان نيقولاي كان يسمع احيانا بعض صيحات السخرية ، مثل : «ماذا ، انتهى حكمك ؟» او «اشبعت من الحرب ؟» او «كسرت عظامنا ، ها ؟» .

وحصلت مشاهد اخرى ايضا . في احدى المحطات كانوا يغيرون الخيل . وتجمع حولهم كل اهل القرية ، من صغير وكبير ، واخذوا ينظرون الى القيصر والقيصرة وماريا . وسأل عجوز تشودينوف :

– يا شاب ، يا شاب ، قل لي من فضلك ، اعمل معروفا : الى اين ، ايها الشياطين ، تأخذون جلالة القيصر ؟ الى موسكو ؟

– الى موسكو ، يا جدي ، الى موسكو .

وهز العجوز رأسه متفهما الوضع ، واردف :

– حمدالك ايها الرب ، انهم ذاهبون الى موسكو . هذا يعني انه سيكون عندنا نظام في روسيا .

في خلال ٤٠ ساعة قطعت القافلة تحت امرة ياكوفليف ٢٨٠ كيلومترا ، ووصلت الى تيومين في الساعة العاشرة مساء .

استقبل القافلة على مشارف المدينة رئيس اللجنة التنفيذية للمحافظة نيمتسوف على رأس فصيل من الخيالة ورافقها حتى محطة القطار فى المدينة .

سأل نيقولاى نيمتسوف (فى المحطة ابان الصعود الى القطار) من يكون ، وما هو تحصيله العلمى .

يقول نيمتسوف : «اجبته اننى فى عام ١٩٠٧ جردت من كل حقوقى وملكيتى بأمر من صاحب الجلالة ، وسلكت هذا الطريق بالذات ، من محطة الى اخرى حتى آخر نقطة فى المحافظة - ابدورسك» .

وجيء بقطار اضافى من ست عربات يحمل رقم ٤٢ . وبدأ الركوب ، ووضعوا اسرة رومانوف فى عربة من الدرجة الممتازة ، فى وسطها .

وبعد منتصف الليل بقليل (٢٨ ابريل) انتهى التنزيل والتحميل ، وفرش الخدم الاسرة وهدأ الصخب ، وخيم السكون على رصيف المحطة وفى القطار . ظهر نيمتسوف ، وتحدث مع ياكوفليف عن شيء ما ، ثم خرج الاثنان الى التلغراف . وسرعان ما عاد ياكوفليف (دون نيمتسوف) . ومر بالعربات وهمس لكل واحد من الحرس بأنه تكلم للتو مع موسكو وانه أمر بالسفر لا الى ايكاتيرينبورج كما كان مقررا ، وانما الى موسكو على خط اومسك - تشيليابينسك - سامارا . وفى الساعة الخامسة صباحا ، عندما كان الركاب ينامون فى اسرتهم ، تحرك القطار رقم ٤٢ وتحول باتجاه اومسك .

فى ذلك الصباح كان المناوب فى سوفييت الاورال ينتظر برقية تؤكد خروج القطار رقم ٤٢ من تيومين باتجاه ايكاتيرينبورج .

اجتمعت هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية على عجل . وقررت اتخاذ اجراءات استثنائية . ودوى نداء «الى الجميع ، الى الجميع ، الى الجميع» من ايكاتيرينبورج الى عموم روسيا لوقف الجريمة التى خطط لها ياكوفليف . واعلن سوفييت الاورال ان ياكوفليف خائن لقضية الثورة واعتبره خارجا على القانون .

واستجاب لنداء الاوراليين سوفييت سيبيريا الغربية . وخرج من اومسك فصيل خيالة ، واسرع لقطع الطريق على ياكوفليف عند محطة التقاطع فى كولومزينو ، حيث يمكن للقطار ان ينحرف

باتجاه تشيليابينسك .

ارسل قادة الفصائل الاورالية التى سارت خلف ياكوفليف من تيومين عبر الخط المباشر الى موسكو ، الى رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا ، خبرا عاجلا بما حصل ، طالبين اعطاء امر الى اومسك بتوجيه القطار مع اسرة رومانوف الى ايكاتيرينبورج .

فى هذا الوقت علم ياكوفليف ، وهو يزيد السرعة الى قصوتها ، ان الملاحقة قد بدأت . لذا قام فى محطة ليوبينسكايا بفصل القاطرة وعربة واحدة عن باقى القطار ، وابقى خمس عربات تحت حماية الفصيل ، وتوجه الى اومسك . هناك التقاه فى المحطة ممثل سوفييت سيبيريا الغربية ونصحه بـ«العودة الى رشده قبل فوات الاوان» والتقيد بالتعليمات والسير الى ايكاتيرينبورج . ورغب ياكوفليف بالتحدث مع المركز . وقد اتصل بسفيردلوف واخذ يكذب عليه زاعما إن ممثلى السلطة فى الاورال واومسك اتحدوا فى مؤامرة ضده ، وانه ومسافريه واقعون تحت خطر «التنكيل» بهم . وطلب من سفيردلوف السماح له بأخذ واخفاء اسرة رومانوف فى «مكان آمن» حيث يمكنهم تحت رقابته «الانتظار» ريثما «يتضح الموقف» . لكن سفيردلوف أمره بالسفر الى ايكاتيرينبورج وتسليم اسرة القيصر لسلطات الاورال .

فهم ياكوفليف انه وقع فى وضع لا مخرج منه . اذ يستحيل اختراق كولومزينو . ولم يكن واثقا من ان الحرس ومعاونيه فى القطار سيصدقون ما يدعيه اوامر من موسكو . لذا بعد ان رجع الى القطار أمر بالعودة الى تيومين للتوجه من هناك فيما بعد نحو ايكاتيرينبورج .

على ما يبدو ، لم تكن الحسابات دقيقة فى تصرف ياكوفليف . كان يأمل فى الوصول الى هدفه ، متكيفا مع الظروف . فى البداية اراد الفرار عبر المحافظات الوسطى ، ومن هناك اذا ما ساعدته الظروف التوجه نحو الجنوب ، الى حدود المنطقة المحتلة من قبل الالمان . وبعد ذلك ، كما يشير معجبوه من «فيلت ام زونتاج» ، «دخلت فى حسابه فكرة ان اومسك تفتح امامه ، اذا وصلوا اليها ، طريقا طوله الف كيلومتر باتجاه المحيط الهادى» . ثم برز لديه احتمال انزال افراد اسرة رومانوف على الطريق الى سامارا واخفائهم فى الجبال فى محافظة اوفا (مسقط رأسه ، كما يقول) .

خمنت اسرة رومانوف ، على ما يبدو ، ان هذا الشخص يعد لهروبها ، ولذا اخذت تثق به شيئا فشيئا . لقد قالت الكسندرا فيودوروفنا فى اجتماع العائلة الذى عقدوه فى القطار : «هذا انسان جيد ، ارسله لنا اناس طيبون ، ويريد لنا الخير» . وقال نيقولاى عنه : «انسان جيد ، صريح ، انه يعجبنى» . وهذا الشعور لدى الزوجين رومانوف كان يغذيه ، حسب كلمات سوكولوف ، افتراضهما انه بمساعدته «نقل الالمان القيصر واسرته الى مواقع اقرب الى قواتهم المسلحة فى اراضى روسيا» . فالقيصر المخلوع ، حسب كلمات المؤلف نفسه ، «فهم ياكوفليف بشكل جيد . . . اى لبس قناع البلشفية ليحاول نقل القيصر وولى العهد تنفيذا لرغبة الالمان . ولا يجوز عدم رؤية ذلك ، اذا ما امعن المرء فيما فعله ياكوفليف فى توبولسك واثناء الطريق . ولا شك ان هدف هذا الامر ذو طابع سياسى» . ويعترف المحقق سوكولوف ، المناصر لكولتشاك ، ان نيقولاى «اجاب بنفسه عن هذا السؤال : «ما هى القوة التى تقف وراء ذلك ، ولماذا والى اين يخطفون القيصر ؟» لقد رأى فى شخص ياكوفليف ، هذا «الانسان الجيد والصريح» رجلا ارسله الالمان» . ان قوة اخرى غير بلشفية ارسلت ياكوفيلف ، المعادى لنيات البلاشفة . وقد عمل وفق توجيهاتها ولم ينقل القيصر الى ايكاتيرينبورج ، وانما حاول نقله عبر اومسك الى مكان آخر ، لا يستطيع البلاشفة الوصول اليه .

فشلت المحاولة . وسقطت المؤامرة .

لم يلاحظ نيقولاى الفشل مباشرة . وفقط بعد التوقف فى ليوبينسكايا شك بالأمر . ومن خلال اسماء المحطات ، وحركة الحرس ، وبعض الكلمات والعبارات المتفرقة اكتشف انه لا يسير باتجاه موسكو . وعندما مر القطار ليلا عبر تيومين ادرك انه يسير الى ايكاتيرينبورج .

علم نيقولاى ، من خلال الجرائد التى اشتراها ياكوفليف على المحطات ، ان عمال الاورال «يكرهونه» . لكنه لم يعرف ان الاوراليين قد اكتشفوا ياكوفليف ، وليس مهما الآن معرفة ذلك . ومع هذا ، تملص المفوض الخاص على نحو رخيص .

فى اثناء العودة من حملة توبولسك ذهب حراس ايكاتيرينبورج السائرون وراء قافلة ياكوفليف ، الى سوفييت الاورال مطالبين

باعتقال ياكوفليف وتفتيش قطاره . لكن ذلك لم يحصل ، بل اكتفوا بدعوة ياكوفليف لتوضيح موقفه . وجه افدييف وزاسلافسكى فى اجتماع اللجنة التنفيذية تهمة الخيانة لياكوفليف ، لكن الاخير اجابهم بثقة وحتى بطلاقة . وكانت خلاصة توضيحه ، انه فعلا أُمر بنقل اسرة رومانوف الى ايكاتيرينبورج ، ولكنه ، فى الطريق ، ادرك بالحدس ان افدييف وزاسلافسكى ينويان قتل اسرة رومانوف . وبما ان سفيردلوف أمره بحراسة الاسرة بكل الوسائل ، فقد قرر انقاذها عن طريق نقلها فى اتجاه آخر . وقدم شريط محادثاته بالتلغراف مع موسكو : بحجة المخاطر التى تهدد اسرة رومانوف طلب السماح له بأخذها الى محافظة أوفا او اخفائها بعض الوقت «فى الجبال» ، الامر الذى رفضه سفيردلوف .

قرر سوفييت الاورال ، الذى غمره شعور الرضى بعودة اسرة رومانوف ووجودها فى مكان آمن ، الافراج عن ياكوفليف وتركه يعود مع السلامة الى موسكو (قال ديدكوفسكى ، نائب رئيس السوفييت : «فليحاسبوه هناك بانفسهم !») .

ومن موسكو بعث ياكوفليف ، قبل كل شيء ، برقية لمعاونيه فى توبولسك فى ذلك القسم من الفصيل الذى بقى فى المدينة كانت على النحو التالى : «اجمعوا الفصيل . غادروا . سلمت صلاحياتى . لست مسؤولا عن النتائج . ياكوفليف» .

وحصل على تعيينه مفوضا عسكريا فى جبهة سامارا . وفى عتمة احدى الليالى من شهر اكتوبر عام ١٩١٨ انتقل عبر خط الدفاع إلى العدو . ولمّا اخذوه الى الجنرال التشيكى الابيض شينيه ، عبر له عن رغبته فى «توجيه السلاح ضد الشيوعيين» . وقبل فى جيش كولتشاك . ونشر فى صحف الحرس الابيض فى تلك الايام سلسلة مقالات يعرب فيها عن الندم على آثامه «البلشفية» . ومع ذلك ، لم تكن هذه الاعترافات ولا محاولة خطف وانقاذ اسرة رومانوف التى اصبحت معروفة للجميع ، لتشفع له لدى الحراس البيض المتعطشين للدماء . فى ٣٠ ديسمبر ١٩١٨ وبأمر من عقيد مكافحة التجسس كليتساندا اعتقل ياكوفليف وارسل الى اركان كولتشاك . وهناك وقع بين يدى العقيد التشيكى زايتشيك ، قائد فصيل مكافحة التجسس فى اركان «الحاكم الاعلى» والضابط فى

الجيش النمساوي-المجري السابق . ولم يخرج حيا من بين يدى هذا الاخير .

يشتم سوكولوف فى كتابه زايتشيك على «القتل الذى لا معنى له ولا فائدة منه لاهم شاهد على آخر مرحلة من حياة وعذاب الاسرة القيصرية» .

فى الساعة التاسعة من صباح ٣٠ ابريل اقترب القطار رقم ٤٢ ببطء من ايكاتيرينبورج مطفئا بخاره . وتجمهر الناس على الساحة امام المحطة ، معظمهم عمال من السكان المحليين . لا توجد ضمانة بعدم حدوث فوضى . واشار اعضاء هيئة رئاسة السوفييت الذين وصلوا الى المحطة على ادارتها ان يتم انزال اسرة رومانوف على المحطة الفرعية ، ثم يستمر القطار بركابه الآخرين الى المحطة العامة .

كانت اسرة رومانوف جاهزة للنزول . وقبل كيلومترين من المحطة العامة توقف القطار ، وهبط ثلاثة من ركابه الى الرصيف . وودعهم ياكوفليف دون اية تعابير على وجهه الحليق .

وسط الساحة الخالية الا من طوق الحراس الحمر وقفت سيارتان بجانب المحطة الفرعية . ومن وراء العنابر ظهر الثلاثة ، يرافقهم افدييف . استقبلهم رئيس سوفييت الاورال بيلوبورودوف ونائبه ديدكوفسكى ، وعضو رئاسة السوفييت جولوشيكين . وبعد ان سلم على القادمين دعاهم بيلوبورودوف الى الجلوس فى السيارتين .

وتوجهت السيارتان الى مركز المدينة باشارة من بيلوبورودوف . ولم يصحبهما الحرس لتجنب اثارة اهتمام المارة .

الفصل الخامس عشر

فى شارع فوزنيسينسكى

اغلق نيقولاى باب السيارة وشكر بابتسامة ساخرة بيلوبورودوف على دعوته . لكنه تمهل دقيقة عند السيارة وتطلع بامعان للحارس الواقف عند المدخل ونظر بفضول هادئ متفحصا الدار من اعلى الى اسفل . والقت زوجته نظرة خاطفة على واجهة الدار من تحت خمارها الشفاف واطلت ماريا من وراء ظهرها وابتسمت ابتسامة صريحة للجندى الشاب الواقف عند المدخل الرئيسى . انها فتاة لا بأس بها ، حيوية ، بعينين ماكرتين .

كانت الدار تقع فى زاوية شارع فوزنيسنسكى وزقاق يحمل الاسم نفسه ، فى وسط مدينة قديمة صناعية كبيرة - بلغ عدد سكانها (زمن الثورة) ١٠٠ الف نسمة . ويؤدى الزقاق الى الاحياء المنخفضة من المدينة ، الى بركة عريضة . تطل الدار بطابق واحد على الشارع العريض فى الجهة الشرقية ، وبطابقين على المنحدر ، وبما ان الطابق الارضى قائم على المنحدر ، فانه يبدو دون مستوى الشارع ، ولذا يبدو اشبه بالقبو .

والى جانب المنحدر ، باتجاه الزقاق ، خلف السياج ، توجد حديقة كبيرة ، فيها الكثير من البتولا والصفصاف والزيزفون والسوسن تغطى فناء الدار ، حيث تقع حظيرة الخيول ومستودع المؤونة . ونوافذ الدار واسعة عريضة ، وجدرانها سميكة . الدار متينة ، لكنها قديمة الطراز كان لها بطنا كبرا مثل صاحبها نيقولاى ايباتييف ، ابن هذه الديار البالغ من العمر ٤٨ سنة ، المهندس فى التنقيب عن المعادن ، التاجر والمقاول .

لقد بنى هذه الدار ليسكن فيها ، فعنده اكتفاء فى كل شىء : فهو اغتنى من مهنته المرتبطة بصناعة المعادن ومقاولاته مع الدولة ، وكان يؤمن بأن شيئا لن يقلق راحته حتى اخر حياته

فى هذا العش الهانئ . ولكن حصل العكس . دق احدهم البـــاب وسلمه ورقة دعوة الى سوفييت الاورال . وهناك استقبله عضـو المكتب التنفيذى فويكوف ، ومفوض الشعب لشؤون التموين . قال المفوض ان عليه ، بتكليف من هيئة الرئاســة ، ان يحيط السيد ايباتييف علما ان الدار فى شارع فوزنيسينسكى قد صودرت ووضعت تحت تصرف السوفييت لاسباب طارئة لا مجال للحديث عنها الآن . ويجب بالضرورة ان يبقى كل الاثاث فى مكانه . امـــا الحاجيات الاخرى فستنقـــل الى المستودع وتسجـــل وتحرس . وسيضمن السوفييت الحفاظ عليها . وقدم المفوض اعتذاره الى المهندس لاقلاق راحته وافهمه ان الدار يجب ان تخلى خلال ٢٤ ساعة . فالمصادرة مؤقتة ، وعندما تزول الحاجة ، ستعاد الدار .

فى ٢٩ ابريل جاء جنود الجيش الاحمر ونقلوا الاغراض بوجود صاحبها وختموهـــــا ، وسلموه مفاتيح المستودع ورجوه مغادرة المكان . وفى المساء كان الحراس موزعين فى داخل الدار وحولها ، واصبح اسمها بعد الآن الدار للاغراض الخاصة . . .

فى صباح اليوم التالى دخـــــل الدار رئيس سوفييت الاورال بيلوبورودوف ومعه النزلاء الثلاثة ومعاونـــه ديدكوفسكى وعضو هيئة رئاسة اللجنـــة التنفيذيـــة جولوشيكين . وفى البهو طلب بيلوبورودوف من الجميع ان يصغوا اليه ، وقال :

— بقرار من هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات نواب العمال والفلاحين والجنود والقوزاق لعموم روسيا ، على القيصر السابق نيقولاى رومانوف واسرته الاقامة في ايكاتيرينبورج ، هنا فى هذه الدار ، تحت اشراف سوفييت الاورال الى حين تحديد موعد محاكمتـــه . وقد عين سوفييت الاورال الكسندر افدييف مسؤولا للدار ، وها هو هنا ، امامكم . هل يوجد لديكم فى هذه اللحظة طلبات او شكاوى او اسئلـــــة ؟ لا . . . حسنـــــا ، اذا برزت في المستقبـل فتقدموا بها الى السوفييت عبر المسؤول افدييـف او مساعده اوكراينتيسيف . اما الآن فبوســـع المواطنين من آل رومانوف ، ان يعيشوا فى هذه الدار كما يرغبون ، كما يحلو لهم . فتحت تصرفهم معظم الطابق الثانى .

رسميا بعد عدة ايام ، فى ٩ مايو ١٩١٨ ، اعلنت صحيفة «العامل الاورالى» رسميا خبر وصول القيصر واسرته الى ايكاتيرينبورج .

غادر بيلوبورودوف وجولوشيكين المكان . وسار ديدكوفسكي وافديف مع ساكني الدار الجدد يتفقدون الغرف . هنا اختلف الوضع طبعا عما كان عليه في توبولسك . اذ لم تكفهم هناك ثماني عشرة غرفة واخذوا دار كورنيلوف اضافة . اما هنا فالمكان اقل . ومع ذلك كانت الغرف واسعة ومؤثثة بشكل جيد . اخذ نيقولاي وعقيلته وماريا (فيما بعد حل الكسي مكانها) حجرة الزاوية تطل بنافذتين على الشارع واخريين على الزقاق . وفي الحجرة المجاورة ، بنوافذ على الزقاق ، سكنت البنات فيما بعد . كانت هناك على النوافذ ستائر ، وعلى الارض سجادة كبيرة واريكة وثيرة وطاولات صغيرة ومقاعد . وكان باب غرفة البنات يفتح على غرفة الطعام ، حيث كانت تنام ديميدوفا . وغرفة الوسط المفتوحة على غرفة الطعام بواسطة قوس صارت صالونا ينام فيه الدكتور بوتكين والخادم . اما الطباخ خاريتونوف ومساعده ليونيد سيدنيف فعاشا في المطبخ . وكتب نيقولاي : «سكن الحرس في غرفتين قرب غرفة الطعام . فمن اجل ان تذهب الى الحمام والمرحاض ينبغي المرور بجانب الحارس الواقف امام باب نقطة الحراسة . وحول الدار بني سياج خشبي عال يصل الى نوافذنا تقريبا ، وهنا تمتد سلسلة من الحراس وفي الحديقة ايضا» .

تعامل نيقولاي مع الموقف بهدوء . اما الكسندرا فيودورفنا فكانت عصبية نزقة . وعندما يجري الحديث عن الامتعة لا تتمالك نفسها وتبدأ تتغالظ بالالفاظ وتصرخ .

لقد نقلوا آل رومانوف من توبولسك بسرعة ، على عجل ، فلم يتفقدوا امتعتهم هناك . وكان سوفييت الاورال قد اتخذ قرارا حتى قبل وصول الاسرة الى ايكاتيرينبورج بوضع متاعها الكبير تحت اشرافه ، الامر الذي خلق جوا متوترا ، طبعا . هكذا فتشت الحقائب التي جلبت بالسيارة من قبل الجنود الحمر في الممر مباشرة بوجود افديف وماريا . ثم اقترح ديدكوفسكي على الكسندرا فيودوروفنا ان تقدم للتفتيش «شنطتها» . عندئذ احتجت بغضب باللغة الروسية اولا ، ثم بالانكليزية . آنئذ اخذ بوتكين ، الذي وصل من المحطة في ذلك الوقت ، على نفسه دور المترجم . فاوضح لافديف وديدكوفسكي ان الكسندرا فيودوروفنا تعتبر تفتيش حقيبة اليد اهانة لها وتضرب المثل بالمعاملة المؤدبة التي كان يتعامل بها

كيرنسكي . ومع ذلك فتشت حقيبة اليد . ومن اسفلهـــا اخرج ديدكوفسكي جهاز تصوير صغيرا ومخططا دقيقا جدا لمدينـــة ايكاتيرينبورج . وتمسكت الكسندرا فيودوروفنا بجهاز التصوير «صارخة بالانكليزية كلمات بذيئة بحقنا ، الامر الذي جعـــل بوتكين يمتنع عن ترجمتها» .

حاول ديدوفسكي افهام الكسندرا فيودوروفنا مذكرا اياها بانها هنا رهن الاعتقال والتحقيق ، لكن ذلك لم يهدئ من سورة غضبها . راقب نيقولاي كل هذا المشهـــد دون اكتراث ، ودون ان ينبس ببنت شفة . وبعد انتهاء التفتيش وضعوا الحقائب في غرفة المتاع واعطوا المفتاح لاسرة رومانوف .

عاشت الاسرة ايامها واسابيعها الاولى في دار ايباتييف في قلق وانتظار . لم يفارق والدا الكسي ابنهما من قبل ابدا : ماذا حـــل به ، هناك في توبولسك ؟ وماذا بالنسبـــة للبنات ؟ ولم يكن لمسؤول الحرس افدييف من شغل شاغل الا الاجابة على اسئلـــة الابوين بصدد قدوم بقية الاسرة . كانت الصلات البريديـــة مع توبولسك ضعيفة والاخبار تصل متقطعة . وافدييف يطمئنهـم بأن اعضاء الاسرة الآخريق قادمون بالتأكيد ، وعلى وجه السرعة . انه لا يقول ، طبعا ، ان اجهزة السلطة الاورالية مهتمة بنقل الكسي من سيبيريا اكثر من ذويه ، ولو لاسباب مختلفة تماما . والمسألة هي ان خطرا حقيقيا كبيرا بخطف الفتى ابن الرابعة عشرة من قبل قوى الثورة المضادة خيم على الجو . وكان الامل معقودا فقط على يقظة وحزم خوخرياكوف ، المكلف بتأمين نقل المجموعة الثانية بعد ذوبان الجليد في الانهار . وقد برر خوخرياكوف الثقـــة . اذ ان البيض سيطروا على مدينة توبولسك بعد ١٤ يوما فقط من ترحيـــل ولي العهد السابق واخواته .

منذ ٢٦ ابريل ، بعد ان اختفى ياكوفليف ورفاق دربـــه في ضباب ايرتيش ، اخذ خوخرياكوف على نفسه مسؤوليـــة النظام والحماية في دار المحافظ . فوضـــع على رأس الحرس (من الجنود الحمر الآن) روديونوف وبدأ التحضير لنقـــل الافراد الاربعـــة المتبقين من اسرة رومانوف الى ايكاتيرينبورج . واعفى كوبيلينسكي من الخدمة في ٢ مايو . وفي اواسط مايو كان الكسي قد تعافى . وسارت

المراكب فى الانهار . وفى احد ايام مايو الربيعية نقل خوخرياكوف وروديونوف البنات والصبى الى المركب «روسيا» ، نفس المركب الذى قدموا على متنه في الخريف الماضى الى توبولسك . وسافر معهم ٢٦ شخصا من الحاشية والخدم ، وكان بينهم تاتيشيف ، وجيليار ، وجيبس ، وبوكسجفدن ، وشنيدر ، وجيندريكوفا ، وتوتيلبرج ، وايرسبيرج ، والعمة تيجلييفا ، والعم ناجورنى ، والطباخ خاريتونوف .

وتراس القافلة خوخرياكوف وروديونوف . فى الصباح الباكر من يوم ٢٣ مايو توقف القطار (كما فى المرة السابقة) عند محطة ايكاتيرينبورج الفرعية . وكانت فى انتظار المسافرين عربات الخيل . وعلى نفس الطريق ، فى الازقة والشوارع الغافية اوصلوهم الى دار ايباتييف . وفيما بعد وصلت الامتعة من المحطة .

حاشية رومانوف الآن لا تشبه بتعدادها تلك ، التى غادرت منذ عشرة اشهر قصر الكسندروفسكى . بعضهم انصرف فى توبولسك (لتقليص العدد) . والبعض الاخر ابعد عن اسرة رومانوف فى ايكاتيرينبورج ، ولم يسمح له بدخول دار الاغراض الخاصة . والبعض الثالث عقابا على اعمال الاستفزاز ارسل من القطار الى السجن مباشرة . سمحوا للعم ناجورنى بالسكن فى الدار ، لكن بعد اسبوع اعتقل واودع السجن . وامر جميع المفصولين من خدمة اسرة رومانوف (خاصة الاميرة بوكسجفدن ، والعقيد كوبيلينسكى ، والمدام ايرسبيرج والمدام توتيلبرج) بمغادرة الاورال فى الحال . قدمت تسهيلات خاصة للطبيب ديريفينكو (الذى يعالج الكسى) : سمح له سوفييت الاورال العيش فى المدينة والسكن فى شقة خاصة ، ودخول الدار فى اى وقت يشاء .

وفى نهاية المطاف بقى حتى اواخر مايو ١٩١٨ فى دار ايباتييف من كل المجموعة الكبيرة التى ارسلها كيرينسكى من بتروجراد صيف عام ١٩١٧ سبعة افراد من اسرة رومانوف وخمسة ممن يقومون بخدمتهم (الدكتور بوتكين ، الخادم تروب ، الخادمة ديميدوفا ، والطباخ خاريتونوف ومعاونه ليونيد سيدنيف) — المجموع ١٢ فردا .

حتى ٤ يوليو عام ١٩١٨ كان الرئيس المسؤول فى دار الاغراض الخاصة الكسندر افدييف ، عامل المصنع فى ايكاتيرينبورج . وقد قال عنه معاصروه ، انه كان انسانا طيبا صاحب نخوة ، وتعامل مع المعتقلين في الدار بلطف ، وكان الحراس الخاضعون له ومعظمهم من عمال نفس المصنع يتعاملون معه بود واحترام . وكان العامل موشكين مساعدا لافدييف . اما فى ٤ يوليو فقد استبدل افدييف بيوروفسكي ، وعين نيكولين بدلا من موشكين .

كان تعامل الحرس مع اسرة رومانوف فى دار ايباتييف مهذبا وانسانيا على الدوام . كان متوفرا لها كل ما هو ضرورى ، رغم تلفيقات ويلتون ، وميسى ، وفرينكلد ، وهوير وزملائهم الامريكيين والالمان الغربيين بهذا الصدد .

وما عذاب آل رومانوف الذى صوروه فى الغرب الا من بنات الخيال . اذ ليس فيه ولا قليل من الصواب . الشيء الوحيد الذى ربما كان صحيحا هو ان ايباتييف بعد ان عرف من هم نزلاء داره ، بخل فى تقديم بعض الاثاث والحاجيات لاسرة الامبراطور السابق للاستخدام المؤقت . ولهذا كان فى الايام الاولى نقص البياضات والاوانى . ولكن سرعان ما وفرت قيادة الحرس كل ما هو ضرورى ، بما فى ذلك اسرة اضافية . لقد كتب نيقولاى فى دفتر مذكراته : «الدار حسنة ، نظيفة» . ويعترف بهذا بعض المختصين فى الشؤون السوفييتية . هكذا كتب هاركييف : «كان المنزل على اتم ما يكون . . . وتغذت الاسرة بشكل لا بأس به ، واحيانا حتى بشكل جيد» .

لنقرأ ما كتبه نيقولاى نفسه : «كان الطعام ممتازا ومتنوعا ويقدم فى وقته المحدد . كان غنيا منوعا طيلة هذا الوقت ، ويصل الينا بأوانه» .

لا يمكننا الا ان نوافق على الاستنتاج الذى توصل اليه احد الباحثين من وراء المحيط ، هو الكسندروف ، حين قال : «ولو وقعنا فى مغبة التكرار ، علينا الاشارة من جديد الى ان تلك الظروف كانت ملائمة الى ابعد حد مقارنة مع تلك التي وقع فيهما فى وقت ما المقاتلون فى سبيل الحرية المسجونون فى شليسيلبورج . . . ان

اسرة رومانوف ، حتى اللحظة الاخيرة من حياتها ، لم تتعرض لمعاملة سيئة» .

بالطبع ، اذا توفرت الرغبة يمكن ايجاد مبرر للنرفزة ، وحتى المشاجرة ، وهذا ما فعلته الكسندرا فيودوروفنا اكثر من مرة . وكانت نرفزتها فجة ، ولعبها لدور المعذبة سطحيا فاقدا للكبرياء والكرامة . فقد كانت تقوم احيانا بالاضراب عن الطعام حيث تنهض من وراء المائدة دون ان تمس الطعام . فيأتي مساعد الطباخ ليونيد سيدنيف ويحمل الى المطبخ طبق طعامها المفضل المحضر على ذوقها من المعكرونة . واعطت بتصرفاتها الصبيانيـــة تلك مادة لكتّاب سيرتها فى الغرب ، لتصوير الملامح التراجيدية للمعذبة الكبرى التى كأنما «عملت روسيا منها كبش فداء لكل نواقصهـــا وخيباتهـــا التاريخية» . ولكن حتى بعض المتعاطفين معها كان مضطرا لانتقاد تصرفاتها : «يجب الاعتراف بأنها فى ايام محنتها تلك قلما وجدت فى نفسها شيئا من الامبراطورة الروسية ، اذ كانت بتصرفاتها تذكر بعقلية زوجـــة جنرال بروسى تطلب من المحيطين بها باستمرار الاقرار باهميتها» .

لقد غضبت من فويكوف مرة (والاصح من هيئة رئاسة سوفييت الاورال) لانه لم يسمح بدخول خدم اكثر الى البيت ، الامر الذى عنى ان قسما من عمل المنزل سيلقى احيانا على بناتها مثل غســل ثيابهن او تحضير الخبز . وقد كتب نيقولاى : «البنات يتعلمن لدى خاريتونوف تحضير الطعام ، وفى المساء يعجن العجين ، وفى الصباح يخبزن الخبز» . وكان تعليقه على ذلك ساخرا : «لا بأس» .

لم يقل احـــد ، وحتى الاميرات السابقات انفسهن ، بأن هذا العمل اضر بهن . بـل على العكس . وكن على العموم يتمتعن جميعـا فى دار ايباتييف بصحة جيدة وحيوية مثل ابيهن ، الذى كتب عــن ملامحه الخارجية قومندان الدار السابق : «ابدا ، لا يمكن القول انه معتقل ، اذ كان طوال الوقت مرحا منطلقـــا . وذكر الدكتور بوتكين ان نيقولاى الكسندروفيتش لم يكن فى وقت مـــن الاوقات معافى بهذا الشكل كما فى فترة اعتقاله بايكاتيرنيبورج» .

وحسب مذكرات الاخرين (بمن فى ذلـــك المهاجرون البيض) واستنادا الى الصور المأخوذة لنيقولاى وبناته فى ايكاتيرينبورج فأنهم كانوا بعيدين كل البعد عن المرض او الارهاق والتعب . لقد

كان الامبراطور السابق «هادئا بمظهره الخارجي . وكان يخرج يوميا للنزهة في الحديقة مع الصغار – كما يشهد احد الحراس واسمه ميدفيدوف الذي استجوبه سوكولوف . – وكان القيصر بمظهره في صحة جيدة ولم يشخ ، ولم يظهر الشيب في رأسه . . . اما الكسندرا فيودوروفنا فقد اخذت تشيب وتنحف ، ولم تخرج قط للنزهة في الحديقة ، بل اكتفت بالجلوس احيانا على الفيراندا قرب ابنها الكسي . وتصرف الاطفال بشكل عادي وكانوا يبتسمون لدى مرورهم بالحرس غير ان الحديث معهم كان ممنوعا» . لا مجال للشك اذا في انه «خلال فترة الاعتقال في دار ايباتييف لم تكن هناك اية سخرية من القيصر او اسرته ، ولم يسمح بتوجيه الاهانات لهم او باستفزازهم» .

كان رب الاسرة طبيعيا جدا ، هادئا ، منفتحا ، يسأل ببساطة عن كل شيء يثير اهتمامه ولدى من يريد . وقد دخل مرة في حديث قيم مع افدييف :

سالني من البلاشفة ؟ فقلت له ان خمسة من البلاشفة اعضاء مجلس الدوما الرابع قد نفاهم بنفسه الى سيبيريا ، لذا فعليه ان يعرف من هم البلاشفة . فاجاب بأن ذلك كان من فعل وزرائه وغالبا دون معرفته بالامر .

عندئذ سالته ، كيف يمكن له ألا يعرف ماذا فعل وزراؤه عندما اطلقوا النار في ٩ يناير عام ١٩٠٥ على العمال أمام قصره وأمام عينيه !

توجه نحوي مخاطبا باحترام وقال : «انكم لا تصدقون انني ربما قد عرفت بهذه القصة فقط بعد قمع انتفاضة عمال بيتروجراد» (كان القيصر يسمي مسيرة العمال السلمية نحو قصر الشتاء انتفاضة حتى في عام ١٩١٨ ! . . .) .

أجبته ، باني لست وحدي الذي لا يصدق ذلك بل واي طفل من اسرة عمالية .

وسأل القيصر ميدفيدوف مرة :

– ايه ، كيف تسير الامور ؟ كيف حال الحرب ؟ الى اين يرسلون القوات ؟

وخرج مرة للنزهة مع ابنته ماريا ، وكما تذكر افدييف :

التفت بسرعة وتوقف ، وسالني :

– قولوا لي من فضلكم ، هل بيلوبورودوف يهودي ؟

صعقني السؤال بطابعه المفاجيء وحراجته فلم أجد ما أرد به مباشرة .

فتابع نيقولاى :
ــ انه يبدو لى روسيا .
أجبته :
ــ روسى ، انه روسى .
وسالنى القيصر باستغراب شديد :
ــ اذا كان روسيا ، كيف يشغل اذن منصب رئيس السوفييت فى المقاطعة ؟ !

وتبين ان القيصر كان مقتنعا تماما بان على رأس أجهزة السلطة السوفييتية يقف البلاشفة ـ اليهود فقط .

لم تكن عندى رغبة فى اعطاء دروس محو الأمية السياسية للقيصر السابق او توضيح الفرق فى المسالة القومية بين سياسة السلطة السوفييتية وسلطته هو ، فقطعت الحديث دون لباقة بعض الشىء ، وقلت :
ــ الأفضل قولوا لى ، هل لديكم طلبات أو شكاوى ؟

وكان نيقولاى ، كسابق عهده يكتب كل شىء فى يومياته :

«عندما خرجنا للنزهة ، جاء الى الحديقة جميع الجنود غير المناوبين ليتفرجوا علينا» . . .

«وخرجنا مرة ثانية للنزهة فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، فاقتربت من السياج عجوز وطفل ، واخذا ينظران الينا عبر الثقوب وقد طردوهما بشتى الوسائل ، وكان الجميع يضحكون فى غضون ذلك» .

«تنزهنا وجلسنا فى الحديقة . . . وقصت اليكس (الكسندرا) لى شعرى» .

«مساء تعطلت الاضاءة الكهربائية ، فلعبنا بالورق على ضوء السراج ريثما اصلحها سيدنيف» .

«قبيل تناول الشاى انهمكنا من جديد بلعبة الورق التريك ـ تراك» .

«ومن غرفة الحراسة سمعت اصوات غناء وضرب على البيانو ، الذى اخذ الى هناك من الصالون منذ ايام» .

«ان مزاج الحرس مرح وطيب جدا» .

ربما لم يكن الحرس «مرحا» دائما ، لكنه كان باستمرار لطيفا وطيبا جدا ، حتى وقت تنظيم طقوس العبادة فى المنزل .

احتفل القيصر والقيصرة بعيدى ميلادهما : بلغت الكسندرا فيودوروفنا ٤٦ سنة ، ونيقولاى ٥٠ سنة . وقد كتب فى دفتر يومياته :

«عشت حتى سن الخمسين . اكاد لا اصدق نفسي . . . كان الطقس رائعا اليوم ، وكأنه حسب الطلب . وفي الساعة ١١,٣٠ قام الكاهن والشماس بالدعاء لنا . . .وفي النهار جلسنا في الحديقة نستدفئ باشعة الشمس» .

المدينة محاصرة

ومع ذلك وكان سجنا كأي سجن ، وضرب سياجان حول الدار . وهناك حراس في داخل الدار وحوله وعند مداخل الغرف وفي الفاصل بين السياجين ، ونظام صارم من مناوبة اعضاء اللجنة التنفيذية للسوفييت ، وحراسة يقظة طوال الليل والنهار من قبل حرس الجمهورية ، التي كانت تخوض نضالا على جبهتين في وقت نفسه ، الجبهة الداخلية والصراع من اجل البقاء والجبهة الخارجية والغزو الامبريالي المسلح .

اعلنت اللجنة الحزبية في ايكاتيرينبورج في ١٤ يونيو التعبئة العامة لجميع الشيوعيين ، وانضم في تلك الايام حوالى ثلثي اعضاء منظمة الحزب في مقاطعة الاورال الى صفوف المدافعين المسلحين عن الجمهورية وذهب جميع عمال المصانع تقريبا الى الجبهة .

في ٨ يوليو سيطر الغزاة الاجانب على مدينة اوفا .

ووقع خط سكك الحديد الواصل بين سامارا وايركوتسك والمناطق الشاسعة بينهما تحت سيطرة البيض ، فجرى في كل مكان هناك اعتقال واعدام الشيوعيين والعاملين السوفييتيين ، والنشطاء من العمال وفقراء الفلاحين . وسقطت بنزا ، وسيمبيرسك ، وتومسك . وتصاعد النشاط الهجومي للثورة المضادة بقيادة البيض باتجاه ايكاتيرينبورج . وشكلت هذه المدينة الى اواسط يوليو عام ١٩١٨ اخر حاجز قوي في الاورال على طريق الثورة المضادة ، التي امتدت كبقعة سوداء تنشر الدمار والموت حتى ربوع ايركوتسك واحيانا حتى فلاديفوستوك .

وكان يقترب من سمع نزلاء دار ايباتييف من مسافات بعيدة وقريبة دوي الحرب . واستمع سكان الطابق الثاني الى ذلك الهدير بتفاؤل وامل كبيرين .

لقد ظنت السلطة السوفييتية لدى ترحيلها اسرة رومانوف من توبولسك انها تنقلهم الى المؤخرة الى الحدود التي لا يطالها البيض . ولكن في سير الحرب الاهلية التي فرضتهـــا الثورة المضادة على الشعب اصبحت المؤخرة جبهة . لقد انتقـــل القيصر واسرته تحت الحراسة من الشرق الى الغرب ، من سيبيريا الى الاورال ، بينمـــا اندفع الفرسان – المنقذون وراءهـــم ناشرين الارهاب والمؤامرات والقتل الجماعي ، وذلك من اجل انقاذ الاسرة القيصرية ايضا ، فقاموا بذلك بدفعها الى الموت . ان علاقة هذا السبب بهذه النتيجـــة قد اكدتها ايضا الصحافة الغربية المعادية للشيوعية : «ان الضربات التي وجهها البيض للحمر في تلك الشهور ، قد انعكست بشكـــل مأساوي على المصير اللاحق للمعتقلين» . وعلى وجه الدقة : «نزل الاميركان والانجليز في مورمانسك . وفي الجنوب شكـــل الجنرالات القدماء جيشا ابيض من المتطوعين . وفي سيبيريا استولت الفرقة التشيكية التي بلغ تعدادها عشرات الآلاف من الجنود على مدينـــة اومسك ، واتجهت نحو ايكاتيرينبورج . فدفع ضغط هذه القوى البلاشفة الى اتخاذ اجراءات طارئة ، تهدف الى تلافي امكانيـــة اعادة الملكية في البلاد» .

انه استنتاج يستحق عالي التقدير . ومع ذلك ، فان المؤلفين الذين تكرموا بهذا الاعتراف يغضون النظر عن احداث عام ١٩١٨ وعن عوامل اخرى جوهرية جدا : احتلال الجيش الالماني لقسم كبير من اراضي روسيا ، وكذلك محاولات الاستخبارات الالمانيـــة التي استطاعت ان توصـــــل في البداية عملاءهـــا الى دار المحافظ في توبولسك ، ومن ثم الى دار ايباتييف في ايكاتيرينبورج .

ومهما كان الامر ، فقد تصرف العمال الاوراليون ازاء خطر دخول البيض الى ايكاتيرينبورج ببساطة وبشكل مفهوم ، اي حسب قوانين المنطق الثوري . وبالذات لأن البيض سعوا باستماتة لخطف القيصر المخلوع ، قرر عمال الاورال عدم اعطائهم اياه بأي شكل . وعلى ساحة الاحداث هذه جرت دراما اسرة رومانوف .

فعلام كـــان يمكـــن لهؤلاء السابقين ان يعولـــوا في تلـــــك الظروف ؟

على ما عولوا عليه منـــــذ عام ونصف : عـــلى الهـــــرب بمساعدة الدول الاجنبيـــة . وفي فترة الاعتقـــال بايكاتيرينبورج

جرت اعنف المحاولات لتخليص اسرة رومانوف من الاعتقـــال ، وشاركت فيها القوى الداخلية والخارجية للثورة المضادة معا . لقد بدت ظروف حماية اسرة رومانوف فى ايكاتيرينبورج حتى نهايــــة ابريل عام ١٩١٨ اضمن منها فى توبولسك . لكن بعد شهر واحد تقريبا تلاشت هذه الضمانـــة ادراج الرياح . وسرعان ما انقلب الوضـــــع الى حد ، بحيث كان بامكان اسرة رومانوف ان تتملص من المعتقل بسهولة اكثر مما فى توبولسك .

الحلقة تضيق

كتب احد المؤلفين الذين استشهدنا بهم فى هذا الكتاب ، وهو الكسندروف ، ما يلى : بعد مضى عدة سنوات على تلـــك الاحداث التقيت فى مدينة كان بضابط ابيض سابق اسمــه سوكولوف ، صاحب مطعم فى تلك المدينة . وقد شارك هذا الضابط فى ربيع وصيف عام ١٩١٨ فى عداد حلقة واسعة من المتآمرين فى عمليـــة التحضير لتحرير الاسرة القيصريـــة مـــن دار ايباتييف . ويذكر سوكولوف بوضوح ، كيف انخرط فى هذه العملية رجال فرقـــة تيكينسكـــى (المسماة بالمتوحشـــة) ، التى شاركت فى تمرد كورنيلوف . وبعد القضاء على التمرد سجن المعتقلـون فى بيخوف . وفى فبراير عام ١٩١٨ هرب الضباط من بيخوف .

واعترف سوكولوف لمحدثه ، ان افراد هذه الفرقة بأمر سرى من دينيكين والكسييف انتشروا خلال ربيع وصيف عام ١٩١٨ فى انحـاء الاورال واختبأوا فى ضواحـى ايكاتيرينبورج عـلى شكـــل الضباط ضاربين طوقا من الحصار الخفى حول دار ايباتييف . وكان هؤلاء الرجال مستميتين من شدة حقدهـــم واذا لم يقوموا بهجوم انذاك على المنزل فأن السبب يعود الى انهم اتفقوا مع التشيـــك البيض حول انزال ضربة موحدة ، لكن التشيك تباطأوا فى النصف الاول من يوليو بمهاجمة مدينة ايكاتيرينبورج» .

قبل ذلك بقليل ، فى ١٠ يونيو ، حاولت مجموعة من الضبـاط البيض تحت امرة النقيب روستوفتسيـف والملازم الاول ماماكين التقدم من الضاحية الى المدينة ساعية لتحرير القيصر واسرته مـن الاعتقال . لكن فصيل الخيالة العمالى بقيادة يرماكوف استطاع قطع الطريق على هذه العصابة وتفريقها .

قبل ان يغادر جيليار وجيبس المدينة بالحاح من السلطات المحلية توجها مرارا (كما قال الضابط السابق سوكولوف) الى القنصل البريطانى فى ايكاتيرينبورج توموس ريستون وطلبا منه النصح والتعليمات وطالبا بأتخاذ اجراءات لحماية الاسرة القيصرية . وكان ريستون حتى ذلك الوقت صاحب طويل الباع فى العمليات الاستخباراتية-التخريبية فى عمق روسيا ، ومكلفا بتنفيذ تعليمات السفير بيوكينين - رئيسه المباشر ، وكذلك تعليمات رئيس بعثة الجنرال الفريد نوكس العسكرية البريطانية فى روسيا (مثل سابقه صموئيل خور) ، ومركز «اينتليجنز سيرفيس» بلندن . وقد اظهر الجاسوس البريطانى فى الاورال ، حسب زعم المؤلف الامريكى ميسى ، «تشاؤما» معينا لدى اتصاله بجيبس وجيليار ، وعبر عن رأى مفاده ان التدخل الخارجى فى الوضع الراهن سيضر فقط بالمعتقلين فى دار إيباتييف ، والاهم من ذلك ان محاولة هرب الاسرة القيصرية فى ظل وجود قوة من الفصائل الحمر ستكون عملا جنونيا ، الامر الذى سيعرض الاسرة «لاكبر الاخطار» .

ان هذا الزعم مشكوك فيه : لان كل نشاط ريستون وزملائه فى شرق روسيا كان تدخلا فظا فى الشؤون الروسية ، وان «التشاؤم» المزعوم الذى اظهره ريستون لم يدفعه قط الى الضغط على العصابات السرية من قاطعى الرؤوس الذين اعدوا لسكان المدينة العمال «ليلة سكاكين طويلة» ، بل على العكس من ذلك قام ريستون بتأمين السلاح لهم ، وجهزهم قتاليا ، وطالبهم بنظام الطاعة الحديدى والخضوع الكلى للاوامر ، ونسق نشاطهم المشترك . والواقعة الاخيرة جوهرية بشكل خاص اذا اخذنا بالحسبان اختلاف اماكن ومواقع العصابات المسلحة . فان عناصر الثورة الروسية المضادة ، التى بلغ تعدادها حسب تقدير الكسندروف خمسة آلاف رجل ، تمركزت فى تلك الفترة فى عدة مدن : فى قازان ، وسيمبيرسك وبيرم ، والابايفسك وايكاتيرينبورج . وكانت بين المشتركين فى المؤامرة التابعين مباشرة للقنصل ريستون الكتيبة الصربية تحت امرة النقيب بلاغوتيتش ، الذى اوكلت اليه حراسة الاحتياط الذهبى لبنك روسيا فى قازان ، حيث نقل الى هنا من بيتروجراد منذ عام ١٩١٥ .

فى ٦ يوليو عام ١٩١٨ ، فى فندق «ترويتسه - سباسكايا»

بمدينة سيميرسك عقد اجتماع عسكرى حضره ريستون ، مكرسا لبحث مسألة اجراءات تحرير الاسرة القيصرية . وقد ترأس الاجتماع العقيد كابيل (نفس الضابط الذى قاد وحدات كولتشاك فى سيبيريا فيما بعد) . واتخذ قرار بالاجماع حول «مهاجمة دار ايباتييف ليلا ، وصرف انتباه الحرس الاحمر بهجمات على بيرم وغيرها من المدن القريبة ، واعداد فرقة ضباط خاصة لتهريب الاسرة الى ملجأ سرى ، وتدبير العملية بالتنسيق مع الهجوم السلافى (التشيكيين البيض – **المؤلف**) ، الذى من الافضل تحديد موعده فى ١٥ يونيو» .

ومن اجل تدقيق موعد وتفاصيل الهجوم على ايكاتيرينبورج مع قيادة الفيلق التشيكى ارسل النقيب ستيبانوف ، الذى ما ان وطئت قدمه رصيف محطة مدينة ايكاتيرينبورج حتى اعتقله رجال اللجنة الاستثنائية فى الاورال .

اخذ اعداء سلطة الشعب والحاقدون عليها ، المتخفون فى ايكاتيرينبورج ينتظرون ساعتهم . وكانوا فى الربيع قد نقلوا قواعدهم من سيبيريا الى الاورال اثر الاسرة القيصرية ، واقام كثير منهم بالقرب من دار ايباتييف . واخذت مجموعاتهم تتوحد وتتسلح استعدادا للهجوم . وقد كشف رجال اللجنة الاستثنائية واعتقلوا بعضهم ، واستمر البعض الاخر يشحذ السكاكين سرا . وكان يقع على بعد مئات الخطوات من دار ايباتييف مقر اكاديمية الاركان العامة ، المنقولة فى صيف عام ١٩١٧ من بيتروجراد الى هنا ، والتى شكلت من الضباط المدربين قوة عسكرية مسلحة بشكل جيد وجاهزة للتحرك فى اى لحظة .

وسجلت عدة محاولات لنفاذ الضباط المعادين الى دار ايباتييف : مرة بـ«سماح» مزيف من موسكو ، ومرة بتصريح مزور من سوفييت الاورال ، واخرى بحجة ضرورة التشاور مع القائد العام الاعلى السابق حول خطة الحلفاء لعام ١٩١٨ .

اضف الى ذلك تدفق اقرباء الامبراطور الكثيرين الى ايكاتيرينبورج ، بمن فيهم الامراء الكبار ، المبعدون سابقا من بتروجراد الى فياتكا ، والذين اختبأوا فى المدينة متربصين وانخرطوا فى حلقات التآمر والتحريض والاستفزاز .

هكذا ظهر فى ايكاتيرينبورج انذاك عدد من الامراء الكبار من آل رومانوف منهم سيرغى ميخائيلوفيتش ، وايغور ، وايفان ،

وقسطنطين ، وكذلك الامير باليه ، والاميرة الكبيرة ايليزابيت فيودوروفنا (شقيقة القيصرة) ، وملكة صربيا يلينا بيتروفنا ، وقد أرسل الجميع بقرار من سوفييت الاورال الى الابايفسك فى ٢٠ مايو ١٩١٨ ، والتى تبعد ١٧٠ كيلومترا عن ايكاتيرينبورج واسكنوهم هناك تحت الحراسة فى مبنى حجرى يدعى «مدرسة نابولنايا» فى طرف المدينة .

على هذه الخلفية كانت حراسة المنزل الضعيفة تبعث على القلق . خاصة وان نوعيتها القتالية غير محددة . وحراس المنزل يتألفون من المتحمسين للثورة ، ولكن سلاحهم قديم ، ومعرفتهم باستخدامه بسيطة ، والكثير منهم لم يحمل السلاح من قبل . وقد ذكر افديف فيما بعد : «يقف الحراس وراء الرشاش ، لكنهم لا يعرفون استخدامه . . . فكنا نضع الحرس المناوب على الرشاش ونشرع على الفور فى تعليمه كيفية استخدام هذا السلاح» .

يوليو شهر العواصف . فمنذ بدايته فقدت ايكاتيرينبورج الاتصال المعتاد بموسكو ، الا ان الاخبار ظلت ترد منها ومن المدن الاخرى . فى ٦ يوليو قتل بليومكين السفير الالمانى ميرباخ . وفى ٦-٧ يوليو قام الاشتراكية-الثوريون اليساريون بحركة تمرد فى موسكو ، وفى ليلة ٩ على ١٠ يوليو قام الاشتراكى-الثورى اليسارى مورافيوف ، القائد العام للجبهة الشرقية ، بالخيانة ، فالوضع فى هذه الجبهة يؤثر مباشرة على مصير ايكاتيرينبورج . فقد هرب مورافيوف مع مجموعة من اذنابه من مقر قيادته فى قازان الى سيمبيرسك ومن هناك اعلن «الحرب على المانيا» ، وكانت هذه المأثرة البراقة «المعادية للالمان» ضرورية له بشكل اساسى من اجل فتح الجبهة الشرقية امام قوات التشيك البيض ، الامر الذى يجعل ابواب ايكاتيرينبورج مفتوحة امامهم . وفى ١١ يوليو اعلن الحراس البيض تمردهم فى ياروسلافل . وهدد كل ذلك بتضييق حلقة الحصار المعادية حول ايكاتيرينبورج ، واصبح حزام الحصار اشد واضيق .

فلم يكن على المسؤولين عن حراسة اسرة رومانوف ان ينتظروا شيئا حسنا : كان بامكان البيض ان يندفعوا الى المدينة فى اى يوم واية ساعة . لذا لا يجوز تضييع الوقت ، وعلى سوفييت الاورال ان يتخذ قرارا ما .

كان جهاز السلطة هذا يمثل ٩٨ بالمئة من الناخبين فى الاورال وهو شكل فى مؤتمر السوفييتات للمقاطعة فى فبراير عام ١٩١٨ . وكان القسم الاعظم والانشط فيه من مرشحى عمال مدن الاورال . كان هؤلاء ممثلى تلك المناطق التى اقيمت فيها السلطة السوفييتية فى نوفمبر عام ١٩١٧ بعد انتصار الثورة الاشتراكيــة فى بيتروجراد مباشرة . وعلى اساس الصلاحيات القانونية الممنوحة من اكثريـــة سكان الاورال لسوفييت الاورال كانت تعمل لجنته التنفيذية بقيادة هيئة رئاسة مؤلفـــة من خمســـة اشخاص ، هم : بيلوبورودوف (رئيسا) ، وديدكوفسكى (نائبـــا له) ، وجولوشيكين ، وساروف وتولماتشيف .

عندما جىء باسرة رومانوف الى الاورال كان مـــن المقرر فى البداية ، من قبل الجهات العليـــا فى موسكو وفى الاورال ، اجراء محاكمة علنية للقيصر (وربما لزوجته ايضا) . وكانت هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيـــا قد قررت طرح مشروع محاكمــة للقيصر على المؤتمر الخامس لسوفييتات عموم روسيـــا للمصادقة عليه . وخلال فترة التحضير للمؤتمر سافر جولوشيكين الى موسكو لتقديم تقرير لهيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزيـــة لعموم روسيا عن الوضع فى الاورال . وبما ان الوضع العسكرى فى هذه المنطقة قد ساء بحدة ، فقد تخلت هيئة رئاســـة اللجنـــة التنفيذية المركزية عن رغبتها السابقة بانتظار المؤتمر الخامس من اجل حل مسالة المحاكمـــــة واقترحت على جولوشيكين الشروع فى تنظيم محاكمة القيصر حال عودته الى ايكاتيرينبورج ، بحيث تجرى قبل نهاية يوليو .

وحقيقة ان اللجنـــة التنفيذية المركزية لعموم روسيـــــا وسوفييت الاورال قد سعيا حتى النهاية لتنظيم المحاكمة مع التقيد بجميع القواعد القانونية المعمول بها فى ذلك الوقت ، هو امر يعترف به اليوم حتى اكثر المتخصصين فى الشؤون السوفييتية تشنجا .

لقد كتب الكسندروف : «من الذى اشرت اليـــه اعلاه (سير الحرب الاهلية – **المؤلف**) يستنتـــج دون شك ، ان زعمــــاء البلاشفـــة وافقـــوا فور استلام السلطـــة عـــلى فكرة تقديـــم نيقولاى للمحاكمـــــة ، وربمـــا محاكمـــة زوجتـــه الكسندرا

البغيضة من قبل الجميع ، لكن تحت ضغط المشاكل والاحداث الملتهبة الاكثر اهمية من عقاب الزوجين رومانوف ، كانوا مضطرين الى تأجيل هذه الخطة اكثر فاكثر ، ومن ثم الغائها نهائيا» . ويصل الى هذا الاستنتاج ايضا ميسى : «ان الخطر المحدق من قبل الجيوش المتقدمة بسرعة (البيض طبعا – **المؤلف**) هو ما دفع البلاشفة لترك فكرة المحاكمة العلنية للقيصر واللجوء الى خطط اخرى بالنسبة لأسرته» .

عاد جولوشيكين من موسكو الى ايكاتيرينبورج فى ١٢ يوليو . وفى ذلك اليوم عقد اجتماع استثنائي للجنة التنفيذية للسوفييت . وقدم من الجبهة ممثل القيادة العسكرية ، فطلبوا منه تقييم الموقف العسكرى فى اليوم والساعة . اعلن ذاك بصراحة : لا توجد آمال باستعادة الوضع على مشارف ايكاتيرينبورج ، فالقوى المهاجمة من المتدخلين البيض تلتف حول المدينة من الجنوب وتحاصر القوات الحمراء المتراجعة من جهتين . ومن محطة كوزنيو تندفع القوة الضاربة المعادية نحو المدينة مباشرة ، وبما ان مستلزمات الدفاع تتلاشى ولا يوجد احتياطى فى القوى البشرية والذخائر الآن ولا فى المدى المنظور ، فأن سقوط ايكاتيرينبورج اصبح مسألة ايام معدودة .

وادرك ذلك العدو ايضا ، المتربص فى المدينة . ويجرى تبادل محموم للاخبار والاشارات بين القيصر والقوى الملكية السرية . ويستنجد آل رومانوف طالبين العون ، ويستعجلون الهجوم على الحرس . هذا ما دلت عليه الرسائل الخارجة من المنزل والداخلة اليه التى اكتشفت فى قطع الخبز واغلفة المواد الغذائية .

فى سدادة زجاجة قشطة من الدير – تذكر القومندان – اكتشفت قصاصة باللغة الانجليزية ، وفيها يبلغ الضابط اسرة رومانوف ، ان كل شىء جاهز لانقاذهم ، وينتظرون موافقتهم . . . واعطيت الورقة للرفيق جولوشيكين . وبعد سحب نسخة عنها اعيدت الى مكانها فى السدادة وسلمت الى المرسل اليه . وبعد يومين – ثلاثة ، وبنفس الطريقة ، جاء رد نيقولاى ، أنهم مستعدون . اعتقل الضابط فيما بعد ، وكان يخدم فى الجيش النمساوى وكنيته ماتشيش .

في تلك الايام كانت تجرى في احدى غرف الطابق الثاني من المنزل اجتماعات متواصلة بمشاركة بوتكين . وكانت ماريا وتاتيانا تقومان بدور الحراسة في الممر وهما تجلسان على الصندوق وتطرزان بيديهما ، وما ان يظهر غريب حتى تنهضان وتدخلان الغرفة لتحذير المجتمعين . وغالبا ما كان بوتكين يتنقل بين اماكن الحراسة ويجر الحراس الى احاديث من اجل استخلاص اى شيء جديد . واستغل الدكتور ديريفينكو في اغراضه الحقوق الممنوحة له بدخول الدار في اى وقت يشاء (مثل هذا الحق لم يتمتع به احد غير اعضاء اللجنة التنفيذية) ، فأخذ يلعب دور العميل للمجموعات السرية المحلية . وعندما وصل الى ايكاتيرينبورج سرا في اواسط يونيو العقيد الركن سيدوروف بمهمة خاصة هدفها الاشراف على تحضير الهجوم على دار ايباتييف ، اخذ ديريفينكو على عاتقه تنفيذ تعليمات هذا العقيد ايضا .

وكتب سيدوروف الى نيقولاى : «تقترب ساعة الخلاص . وايام المغتصبين معدودة . وان الجيوش السلافية تقترب اكثر فاكثر من ايكاتيرنيبورج وغدت على بعد عدة كيلومترات عن المدينة . وستصبح اللحظة حاسمة . وهذه اللحظة حلت . . .» .

«ان اصدقاءكم لا ينامون — كتب له في وريقة ثانية — لقد حانت الساعة التي طال انتظارها» .

وتقول رسالة اخرى : «اننا بعون الله وبثباتكم وهدوء اعصابكم سنصل الى هدفنا ، دون المخاطرة بشيء . ينبغي نزع مسامير احدى نوافذكم ، كي تستطيعوا فتحها في الوقت المطلوب ، أرجو أن تدلوني عليها . وفي حال عدم استطاعة ولي العهد السير سيكون الامر اكثر تعقيدا . . . اكتبوا لنا ، هل يلزمكم رجلان من اجل حمله ؟ ام ان احدا منكم يأخذ على نفسه هذه المهمة ؟ الا يمكن وضع مخدّر لوليّ العهد لمدة ساعة او ساعتين ؟ ليقرر ذلك الطبيب . . . كونوا مطمئنين . نحن لن نقدم على اية خطوة ما لم نتأكد من نجاحها منذ البداية . اننا نعاهدكم امام الله والتاريخ وامام ضميرنا . الضابط» .

البريد الجوابي (عبر ديريفينكو نفسه) يحمل واحدة من رسائل نيقولاى مكتوبة بخط يده :

«النافذة الثانية من الزاوية ، التي تطل على الساحة مفتوحة منذ يومين حتى خلال الليل . والنافذتان السابعة والثامنة قرب المدخل الرئيسي ، اللتان تطلان كذلك على الساحة ، مفتوحتان على الدوام ايضا . هناك غرفة يشغلها

القومندان ومساعدوه ، الذين يشكلون الحراسة الداخلية . وعددهم ١٣ شخصا ، مسلحين ببنادق ومسدسات وقنابل . لا توجد مفاتيح فى أيــة من الغرف الا فى غرفتنا . رئيس الحرس ومساعده يدخــلان الينا عندمـــا يرغبان فى ذلك . ويقوم الحارس المناوب بتفقد المنزل مرتين فى الليل ، ونحن نسمع كيف يقرقع سلاحه تحت نافذتنا . وعلى الشرفة منصوب رشاش ، وتحت الشرفة يوجد آخر يستخدم فى حالة النفير . ومقابل نوافذنـا فى الطرف الآخر من الشارع يقع مقر الحراسة فى البيت الصغير . وعدد افراده ٥٠ شخصا . وجميع المفاتيح والفتاح رقم ٩ موجودة عند رئيس الحرس الذى يتعاملنا بشكل جيد . . . * وأمام المدخل تقف سيارة باستمرار . ومــن كل نقطة حراسة مد خط جرس الى رئيس الحرس واسلاك الى نفر الحراسة والنقاط الاخرى . . . اخبرونا متى ستحل الفرصة ، واجيبونا ، هل يمكننا اخذ جماعتنا معنا ؟

ولما لم تر اللجنة التنفيذية لسوفييت الاورال مخرجا من الوضع اتخذت قرارا فى نهاية اجتماعها المذكور فى ١٢ يوليو باعدام اسرة رومانوف دون انتظار محاكمتهم .

لم يعد بالامكان نقل الزوجين الى اى مكان ، كما لم تكن توجـد وسائط لنقلهما . وهكذا وصلت اليهما السنة الحريق الذى اشعلاه بنفسيهما . ومن يزرع الريح يحصد العاصفة .

تلك الليالى الثلاث

فى ١٢ يوليو عام ١٩١٨ . فى مبنى البنك ، عقد سوفييـــت الاورال جلسة برئاسة بيلوبورودوف . اجتمع منذ الصباح الباكر . وكانت مداخلات الخطباء حماسية . نقاشات حامية واحيانا صيـــاح وغضب . ففــى هذه الساعـــة يتقــرر مصيــر القيصر السابــق .

لقد صور هذا الاجتماع فى خيال بعض المؤلفين الغربيين بالوان شريرة سوداوية . فكتب احدهم ان جو الاجتماع كان «مليئا بدخان وحقد ، وخلفيته عاصفة غبار هائجة فى المدينة» .

كل ذلك من بنات الخيال . فقد كان الطقس صيفيا جميلا ، وفى اشعة الشمس الساطعة كانت الحدائــق والجنائـــن تزهـــو

* لا يقصد نيقولاى هنا افدييف ، وانمـا يوروفسكـــى الذى عين مسؤولا بدلا منه .

ومياه البرك والبحيرات تتلألأ بالقها ، وبدت المدينة القديمة كأنها لوحة بديعة فى اطار فضى .

اما كم دام الاجتماع فى قاعة البنك ، فلعل احدا من المجتمعين لا يستطيع معرفة ذلك بدقة . بعد منتصف النهار وقف بيلوبورودوف واعلن نتائج التصويت . واتخذت اللجنة التنفيذية قرارها بالاجماع . ووقع اعضاء هيئة الرئاسة على القرار .

وبرز سؤال : من سيكلف بتنفيذ القرار ؟ فأجاب الاجتماع العام : يكلف يوروفسكى ، قومندان الدار ذات الاغراض الخاصة ومساعده نيكولين . وبعد ثلاثة ايام يأتى حل عقدة الدراما العصيبة التى طالت اكثر من اللازم .

فى الساعة العاشرة والنصف ليلة السادس عشر من يوليو اخلدت اسرة رومانوف وخدمها الى النوم . وفى منتصف الثانية عشر قدم الى الدار اثنان مكلفان من سوفييت الاورال وطلبا من يوروفسكى البدء بتنفيذ الحكم ، وقدما له القرار الموقع من هيئة رئاسة اللجنة .

فى منتصف الليل صعد رئيس الحرس ومساعده ومجموعة من العمال المسلحين بصحبة ممثلى السوفييت الى الطابق الثانى . ودخل الدكتور بوتكين بأمر من يوروفسكى لايقاظ النائمين طالبا منهم النهوض وارتداء الملابس . وشرح رئيس الحرس لنيقولاى فى الممر : الجيوش البيضاء تهاجم ايكاتيرنيبورج ويمكن للمدينة ان تتعرض للقصف المدفعى فى اية لحظة . وعلى الجميع النزول الى الطابق الاول .

خرج الى الممر ، الواحد تلو الآخر ، افراد الاسرة القيصرية السبعة واربعة من الحاشية (بوتكين ، خاريتونوف ، تروب ، ديميدوفا) . وهبط الجميع درجات السلم خلف يوروفسكى ونيكولين . كانت هناك ثلاث وعشرون درجة بين الطابق الثانى والاول . وبعد ان ابتعدوا عدة خطوات عن السلم اجتازوا عتبة الحجرة الواقعة فى الزاوية والتى تشبه القبو . مساحتها ٦×٥ امتار . وقد لصقت جدرانها بورق مقطع على شكل مربعات . وعلى نافذتها الوحيدة المطلة على الزقاق وضع شباك حديدى .

بعدما دخل الجميع الغرفة ، تقدم الى الامام رئيس الحرس يوروفسكى الذى كان كذلك نائب مفوض العدل فى المقاطعة وسحب

من جيبه ورقة مطوية اربع طيات ، فتحها ، واعلن : يرجى الانتباه . سنقرأ عليكم قرار سوفييت الاورال لنواب العمال والفلاحين والجنود . . . وحالما انتهى من تلاوة الكلمة الاخيرة من قرار الحكم دوت الطلقات .

في الساعة الواحدة ليلا في ١٧ يوليو كان كل شيء قد انتهى . . . وفي عتمة الليل ومن خلف شباك النافذة المطلة على الزقاق يأتي ازيز محرك السيارة هادرا . . .

لقد تحقق هنا ما كان يحلم به عبر اجيال واجيال آلاف المناضلين في سبيل حرية روسيا الذين كانوا يتخيلون هذه اللحظة وهم يذوقون اشد انواع التعذيب ويواجهون الموت . . . وحدث ذلك الذي ارادوا رؤيته في الغد البعيد وهم مقيدون الى عربات الاشغال الشاقة او متسمرون بين جدران علب الموت الحجرية ، حيث تتأرجح اجسادهم على اعواد المشانق او تنزف دماؤهم تحت طلقات المنكلين .

لم يشأ الاورال تسليم افراد اسرة رومانوف الى الثورة المضادة احياء او موتى . قرر حرق جثثهم وذر رمادها في الموقع المسمى بالاخوان الاربعة .

الفصل السادس عشر

اقتفاء الاثر

موقع الاخوان الاربعة

في اليوم الذي خلت فيه دار ايباتييف كان قد مضى على بدء الحرب العالمية الاولى ١٤٥٦ يوما .

وفي هذا اليوم اعارت صحيفة «ماتين» الباريسية في استعراضها الدوري لمجريات الحرب العالمية ، وكذا الحرب الاهلية في روسيا ، اهتماما خاصا للوضع في منطقة ايكاتيرينبورج . وبعد ٤ ايام اخرى ، اي في يوم ٢١ يوليو عام ١٩١٨ ، نشرت «ماتين» ذاتها بين الصحف الغربية على الصفحة الثالثة وبحروف صغيرة وبشكل لا يلفت الانتباه – نبأ تحت العنوان التالي : «شائعات حول اعدام القيصر رميا بالرصاص» .

باريس . ٢٠ يوليو . وكالة جافاس : نشرت الحكومة السوفييتية الروسية نص برقية لاسلكية ، تشرح فيها ظروف وفاة الامبراطور السابق ، حسب المعلومات التي تلقتها الحكومة المذكورة من سوفييت الاورال . فنظرا لاعتزام قوى الردة لتحرير نيقولاي الثاني ، الامر الذي دلت عليه المؤامرة التي دبرتها ، وافتضح امرها الآن ، قرر سوفييت الاورال ما يلي : اعدام القيصر السابق رميا بالرصاص . وقد نفذ الحكم في يوم ١٧ يوليو .

وفي انجلترا ، كانت صحيفة «تايمس» ، اول من نشر هذا النبأ في يوم ٢٢ يوليو ، ومن ثم تلتها الصحف الاخرى . اما رجال الحركة البيضاء فقد علموا بنهاية الاسرة القيصرية في الايام نفسها تقريبا ، اي قبل احتلال ايكاتيرينبورج .

ففي يوليو لم تصمد قوى الدفاع الاحمر المتقهقرة نحو مشارف المدينة لكل وطأة الوضع . وانقطعت سلسلة المدافعين عن ايكاتيرينبورج التي كانت في تقلص مستمر . وكان مجرد الصمود في الخطوط الامامية مدة تزيد ٦–٧ ايام على ما كان متوقعا

يعتبر مأثرة فى ظل تلك القوى المنهكة . وفى صباح ٢٥ يوليو اندفع خيالة القوزاق البيض الى الضواحى الجنوبية عبر الثغرة التى احدثتها فى دفاع الاوراليين مدفعية هايدا (قائد قطاع ايكاتيرينبورج من الجبهة) وبذلك سقطت المدينة .

خف الضباط الذين ارسلهم هايدا الى دار ايباتييف . وكانت الطوابق خالية والابواب مشرعة . وتراكض فى الدار وباحتها ضباط دوتوف وضباط الصف من القوات التشيكية البيضاء ، وهم لا يعرفون ما الذى ينبغى عمله واين يجب ان يبحثوا عن آثار المختفين . فقد فتشوا كل زواية فى الحديقة والغابة خلف المحطة ، ومشطوا بواسطة الخطاطيف والشباك البرك المائية فى المدينة . وفى ٢٧ يوليو فقط ، وبعد حضور الملازم شيريميتييفسكى الذى كان قبل قدوم البيض يعيش فى كوبتياكى سرا ، سمعوا منه لاول مرة عن موقع الاخوان الاربعة .

طلب هايدا التأكد من صحة الخبر . وشرعوا فى البحث فى المناجم المتروكة . وصدرت الاوامر بضخ المياه من المناجم ، وفحص الحفر والبرك . اما الناس اللازمون للقيام بكل ذلك فقد جرى جمعهم بالقوة من شوارع المدن والقرى المجاورة فى وضح النهار .

وفيما استمرت اعمال التحرى فى الاحراج والمستنقعات جرى التحقيق فى اقسام مكافحة التجسس باستعمال وسائل التعذيب . وراح اعوان سيرجييف يجوبون ايكاتيرينبورج وألابايفسك ، بصحبة دوريات من القوزاق البيض ، ويعتقلون ويزجون فى زنزانات التعذيب كل من كان له ادنى صلة بالاحداث الاخيرة التى شهدتها دار ايباتييف ومدرسة نابولنايا . واخذ شبح الموت يحوم فوق بيوت العمال فى ألابايفسك واكواخ الفلاحين فى كوبتياكى . وصادر سيرجييف «دفاتر تسجيل العاملين» الادارية فى المصانع والمعامل . واستعان بها وبرجال الامن فى وضع قوائم باسماء الذين يتعين القبض عليهم من نشطاء السوفييتات والنقابات وافراد الوحدات التى كانت مكلفة بحراسة دار ايباتييف ومدرسة نابولنايا ، وبالدرجة الاولى اولئك الذين حسب معلومات استخبارات البيض قاموا بحراسة هاتين المنشأتين وشاركوا فى تنفيذ القرارات . وقد تم البحث عن جميع من جاء ذكرهم فى هذه الدفاتر ، واعدموا فى اماكنهم بمجرد القبض عليهم .

كما انضم الى المحققين والجلادين من الحرس الابيض ، العقيد كوبيلينسكى الذى تمكن ، بعد ان نفى من ايكاتيرينبورج فى مستهل يونيو ، من الوصول الى تيومين وانتظار البيض هناك . وعلى اثره ظهر جيليار وجيبس ايضا .

وراح هذان يتجولان فى الدار ويبحثان ، ولكنهما طردا من هناك بعد بعض الوقت ، دون اية مجاملة .

ومن ثم فقد احتل دار ايباتييف هايدا نفسه ، ونزل فى نفس الغرفة التى شغلها القيصر السابق حتى يوم ١٦ يوليو .

اما سيرجييف فقد واصل التحقيق حتى وقت متأخر من خريف عام ١٩١٨ ، عندما طلب منه وثائق التحقيق كولتشاك ، الذى نصب نفسه «حاكما اعلى لروسيا» .

واذ كان يتوقع الانتصار القريب على البلاشفة ، اراد تدبير محاكمة يقدم اليها المشاركين فى «تلك الليالى الثلاث» فى ايكاتيرينبورج وبيرم وألابايفسك . وكان الجنرال يبغى ، من خلال اجلال شخص نيقولاى الثانى ، ان يؤكد ، اولا ، عقيدته كنصير للثورة المضادة ، وعودة النظام القيصرى ، وثانيا ، صلة التوارث بين سلطته والنظام القيصرى . ففى ٣٠ ديسمبر ١٩١٨ اكد ستارينكيفيتش وزير العدل فى حكومة كولتشاك ، فى برقيته المعنونة الى مجلس الحلفاء فى باريس ان «الادميرال يلجأ ، فى الوقت الراهن ، الى جميع الوسائل المتوفرة فى حوزته من اجل انزال العقاب بالمسؤولين عن مقتل القيصر» .

وفى ١٧ يناير عام ١٩١٩ استدعى الجنرال ديتريخس الذى كان يسمى عنده «القائد العام للجبهة السيبيرية» وكلفه بالتحقيق فى قضية اعدام افراد اسرة رومانوف . وفى ٢٥ يناير وبحضور يوردانسكى سلم سيرجييف الى ديتريخس مواد التحقيق التى تمكن من جمعها خلال الفترة من يوليو ولغاية ديسمبر . وفى ٢ فبراير رفع ديتريخس تقريرا الى كولتشاك عن هذه المواد ، وضمنه استنتاجاته . وفى ٤ فبراير امر كولتشاك ، بعد ان ذكر ان نتائج التحقيق «غير مرضية ابدا» «ببدء كل شىء من جديد» . وفى ٥ فبراير قدم ديتريخس وستارينكيفيتش الى كولتشاك المدعو نيقولاى سوكولوف ، الموظف فى دائرة الادعاء العام المحلية ، واوصيا به محل سيرجييف .

سوكولوف يستشرس

وقع المظهر الشرس والبارد الذى ميز محسوب ديتريخس وقعا طيبا فى الادميرال منـذ النظرة الاولى . ولم يلبث ان وقـع فى ٦ فبراير امر تعيين سوكولوف كبير المحققين .

لم يقدم سوكولوف على تكرار مـا قام به سيرجييف ، ولـم يعتزم تصحيح المواد السابقة او اضافة تفاصيل اخرى اليها ، بـل بدأ مـن الصفر تماما ، كما امره بذلك الادميرال . ومنذ تلك اللحظة وحتى آخر ايامه ، اى حتى القبر ، اصبح التحقيق همه الوحيد فى الحياة . ولا يكف ويلتون هنا عن ابداء اعجابه بتلك «الشجاعة والمثابرة» اللتين ابداهمـا سوكولوف اثناء تعمقه فى جمع المواد للمحكمة المقبلة .

فقد راح المحقق الابيض الذى تمتع بصلاحيات خاصة فى جميـع الاراضى الروسية الواقعة آنذاك فى قبضة البيض ، يصدر الاوامر باجراء التحريات والاعتقالات . وهو لا يخضع فى ذلـك لاحـد عدا الادميرال ديتريخس : مطلباته الزامية بالنسبة لجميع سلطات البيض ، بمن فيهم قواد الجيوش . وقد وضع قائمة سوداء باسماء ١٦٤ شخصـا «فى هذا الجانب او ذاك من الجبهة» وارسلها الى مقرات قيادة الجيوش ودوائـر الاستخبارات المضادة وارفقها بتعليمات تقضى «بمواصلة البحث والاعتقال والتسفير اليه ما يتم التقدم» . وكان هو بمفرده يقرر امر موت او حياة كل من يقبض عليه بشكل عفوى او غير عفوى .

وهكذا فقد انتفخت بالوثائق والمحاضر الملفات التى فتحها ، وتكدست رزم «الاعترافات» و«التوبات» . . . وعاد من جديد انين المعذبين ليطفى على جو ايكاتيرينبورج وبيرم والاپايفسك والقرى والبلدات المجاورة . من انفلت من يدى سيرجييف ، وجد حتفه عنـد سوكولوف . كمـا تعرض للتعذيب اثناء التحقيق معه ونجا من الموت باعجوبة ايباتييف صاحـب الدار . والقى القبض على ساموخفالوف سائق السيارة التى اقلت ثلاثة مـن آل رومانوف فى يوم ٣٠ ابريل عام ١٩١٨ من المحطة الى دار ايباتييف واعدم بعد ان عذب . واعدم ايضا ميخائيل ليتيمين الجندى السابـق فى وحدة الحرس والذى عثروا فى بيته على الكلب جوى – كلب ولى العهد ، وهو من صنف السبانييل . كمـا دفعوا حياتهـم ثمنـا ، المصلحون الذين قاموا باصلاح الاسلاك الكهربائية فى حجرات اسرة رومانوف ، والبرادون الذيـن اصلحوا انابيب المياه فى البيت ، وعمال المطعم الذين جهزوا وجبـات الغذاء لاسرة رومانوف ، والعاملون فى مخازن الاغذية الذين موثوا الاسرة القيصرية بالمواد الغذائية ، وجيران ايباتييف لاستراقهم النظر عبر شقوق السياج ومراقبتهم من الرصيف المقابل كيف شيد الحرس السياج . . .

مر الصيف الثانى والبحـث فى موقع الاخوان الاربعـة باستعمـال

الخطاطيف والكلاليب والمضخات . ومشطت مساحات واسعة من الغابات ، وضخت المياه من ٢٩ منجما .

لم يترك الباحثون موقع الاخوان الاربعة الا بعد ان لاح الخيالة الحمر على مشارف غابة كوبتياكى . وكانت هذه طلائع لاحدى كتائب الجيش الاحمر التى شنت صيف عام ١٩١٩ حملة مضادة ناجحة فى الجبهة الشرقية . وبعد اسبوعين من المعارك الضارية ، دخلت القوات السوفييتية مدينة ايكاتيرينبورج فى ١٤ يوليو ، ثم المدن والقرى السيبيرية الاخرى .

ولكن الحملة الصليبية العسكرية والدعائية التى شنها ضد البلاشفة زعماء دول الائتلاف استمرت . فالى جانب التجهيزات والمؤون البائرة التى تلقاها فارسان جديدان من فرسان هذه الحملة – بيلسودسكى وفرانجل ، شهدت بورصة التدخل الغربية ، اقبالا كبيرا على الخرافات التى لفقت بصدد اهوال البلشفية . وتلبية لهذا الطلب ، تنافس بعضهم مع البعض الآخر «المعذبون» من رجال الحرس الابيض الفارين ، فى عرض بضاعتهم هذه . وبنغمة واحدة مع هذه الشلة اعلن سوكولوف انه استنادا الى التخويل الموقع بامضاء «الحاكم الاعلى» – والصحف الصفراء تروج مزاعمه – سوف «يستأنف التحقيق فى قضية قتل القيصر» . وبما ان كوبتياكى باتت الآن بعيدة عن متناوله ، فهو مضطر الى تركيز اهتمامه على الشهود القريبين منه حاليا ، ويزمع تنظيم سلسلة من الاستفسارات بين زملائه فى المهجر وقبل كل شيء زعمائه . فدع اصحاب السعادة والمعالى يفضحون كيف انهم اذنبوا بحق القيصر الراحل وكيف تركوه ، دون حماية مناسبة ، تحت رحمة القدر . اما «كبير المحققين» فقد كان يثبت ويسجل المحاضر ، وينفق انضاد الورق ويسود مئات الصفحات وينظم المقابلات الشخصية والفحوصات ، لتنتفخ الملفات الجديدة فى الاضبارات القديمة .

وقد مثل امام سوكولوف خلال الاعوام ١٩٢٠–١٩٢٢ وادلى له باقوالهم كل من لفوف وكيرينسكى وماكلاكوف وجوركو وكريفوشيين ونيدجاردت وتريبوف والمدير السابق لمصلحة البريد والتلغراف بوخفيسنيف وماركوف الثانى ، ونائب كيرينسكى السابق فى وزارة العدل بيريفيرزيف ، وزعيم حزب الكاديت ميليوكوف (مرتين) . واضافة الى اولئك ادلى بافادته ايضا كل من الوصيفة فيروبوفا ، والاميرة براسوفا (شيريميتييفسكايا) ،

وقومندان القصر فوييكوف ، والجتمان السابق الجنرال سكوروبادسكى ، ووزير الحربية السابق سوخوملينوف ، ووزير الحربية والبحرية السابق فى التشكيلة الاولى من الحكومة المؤقتة جوتشكوف ، والرئيس السابق لمجلس الدوما رودزيانكو ، وشولجين ، والاب الراهب ايليودور ، والملازم سولوفيوف ، والامير الكبير دميترى رومانوف ، والامير يوسوبوف ، وراقصة الباليه كشيسينسكايا . فكل هؤلاء شاركوا نزولا للاشعار الذى وقعه كولتشاك بخصوص عملية سوكولوف الرامية الى كشف «اسرار هلاك السلالة» ، على الرغم من ان ذلك لم يكن سرا كبيرا فى الحقيقة . لقد سقوا روسيا كأس الهوان حتى الثمالة ، لذا لم تتوان روسيا فى اللحظة التاريخية المناسبة التخلص من سلطة القيصر ومنهم .

الفصل السابع عشر

امام التاريخ

ما كان يسترعي انتباه القيصر

كان الصقيع في ديسمبر قارصا . وقد انخفضت درجة الحرارة في الطابق الثاني ايضا ، فهي لم تكن تتجاوز العشر درجات مئوية فوق الصفر . ما عدا غرفة الكسي التي حرص على تدفئتها الجنود بشكل افضل . وكان القيصر السابق يجلس في الصباح الزمهريري في مقعده ملتحفا بمعطف عسكري . وكان يقرأ بشغف . ولكنه تحاشى ان يكتشف افراد اسرته ، اهتمامه بهذا الكتاب .

وفي هذه الايام ظهرت في دفتر يومياته الجمل التالية : «شرعت بمطالعة «العام الثالث والتسعون» لفيكتور هيجو» . . . «اواصل قراءة رواية هيجو التاريخية» . . . «انتهيت من قراءة الجزء الاول من «عام ١٧٩٣» . . . انتقلت الى الجزء التالي من رواية هيجو المدهشة والمريعة» . اضافة الى عدة ملاحظات من هذا القبيل .

وفي وقت لاحق روى الملازم ماليشيف الذي عثر على هذا الكتاب قائلا : كانت الهوامش تزخر بكتابات دونت بقلم رصاص ، وبعض السطور والفقرات والصفحات مؤشر عليه . اذن فهو قد طالع باهتمام واشر الاماكن المهمة التي اثارت اهتمامه على ما يبدو .

وقد شدد هو على السطور التالية من الرواية : «**هذا الانسان تحت سلطاننا» . . . «يد الثورة انهالت على قابيل . ويد عام ٩٣ تمسك بقوة بتلابيب القاتل» . . . «دقت الساعة ، والقت الثورة بعدو المجتمع في الاسر . ولم يعد بمستطاعه بعد الآن ان يضره»** .

فهل رأى نفسه هنا ؟ او ربما رأى جنراليه – كورنيلوف ودينيكين – اللذين سينقذانه ؟

فهو من ليلة الى اخرى لا يكف عن انتظار المتآمرين الذين يتراؤون له ، ليدفعوا الموت عنه . او ، لعلهم ، سيرأفون به ؟

كما استأثرت باهتمامه السطور التالية : «**باية همة سيقبل هو من جديد على سابق عمله» . . . «وباية بهجة سيغوص من جديد في لجة الحقد والحرب» . . . «وباية متعة سيتمتع ناظريه في اليوم**

التالى ، برؤية الاكواخ الملتهبة والاسرى الصرعى والجرحى الذين اجهز عليهم ، والنساء اللواتى اعدمن رميا بالرصاص» . . .

«فهم بعد ان يرافوا به ، سيضطرون الى بدء كل شىء من البداية . . . لان الهيدرا تبقى هيدرا ، ولانه لن يهدأ حتى يتسنى له ان يضع البلاد تحت شاهد قبر الملكية» . . . «وحياته هى موت الآلاف والآلاف من الناس الابرياء الذين ابتلعتهم دوامة الحرب الاهلية . . . وهى المدن المباحة والشعب المعذب ، وبريتان المضرجة بالدماء – الفريسة التى وقعت من جديد بين مخالب الوحش الكاسر» .

فهل خطر لاسير توبولسك ، يا ترى ، بان رحلته من تسارسكويه سيلو نحو الشرق ، ستنتهى بالنسبة له فى آخر المطاف ، فى دار ايباتييف ؟ وهل كان بوسعه ان يتصور ان منصة اعدام تعد له فى مكان ما ؟ نعم كان – كان من خلال تعمقه فى صفحات رواية هيجو .

«والآن فهو قد وقع . . . وانه هنا ، هذا القاتل ، بعد شهور طويلة من الضرب المبرح والمذبحة ، وقد حان الآن دوره ، ليذوق الموت . فهل سترتفع بعد كل ذلك ، يد واحدة لانقاذه ؟»

«لم يعد هناك الا سبيلان فقط للتعامل مع هذا الانسان . اما ان يقتل او ان يطلق سراحه . ولكن ان يقتل ؟ هو عذاب اليم . وان يطلق سراحه ؟ مسؤولية كبيرة» .

اننا قد لا نجد هنا اى تناظر مباشر . بل ولا يمكن ان يكون . فالعصر مختلف . والبلد ايضا . والمجابهة والصراع تدوران بين قوى اجتماعية وطبقية مغايرة . ومغايرة هى ايضا شعاراتها واهدافها التاريخية – انها متباينة ولا مجال لمقارنتها تقريبا . . . ومع ذلك . . . فالمؤلفون الغربيون الذين يكتبون عن نهاية آل رومانوف يؤكدون عادة انه لم يكن بمقدور احد منهم ان يتصور مثل هذا المصير المشؤوم ، ويدعون ان هذه النهاية وكل ما سبقها فاجأت نيقولاى وكان لها وقع الصاعقة عليه ، وانه ليس هناك اية صلة بين تصرف القيصر والنهاية التى انتهى اليها فى ايكاتيرينبورج . ويزعمون ان نيقولاى وقع ضحية بريئة لتقلبات الدهر ، وانه كان عاجزا شخصيا عن التنبوء بها ، ولم يكن بقربه من يستطيع تحذيره .

وهذه ادعاءات كاذبة . فقد فوتح نيقولاى باحتمال مثـــل هذه النهاية . وحذروه من ان حكمه قد يؤدى به الى داهية ، بل ويكلفه رأسه .

فقبل عشر سنين من النهاية فى ايكاتيرينبورج ، حرر كريفوشيين مذكرة الى القيصر يحذره فيها من الغليان داخل الامبراطوريـــة . وبغية اقناعه ، ذكره بالظروف التى افضت بلويس السادس عشر الى منصة الاعدام . اما نيقولاى فاحال المذكرة الى مجلس الدولـــة بعد ان ذيلها بالخلاصة التالية : «اعارتها اهتماما خاصا» . ومن ثم ذكر السناتور فريشو ذات مرة قائلا : «ان كريفوشيين دأب فى تقريره على جمع مختلف الترهات» .

ولكن «ترهة» السابقة الفرنسية الشهيرة ما لبثت ان فرضـــت نفسها فيما بعد غير مرة . ففى حفل راقص اقيـــم عنـــد السفير مونتيبيلو فى يوم خودينكا اقبـــل الجنرال بوادوفر نحو القيصر . وتكلم الجنرال اثناء ذلك بلهجة واعظـــة قائلا : «هذه الاحداث المشؤومة تقع فى كل مكان . . . مثلا عندنا ، فى فرنسا ، اثنـــاء تتويج لويس السادس عشر» . . . ولم يكمـــل . . . فقـــد شعر بزمهرير قطبى من الفزع يخيم حوله ، الامر الذى جعله يبتلع نهاية الجملة» .

وقبل ١٦ عاما من النهاية فى ايكاتيرينبورج اهاب ليف تولستوى بنيقولاى الثانى ان يصحى الى نفسه وان يفكر بالعواقب التى تهدده شخصيا جراء ما يرتكبه هو وحكومته . ونصحه الكاتب ان يفكر فى امر سلامته .

وعلى حد ذكر الكسنـــــدر بلوك ، ان محبوب القيصر الادميرال نيلوف قال وسط افراد الحاشية وهو يقف على بعد بضع خطوات عنه : «اذا قامت الثورة فسوف نشنق جميعا ، والامر سيان عندى ، على اية اعمدة» .

كتب الى القيصر قبل ١٨ شهرا من ايكاتيرينبورج قريبه الامير الكبير الكسندر ميخائيلوفيتش : «نحن نعيش اخطر ظروف فى تاريخ روسيا . وان ثمة قوى خفية تدفعك الى حتفك المحتوم» .

وقبل ١٧ شهرا من ايكاتيرينبورج ، اى فى فبراير عام ١٩١٧ ، واثناء استقبال اقيم عند نيقولاى الثانى ، نصحه رودزيانكو قائلا :

– انقذوا نفسكم يا صاحب الجلالة . فنحن على اعتاب احداث

ضخمة لا يمكن التنبؤ بنتائجها . ان ما تفعلونه وحكومتكم يثير حفيظة السكان الى حد يمكن ان نتوقع معه كل شيء .

هذا وقد دأب الشعب منذ الايام الاولى لقيام الثورة على المطالبة باستتباب العدالة . وعمل من اجل ان يُقدم آل رومانوف الى القضاء . وبالتالى فقد حقق بغيته ، وسمى بنفسه القضاة .

وقد حل هؤلاء القضاة من حرس الثورة ، قضية ازالة آل رومانوف عن طريق روسيا الساعية الى مستقبل افضل ، بكل شجاعة وبسالة ، على الرغم من تحركهم فى طوق من النار ومجابهتهم حشود الاعداء .

اما الاعداء فكانوا يقولون عن النهاية فى ايكاتيرينبورج ما يلى :

– هذا غير ممكن الا فى روسيا . . . وهذا لا يمكن ان يفعله احد الا البلاشفة .

ترى لعل هناك حاجة للتذكير هنا بمصير لويس السادس عشر فى فرنسا ؟ او لسوق الامثلة التاريخية الاخرى التى اصدر الشعب الثائر خلالها حكمه الصارم بحق مستعبديه ؟

الجزاء من جنس العمل

اجل ، ان نهاية اسرة رومانوف كانت مروعة . ولكن كما قيل ذات مرة ، ان فظاعة موتهم تتضاءل امام اهوال حياتهم . وكما يقال : الجزاء من جنس العمل . ومع ذلك فقد امعنوا فى غيهم ، فتلقوا الجزاء العادل .

ان الهيئة التى اصدرت الحكم على اسرة رومانوف هى سوفييت نواب العمال والفلاحين والجنود فى الاورال الذى ترأسه البلاشفة . على ان السوفييت لم يقتصر على البلاشفة وحدهم . ووقفت وراءه جماهير غفيرة من اناس العمل لا فى الاورال وحده ، بل فى جميع انحاء روسيا المترامية الاطراف . وان القرار المؤرخ فى ١٢ يوليو عام ١٩١٨ كان قرارا املته ارادة الجماهير الشعبية التى هبت لخوض الكفاح الثورى من اجل التحرر من نير النظام القيصرى . ولم يقم البلاشفة سوى بتنفيذ مطلب الشعب العادل الذى طرح فور الاطاحة بالنظام القيصرى الاستبدادى .

وهذا القول الاخير اكده كيرينسكى . فعلى حد قوله ، انه عندما

طلع على منبر سوفييت موسكو بعد ٥ ايام من تنازل القيصر ، تصاعدت من جميع الجهات الهتافات المطالبة باعدام القيصر السابق . «وقد قلت شخصيا فى ٧ (٢٠) مارس فى جلسة سوفييت موسكو ، ردا على الهتافات الغاضبة «الموت للقيصر ، اعدموا القيصر !» : لن يحدث هذا ابدا ما دمنا فى السلطة . فالحكومة المؤقتة اخذت على عاتقها مسؤولية ضمان سلامة القيصر واسرته . ونحن مصممون على الوفاء بهذا العهد حتى النهاية . اما القيصر فسوف نعمل على تسفيره مع اسرته الى الخارج ، الى انجلترا . وسأرافقه بنفسى الى مورمانسك» . وبعد : «اعدام نيقولاى الثانى ونقل اسرته من قصر الكسندروفسكى الى قلعة بطرس وبولس او كرونشتادت — هما المطلبان الغاضبان بل والحانقان اللذان طرحهما المئات من مختلف المندوبين والوفود الذين أتوا الى مقر الحكومة ، والقرارات التى تلقتها الحكومة ، لا سيما انا ، باعتبارى المشرف والمسؤول عن حماية الاسرة القيصرية وضمان امنها» .

وقد اكد كيرينسكى لسوكولوف فى المهجر ما يلى : «ان امزجة الجماهير الهائجة من الجنود وعمال احياء بتروغراد وموسكو كانت فى منتهى العداء لنيقولاى . وتعالت المطالب الموجهة نحوى شخصيا ، باعدامه . وقد قلت فى سياق احتجاجى باسم الحكومة المؤقتة على هذه المطالب واصالة عن نفسى ، بانى لن اقدم ابدا على اداء دور مارات . وقلت ان ذنب نيقولاى بحق روسيا يجب ان يكون موضع نظر محكمة محايدة . اما قوة الحقد لدى الجماهير العمالية فكانت متأصلة عميقا فى امزجتهم . وادركت ان الامر هنا لا ينحصر فى شخص نيقولاى الثانى بقدر ما هو يتعلق بفكرة القيصرية التى تثير مشاعر الحقد والانتقام» . واضاف انه لو لم يجر ارسال افراد اسرة رومانوف الى توبولسك «فلقوا حتفهم فى تسارسكويه سيلو بشكل لا يقل فظاعة ، ولكن قبل عام تقريبا» .

وعلى هذا النحو نرى ان مشاركا فى الاحداث يركن اليه فى الحالة هذه ، يؤكد بان عقاب الموت كان يهدد اسرة رومانوف حتى فى تلك الايام التى كان فيها البلاشفة بعيدين عن السلطة ، وفى الوقت الذى كانت فيه الاسرة القيصرية لا تزال تتمتع بحماية كورنيلوف وكوبيلينسكى ، ورعاية رأس السلطة آنذاك كيرينسكى .

صحيح ، ان جذور الموقف الحاقد الذى وقفته الجماهير الشعبية من القيصر السابق كانت تمتد عميقا ، وان القيصرية كانت مثار مقت الجماهير . ولكن من الواضح ايضا بطلان المحاولات الرامية الى وضع حد فاصل بين شخص نيقولاى والنظام القيصرى . اما «مشاعر الحقد والانتقام» التى تنسب الى جماهير العمال فما هى الا تخرص بالطبع . فهذه الانفعالات والدوافع لم تميز الجماهير وانما آل رومانوف بالذات . وان ما كان يحدد موقف الشعب نحو السلالة البائدة ، هو ليس التعطش الى الانتقام ، وانما السعى — الواعى او العفوى — الى صيانة الثورة ، وقطع دابر القيصرية ، ودرء خطر بعثها من جديد .

وكان هذا الخطر ماثلا بالفعل . فالجيوش البيضاء كانت تحت قيادة ضباط قيصريين وعلى رأس «الحركة البيضاء» اناس اعلنوا صراحة ان هدفهم هو عودة القيصر ، بل وحتى افراد اسرة رومانوف كانوا يؤمنون بان الجيوش البيضاء والمتدخلة ستمكنهم من استرجاع العرش . بيد ان رجال الحرس الابيض انفسهم لم يكونوا فى الواقع قد قرروا بعد ايا من افراد السلالة يستحسن تنصيبه قيصرا . ذلك ان شخص نيقولاى الثانى كان ممقوتا للغاية . اما اكثر الذين ترددت اسماؤهم فى معسكر البيض فهم : اخو القيصر ميخائيل وعمه نيقولاى نيقولايفيتش وابنه الكسى . وقد شكل الاخير ، بالنظر لبراءته شخصيا من جرائم القيصرية الدموية ، اشد الاخطار الممكنة على الثورة .

اما بخصوص سمعة نيقولاى الثانى فقد كانت معروفة واكثر . . . ففى عهد حكم آخر قيصر من سلالة آل رومانوف ، كما كتب مكسيم جوركى ، هلك من الشعب الروسى اكثر مما «فى حروب القرن التاسع عشر كافة . وقد فاق السلطان عبد الحميد الذى ذاع صيته قبله ، وطغى على شهرته الدموية . . . هذا القاسى وغير الآبه باى شىء عدا نفسه وحياته ، فلتكن هذه الحياة كئيبة دوما ومليئة بفزع الموت وتعذيب الضمير» . ولكن خلافا لهذا الدعاء النابع من صميم التألم لروسيا ، لم يلاحظ احد على نيقولاى ما يوحى بتعذيب الضمير ، اما بخصوص فزع الموت ، فهو لم يذقه الا للحظة خاطفة لدى تلاوة الحكم عليه .

والجدير بالذكر هنا ، ان السلطة السوفييتية ما كانت لتعتزم

فى البدء اصدار مثل هذا الحكم . فهى نبذت منذ الايام الاولى لانبثاقها فكرة العقوبة القاسية . وحينما كانت الظروف والشروط تضطرها الى الاستعانة بالمحاكم الثورية ، كانت تطلق اخف الاحكام ، بل تقتصر على احكام رمزية فى احيان كثيرة . وفى الفترة الاولى التى اعقبت انتصار الثورة البروليتارية لم تصدر احكام بالاعدام بتاتا . فقد كانت القاعدة المبدئية هى الانضباط الانسانى ورحابة الصدر . وكان يكفى للعدو الذى ضبط متلبسا ، ان يعد السلطة السوفييتية بانه «لن يكرر ذلك من بعد» وانه يمتنع عن محاربة السلطة السوفييتية حتى يتم اخلاء سبيله .

وقد اشار لينين فى نوفمبر عام ١٩١٧ قائلا : «انهم يلوموننا على استخدام الارهاب ، ولكن الارهاب الذى استخدمه الثوار الفرنسيون الذين ارسلوا العزل الى المقصلة ، نحن لا نستخدمه ، وآمل باننا لن نستخدمه» * .

كما اكد فيليكس دزيرجينسكى ان الروح الانسانية ورحابة الصدر والانضباط هى جزء لا يتجزأ من السلطة السوفييتية . وقد جاء فى تعليماته الموجهة الى اجهزة الامن فى عام ١٩١٨ ، ما يلى :

ان مداهمة المسلحين للشقق الخاصة ومصادرة حرية المذنبين هما شر لا يزال علينا استخدامه من اجل اعلاء الخير والحقيقة . ولكن علينا الا ننسى دوما ان ذلك شر وان مهمتنا ان نعمل من خلال استخدام هذا الشر ، على استئصال ضرورة اللجوء الى هذه الوسيلة فى المستقبل . ولهذا فعلى كل اولئك الذين كلفوا باجراء التحريات ومصادرة حرية الاشخاص وايداعهم السجن ان يعاملوا بحرص الناس الذين يقبضون عليهم ويتحرون عنهم ، وليتحلون بقدر اكبر من المجاملة حتى مع اقربائهم ، وان يتذكروا بان المعتقل محروم من امكانية الدفاع عن نفسه وانه تحت رحمتنا . وعلى كل واحد ان يتذكر بانه يمثل السلطة السوفييتية – العمال والفلاحين ، وان كل صرخة وكل بادرة فظة ورعناء وجاهلة ، انما هى وصمة على صفحة السلطة هذه .

ولكن سلطة العمال والفلاحين التى رفضت مبدئيا ومنذ البداية الارهاب والاعدام كوسيلتين للنضال ، كانت مضطرة الى الاستعانة بمثل هذه الطرق من اجل الا تدفع ثمنا فادحا – اى وجودها ، لقاء رحابة صدرها . ففى ١٤ يناير عام ١٩١٨ دعا لينين العمال والجنود

---

* لينين . المؤلفات الكاملة ، المجلد ٣٥ ، ص ٦٣ .

فى بيتروغراد الى ادراك واقع انهم «يجب الا ينتظروا المساعدة من احد غير انفسهم» فى الصراع الدائر ضد الثورة المضادة الزاحفة . وفى ٢١ فبراير من العام نفسه ، وبعد ان اتضحت نوايا الضباط الالمان بالزحف على بيتروغراد ، اتخذ مجلس مفوضى الشعب برئاسة لينين مرسوم : «الوطن الاشتراكى فى خطر !» وقد جاء فى البند الثامن منه ما يلى : «ينفذ حكم الاعدام بعملاء العدو والمضاربين واللصوص والمشاغبين ومحرضى الثورة المضادة والجواسيس الالمان فى مكانهم رميا بالرصاص» .

ولكن حتى صيف عام ١٩١٨ اى حتى احداث ايكاتيرينبورج لم تشهد روسيا السوفييتية عموما ، الا حالات نادرة من الحكم بعقوبات صارمة . فالسلطة السوفييتية كانت تتحاشى ، فى سياق صيانة امنها من هجمات الاعداء ، اللجوء الى الاجراءات القصوى ، مثل الاعدام . بيد ان بعض المجموعات السياسية «الثورية المتطرفة» التى اقبل زعماؤها من ثم ، على اختلاق مختلف الخرافات حول «وحشية البلاشفة» ، كانت تتخذ على هذا الصعيد موقفا مغايرا . مثلا ان الاشتراكيين-الثوريين اليساريين طالبوا على لسان زعيمتهم ماريا سبيريدونوفا «بالحق» الفوضوى فى ممارسة الاعدام دون تحقيق او محاكمة . وفى معرض ردة على هؤلاء اثناء المؤتمر الخامس لسوفييتات عموم روسيا ، قال سفيردلوف فى ٥ يوليو (اى قبل ١١ يوما من اعدام اسرة رومانوف) : ان الاشتراكيين-الثوريين اليساريين يعارضون احكام الاعدام التى تصدرها المحاكم . ولكنهم يسمحون بممارسة الاعدام دون محاكمة . وهذا هو وضع غير مفهوم بالنسبة لنا ، ايها الرفاق ، وغير منطقى ، كما يبدو لنا . . . والى جانب ذلك لاحظ سفيردلوف اثناء دفاعه عن مبادئ الشرعية الثورية والقضاء البروليتارى المنظم ضد اهداف الاشتراكيين-الثوريين اليساريين والفوضيين الرامية الى التعسف «العاطفى» . لاحظ بان الثورة قد تضطر السلطة السوفييتية فى سياق تطورها بالطبع «الى مجموعة كاملة من تلك الخطوات التى ما كانت تلجأ اليها ابدا فى فترة التطور السلمى وحقبة النمو العضوى الهادئ» .

ولما كانت قد تبددت جميع الاوهام بشأن الهدف الذى يقصده البيض من وراء استعجالهم فى الوصول الى دار ايباتييف ، وبشأن ما ستكون عليه تصرفات اسرة رومانوف فى حالة وقوعها فى ايدى

قوات المتدخلين والقوزاق البيض ، اتخذ سوفييت الاورال قرارا جذريا ، كان القرار الوحيد الممكن فى تلك الظروف .

وعبثا يدعى كيرينسكى وكأن «الامر لا يكمن فى شخص نيقولاى ذاته» . فالشعب فى سياق دعوته الى العدالة الثورية طالب قبل كل شيء بالتكفير عن الجرائم التى ارتكبها القيصر والنظام القيصرى . والحكم الذى صدر فى الاورال لم يكن تنديدا نظريا وتجريديا ، بل كان حكما على آل رومانوف لقاء مجمل الجرائم التى اقترفوها . وقد جسد المطلب القديم الذى كان ينادى به جميع اناس العمل فى البلاد .

ما تزرع . . .

كتب شولجين الذى هو احد ايديولوجيى سلالة آل رومانوف متذكرا ايام فبراير :

«نحن مقتنا هذا الشعب وسخرنا من سخطه المزدرى . . . فما استحقه ابناءه هو ليس الحرية وانما زفات الرصاص والاعدامات . . .

فالرشاشات هى ما كنت اريد رؤيته ، لانى احسست بان لغة الرشاشات هى اللغة الوحيدة التى يفهمها الرعاع ، وان الرصاص وحده هو الذى بمقدوره ان يعيد الوحش المنفلت الى جحره . . .

ان نيقولاى الاول شنق ٥ ديسمبريين . ولو اعدم نيقولاى الثانى بالرصاص ٥٠ الف «فبرايرى» لكان ذلك ثمنا بخسا لانقاذ روسيا . . .» .

اذا لعلع الرصاص سلمت روسيا ، واذا لم يلعلع فهى هالكة . انها صورة مجسمة لموقف القيصر من الشعب بالتأكيد .

لقد كانت جرائم القيصر لا تعد ولا تحصى . وذنبهم تجاه البلاد اكبر من ان تحده حدود . وقد اشار الى ذلك لينين فى «رسائل من بعيد» التى كتبها قبل عودته من المهجر . اذ ذكر ان الاحداث قد كشفت امام العالم بأسره كل «تعفن ونذالة ووقاحة ودعارة العصابة القيصرية» و«كل ضراوة آل رومانوف – هؤلاء القتلة الذين اغرقوا روسيا بالدماء . . .» فمن اجل الحفاظ على سلطتهم وامتيازاتهم واقطاعياتهم الشاسعة من الاراضى وغيرها من «الملكية المقدسة» ، كان هؤلاء «الاوائل بين اندادهم» من الاقطاعيين الروس مستعدين ليقدموا بل واقدموا على ارتكاب «جميع الاعمال الوحشية وجميع الجرائم وعلى خنق اى عدد كان من المواطنين» الذين شاءت

الاقدار لهم ان يكونوا تحت سلطة النظام القيصرى» * .

كثيرون هم الذين نددوا بآل رومانوف . بل وتنبأ لهم بالعقاب حتى اناس غير ثوريين . فقد كان ليف تولستوى الذى عرف بتبشيره بعدم مقاومة الشر ، يتخلى ، اذ يفضح القيصرية ، عن مسلماته المسيحية بشأن التسامح الشامل . ومع انه دعا الى تخليص الناس من «فظاعة الاعدام» ، الا انه كان على استعداد لاستثناء القيصر من ذلك .

واعترف تولستوى فى حديث له مع ماكوفيتسكى (١٨ مايو عام ١٩٠٥) بان الاقوال والاصداء الحادة عن القيصر كانت فى السابق تثير نفوره ، اما الآن فمن المتعذر العثور على كلمة بتلك الحدة التى استحقها نيقولاى ومن لف لفه . وقال الكاتب انهم يعتبرون القيصر «شخصا مقدسا» ، ولكن «يجب ان يكون المرء احمق او شريرا او مجنونا ، كى يفعل ما فعله نيقولاى» . اما فى مسودة الرسالة من جاسبرا فيتنبأ تولستوى بما يلى : اذا لم يقدم نيقولاى على تغيير سياسته وتصرفه فلا بد ان يموت «ميتة غير طبيعية ويخلف وسط الشعب وفى التاريخ ذكرى غير طيبة ومشينة» . وكان الكاتب يصف القيصر فى احاديثه وكتاباته «بالقاتل» و«الجلاد المتخفى» والخلف الجدير بسلالته التى لم تحكم الا عن طريق «تعذيب واذلال الناس» . وتولستوى فى غضون ذلك لا يتنبأ فقط بل ويدعو ايضا قائلا : «يجب ان نقف من القيصر موقفنا من قاتل . فلسنا بحاجة هنا الى قدر كبير من الشفقة» . وعندما وصلت الى ياسنايا بوليانا فى خريف عام ١٩٠٥ الاشاعات التى ذكرت بان نيقولاى الثانى هرب من روسيا فزعا من الثورة (فى الحقيقة انه كان يعد العدة للهرب) قال تولستوى : «لم يعد امامه الا الهرب . فلويس السادس عشر اعدم لقاء ذنوب اقل» .

وصل الخبر الرسمى حول تنفيذ حكم سوفييت الاورال الى هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا فى يوم ١٨ يوليو . وفى مساء ذلك اليوم كان مجلس مفوضى الشعب يعقد جلسته فى الكرملين برئاسة لينين . وكان مفوض الشعب فى الرعاية الصحية سيماشكو يلقى تقريرا حول مشروع نظام جديد للرعاية

* لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ٦ ، ص ٢٦٤ .

الصحية ، عندما دخل سفيردلوف وجلس على كرسى خلف رئيس الجلسة . وبعد ان سنحت الفرصة المناسبة انحنى سفيردلوف نحو لينين وهمس له بشيء . وعندها اعلن لينين قائلا :

– ايها الرفاق ، ان الرفيق سفيردلوف يطلب الكلمة لاذاعة نبأ .

وبنبرته الهادئة كالعادة تكلم سفيردلوف قائلا :

– ارى لزاما ان اعلن ما يلى : وصل من ايكاتيرينبورج خبر حول اعدام القيصر السابق نيقولاى رومانوف هناك ، تنفيذا لقرار سوفييت مقاطعة الاورال . فكما ثبت انه اراد الهرب . وان التشيكيين البيض يتقدمون نحو المدينة . وقد قررت هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لعموم روسيا المنعقدة اليوم ما يلى : الاقرار بصواب قرار وتصرف سوفييت الاورال .

خيم الصمت دقيقة واحدة ، ثم اقترح لينين قائلا :

–لننتقل الى قراءة مشروع قانون الرعاية الصحية ، مادة اثر مادة .

وبدأت قراءة المشروع .

وكانت هذه هى النقطة الاخيرة فى آخر فصل من فصول تاريخ الشرور التى ارتكبت فى روسيا على امتداد ٣٠٠ عام ، تحت راية سلالة رومانوف .

علمنا لينين ان خبرة الثورة الروسية قد برهنت على ان النضال من اجل القضاء على النظام الملكى يرتبط فى روسيا ارتباطا لا ينفصم عن النضال من اجل اعطاء الارض للفلاحين والحرية للشعب بأسره . ومن خلال السير فى هذا الطريق الذى اشار اليه لينين بالذات اعطت الثورة الروسية حلا جذريا بحقه ؛ فهى لم تعمل على «افزاع» النظام الملكى ولا ممثليه من السلالة الحاكمة ، وانما اجتثت هذا واولئك من التربة الروسية مع جذورهم الى الابد .

SIC TRANSIT
GLORIA MUNDI

حكمت سلالة رومانوف روسيا على امتداد ثلاثمائة واربعة اعوام شهدت خلالها اياما زاهرة واخرى عسيرة . وتلألأ تاجها بالماس واسود بدماء الابرياء .

امتد طريقها متعرجا ملتويا من دير ايباتييفسكى فى ضواحى مدينة كوستروما ولغاية دار ايباتييف على احد المنحدرات فى ايكاتيرينبورج .

Sic transit gloria mundi – هكذا يزول المجد الارضى .

محتويات